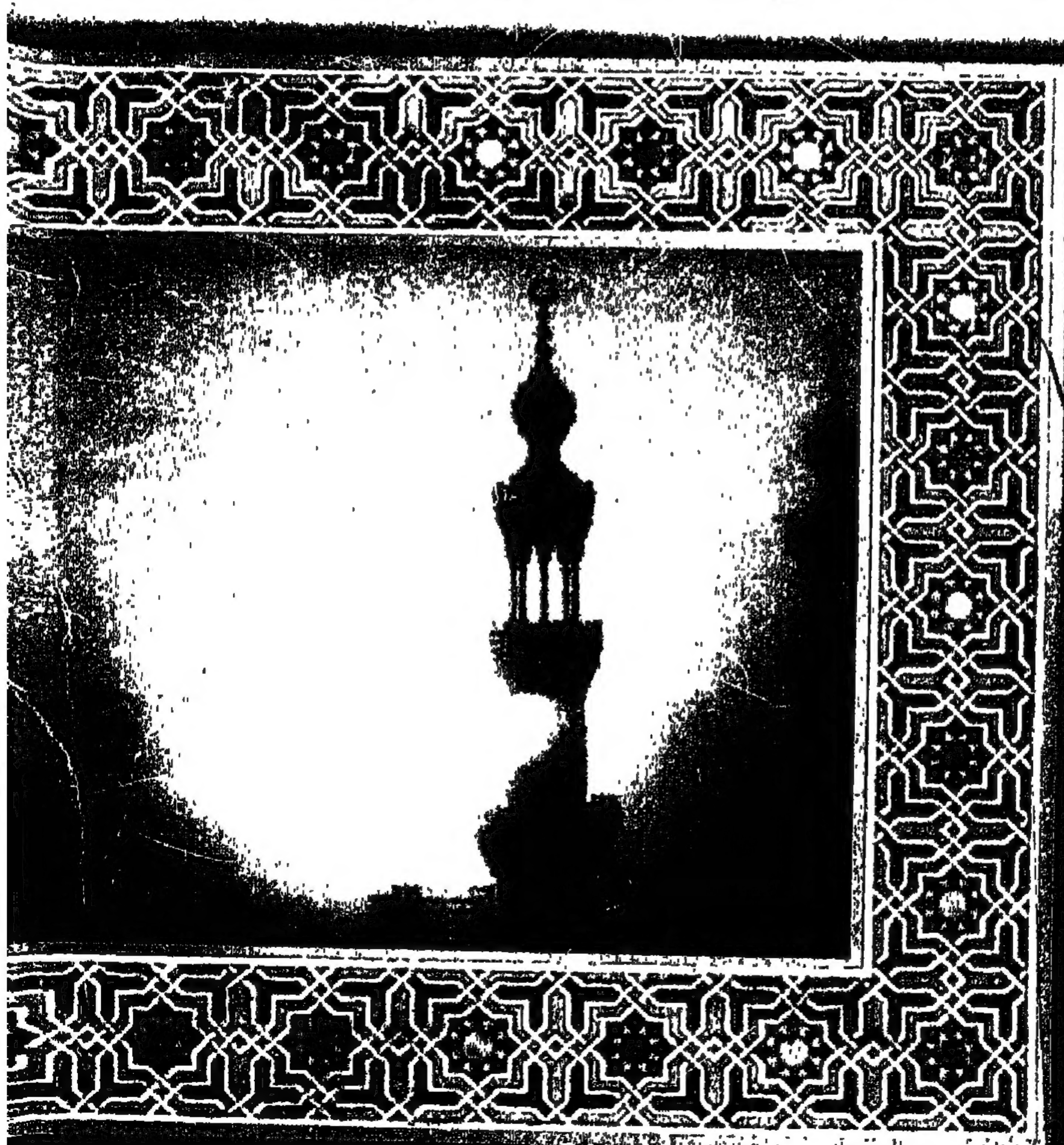


طريق في الإسلام

القرن الأول

الدكتور عبد الصبور شاهين
الأستاذة إصلاح عبد السلام الرفاعي



0127331

ДИПУИКА А

مصر في الإسلام

مصر فى الإسلام

الدكتور
عبد الصبور شاهين

الأستاذة
إصلاح عبد السلام الرفاعى

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبد الله غريب

الكتاب : مصر فى الإسلام
المؤلف : د. عبدالصبور شاهين/ إصلاح عبدالسلام
تاريخ النشر : ٢٠٠٠ م
حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة

النشر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبدالله غريب

شركة مساهمة مصرية
الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون
الدور الأول - شقة ٦
ف : ٣٨٠٣٨٠٤٧٤، ت : ٢٤٦٢٥٦٢

التوزيع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
المطابع : مدينة العاشر من رمضان
المنطقة الصناعية (C1)
ت : ٣٦٢٧٢٧ / ٠١٥

رقم الإيداع : ٨٧٧٦ / ٩٩

الترقيم الدولى : ISBN

8 - 174 - 303 - 977

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

دعوة الإسلام هي الغاية العليا التي ينبغي أن يتغياها كل مؤمن بالإسلام، هكذا أراد الله لنبيه حين أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وهكذا ورث الرسول ﷺ أصحابه عبء هذه الدعوة وألزمهم بها حتى حملوها إلى الدنيا، في فتوحاتهم، لا يدفعهم إلا دافع هذه الدعوة، وقد تجردوا من كل دوافع الحياة؛ كتحقيق السلطان وتحصيل الثروات والبغي في الأرض، وغير ذلك مما ساق الأباطرة والطغاة في التاريخ ليفتحوا البلاد ويذلوا العباد.

أما أهل الإسلام بدءاً بصحابة محمد ﷺ فلم يكن لهم من غاية سوى نشر هذه الدعوة وإدخال الناس في دين الله أفواجا، فإذا فعلوا ذلك عصموا دماءهم وأموالهم (إلا بحقها) وحسابهم على الله.

وكتاب (مصر في الإسلام) - القرن الأول الذي نُقِدمه اليوم آية واضحة على صدق هذا الكلام، فقد حمل الفاتحون الأولون دعوتهم في قلوبهم وجاءوا بهذه القلوب يفتحونها للشعوب، وينيرون بها حياتهم، ويبرزون للناس من أنفسهم القدوة الصالحة الصادقة ليسيروا على هداها، وليتحقق بهم المثل الأعلى في السلام والحرية وفي المساواة والإخاء والعدل المطلق، وكأنما ساقهم القدر هذا المساق لكي يعوض بهم الشعوب المطحونة عما أصابها من ويلات الطغاة المستعمرين من فرس ويونان ورومان، وهو ما يفسر دخول الناس في الإسلام، واعتناق الشعوب للدعوة المحمدية، اعتناقا تلقائيا، لا إكراه معه، ولا إذلال، ولا استعباد، وقد نذكر هنا كلمة عمر بن الخطاب التي صارت مثلاً أعلى للسياسة الإسلامية في الشعوب المفتوحة - عندما قال لعمر بن العاص بمناسبة شكوى رجل مصري من سوء معاملة ابن عمرو له قال: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟

هذه الكلمة لم يعرفها التاريخ ولم تسمعها الدنيا إلا من فم عمر بن الخطاب الخليفة المسلم، وهو يضع بها دستور الحرية المطلقة والتكافؤ المطلق لحماية الشعوب المفتوحة من نزوات الأنفس الجاهلية التي لا تعرف دين الله الحق، وما كان عمر بن الخطاب في كلمته هذه يخترع الحرية اختراعا، أو يأتي بشيء لم

يعرفه غيره من الصحابة؛ بل كانت الحقيقة التي عبر عنها مبدأ مقررًا في نفس كل جندي من جنود الفتح الإسلامي، ولكن فضل عمر هو في صياغة المبدأ على هذا النحو الواضح المعجز.

وما زالت الإنسانية على اختلاف عصورها مقصرة عن تحقيق مبدأ عمر بن الخطاب، الذي التزمه المسلمون في دولة حضارتهم، وانطلقهم بدعوتهم وقد عانت الإنسانية من موجات الاستعمار والاستعباد في عصرنا هذا أشد المعاناة، وذاقت من أهوال التفرقة العنصرية التي هي في الحقيقة تعبير عن رغبة اللون الأبيض في افتراس سائر الألوان واحتقارها - عانت ما تشهد به سجلات التاريخ الحديث وملاحمه، ولو قدر لسلطان الإسلام أن يستمر على هذه الأرض لنعمت الإنسانية بدعوته، ولعاشت في ظلال الأمن والسلام والعدالة الإلهية، ولكنها سنة الله في خلقه أن يدفع بعض الناس ببعض ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً.

نقول هذا ونحن نقدم في نهاية القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين هذا الكتاب عن الفتح الإسلامي في مصر، ودخول مصر في الإسلام، ونحسب أننا بهذا الكتاب نؤدي واجب الدعوة في أعناقنا، ونفتح صفحة مضيئة مشرقة، احتجبت زماناً طويلاً عن رؤية الناس. ونحن نؤمن بأن الهدف الذي توخيناه من تقديم هذا الكتاب ينبغي أن يكون هدفاً لكل كاتب في مجتمع الإسلام، ولكل قارئ في أمة الإسلام، فهو ميراث انتهى إلينا من يد محمد ﷺ عبر الأجيال، ونحن ندفع به من خلال هذا الكتاب إلى أيدي الأجيال القادمة نناشدها أن تتبنى دعوة الإسلام وأن تحرص عليها، وأن تجعلها غايتها المقدسة، من كل عمل تؤديه، أو خير تسديه، أو كتاب تقدمه، أو هدف تسعى إليه، أي أن يكون الله هو الغاية، والقرآن هو الدستور، وألا تخرج عن هذا الإطار أبداً، فهو المثل الأعلى، والمطلب الأسنى، وما عداه من يمين وشمال فهو زيغ وانحراف، ونذكر هنا قولة على رضي الله عنه : (اليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هي الجادة، عليها باقى الكتاب وآثار النبوة، وإليها مصير العاقبة). وصدق على فإن الكتاب هو الدستور الباقي لنا من عطاء أسلافنا، وما علينا إلا أن نحمل هذا الكتاب ونمضي على آثار النبوة مبلغين لدعوة الله، مبينين لآياته، فهذا هو سبيلنا، الذي لا سبيل غيره.

نقول هذا ونحن نستمع كثيراً إلى أصوات منكرة تنسب إلى الإسلام التطرف والعدوان، وتدعى أنه ما انتشر إلا بالسيف، كما أنه يتخذ الآن من سيف الإرهاب وسيلة لبقائه، ولو كان السيف يصلح وسيلة لنشر دعوة؛ فقد حمل أعداء الإسلام من معاصرين كما حمل السابقون عليه من الطغاة والظالمين سيوفهم ليذلولوا أعناق الشعوب، فلم تحقق لهم السيوف شيئاً، ولا أبقت لهم مجداً، ولا أرست لهم دولة، بل كان وجود تلك النظم الباغية قبل الإسلام وبعد الإسلام سراباً يتقشع أمام أضواء الهداية الإسلامية وأنوار النبوة المحمدية، واشعاع العدالة الإلهية في تعاليم الإسلام ودعوته.

ومن الظلم للتاريخ أن تشيع في الناس تلك الدعاوى السخيفة التي ألمحنا إلى مضمونها، وهي لا تعدو أن تكون تشوبها لوجه الحق، وترويجا لدعاوى الباطل.

لقد انتشرت دعوة الإسلام لأنها كانت الخير كله والحق كله والعدل كله، وما زالت دعوة الإسلام هي الأمل في إنقاذ البشرية من طغيان النظام العالمي الواحد القائم على البغى والعدوان، وهو النظام الذي يتفرد الآن بالجبروت، ويفرض أحكامه العسفية على الدول الضعيفة، والشعوب المغلوبة على أمرها، وآخر تمثلياته الهزيلة والاجرامية معاً أقدامه على إخلاء كوسوفو المسلمة من سكانها ليقيم فيها قاعدة عدوانية في البلقان.

إن العالم الآن بحاجة إلى رعييل من الرجال المؤمنين المجاهدين لينقذوه من طغيان النظام العالمي المستبد، كما أنقذ الرعييل الأول من صحابة محمد ﷺ الشعوب المغلوبة تحت وطأة الروم وغيرهم، فأقاموا للناس مملكة العدل، وقاعدة الحرية.

والكتاب الذي بين يدي القارئ الآن يقدم صورة إجمالية لما حدث منذ أربعة عشر قرناً^(١) من الزمان على أرض مصر، وهو ما حدث أيضاً على أرض الشام والعراق وفارس والمغرب، وكل البلاد التي قصدها الإسلام وتوجهت إليها دعوته على أيدي الفاتحين الميامين.

(١) كتبت هذه المقدمة في غرة المحرم سنة ١٤٢٠هـ، وتم فتح مصر كما هو معلوم في غرة المحرم سنة ٢٠هـ فقد مضت فعلاً أربعة عشر قرناً بالتمام والكمال.

مصر في الإسلام

وسيجد القارئ في الكتاب سير الأمراء المسلمين في القرن الأول، وهم يمثلون الدعوة التي يحملونها بين جوانحهم، وسيجد أننا لم نجامل أحداً منهم في تتبع ما له وما عليه، كما سيجد دراسة وافية لكل الصحابة الذين شاركوا في الفتح فمنهم من اختار مصر وطنا له وهم جماعة اختطوا فيها منازلهم، وعاشوا في أرجائها ينشرون الدعوة في أريافها، وقراها، ومنهم من أثر أن يمضي في مسيرة الجهاد غازيا في سبيل الله فاتحاً أرض إفريقية، فشرقوا وغربوا، ومازالت أثارهم المباركة ماثلة في الممالك التي أنشأوها، والشعوب التي قادوها بنور الإسلام، وقد أبقي الله عز وجل ذكر هؤلاء المجاهدين في كل أرض توجهوا إليها، فمازالت قبورهم مزارات يحج إليها المسلمون في بلادهم، وهي شاهدة لهم إلى يوم القيامة، بما بذلوا في جهادهم من أجل الدعوة إلى الله.

وتبقى إشارة لا بد منها أننا اقتصرنا على من شاركوا في معارك الفتح الإسلامي لمصر سواء في حصن بابلين أو في الإسكندرية أو الفرما وبلبيس وعين شمس ومعارك الصعيد حتى وصلوا أرض السودان، فهؤلاء هم الذين عنيانا بتتبع سيرهم فأما الصحابة الذين جاءوا بعد تمام الفتح وعاشوا في أرض مصر فلم نعرض لهم في قليل ولا كثير.

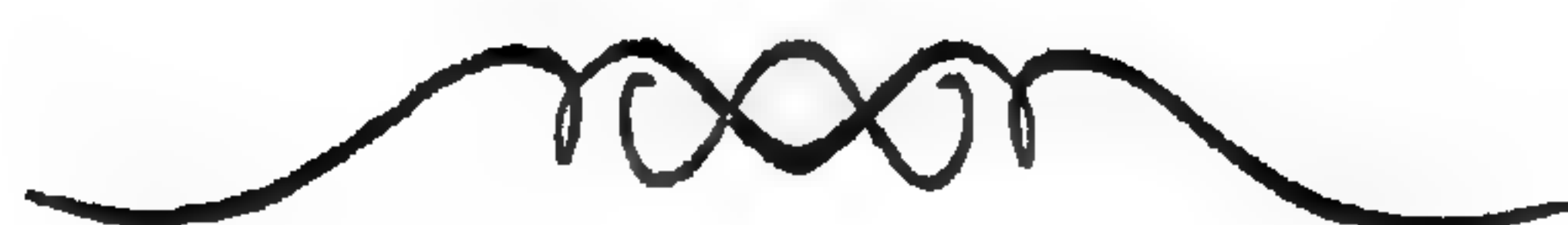
هذا وإنا لندرجو من الله عز وجل أن يجعل هذا الكتاب لسان صدق لدعوته، وإجابة حاسمة على كل ما يثيره العلمانيون والمرجعون من دعاوى كاذبة، وأقوال خاطئة يريدون بها أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره، والله ولي التوفيق.

عبدالصبور شاهين
إصلاح الرفاعي

غرة المحرم سنة ١٤٢٠هـ
١٧ من أبريل سنة ١٩٩٩م

الفصل الأول

الدين في مصر قبل الإسلام



كانت مصر الفرعونية وثنية متعددة الآلهة، حتى دخلتها المسيحية أثناء حكم الرومان الذين استولوا عليها بعد أن هزموا الملكة كليوباترا السابعة عام ٣٠ قبل الميلاد، وكان دخول بعض المصريين في المسيحية سبباً في اضطهادهم من قبل أباطرة روما الوثنيين، قبل أن تصبح المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية بعد أكثر من ثلاثة قرون.

فمثلاً في عهد دقلديانوس (٢٤٥: ٣١٣ للميلاد) قتل وعذب عدداً لا يحصى من القبط، يقول د. حسن إبراهيم: إن عددهم كان عظيماً، وإن الاضطهاد تناول جميع الطبقات، وقد بدأ الاضطهاد بالبلاد المصرية عام ٣٠١ للميلاد، وأظهر فيه دقلديانوس قسوة لا مثيل لها جرّت عليه كراهية المصريين وحنقهم، حتى ظلوا يرون فيه - إلى اليوم - مثلاً للظلم والاستبداد، وصاروا يؤرخون حوادثهم من سنة اعتلائه العرش عام ٢٨٤ للميلاد، ويسمى هذا التاريخ عندهم تاريخ الشهداء^(١).

وعندما جاء (قسطنطين) إمبراطوراً لروما، ودخل النصرانية عام ٣٣٧ للميلاد، جعل الديانة المسيحية هي الديانة الرسمية لكل المصريين، وأجبر بقيتهم على اعتناقها، وترك آلهتهم المتعددة، غير أنه لم يفعل سوى أن استبدل بتعدد الآلهة عند المصريين تعدداً آخر عند المسيحيين.

وجاء بعد قسطنطين أباطرة حذوا حذوه في إكراه هؤلاء المصريين على اعتناق النصرانية، وهي الدين الحق آنذاك - وتنصر أكثر المصريين وأجبروا على نسيان دياناتهم السابقة، فقد حاول أمراؤهم محو كل ما سبق في عبادتهم.

يقول جوستاف لوبون: أمر القيصر تيودور^(٢) في عام ٣٨٩ للميلاد بهدم جميع تماثيل الآلهة المصرية القديمة ومعابدها، وجميع ما يذكر الناس بها، واكتفى بتشويه كتابات المعابد المصرية التي كانت من المئانة بحيث لم يقدر على هدمها بسهولة^(٣).

(١) تاريخ عمرو بن العاص ٥٥.

(٢) أحد أباطرة الرومان اسمه (ثيودوسيوس) من عام ٣٤٦: ٣٩٥ للميلاد، دعا في عهده لمجمع القسطنطينية الثاني.

(٣) حضارة العرب ٢٠٦.

مصر في الإسلام

وأصبحت مصر تدين بالمشيحية، لكن بمذهبين مختلفين: المذهب الملكاني: الذي يدين به حكام روما وأولو الأمر في الإمبراطورية، والمذهب اليعقوبي: الذي تدين به بقية طوائف الشعب المصري، والذي أسسه البطريرق السكندري (ديوسقوروس).

وأصل المذهب الملكاني قولهم بأن الكلمة اتحدت مع جسد المسيح وتدرعت بناسوته، والكلمة هي أقنوم العلم، وروح القدس هو أقنوم الحياة، والمسيح قديم أزلي، وولدت مريم إلهاً أزلياً، والقتل والصلب وقعا على الناسوت واللاهوت، فالله واحد ذو ثلاثة أقانيم هي: الوجود والعلم والحياة.

أما المذهب اليعقوبي فقد قال أصحابه بأن هذه الأقانيم الثلاثة انقلبت لحماً ودماً، فصار الإله هو المسيح بجسده، والمسيح جوهر واحد، ولكنه كان جوهرين، جوهر الإله القديم وجوهر الإنسان المحدث، تركبا كما تركبت النفس والبدن فصارا جوهرأ واحداً، ومريم في رأي اليعاقبة لم تأخذ الكلمة منها شيئاً، كما يقول الشهرستاني: مرت الكلمة في مريم كالماء في الميزاب^(١)

وقد شهد القرنان السادس والسابع للميلاد خلافاً شديداً، وصراعاً متصلاً بين المصريين والرومان من جراء اختلاف المذاهب، فمثلاً في عهد القيصر بوستينوس^(٢) بعث بطركاً إلى الإسكندرية، فجاهر الأهالي بالثورة على مذهبهم، ووقعت صراعات ومعارك دموية.

يقول د. حسن إبراهيم: ...امتألت الشوارع بأشلاء القتلى من الأهالي والجند، وأحرقت عاصمة الإمبراطورية الرومانية الثالثة^(٣).

وزادت حدة الخلاف اشتعالاً في عهد الامبراطور جستنيان (٤٨٣: ٥٦٥ للميلاد) ... يقول بتلر: في الحق لم يكن في بلاد الدولة الرومانية من هو أشقى حالاً من مصر، فقد سعى جستنيان^(٤) ليجبر القبط الذين ليسوا على مذهب

(١) الملل والنحل ٢ / ٥٦.

(٢) المتوفى عام ٥٢٧ للميلاد.

(٣) تاريخ عمرو ٥٧، والعاصمة هي الإسكندرية، والأولى القسطنطينية، والثانية دمشق.

(٤) تولى الإمبراطورية من عام ٥٢٧: ٥٦٥ للميلاد.

الدولة (الأرثوذكسى)^(١) فدخلهم في هذا المذهب، ولكن امرأته تيودورا عملت من جانب آخر فأفسدت بعض سعيه، إذ كانت تعطف على مذهب هؤلاء الأقباط عطفاً ظاهراً، وعاد الكفاح الشديد الذى ثار قديماً بين طائفتى (الملكانية) و(اليعاقبة)، وصار أشد سعيراً.

ولم يعد لقبط مصر هم أكبر منه يملأ قلوبهم، ويملك عليهم آمالهم، فلم يكن عجباً أن يسمع صليل السلاح بين حين وحين فى مدينة الإسكندرية نفسها^(٢).

ولم يكن هذا الخلاف بين الروم والقبط من ناحية الدين والجنس فقط، وإنما كان هناك سبب اقتصادى هام، فقد اعتبر أباطرة روما مصر البقرة الحلوب ورغيف الخبز لكل الإمبراطورية، ولذلك كان هم حكام مصر من قبلهم جمع المال لخزائن بيزنطة، وحاشية إمبراطور بيزنطة، ولم يفكر هؤلاء الحكام فى حال الشعب المسكين الذى يزرع لتأكل روما، ويجوع ليشبع أباطرتها، أما القبط فلا أحد يفكر فى ترقية حالهم، أو إصلاح أمور أرزاقهم، أو توفير الرفاهية لهم، بل هو الضرب بيد من حديد لهذا الشعب المسكين.

قال د. حسن إبراهيم: استولى الرومان على مصر عام ٣٠ قبل الميلاد، فأصبحت كملك خاص للإمبراطورية، وفى عهدهم تحولت العناية إلى الزراعة، فكانت كمخزن غلال روما، نفى بحاجتها من الحبوب، فدرست آثارها، وانحطت درجة العلم التى كانت بها^(٣).

وقال وول ديورانت: كانت مصادر الثروة المعدنية كلها ملكاً للدولة، وكان قطع الرخام، واستخراج الحجارة الكريمة امتيازاً خاصاً للحكومة^(٤).

كانت هذه حال البلاد المصرية بوجه عام، عدا الإسكندرية^(٥) عاصمة الحكم الرومانى، فقد كانت مختلفة عن بقية البلاد، فهى من أشدها مراساً وعنفاً، لكثرة

(١) ينقسم هذا المذهب الآن إلى: أورثوذكسى: وهم الذين لا يعترفون برياسة بابا روما، أما الكاثوليك فيعترفون برياسته.

(٢) فتح العرب لمصر ٣.

(٣) تاريخ عمرو ٥٩.

(٤) قصة الحضارة ١١ / ٩٧.

(٥) مدينة كبيرة على شاطئ البحر الأبيض غربى فرع رشيد، قال بتلر: بناها الإسكندر المقدونى كما أوصاه أستاذه أرسطو، فجعل وراء الأسوار مياه النيل، وجعل لها أبواباً قوية. (فتح العرب لمصر ٦٤).

حصونها، ولوجود أخلاط من أجناس شتى: إغريق وقبط وسوريين ويهود وعرب وغرباء من بلاد شتى، جاء بعضهم لتلقى العلم، وبعضهم للتجارة، وبعضهم للسياحة وغيرها، ولذا كانت الاضطرابات فيها شديدة، والمنازعات دائمة، والخلافات مستعرة، أما عن أحوال المصريين الدينية في السنوات الأخيرة من الحكم الروماني فلا تتوفر أخبار دقيقة عنها.

يقول بتلر: فإذا نحن أردنا أن نعرف تاريخ مصر في مدة الأعوام الثلاثين التي بين ولاية هرقل وبين الفتح العربي، فلا مناص من أن نلجأ على الأكثر إلى ما كتبه رجال الكنيسة، أو ما كتبه رجال لهم ميول دينية قوية تجعلهم غير أمناء في رواياتهم^(١).

وقد وضع صاحب (مختصر تاريخ الأمم) من أين جاءت الأخبار في ذلك الوقت، في قوله: المؤرخان ديودور الصقلي واسترابون وجدا في القرن الأول قبل التاريخ المسيحي ومؤلفاتهما وصلت إلينا، غير أنهما لم يقفا على حقيقة تاريخها بسبب جهلها بلغة أهلها^(٢) وبذلك التزما أن يجمعا ما قصّ عليهما من القصص بدون فحص^(٣).

وعلى كل حال فسوف نستعرض حال مصر من حكم هرقل حتى الفتح الإسلامي، محاولين إلقاء الضوء على الأوضاع الدينية، مع الإشارة إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية، ومع اعترافنا بأننا لا نستطيع أن نقدم صورة دقيقة - كما قلنا - عن تلك الحقبة نظراً إلى الغموض الذي يكتنفها في تاريخ مصر.

ألبس هرقل تاج روما في أكتوبر عام ٦١٠ للميلاد (الموافق عام ١٢ قبل الهجرة)، بعد صراع مع الإمبراطور فوكاس أحد رجال روما الأقوياء، وكان جيش هرقل الأخضر قد انتصر على جيش فوكاس الأزرق بعد أن دارت الحرب بينهما لوقت قصير، ثم قطعت رأس فوكاس، ولف جثمانه في علمه الأزرق، وأشعلت فيه النيران.

(١) فتح العرب لمصر ٤١.

(٢) اللغة القبطية واللغة الهيروغليفية.

(٣) مختصر تاريخ الأمم ٣.

وبعد هذا الانتصار، خرج هرقل لزيارة الأقاليم التي ترفرف عليها راية الرومان، ومنها مصر التي كان أهلها يتعطشون لحكم لا يفرض عليهم غير مذهبهم الديني، لكن للأسف حدث ما لم يكن في حساباتهم، فكان أول عمل قام به هرقل هو تثبيت حاكم مصر المعين من قبل روما، وهو المسمى (نيقياس) أو (قيرس)، أو (المقوقس) كما أطلق عليه العرب، وهو جورج بن مينا، أو جريج كما سماه بعضهم، وقيرس هو اللفظ اليوناني الذي أطلق على حاكم الإسكندرية المدني والديني من قبل قيصر روما (هرقل).

وقد أجمع كتاب التاريخ العرب على أن المقوقس هو الذي صالح عمرًا، وأنه حاكم الإسكندرية ومنفيس -منف-، وأنه عظيم القبط، ولكنهم اختلفوا في هويته وتحديد وظيفته.

قال البلاذري (٨٠٦: ٨٩٢ للميلاد) (١٩١: ٢٧٩ للهجرة): إن المقوقس صالح عمرًا.

وقال الطبري (٨٣٩: ٩٢٣ للميلاد) (٢٢٥: ٣١١ للهجرة): إن المقوقس كان عظيم القبط في منفيس.

وقال سعيد بن البطريق (٨٧٦: ٩٤٠ للميلاد) (٢٦٣: ٣٢٩ للهجرة): إن المقوقس كان ملكانيا ويعقوبيا من الباطن، وكان عاملاً على أموال مصر.

وقال ساويرس الأشمونيني (أوائل القرن العاشر الميلادي): أرسل إلينا هرقل في أرض مصر قيرس ليكون حاكماً وبطريقاً معاً، ثم وصفه بأنه الحاكم الكافر.

وقال ابن الأثير (١١٦٠: ١٢٣٣ للميلاد) (٥٧٠: ٦٣١ للهجرة): إن المقوقس كان يقود الجيش بنفسه في حرب عمرو، في وقعة عين شمس.

وقال أبو صالح المؤرخ المسيحي، حوالي عام ١٢٠٠ للميلاد (٥٩٧ للهجرة): إن محمداً ﷺ بعث حاطباً^(١) إلى المقوقس حاكم الإسكندرية.. وإن هرقل كان قد استعمل على مصر جريج بن مينا المقوقس.

وقال ياقوت (١١٧٨: ١٢٢٨ للميلاد) (٥٧٤: ٦١٩ للهجرة): إن حصن بابليون كان حاكمه المندفور الذي اسمه الأعيرج نائباً عن المقوقس بن قرقب اليوناني، الذي كان يقيم في الإسكندرية.

(١) هو حاطب بن أبي بلتعة.

مصر في الإسلام

وقال مكين عام ١٢٠٥ للميلاد (الموافق عام ٦٠٢ للهجرة): إن عامل هرقل هو المقوقس، وإنه هو وعظماء القبط صالحوا عمراً.

وقال ابن خلدون (١٣٣٢: ١٤٠٦ للميلاد) (٧٣٠: ٨٠٧ للهجرة): إن المقوقس كان قبطياً - أى مصرياً -.

وقال ابن دقماق (١٤٠٧: ؟ للميلاد) (؟: ٨١٠ للهجرة): إن المقوقس الرومي كان عامل هرقل.

وقال المقرئزي (١٣٦٥: ١٤٤١ للميلاد) (٧٦٦: ٨٤٥ للهجرة): المقوقس الرومي كان والياً على مصر، وقد نقل عن ابن عبد الحكم المتوفى عام ٨٧٠ للميلاد (الموافق ٢٥٧ للهجرة).

وقال السيوطي (١٤٤٥: ١٥٠٥ للميلاد) (٨٥٠: ٩١٣ للهجرة): إن الحصن - بابلون - كان يقوده المسمى الأعيرج من قبل المقوقس بن قرقب الرومي^(١).

والخلاصة أن حاكم مصر عند الفتح، وعند بعث رسول الله ﷺ لحاطب قبل ذلك، كان يطلق عليه (المقوقس)، ونحن مع بتلر في اعتماده لقول ساويرس المؤرخ القبطي من أن قيرس هو المقوقس الذي جاء إلى مصر من قبل هرقل، واضطهد القبط اضطهاداً عظيماً، وكان كما قال ساويرس: الحاكم الكافر الذي كان حاكماً وبطريقاً للإسكندرية مدة حكم الروم - أى: عشر سنين.

وقال بتلر أيضاً: إن الأنبا الذي ظهر في أوائل القرن الخامس للميلاد، قال في نبوءة... سيظهر المسيح الدجال، ويمثل بين يدي ملك الروم، فيجمع له ولاية الدين والدنيا، ويحىء إلى مصر، ويناصب فيها كبير الأساقفة العداء.

ويقرر بتلر - أخيراً أن المقوقس هو جورج بن مينا، وأن أحد أبويه كان قبطياً، والآخر رومياً، وكان في خدمة إمبراطور روما، ومذهبه ملكاني، والمقوقس لقبه، وكان رئيس مذهب خلقيدونية^(٢)، وأنه كان حاكم مصر حين أرسل له النبي ﷺ كتابه عام ٦٢٧ للميلاد (الموافق عام ٧ للهجرة).

(١) نقلاً عن ملحق كتاب فتح مصر لبتلر.

(٢) الخلقيدونية هي الملكانية أو المونوثيلية أو المارونية، وقد رأى بعض المؤرخين أن المقوقس كان يعقوبياً على مذهب القبط، ولكن لخوفه من الروم أخفى عقيدته وأظهر المارونية.

ولفظه "المقوقس" معناها: الحمامة المطوقة - في المراجع العربية، أما في المراجع اليونانية فمعناها: قطعة من النقود البرونزية، صغيرة مثقوبة، وقد يكون لقباً أطلق على قيرس على سبيل السخرية، لمراقبته الجزية والضرائب.

ومهما اختلفت الأقوال في أصله وهويته فمن الضروري أن نستعرض ما قام به بعد أن ثبته هرقل في حكم مصر، لقد حاول كسب حب القبط، ليبين لهم الفرق بين فوكاس الإمبراطور السابق، وهرقل الإمبراطور الحالي، فرفع عنهم جباية المال ثلاثة أعوام، وأمل القبط خيراً في هذا الحاكم الجديد، وبدأوا في بناء الكنائس والأديرة، مع تجديد ما تهدم منها أثناء الحرب بين الإمبراطورين، وصار للمطران المصري سلطان ومكانة وأموال، حتى إن كنيسة كانت تملك أسطولاً من السفن التجارية التي تجوب البحار، وخاصة البحر المتوسط (بحر الروم)، وتعمل في تجارة القمح التي كانت رائجة آنذاك بين الإسكندرية والقسطنطينية.

ولم يدم هذا الوضع المسعد للمصريين طويلاً، فقد اتجه كسرى الفرس (بهرام)، حفيد أنوشروان، إلى بلاد الروم غازياً، واكتسح في طريقه بلاد الشام وفلسطين ومصر، في مدة ست سنوات، حاصر خلالها مدينة القدس المنيعه الأسوار، وانتهز اليهود الفرصة، فساعدوا العدو الفارسي المغير على هدم الأسوار، ودخول المدينة، وحدث نفس الشيء عند فتح الفرس لأنطاكية ومصر والإسكندرية، وسبب مؤازرة اليهود للعدو المغير هو عداوتهم للنصارى من زمن المسيح عليه السلام، ثم زاد من تأجيج هذه العداوة ما حدث في العام الأخير لحكم الإمبراطور البيزنطي (فوكاس) الذي أرسل قائده بونوسوس، فأنزل باليهود انتقاماً وبيلاً، اتسم بقسوة تقشعر من وصفها الأبدان، ومررت بضلع سنين، وانقلبت الصورة، فهام أولاء اليهود يردون ما أصابهم من أباطرة الروم، حقداً ونكالا على النصارى في كل من مصر والشام.

قال بتلر: ولما جاء شاهين^(١) (أوساين) في سنة ٦١٥ للميلاد إلى قيصرية في إقليم قيادونية، نزع المسيحيون هاربين، ولكن اليهود استسلموا، وخضعوا للفرس، وخضعت كل بلاد فلسطين في ذلك الوقت لحكم ملك الفرس خضوعاً طائعا، وثار

(١) القائد الفارسي من قبل كسرى.

مصر في الإسلام

الباقون من أبناء العبرانيين بالمسيحيين، ودفعهم حقدهم الموروث إلى أن ينكلوا بالمؤمنين تنكلاً عظيماً، ثم لحقوا بالفرس، ونبتت بينهم مودة عميقة^(١).

وما فعله اليهود بالشام، فعلوه بمصر، عندما دخلها الغازي الفارسي شاهين من قبل كسرى بهرام، وكان دخوله من بوابتها الشرقية، بدءاً بالعريش فالفرما فمفيس (منف)، ثم ركب النيل إلى الإسكندرية ذات الحصون القوية، التي وقفت شامخة أمام جحافل الفرس، منذ قرابة مائة^(٢) عام، فلم يستطيعوا عبورها واقتحامها، ولكنهم في هذه المرة دخلوها بعد أن عملت الخيانة على وقوعها في يد الغزاة، فقد أشارت أصابع الاتهام إلى شاب جاء إلى مصر وإلى الإسكندرية بالذات من البحرين، طلباً للعلم، يقال له بطرس البحريني، وكانت البحرين يسكنها اليهود والفرس.

يقول بتلر: ولعل بطرس البحريني كان يهودياً، ولعله كان أداة خطة مكر بها اليهود للكيد لأعدائهم^(٣).

وخلاصة القول أن اليهود دللوا بتصرفاتهم هذه على أنهم كانوا يمقتون النصارى مقتاً شديداً لا يحويه من قلوبهم هذا الخطر الفارسي الداهم، فإذا كانت المصائب توحد الناس، فإن اليهود صنف آخر غير سائر الناس.



(١) فتح العرب لمصر (هامش ٥٤).

(٢) عندما دخل قمبر مصر سنة ٥٢٥ ق.م وأخذ بسماتيك الفرعون أسيراً، وقتل العجل أبيس وخرّب المعابد والهيكل.

(٣) فتح العرب لمصر ٦٥.

الإسكندرية تحت الحكم الفارسي

سقطت الإسكندرية في يد الفرس، وبعث القائد الفارسي مفاتيح المدينة وكنوز الكنائس والأديرة^(١) إلى كسرى في أوائل عام ٦١٨ للميلاد (الموافق العام الأول للهجرة)، وفر حاكمها المقوقس إلى القسطنطينية.

وقد أكد المقرئزي إلصاق تهمة تواطؤ اليهود مع الفرس حتى تم لهم النصر، قال ...: وأتى الفرس^(٢) إلى مصر في طلب النصارى، فقتلوا منهم أمة كبيرة، وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر، وساعدهم اليهود في محاربة النصارى، وتخريب كنائسهم.^(٣)

وقال المؤرخ قيورنيوس : اشترى اليهود كثيراً من أسرى النصارى - وكان عددهم حوالي خمسة وثلاثين ألفاً - ليمتعوا أنفسهم بقتلهم.. إن كل هذا لم يحدث في سنة ولا شهر، بل في بضعة أيام.^(٤)

وكانت طريقة الفرس في قضائهم على القبط النصارى هي أنهم يتجهون رأساً إلى الأديرة والكنائس، ويقتلون من فيها من الرهبان، ويأخذون ما تصل إليه أيديهم، وهذا أحد القديسين في القرن الخامس الميلادي، وهو الأنبا شنودة المتوفى عام ٤٥١ للميلاد يتنبأ بما حدث للمصريين على يد الفرس قبل مجيئهم بأكثر من قرن ونصف، يقول في نبوءته : سيأتي الفرس إلى مصر، يسفكون فيها الدماء، ويسلبون أموال المصريين، ويسبون أبناءهم، يبيعونهم بالذهب، فإنهم قوم ظالمون معتدون، وستنزل المصائب على أيديهم بمصر، يغصبون الكنائس ما بها من آنية مقدسة، ويشربون الخمر في المحراب، لا يبالون، ويهتكون أعراض النساء على مرأى من رجالهن، وسيبلغ الشر أعظمه، والشقاء قصاره، وسيهلك ثلث من يبقى

(١) ذكر الورخون أنه كان بالإسكندرية وحدها ٦٠٠ دير.

(٢) حدد بتلر بعض التواريخ بعد استعراضه للحوادث التي وقعت فيها، قال : فتح الفرس بيت المقدس آخر مايو عام ٦١٥ للميلاد، سار الفرس إلى مصر في خريف عام ٦١٦ للميلاد، فتح الفرس حصن بابليون في ربيع عام ٦١٧ للميلاد، فتح الفرس الإسكندرية آخر عام ٦١٧ للميلاد، اخضاع مصر كلها للفرس في عام ٦١٨ للميلاد. (فتح العرب لمصر ٤٣٩).

(٣) خطط المقرئزي ١ / ٣٩٢.

(٤) فتح العرب لمصر ٥٥.

مصر في الإسلام

من الناس في بؤس وعذاب، وسيبقى الفرس في مصر حيناً من الدهر، ثم يخرجون منها^(١).

وقد علق أحد البطارقة على هذا الغزو بأنه عقاب من الله، قال: لقد خذلنا الله لما نقترفه من الذنوب، وسلط علينا من الأمم من لا يرحمنا. وهو قول أشبه بما جاء في الأثر: (إذا نسيني من يعرفني، سلطت عليه من لا يعرفني).

والخير الوحيد الذي عاد على النصارى جراء الغزو الفارسي هو: توحيد الكنيستين القبطية والشامية، فصار مركزهما الإسكندرية، وكان ذلك نتيجة لهروب كثير من قسوس الشام ومطارنتها وبطاركتها إلى الإسكندرية؛ للاحتماء بها^(٢).

وأفاق الامبراطور هرقل، فوجد الفرس قد استولوا على مملكته كلها تقريباً، ففكر في استرضائهم، والتزلف إليهم؛ ليتركوا بلاده، وبعث لهم بالرسول تلو الرسل يحملون الهدايا والتحف، ولكن رد كسرى دائماً كان رد المنتصر الغالب المتجبر القادر، رداً فيه صد واستعلاء وصلف، حتى كانت آخر رسالة من كسرى رداً على استرحام قيصر واستجدائه فيها إشارة دينية بأن يترك هرقل النصرانية إلى المجوسية، وقال لرسول قيصر: قل لمولاك، إن دولة الروم من أرضي، وما هو إلا عاص ثائر، وعبد أبق، ولن أمنحه سلاماً حتى يترك عبادة الصليب، ويعبد الشمس.

وشعر هرقل بالمهانة، وأحس بالصغار، وتأكد أن باقى ملكه المتمثل في القسطنطينية وما حولها - صار في خطر، فقرر حلاً أخيراً، هو: مناجزة الفرس، والتصدى لكسرى وجبروته، وجهاز الجيش، وأخذ يحبس النصارى من روم وشوام ويونان على صد هذا السيل الغريم من الفرس المجوس.

ولم تمض سنوات تسع على وجود الفرس، حتى خرج هرقل بجيشه المتحمس عام ٦٢٢ للميلاد في غارات متتالية على جحافل الفرس، ومعارك ضروس وصلت إلى حدود بلاد فارس، وانتصر هرقل على كسرى بعد حرب استمرت ست سنوات، قضى فيها على الغزو الفارسي.

(١) فتح العرب لمصر ٧٩.

(٢) وما زالت الحال على ما كانت عليه في ذلك العهد، فإن كنيسة الإسكندرية جامعة حتى الآن لكل كنائس الشرق.

وفي سبتمبر عام ٦٢٨ للميلاد أعاد الصليب المقدس من بابل إلى القسطنطينية، وفي العام التالي -عام ٦٢٩ للميلاد- أعاده إلى بيت المقدس في حفل مهيب، وكان هذا قمة الانتصار.

وقد وردت قصة هذا الصراع كله في القرآن الكريم في مطلع سورة الروم، قال تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ^(١) سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٢-٥]

وقبل أن نسير مع هرقل في انتصاراته على الفرس - نستعرض رأياً لبتلر أظهر فيه بعض عجائب التاريخ وعبره، فقد قارن بين النبي محمد ﷺ وهرقل مقارنة لطيفة، قال: وقد اتفق عندما بدأ هرقل عهد ولايته أمر الإمبراطورية، أن بدأ محمد ﷺ دعوته، وأخذ في نشرها، وذلك عام ٦١٠ للميلاد^(٢) (الموافق عام ١٢ قبل الهجرة)، وقد كان مقدوراً أن تكون دعوة النبي أكبر ما يصدم هرقل، ويهدم ما بناه، وقد لاقى كل من هذين العظميين في أول حياته تخذيلاً عظيماً، وأخطاراً جمة صحبته نحواً من اثنتي عشرة سنة، ثم خرج كل منهما من هذه المحن وقد قويت نفسه، واستعدت للعمل العظيم الذي كانت مقبلة عليه، في عام ٦٢٢ للميلاد سار هرقل في سريته إلى قليقليا، فضرب أول ضربة في سبيل استنقاذ الصليب المقدس، وإعادته إلى الدولة الرومانية من الفرس، وفي هذه السنة^(٣) عينها هاجر النبي من مكة إلى المدينة، وبدأ بذلك عهد الجهاد في سبيل تخليص بيت الله الحرام، وفتح بلاد العرب لدعوة الإسلام، فكان هذا الحدث مبدأ التاريخ الإسلامي أبد الدهر...

وكان النبي يرقب بلهف حوادث القتال الطويل بين الفرس والروم، وكان قد ألمه نصر الفرس في مبدأ الأمر في عامي ٦١٤ و ٦١٥ للميلاد؛ لأن ذلك كان انتصاراً لعبدة الأوثان على قوم من أهل الكتاب، فلما رجع النصر إلى الروم - وما

(١) البضع : كناية عدد من ثلاثة لتسعة.

(٢) ولد النبي ﷺ عام ٥٧٠ للميلاد يوم ١٠ من أبريل، الموافق ١٢ من ربيع أول، على الأشهر، وبدأ في دعوته للإسلام في عام ٦١٠ للميلاد. أما هرقل فقد ولد حوالي عام ٥٧٣ للميلاد، والبس تاج الإمبراطورية في أكتوبر عام ٦١٠ للميلاد.

(٣) كانت الهجرة في ٢٢ سبتمبر عام ٦٢٢ للميلاد.

أعجب ذلك - واستطاع هرقل أن يمحى سلطان الفرس بعد حرب ضروس استمرت ست سنوات، بعث ذلك في النبي آمالاً كبيرة لغزو الطائفتين والتغلب عليهما، وقد تضعضت قوة الغالب منهما والمغلوب، ورأى أن الله قد مهد بذلك للإسلام طريق النصر والفتح.^(١)

لا بد أن نلاحظ هنا أن النبي ﷺ قد أعلم أصحابه في تلك الفترة أو زهاءها بأن مراكز السلطة في كلتا الدولتين سوف تسقط في أيدي المسلمين، وإلا فكيف نفسر إخباره صلى الله عليه وسلم بفتح القسطنطينية، وإخباره بفتح مصر، وإخباره بسقوط فارس، هذا في الوقت الذي لم يكن للمسلمين دولة عظيمة، ولا جيش جرار، بل كانوا محاصرين في المدينة يهاجمهم المشركون، ويتآمر عليهم اليهود، وما ذلك إلا لأن النبي ﷺ كان يقرأ أخبار المستقبل من كتاب الغيب الإلهي، وقد تحقق كل ما أخبر به على تفاوت السنين، وفارس وملكها آل إلى الفاتحين حملة الإسلام وكذلك مصر والشام والعراق، وتأخر فتح القسطنطينية تسعة قرون إلى أن تحققت نبوءة رسول الله ﷺ بسقوطها في أيدي المسلمين بقيادة البطل السلطان (محمد الفاتح) عام ١٤٥٣ للميلاد (الموافق ٨٧٩ للهجرة).

وعود إلى الإمبراطور هرقل، فبعد انتصاره على الفرس فكر أول ما فكر في تنظيم الدولة المترامية الأطراف، ثم في توحيد الكنيسة المصرية، وبعث المقوقس في خريف عام ٦٣١ للميلاد رئيساً لأساقفة الإسكندرية، ثم رئيساً عاماً - كما عرفنا من قبل - أي: رئيساً دينياً ومدنياً، وأمره أن يوحد المذاهب في مصر، ويجعل المذهب الامبراطوري^(٢) هو السائد.

وكان أول عمل قام به المقوقس بعد عودته إلى مصر هو تشكيل مجمع في الإسكندرية^(٣) الهدف منه توحيد المذاهب، ولكن هذا المجمع فشل فشلاً ذريعاً، وبعد شهرين على الأكثر من سقوط هذه المحاولة عاد المقوقس لسيرته الأولى في اضطهاد رؤوس المذهب القبطي المعارض - اليعقوبي^(٤) -، ولم ينج من هذا

(١) فتح العرب لمصر ١٢٤.

(٢) هو المذهب المونوثيلي أو الملكاني أو الماروني أو الخلقيدوني.

(٣) قال بئر: إن أكبر الظن أن مجمع الإسكندرية كان في أكتوبر عام ٦٣١ للميلاد.

(٤) مؤسس المذهب اليعقوبي بطرك سكندري اسمه (ديوسقوروس).

مصر في الإسلام

الاضطهاد أحد من البطارقة، حتى رئيسهم البطرك بنيامين الذي كان معقد آمال المصريين، والقريب إلى نفوسهم، وموضع إجلالهم واحترامهم - هذا البطرك لما وجد المقوقس مصراً على القضاء على مذهبه اليعقوبي بالقضاء على رؤسائه، لم يجد بداً من الفرار، ولكنه قبل مغادرته الكنيسة السكندرية، ألقى في قساوسته ورعيته خطاباً، يحضهم فيه على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافيهم الموت، ثم رحل إلى وادي النطرون، ومنه إلى صعيد مصر في (قوص)، ولاذ هناك بدير مختفياً، حتى ظهر الإسلام، ودعاه عمرو بن العاص إلى العودة مرة أخرى.

أما المقوقس فكانت طريقته في اضطهاد النصارى الجلد والتعذيب والسجن حتى الموت.

قال بتلر نقلاً عن ساويرس: لقد كانت هذه السنون هي المدة التي حكم فيها هرقل والمقوقس بلاد مصر، وقد فتن في أثنائها كثير من الناس لما نالهم من العسف والاضطهاد والظلم، ومن شدة العذاب الذي يوقعه هرقل بهم لكي يحولهم راغمين عن مذهبهم إلى مذهب خلقيدونية، فكان يعذب بعضهم ويعد آخرين أحسن الجزاء، ويمكر بالبعض ويخدعهم^(١).

والعجيب أن هذا التعذيب لم يترك أحداً، حتى أخا بنيامين المسمى (ميناً) لم ينج من اضطهاد هرقل والمقوقس.

يقول بتلر: وكذلك عذبوا أخا بنيامين، وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه، فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جانبيه على الأرض، ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه، فخلعت أسنانه، ثم وضع في كيس مملوء من الرمل، وحمل في البحر، حتى صار على قيد سبع غلوات^(٢) من الشاطئ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما أقره مجلس خلقيدونية، ففعلوا ذلك ثلاثاً، وهو يرفض في كل مرة، فرموا به في البحر، فمات غرقاً.

قال الكاتب الذي ترجم حياة بنيامين: ولكنهم بفعلهم هذا لم يقهروا مينا، الذي مات شهيداً، بل قد غلبهم هو بصبر الإيمان المسيحي^(٣).

(١) فتح العرب لمصر ١٦٣.

(٢) الغلوات : جمع غلوة، وهي : مقدار رمية للسهم، وهي ثلاثمائة إلى أربعمائة ذراع. (المعجم الوسيط) - الذراع ٧٠ سنتيمتراً.

(٣) فتح العرب لمصر ١٦٣.

وهناك قصة لقديس آخر هو الراهب صمويل القلموني^(١)، وقد كتبت ترجمته في حياة المقوقس، تقول القصة كما نشرها أميلنو، وذكرها بتلر: جاء قيرس إلى الدير، فوجده خلاء ممن فيه إلا من خازنه، فقبض عليه وجلده، وأخذ يسأله، فقال الخازن: لقد جمع صمويل الزاهد رهبان الدير، وخطب فيهم فأطال، ووصفك بالكفر، وبأنك يهودي من أتباع خلقيدونية، ولا تؤمن بالله، وبأنك لست أهلاً لأن تقيم الصلاة، ولا أن يعاملك المؤمنون، فلما سمع الرهبان قوله هذا هربوا قبل مقدمك، فلما سمع الكافر الفاسق ما قاله الخازن، ثار ثأثره، وعض شفتيه من الغيظ، وسب الخازن والدير والرهبان ومضى، قال كاتب الترجمة: ولم يعد للدير بعد ذلك إلى يومنا هذا.

فلما ذهب رجع الإخوان إلى ديرهم آمنين، أما المقوقس ذلك البطريق الدعى، فقد ذهب إلى الفيوم، والغيط يأكل قلبه، ودعا هناك أصحابه وأتباعه وأمرهم أن يأتوا له بالعبد الآبق صمويل مكتوف اليدين من خلاف، وأن يضعوا في عنقه طوقاً من الحديد، وأن يدفعوا به كما يدفع اللصوص، فذهبوا إلى الدير الذي كان فيه، وقبضوا عليه.

وذهب صمويل مستبشراً في صحبة الله، وهو يقول: سأمنح إن شاء الله اليوم الشهادة بأن يسفك دمي في سبيل المسيح، فلما رأى المقوقس ذلك الولي، أمر جنده أن يضربوه حتى سال دمه كما يسيل الماء، ثم قال له: صمويل، أيها الزاهد الشقي، من ذا أقامك رئيساً للدير، وأمرك أن تعلم الرهبان أن يسبونى ومذهبي؟، فقال له العابد الأب صمويل: إن البر في طاعة الله وطاعة وليه البطريق بنيامين، وليس في طاعتك، والدخول في مذهبك الشيطاني، يا سلالة الطاغوت، ويأيها المسيح الدجال.... ولما سمع المقوقس ذلك امتلأ قلبه بالغيط على ذلك الولي، وأوماً إلى الجنود أن يقتلوه....

وقد جاء مثل هذا الخبر في الترجمة الأثيوبية لحياة الأب صمويل، جاء فيها ذكر رجل اسمه (مكسيانوس) وأنع أتى إلى دير صمويل في الصحراء، ومعه مائتا جندي، وأنه أعطاه كتاباً يؤمر فيه بالإيمان بمذهب خلقيدونية، فمزقه صمويل

(١) توفي صمويل عام ٦٣٩ للميلاد، وقلمون: التي نسب إليها، وفيها ديرته تقع جنوب غربى مدينة الفيوم.

ورمى به من باب الكنيسة، وهو يقول: ليس لنا رئيس إلا بنيامين، ولعنة الله على مجمع خلقيدونية، وكل من آمن بها وأقرها. فضرب صمويل حتى ظن أنه مات...

وجاء في مصدر آخر: لما أتت الأنبياء إلى المقوقس عن طريقة معاملته للكتاب، دبر له مكيدة، وقبض عليه، وضربه ضرباً شديداً، وقال له: اعترف أن مجلس خلقيدونية على الحق حتى أطلق سراحك..^(١)

وقد استمر هذا الاضطهاد للنصارى قرابة عشر سنين مما جعل بعض الأساقفة يدخلون في المذهب الحاكم، أو يهربون إلى الصحراء، كما فعل رئيسهم بنيامين، أو يخادعون الروم، ويظهرون مذهبهم الملكاني، ويخفون المذهب الذي يدينون به، ولا يحيدون عنه، وكان من جراء كراهيتهم للمقوقس محاولة بعضهم قتله عدة مرات، ولكنها باءت جميعاً بالفشل، وعاش المقوقس حتى دخل الإسلام مصر، وتوفي عام ٦٤٢ للميلاد^(٢)، وهو على دينه.

وكما كانت الحرب بين الروم والفرس في العقدين السابقين لدخول الإسلام - تمهيداً للفتح الإسلامي وانتشاره في كل من مصر والشام، كان سيف المقوقس الذي سلطه على رقاب نصارى مصر بأمر من هرقل لتوحيد المذهب الدينى - كان تمهيداً آخر لدخول أهل مصر في دين الله أفواجاً، فقد كان اسم هرقل وواليه مفزعاً للقبط، كريهاً عندهم، وكان هذا السيف نفسه هو الذى قطع أواصر الود والولاء بين الإمبراطورية الرومانية وقبط مصر.

يقول بتلر: وذلك لكثرة ما لاقوه في مدة السنوات العشر من الظلم الذى نزل بهم إلى حضيض الشقاء لا أمل معه، فرأوا مجئ المسلمين نازلة أرسلها الله لينتقم من ظالمهم.. فقد ظن هرقل أنه يستطيع بكلمة سحر يقولها أن يهدئ العواصف، ويحسم الخلاف فى المذاهب، فوجد أنه قد زاد العاصفة شدة.. فعزم على أن يسعى للإسلام بخوض حرب دينية فى مصر والشام، فكان عمله هذا يمهد السبيل فى القطرين لمطلع جنود الإسلام^(٣).

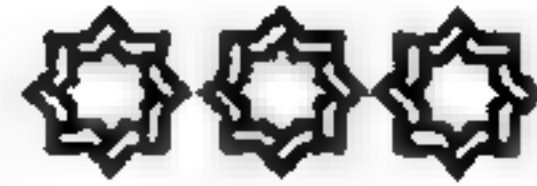
(١) فتح العرب لمصر ١٦٦.

(٢) بعد فتح مصر بعامين.

(٣) فتح العرب لمصر ١٧١.

ويقول كاتب معاصر هو الدكتور غالى شكرى: إن الأقباط عاشوا في العصور الإسلامية المختلفة... مما يبرهن أن الإسلام قد حافظ في النهاية على الوجود القبطي ضمن النسيج المصرى العام، وهو أمر كان من شأنه إغناء مكونات الوطنية المصرية^(١).

إذن فقد كان ظلم الرومان لشعب مصر كفيلاً بعزل الشعب عن مواجهة المسلمين كما سنرى فيما بعد، فلم يتصدوا للقادمين بقيادة عمرو بن العاص، وذلك فى رأينا يعتبر نجاحاً للجيش المسلم إلى منتصف الطريق، وبقي على الفاتحين أن يكملوا الطريق إلى قلوب الناس بالتزامهم بشرع الله، وإحسانهم إلى شعب مصر، واحترامهم لعقيدته، وحفاظهم على الأنفس والأموال والتقاليد الاجتماعية، فدخل المصريون فى دين الله بقلب مفتوح وإرادة طيبة.



(١) الأقباط في وطن متغير ٨.

العرب في مصر قبل الفتح الإسلامي

كانت مصر معروفة لعرب الجزيرة من عدنانيين وقحطانيين بثرائها الواسع، وخصوبة أرضها، وغنى أهلها^(١)، وكان لهذه المعرفة بأرض مصر مصدران:

المصدر الأول : العرب الذين زاروا مصر بغرض التجارة، فقد كانوا يروحون ويجيئون صيفاً إلى الشام وما جاورها، وشتاءً إلى اليمن وما وراءها، يحملون بضائع الجنوب إلى الشمال، والعكس بالعكس، لقد كانوا حلقة الاتصال بين الهند واليمن من ناحية، والشام ومصر من ناحية أخرى، وهو ما سجله القرآن الكريم في قوله في سورة قريش: ﴿لَا يَلَابِثُ قُرَيْشٌ إِيْلَاهُمْ رَحْلَةً الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١-٤] **والمصدر الثاني:** العرب الذين هاجروا إلى مصر، وآثروا الحياة فيها، والمعيشة وسط أهلها.

وبدراستنا للهجرات العربية إلى وادي النيل نجد أنها متعددة، وأن السبب الأول والأخير في تعدد هذه الهجرات هو: السبب الاقتصادي، فالثروة والغنى في مصر، والفقر والجذب في الجزيرة العربية، وهذا ما دفع حكام مصر من فراعين ورومان وفرس ويونان إلى إقامة القلاع والحصون القوية المتتابعة على حدود الدلتا الشرقية.

يقول عباس عمار: كان برزخ السويس يسمى قديماً (شور) وهو لفظ سامي معناه: (سور) ويعنى غالباً منطقة الحواجز المنيعة من القلاع التي بناها الفراعنة عبر خليج السويس^(٢).

ولو تتبعنا الهجرات العربية إلى مصر، فسوف نجد أن من بينها هجرات تمت بعد حروب ومنازعات، وهجرات أخرى سلمية، كان المهاجرون يستأذنون

(١) علق جوستاف لوبون على علاقة العرب بمصر على اعتبارها جزءاً من أفريقيا، قال: كانت صلات العرب بأفريقية على جانب عظيم من الأهمية، وكان العرب يعرفون جيداً أصقاع أفريقية الوسطى التي يصل إليها روادنا في الوقت الحاضر بشق الأنفس، فيعد كل ارتياد لها حادثاً مهماً في أوربة. (حضارة العرب ٥٥٦).

(٢) المدخل الشرقي لمصر ٩٢.

حاكم مصر في الدخول إلى أرضها، ولا يسمح لهم بالعيش في ربوعها إلا بعد موافقته.

يقول عباس عمار: ومثل تلك الهجرات السلمية البسيطة كانت تحدث باستمرار أيام قوة مصر وهيبة حكامها... ويعطى ماسبيرو^(١) مثلاً لهذا صورة من مقابر بنى حسن، تمثل عدداً من هؤلاء البدو يقدمون لفرعون مصر القرايين؛ ليسمح لهم بالسكنى في وادى النيل^(٢).

ويلخص الأستاذ مبروك نافع تاريخ الهجرات السلمية قائلاً:.. إذا زاد عدد السكان زيادة لا تحتملها قدرة الأرض على إعالتهم ينبعث الناس في هجرات على شكل تقاطر تدريجى، كما هى الحال فى الهجرات فى أيامنا هذه إلى البلاد المجاورة... وكانت الفترة بين الموجة الهجرية والتي تليها نحو ألف سنة، ويحددون منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، بدءاً لتلك الهجرات التي حفظها لنا التاريخ، والتي لا بد أن تكون قد حدثت قبلها هجرات قبل عصر التاريخ: ففي عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد تقريباً حدثت هجرة سامية إلى الشمال الشرقى إلى وادى الفرات الأدنى، حيث بلاد بابل، وفي نفس الوقت تقريباً تحركت هجرة سامية أخرى إلى الشمال الغربى حيث بلاد مصر. وحوالى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد تحركت هجرة سامية أخرى إلى الشمال، وهى التى أحلت معها العموريين والكنعانيين والفينيقيين فى بلاد سورية وسواحل البحر الأبيض.

وحوالى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد تحركت هجرة إلى بلاد فلسطين.. وهى التى حملت معها الآراميين فى الأولى، والعبرانيين فى الثانية.

وفى عام ٥٠٠ قبل الميلاد كانت هجرة الأنباط إلى الشمال الشرقى من شبه جزيرة سيناء، وعاصمتهم بطرة أو (البتراء)^(٣).

(١) هو جاستون ماسبيرو (١٨٤٦ - ١٩١٦ للميلاد)، عالم آثار فرنسى متخصص فى الآثار الفرعونية، اختير مديراً لمصلحة الآثار المصرية أكثر من مرة، له مؤلفات فى الحضارة والتاريخ.

(٢) المدخل الشرقى لمصر ٩٠.

(٣) عصر ما قبل الإسلام ١٥.

أما الهجرات العنيفة التي تمت بعد حروب ومنازعات على وادي النيل فتتمثل في هجرتين.

أولاهما: هجرة أخذت صورة الغارة والغزو، وهي هجرة الهكسوس، حيث رحل هؤلاء البدو هرباً من المناطق المجدية إلى مناطق الخصب والنماء حيث النيل العظيم، وواديه المفعم بالخير، وانتشروا داخل مصر الشمالية، وانتقلت حياتهم بعد ذلك بشكل تدريجي من حالة البداوة إلى حالة الزراعة شأن سكان البلاد الأصليين.

وقد اختلف المؤرخون في كون الهكسوس عرباً أو غير عرب، وقد قال بعروبتهم بعض المؤرخين، ولكن بعض الدراسات لم تؤيد هذا القول تأييداً تاماً، مع أن لفظ الهكسوس معناه (ملوك الرعاة)، وقد شرح بعض المؤرخين لفظ (هكسوس)، قال: هي تعبير مصري قديم، حرفه اليونانيون، ومعناه الأصلي (حاكم الأراضي)^(١).

أما تفصيل هذه الموجة الذي ذكره د. عبد المجيد عابدين، نقلاً عن د. حسين مؤنس، فهو:.. ومن الجائز أن يكونوا خليطاً من سلالات سامية وغير سامية، اندفعت من مكان أو أمكنة بعيدة، وتقدمت بجموعها المختلطة للإغارة على مصر السفلى، فعبرت طريق سيناء لكونه الطريق الميسور الوحيد للعبور في هذه المنطقة، ويبدو أن الأبحاث الحديثة تميل إلى الربط بين دخول هؤلاء الرعاة مصر، وبين هجرة قبائل مغولية من قلب آسيا نحو الغرب، حيث تدافعت الشعوب التي كانت تسكن هضاب إيران وبلاد الرافدين ونواحي سورية غرباً وغرباً، مما أدى إلى الضغط على رعاة بوادي الشام، فنزلوا شبه جزيرة سيناء، وصحراء مصر الشرقية وأرض الدلتا، وكانت مصر إذ ذاك في فترة ضعف داخلي في نهاية الأسرة الثالثة عشرة^(٢)، ومما يدل على أن هؤلاء الرعاة قد تأثروا بالهجرات المغولية أن ما استخدمه الهكسوس من الخيل والعجلات كان من مؤثرات مغولية^(٣).

(١) تاريخ مصر من أقدم العصور ١٤١ .

(٢) حوالى عام ١٧٣٠ قبل الميلاد .

(٣) البيان والإعراب ٧٩ .

والهجرة الثانية: وكان لها الأثر في المنطقة التي يطلق عليها الشرق الأدنى، وهي هجرة وقعت قبل ميلاد المسيح، وهي هجرة الأنباط، أو عرب البادية الإسماعيلية، وكان مكان دولتهم ما بين سورية شمالاً وبلاد العرب جنوباً، وبين الفرات شرقاً والبحر الأحمر غرباً، وكانت عاصمتهم البتراء التي تقع في جنوب بلاد الأردن بين رأس خليج العقبة والبحر الميت.

يقول مبروك نافع شارحاً موقف الهجرة النبطية: ... وكانت تهيمن على طرق القوافل الممتدة منها إلى غزة في الغرب، وإلى بصرى ودمشق في الشمال، وإلى أيلة العقبة في الجنوب.^(١)

وقد قوى وجود الأنباط في مهجرهم الجديد، وصارت لهم دولة قوية منيعة يخشاها كل اليهود والرومان وبقية بلاد الشام.

يقول عباس عمار: ومن الطبيعي أن يدرك الأنباط عظمة الأهمية التجارية القديمة لموقع سيناء، وأن يحرصوا على أن يكونوا سادة على الطرق التجارية المتفرعة من البتراء إلى دمشق، وإلى رينوكولورا - العريش حالياً - حتى يضمنوا الزعامة التجارية في تلك المنطقة، تلك الزعامة التي احتفظوا بها لعدة قرون، وكان طبيعياً أن يمتد نفوذهم لضمان هذه الطرق إلى معظم جهات سيناء.^(٢)

وقد تغلغل هؤلاء النبط في مصر، فقد أثبتت الأبحاث الأثرية وجود نقوش نبطية شرقي الفرما^(٣)، وفي أماكن متفرقة في الصحراء الشرقية، وعلى الجانب الغربي من البحر الأحمر حتى صعيد مصر.

وهناك في البتراء بالأردن آثار مازالت قائمة تجذب عدداً كبيراً من السياح، كما قال مبروك نافع.^(٤)

ومن القبائل العربية التي نزحت إلى مصر قبل ظهور الإسلام عقب من أعقاب قبيلة سبأ، وهم أبناء قبيلة قضاة، وأغلب الروايات تفيد بأن قضاة تنسب

(١) عصر ما قبل الإسلام ١٠٧ .

(٢) المدخل الشرقي لمصر ٩٥ .

(٣) مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، بالقرب من بورسعيد الحالية .

(٤) عصر ما قبل الإسلام ١١٠ .

_____ مصر في الإسلام _____

إلى حمير بن سبأ، وقد انتقلوا من اليمن إلى شمال بلاد العرب، ومن بطونها ظهرت قبيلة بليّ التي رحلت إلى شبه جزيرة سيناء فيما بعد.

ومن أعقاب سبأ أيضاً كهلان، وسبب هجرة كل من بليّ وكهلان والأزد وخزاعة وغيرها، هو: تقلص ملك حمير في الجنوب، وما أصاب أرضهم من بوار بعد انهيار سد مأرب^(١)، فقد تصدع بمرور الزمن والإهمال، فلم يعد يحتمل السيول والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه، فانكسر، وفاضت مياهه على ما حوله من المزارع والقرى، فأتلفتها.

والمتتبع لهذه الهجرات العربية السلمية، وغير السلمية إلى مصر، يجد أن هناك أموراً مشتركة بينها:

أولاً: أن تسلك هؤلاء المهاجرين كان عن طريق واحدة، هي: باب سيناء، أي: الجهة الشرقية لمصر.

ثانياً: أغلب هذه القبائل المهاجرة لم تستقر في مكان محدد، بل كانت مرتحلة دائماً، وكانت منحصرة في منطقة الدلتا أو جزء منها، وكان بعضها يتوغل إلى صعيد مصر، متخذاً طريق البحر الأحمر.

ثالثاً: هذه المجموعات المهاجرة كانت تمثل مرحلة تمهيدية لخلق مصر العربية بعد ذلك، صحيح أنها جماعات متفرقة في النزعة السياسية والدينية، ومختلفة اللغة عن أهل البلاد المصريين، ولكنها وضعت الأسس للغة التي ستأتي غازية فيما بعد مع جيش الفاتح عمرو بن العاص عام ٦٠ للهجرة.



(١) انهيار السد حوالي عام ١٥٠ قبل الميلاد .

الفصل الثاني

مصرفي القرآن الكريم



أكرم الله مصر، وفضلها على كثير من المواضع على ظهر الأرض، وتردد ذكر اسمها في القرآن الكريم، وفي كل من العهدين القديم والجديد.

وقيل: إن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز في أربعة وعشرين موضعاً، منها ما هو بصريح اللفظ، ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير.

وقد وضع العلماء المواضع التي ظهرت فيها كلمة (مصر) صراحة ومكناة.

فأما صريح اللفظ فمنه قوله تعالى مخبراً عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾ [يوسف: ٩٩].

وقوله تعالى على لسان فرعون: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تبصرون﴾ [الزخرف: ٥١].

وقوله تعالى موجهاً الأمر لموسى عليه السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

وقوله تعالى لبنى إسرائيل: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]، وربما كانت الإشارة هنا لديار مصر أو إلى أى مصر، أى: إلى أى مكان متحضر.

وأما ما دلت عليه القرائن عن مصر بلفظ (أرض) فى مواضع كثيرة، منها ما جاء فى قصة يوسف وإخوته، وقصة موسى وبنى إسرائيل، قال تعالى على لسان يوسف: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦].

وفى قصة موسى، نرى حاشية فرعون يقولون له: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وإشارة موسى لقومه عن مصر فى لفظة الأرض فى قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

- وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].
- وقوله تعالى عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾ [القصص: ٤].
- وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩].
- وقوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢٩].
- وهناك إشارات كثيرة في القرآن الكريم إلى البلاد المصرية، وتفهم من السياق، فقوله تعالى عن بنى إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ﴾ [يونس: ٩٣].
- وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٨].
- وقوله تعالى عن قوم فرعون الذين كانوا في مصر: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨].
- وقد ورد في القرآن الكريم عن مريم ابنة عمران ووليدها عيسى وهروبهما إلى مصر، قال تعالى: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، يقول عبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وغيرهما: هذه الربوة هي مصر.
- وفي كتاب فضائل مصر للكندى يؤكد أنهما لجا إلى مصر، فيقول: قال بعض العلماء المصريين: هي البهنسا، وقبط مصر مجمعون على أن المسيح وأمه كانا بالبهنسا، وانتقلا منها إلى القدس^(١).



(١) فضائل مصر للكندى ١٤٨، والبهنسا: مدينة في الصعيد في محافظة المنيا، غربى النيل.

مصر على لسان الأنبياء

ورد ذكر مصر على لسان النبي ﷺ مبشراً أصحابه بفتحها، وموصياً بقبطها خيراً، وداعياً قادة المسلمين أن يتخذوا من المصريين جنداً كثيفاً، فهم خير الجند، وأصبر الناس على التحمل والجهاد، قال ﷺ: ستفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً.

قال ابن كثير : والمراد بالرحم أنهم أخوال إسماعيل عليه السلام بن إبراهيم الخليل عليه السلام، فأمه هاجر القبطية، وأخوال إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، فأمه مارية القبطية.

وقال عليه السلام كذلك : إذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً، فذلك الجند خير أجناد الأرض، فقال له أبو بكر : ولم ذلك يا رسول الله ؟، فقال : لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة.

وقال ﷺ عندما ذكر له أهل مصر : ما كادهم أحد إلا كفاهم الله مثونته.

وقال ﷺ : مصر أطيب الأرضين تراباً. (١)

وقال ﷺ : قسمت البركة عشرة أجزاء، تسعة لمصر، وجزء بالأمصار كلها.

وقال ﷺ : مصر خزائن الله، والجيزة غيضة من غياض الجنة. (٢)

وروى المؤرخون أن أول من دعا لمصر هو آدم عليه السلام، دعا لها بالرحمة والخصب والبركة والخير، قال عبد الله بن عمرو : لما خلق الله آدم مثلاً له الدنيا شرقها وغربها وسهلها وجبلها وأنهارها وبحارها وعامرها وخرابها، ومن يسكنها من الأمم، ومن يملكها من الملوك، فلما رأى مصر، رآها أرضاً سهلة ذات نهر جار مادته من الجنة تتحدر فيه البركة، ورأى جبلاً (٣) من جبالها مكسواً نوراً،

(١) صبح الأعشى ٣ / ٢٧٩.

(٢) أخبار الأول ٩.

(٣) يقصد جبل المقطم، قال القلقشندي : به قبر يهوذا وروبيل من إخوة يوسف، وبه القرافة. (صبح الأعشى ٣ / ٢٨١).

لا يخلو من نظر الرب عز وجل إليه بالرحمة، في سفحه أشجار مثمرة، فروعها في الجنة، تسقى بماء الرحمة، فدعا آدم للنيل بالبركة، ودعا لمصر بالرحمة والبر والتقوى، وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات، قال : يا أيها الجبل المرحوم، سفحك جنة، وتربتك ممسكة، تدفن فيها عرائس الجنة، أرض حافظة رحيمة، لا خلتك يا مصر بركة، ولا زال بك حفظة، ولا زال منك ملك وعز، يا أرض مصر فيك الخبايا والكنوز، ولك البر والثروة، سال نهرك عسلاً، كثر الله رزقك، ودرّ ضرعك، وزكا^(١) نباتك، وعظمت بركتك وخصبت، ولا زال فيك يا مصر خير ما لم تتجبرى وتتكبرى أو تخونى، فإذا فعلت ذلك عداك شر، ثم يغور^(٢) خيرك^(٣).

ودعا نوح عليه السلام لمصر أيضاً، قال لابنه بيصر بن حام- وهو أبو مصر، الذى سميت مصر على اسمه - كما يقول بعض الرواة، قال: اللهم إنه أجاب دعوتى، فبارك فيه، وفى ذريته، وأسكنه الأرض الطيبة، التى هى أم البلاد.^(٤)

وعندما قسّم نوح الأرض على بنيهِ، جعل لحام : مصر وسواحلها والغرب وشاطئ النيل^(٥).

وحين قدم حام إلى مصر وبلغ حدودها عند العريش، دعا لها دعاء ذكره ابن تغرى بردى، قال : اللهم إن كانت هذه الأرض التى وعدتنا على لسان نبيك نوح، وجعلتها لنا منزلاً، فاصرف عنا وبأها، وطيب لنا ثراها، واجمع ماءها، وأنبت كلاًها، وبارك لنا فيها، وتمم لنا وعدك.^(٦)

وقال ابن إياس : ومن فضائل مصر أن بها سجن يوسف عليه السلام، فى نواحي الجزيرة، وكان الوحي ينزل عليه هناك، وصار الآن مسجداً.. وقيل: إن

(١) زكا : نما وترعرع.

(٢) يغور خيرك : يزول ويذهب خيرك.

(٣) النجوم الزاهرة ١ / ٣٠.

(٤) السابق ١ / ٤٠.

(٥) قال المسعودى : أجمع الناس على أن ملك مصر كان من حد رفح من أرض فلسطين من بلاد الشام، إلى بلاد أسوان من بلاد الصعيد طولاً، ومن أيلة -إيلات- وهى تخوم الحجاز إلى برقة عرضاً. (انظر كتابنا الدين والنبوة فى مصر).

(٦) النجوم الزاهرة ١ / ٤٠.

كافوراً الإخشيدى^(١) سأل أهل مصر عن موضع معروف بإجابة الدعاء فيه؟، فقالوا له: سطح سجن يوسف عليه السلام، قال القاضي : هو في بوصير، من أعمال الجيزة - وبوصير قرب البدرشين.

وقال ابن إياس أيضاً : وبمصر أيضاً مسجد يعقوب عليه السلام في الفيوم.^(٢)



(١) أبو المسك ملك مصر، كان عبداً حبشياً، اشتراه أبو الحسن على الإخشيدى عام ٣١٢ للهجرة، فنسب إليه وأعتقه، وترقى حتى صار ملك مصر عام ٣٥٥ للهجرة، كان فطناً ذكياً حسن السياسة، حتى لقب بالأستاذ، كان يدعى له على منابر مكة ومصر والشام، ولما مات حمل تابوته إلى القدس، فدفن فيها. (الأعلام).

(٢) بدائع الزهور ١ / ٢٥.

مصر على لسان الصحابة

وعندما فتح الله مصر على يد عمرو بن العاص عام ٢٠ للهجرة، أراد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب معرفة كل شيء عن البلد المفتوح، فبعث إليه عمرو كتاباً فيه وصف دقيق لمصر، وهو وصف الخبير العالم بجغرافيتها واقتصادها، والدارس للعلاقات التي كانت تربط بين المصريين وحكامهم الأجانب الذين كانوا يستغلونهم، ويمتصون دماءهم، وهم يعملون بلا أمل، إلا أن يحصلوا على قوتهم الضروري من محصلة أعمالهم، وثمره جهودهم.

وعمر بن الخطاب يبدو في رسالته هذه وكأنه عاش في مصر طول حياته، ويرصد أحوالها رسداً دقيقاً، ويكفي أن نلاحظ في هذه الرسالة أيضاً برنامج الإصلاح الذي اقترحه عمرو بن العاص، وهو برنامج تنموى اقتصادى أخلاقى.

فهو يصف ما ينبغى عمله لإصلاح مصر من الناحية الأخلاقية بالقضاء على الرشوة والنميمة، التى يلجأ إليها الصغار فى حق الكبار، وهى عادة مرذولة، جوهرها تشجيع للسياسة القائمة على الرشوة، والدس الرخيص.

وهو يصف برنامج العدالة الاقتصادية، فيرى أنه لا يؤخذ خراج ثمرة إلا بعد جنيها، حتى يتعادل قدر الضريبة مع عائد المحصول، ثم هو بعد ذلك يريد أن تقوم سياسات الانفاق على أساس تدعيم البنية الأساسية، ومن أهمها بناء الجسور وحفر الترعة، وبذلك تقوم الدولة بما يلزمها من تأمين المستقبل، حتى يتضاعف الدخل العام، ويزيد الخير، ويعم الرخاء.

ولنقرأ الرسالة :

ورد كتاب أمير المؤمنين أطل الله بقاءه، يسألنى عن مصر : اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر^(١)، يكتفها جبل أغبر، ورمل أعفر، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات، ميمون الروحات، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له أوان، يدر

(١) يقصد أن طولها ثلاثة أضعاف عرضها، أى إن الماشى يقطع طولها فى شهر، وعرضها فى عشرة أيام.

حلابه^(١)، ويكثر فيه ذبابه^(٢)، تمده عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما اصلخ^(٣) عجاجه، وتعظمت أمواجه، وفاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب، وخفاف القوارب، وزوارق كأنهن في المخايل ورق^(٤) الأصائل، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كأول ما بدأ في جريته، وطما^(٥) في درته، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة، وذمة مخفورة، يحرثون بطون الأرض، ويبذرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب، لغيرهم ما سعوا من كدهم، فناله منهم بغير جدهم، فإذا أحرق^(٦) الزرع وأشرق، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى، فبينما مصر - يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة^(٧) رقشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء.

والذى يصلح هذه البلاد وينميها، ويقرّ القاطنين فيها، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها، وألا يُستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها، فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال، تضاعف ارتفاع المال، والله يوفق في المبدأ والمآل.

فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال : لله درك يا ابن العاص، لقد وصفت لى خبراً كأنى أشاهده.^(٨)

وهناك تعليق للمستشرق الفرنسى (أوكتاف أوزان) على كتاب عمرو للخليفة فى وصف مصر نشرته جريدة الفيجارو، قال : إنه من أكبر آيات البلاغة فى كل لغات العالم، وإنه من الفرائد فى إيجازه وإعجازه، وأقترح وجوب تدريسه فى جميع مدارس المعمورة، حتى يعلموا منه صحة الحكم على الأشياء، وكيفية تنظيم الممالك وسياسة الاستعمار.^(٩)

(١) الحلاب : اللبن، أى : يكثر الخير، يقصد أيام الفيضان.

(٢) كناية عن وفرة الثمار.

(٣) اشتد.

(٤) كأنهن حمائم على صفحة النهر ساعة الأصيل.

(٥) تغطى وارتفع.

(٦) اخضر وتلون.

(٧) الديباج : ضرب من الثياب لحمته وسداه حرير.

(٨) النجوم الزاهرة ١ / ٣٢.

(٩) عمرو بن العاص لعبد الخالق أبو رابية ٣٧٨.

مصر في الإسلام

ومن شدة حب عمرو بن العاص لمصر وولايته، اعتبرها في الميزان كأنها كل ولايات الخلافة الإسلامية مجتمعة، ذكر القلقشندي قوله في مصر : ولاية مصر جامعة تعدل خلافة. (١)

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص يصف المصريين : أهل مصر أكرم الأعاجم كلها، وأسمحهم يداً، وأفضلهم عنصراً، وأقربهم رحماً للعرب عامة، لقريش خاصة. (٢)

وقال : من أراد أن ينظر إلى الفردوس، أو ينظر إلى مثلها في الدنيا، فليُنظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها، أو تنمو ثمارها. (٣)

وقال كعب الأحبار (٤): لولا رغبتي في بيت المقدس لما سكنت إلا مصر، فقليل له: لم ؟، قال : لأنها معفاة من الفتن، ومن أراد بها سوءاً كبَّه الله على وجهه، وهو بلد مبارك لأهله فيه.

وقال : كلم الله تعالى موسى من الطور إلى طوى. (٥)

وقال : من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فليُنظر إلى مصر إذا زخرفت. وفي رواية : إذا ازدهرت.

وقال : في التوراة مكتوب : مصر خزائن الأرض كلها، فمن أراد بها سوءاً قصمه الله. (٦)

وقال أحمد بن المدبر : كشفت مصر فوجدت غامرها أضعاف عامرها، ولو عمرها السلطان لوَفَّت له بخراج الدنيا. (٧)

(١) عمرو بن العاص ٣٧٨.

(٢) النجوم الزاهرة ١ / ٢٩.

(٣) من ولي مصر من الولاة ٩.

(٤) هو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، تابعي، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود، أسلم في زمن أبي بكر رضي الله عنه، قدم المدينة في زمن عمر رضي الله عنه، أخذ عنه الصحابة كثيراً من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو عنهم الكتاب والسنة، عاش في حمص، وتوفي فيها عام ٣٢ للهجرة، عن مائة سنة وأربع سنوات.

(٥) الطور وطوى واديان مغروسان، وكلا المكانين في شبه جزيرة سيناء.

(٦) النجوم الزاهرة ١ / ٣١.

(٧) السابق.

وقبل أن نختم هذا الموضوع نذكر ما أورده المسعودي عن بعض الحكماء قال عن مصر : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء، وثلاثة أشهر مسكة سوداء، وثلاثة أشهر زمردة خضراء، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء.

أما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر في شهر أبيب -تموز^(١)، ومسرى -آب^(٢)، وتوت -أيلول^(٣) - يركبها الماء فتري الدنيا بيضاء، وضياها على رواب وتلال مثل الكواكب، قد أحاطت المياه بها من كل وجه، فلا سبيل لبعض البلاد إلى بعض إلا بالزوارق.

وأما المسكة السوداء فإنه في شهر بابة -تشرين الأول^(٤)، - وهاتور -تشرين الثاني^(٥)، - وكيهك -كانون الأول^(٦) - ينكشف عنها الماء، وينضب عن أراضيها، فتصير أرضاً سوداء، وفيها تقع الزراعات، وللأرض روائح طيبة تشبه المسك.

وأما الزمردة الخضراء فإنه في شهر طوبة وهو -كانون الثاني^(٧)، - وأمشير -شباط^(٨)، - وبرمهات -آذار^(٩) - تلمع بكثرة عشبها ونباتها فتصير الدنيا خضراء كالزمردة الخضراء.

وأما السبيكة الحمراء فإن شهر برمودة -نيسان^(١٠)، - وبشنس -أيار^(١١)، وبؤونة -حزيران^(١٢) - يبيض الزرع، ويتورد العشب، فهو كسبيكة الذهب منظرًا.^(١٣)

-
- (١) تموز : يوليو.
 - (٢) آب : أغسطس.
 - (٣) أيلول : سبتمبر.
 - (٤) تشرين أول : أكتوبر.
 - (٥) تشرين ثان : نوفمبر.
 - (٦) كانون أول : ديسمبر.
 - (٧) كانون ثاني : يناير.
 - (٨) شباط : فبراير.
 - (٩) آذار : مارس.
 - (١٠) نيسان : أبريل.
 - (١١) أيار : مايو.
 - (١٢) حزيران : يونيو.
 - (١٣) مروج الذهب ١ / ٣٣٩.

مصر في الإسلام

وهذا الوصف المفصل لحال مصر كان أيام مجئ الفيضان كل عام، وقبل بناء السد العالي جنوبى مدينة أسوان عام ١٩٦٣ للميلاد.

وكان المصريون يقيسون زيادة النيل أو نقصانه من أوائل شهر بؤونة (يونيو) وبعد حسابات قرابة الشهرين عندما يستقر المقياس على ستة عشر ذراعاً، أو أكثر تبدأ الاحتفالات والبشارات بوفاء النيل، وذلك فى شهر مسرى (أغسطس) فتفتح الخلجان والترع لتستقبل الفيضان بالفرح والاحتفال، ويستمر فى زيادته حتى الثامن من بابة (أكتوبر) حين يبدأ فى الانخفاض.

ومقياس النيل كانت له أماكن كثيرة على جانبيه، من أسوان إلى الدلتا، أما بعد الفتح الإسلامى فقد حدد عمرو مقاييس للنيل على طوله من الصعيد حتى منف.

يقول القلقشندى : جاء الإسلام، وفتحت مصر، والمقياس بمنف، ثم بنى عمرو مقياساً بأسوان، ثم بنى مقياساً بدندرة^(١) ثم بنى فى أيام معاوية مقياساً بأنصنا^(٢).



(١) دندرة : ويقال : أندرا بليدة على غربى النيل من نواحي الصعيد دون قوص (معجم البلدان).

(٢) أنصنا من قرى المنيا، كانت بلد مارية القبطية. (صبح الأعشى ٣ / ٢٩٥).

الفصل الثالث

رسالة الإسلام إلى مصر



قبل أن نستطرد في هذا الموضوع، نحب أن نشير إلى تقسيم ذكره جورجى زيدان وضع فيه تاريخ مصر، وجعله ثلاثة أدوار، قال:

١- الدور الجاهلي: يبتدئ عند أول دخولها في الممالك (عام ٥٦٢٦ - ٥٠٠٤ قبل الميلاد)، وينتهي (عام ٢٤١ قبل الميلاد - ٣٨٦ للميلاد)، وذلك عندما نهى الإمبراطور (ثيودوسيوس) عن عبادة النصب والتماثيل وأمر باتباع الدين المسيحي.

٢- الدور المسيحي: ويبتدئ عند شيوع سنة (ثيودوسيوس)، وينتهي عند فتوح الإسلام عام ١٨ للهجرة (عام ٦٤٠ للميلاد).

٣- الدور الإسلامي: يبتدئ عند فتح الإسلام إلى الآن.^(١)

وعود إلى موضوعنا فلا جدال في عموم رسالة الإسلام إلى الإنسانية كلها، لا فرق بين عربى وغير عربى، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨]، وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

غير أن هذا العموم لم يتحقق إلا عبر قنوات للاتصال، بدأت إرسالها في موعدها المقدور، في السنة السادسة للهجرة، وبعد عودة النبي ﷺ من الحديبية إلى المدينة، حينئذ بدأ في استقبال الوفود من جميع القبائل في الجزيرة العربية، ليعرض عليهم الإسلام، وشرع في إرسال الرسل إلى خارج الجزيرة العربية، وذلك لنشر الدعوة في العالم، وإعلام الناس من ملوك ورعايا بما جاء به الدين الجديد من تعاليم، فبعث عليه السلام إلى ملوك الأرض وزعمائها كتباً، بعد أن اتخذ خاتماً^(٢) من فضة نقشه: (محمد رسول الله)^(٣)، وختم به الكتب، التى كانت أكثر من

(١) تاريخ مصر الحديث ١/ ٩. والعام الصحيح لفتح الإسلام هو سنة ٥٢هـ.

(٢) كان هذا الخاتم في يد النبي ﷺ حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، ثم كان في يد أبى بكر الصديق حتى قبض، فاتخذته عمر خاتماً، وجاء عثمان ولبسه ست منولات، ثم سقط من إصبعه في بئر أريس، فالتمسه الناس ثلاثة أيام فلم يجدوه.

(٣) مكتوبة على ثلاثة أسطر.

مصر في الإسلام

مائة^(١)، خرج بسنة منها في يوم واحد ستة نفر إلى ملوك وزعماء العالم في شهر المحرم من السنة السابعة للهجرة^(٢)، وبعد غزوة خيبر.

وكان النبي ﷺ حريصاً أن يختار حملة كتبه ممن يجيدون لغات الأقوام المرسل إليهم، ويتقنون التحدث بلسانهم.

وكان أول المبعوثين هؤلاء الستة: عمرو بن أمية الضمري^(٣) إلى النجاشي ملك الحبشة، ودحية بن خليفة الكلبي^(٤) إلى هرقل قيصر الروم، وعبد الله بن حذافة السهمي^(٥) إلى كسرى فارس، وسليط بن عمرو العامري^(٦) إلى هوذة بن علي من بني حنيفة، وشجاع بن وهب الأسدي^(٧) إلى الحارث بن أبي شمر ملك الغساسنة.

وسادس الكتب حملة حاطب بن أبي بلتعة اللخمي^(٨) إلى المقوقس - جريج ابن مينا - صاحب الإسكندرية وعظيم القبط - يدعو وقومه المصريين إلى الإسلام، وتتابع الكتب بعد ذلك إلى بقاع الأرض.

والمعروف أن كتب النبي ﷺ كانت تكتب بالعربية، أما حاملها فهو العارف بلغة المرسل إليه حتى يكون كالمترجم والشارح والمفسر لما فيها.

(١) ذكر ابن سعد - صاحب الطبقات - الكتب جميعها بالتفصيل، وعدها بمائة رسالة ورسالة. (الطبقات ٢٥٨/١: ٢٩١).

(٢) في شهر مايو، عام ٦٢٨ للميلاد.

(٣) صحابي شجاع، أسلم بعد أحد، وأسر في بئر معونة، شهد وقائع كثيرة زمن الخلفاء الراشدين، توفي بالمدينة عام ٥٥ للهجرة.

(٤) صحابي حضر كثيراً من الوقائع، كان يضرب به المثل في جمال الصورة، نزل جبريل عليه السلام في هيئته، توفي عام ٤٥ للهجرة.

(٥) أسلم قديماً، وهاجر إلى الحبشة، شهد فتح مصر (سنتحدث عنه باستفاضة في باب الصحابة الذين فتحوا مصر) إن شاء الله.

(٦) من أمراء السرايا، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، قتل يوم اليمامة عام ١٢ للهجرة.

(٧) من مهاجري الحبشة، وشهد بدرًا وما بعدها، استشهد في اليمامة عام ١٢ للهجرة.

(٨) من قحطان اليمن، ولد عام ٥٣ قبل الهجرة، وفد مع قومه علي النبي ﷺ، فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: بنو خالفة. قال: بل أنتم بنو راشدة. شهد حاطب بدرًا وأحدًا وما بعدهما، كان من الفرسان الرماة، ومن شعراء العرب في الجاهلية، توفي في المدينة عام ٣٠ للهجرة.

وكان حاطب عليماً باللغة القبطية، فحمل الكتاب، وسار براً حتى وصل إلى مصر، ثم ركب النيل إلى الإسكندرية حيث كان المقوقس مقيماً على شاطئ البحر، والتقى به وسلمه الرسالة^(١)، التي كان نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم.. من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط،
فإني أدعوك بدعاء الإسلام، أسلم تسلم، ويؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما
عليك إثم القبط **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ
وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا
اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران: ٦٤].

والرسالة كما نرى موجهة صراحة للمقوقس زعيم القبط وللمصريين أيضاً،
على أن يشرح لهم رئيسهم المقوقس مضمون الإسلام، ولهم أن يختاروا، وقد كان
رسول الله ﷺ بعث لقيصر الروم كتاباً آخر، فلم يشأ هنا أن يشير إلى الروم
المستعمرين من قريب أو من بعيد، وإنما كان الكتاب صراحة للمصريين وزعيمهم،
لقد كان النبي ﷺ يدرك قدر مصر، ووزنها الحضاري الثقيل فأرسل إلى عظيمها،
دون ما وراءه من الروم.

ويبدو أن المقوقس عندما قرأ الكتاب، وفكر في مضمونه - أدرك أن محمداً
هو النبي الذي بشر به السيد المسيح في الإنجيل، فمال إلى الإسلام لولا خشيته من
الروم المحتلين، وخوفه من أن يسلب منه ملك مصر - لو أسلم - ولذا كان رده على
رسول الله ﷺ شديد الحذر، ليس فيه قبول أو رفض، وإنما ظاهره سياسة ومداهنة
وتلطف، فقال لحاطب حامل الرسالة: لقد أمرت لك بمائة دينار وخمسة أثواب،
فارحل عني، ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً.

وقوله: (لا تسمع منك القبط حرفاً واحداً)، يدلنا على خوف المقوقس من أن
يميل أحد المصريين للدين الجديد، والحرب مازالت بينه وبين القبط على اختلاف
المذهب.

ثم كتب الرد إلى النبي ﷺ، ونصه: سلام عليك، أما بعد، فقد قرأت كتابك،
وفهمت ما ذكرت فيه وتدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وكنت أظنه يخرج

(١) ذكر المؤرخون أن المقوقس بعد أن قرأ الكتاب وضعه في حق من عاج وختم عليه.

مصر في الإسلام

بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك جاريتين لهما مكان عظيم في القبط وأهديت لك بغلة تركبها، وبعض خيرات مصر، وبعثت لك بطبيب، والسلام عليك. وفصل ابن سيد الناس هذه الهدايا، وقال: كانت ألف مثقال ذهباً، وعشرين ثوباً^(١) ليناً من قباطى مصر، وبغلة وحماراً، وعبدا يدعى (مأبور)، وعسلاً من بنها.^(٢)

وقد زاد ابن إياس في الهدية، وقال:.. وجاريتين هما (مارية) و(سيرين) أختها، قال الواقدي: وجارية أخرى يقال لها (حسنة).^(٣) فأعجب النبي ﷺ العسل ودعا لعسل بنها بالبركة.

أما ابن الزبير فقد فصل أكثر في وصف الهدايا، وقال: إن الرسول ﷺ سمي البغلة (لدل)، وسمى الحمار (يعفور)، وسمى فرساً في الهدية (لزارا)، وربعة اسكندرانية، وقدحاً من قوارير.^(٤)

ومعلوم أن النبي ﷺ تزوج إحدى الجاريتين، واسمها (مارية)^(٥) التي صارت أم ولد، وأعتقها ابنها إبراهيم ابن النبي ﷺ.

والجارية الثانية - ويقال: أختها - اسمها سيرين، وهبها النبي ﷺ لشاعره حسان بن ثابت، فكانت أم ولده عبد الرحمن.

وعود إلى المقوقس الذى أراد أن يعرف كل شيء عن ذلك النبي، فجاء بحاطب - قبل رحيله إلى المدينة - وأخذ يحاوره ويسأله عن صفات هذا النبي، وشكله وخلقه، ليستشف من إجاباته حقيقة ذلك النبي، ومدى مطابقتها لصفات النبي

(١) قيل إن بعض هذه الأثواب كفن فيها النبي ﷺ، عن ابن مسعود قال: قلنا: يا رسول الله فيم تكفك؟ قال: في ثيابى هذه أو في ثياب مصر. (فتوح مصر ٥٢).

(٢) عيون الأثر ٣١١/٢. وبنها: مدينة في وسط الدلتا، عاصمة محافظة القليوبية الآن.

(٣) بدائع الزهور ٩١/١. وقال: أما حسنة فقد وهبها ﷺ لأبى جهم بن حذيفة العبدى.

(٤) الذخائر والتحف ٨. والربعة: صندوق كان النبي ﷺ يضع فيه أشياءه. والقوارير: الزجاج.

(٥) كانت مارية من قرية اسمها حفن، من كورة أنصنا، وهى مدينة أثرية من نواحي الصعيد فى محافظة المنيا، غربى النيل، توفيت رضى الله عنها عام ١٥ للهجرة، ودفنت فى البقيع.

التي قرأ عنها في كتب السابقين، والتي ذكرت أن نبياً آت، وهو خاتم الأنبياء^(١)، وقد اختصرنا الحوار الذي دار بينهما مما أورده ابن عبد الحكم:

قال المقوقس: ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على فيسلط على؟، قال له حاطب: ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبي عليه أن يفعل به ويفعل... إنه كان هناك قبلك رجل^(٢) زعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يُعتبر بك، وإن لك ديناً لا تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافي الله به فقد ما سواه، وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، ولسنا ننهارك عن دين المسيح، ولكننا نأمر بك به^(٣).

وسأل المقوقس حاطباً: ألا تخبرني عن أمور أسألك عنها؟ فإنني أعلم أن صاحبك قد تخبرك حين بعثك. قال: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك.

قال: إلام يدعو محمد؟ قال: إلى أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً، ونخلع ما سواه، ويأمر بالصلاة.

قال: فكم تصلون؟ قال: خمس صلوات في اليوم والليلة، وصيام شهر رمضان، وحج البيت، والوفاء بالعهد، وينهى عن أكل الميتة والدم.

قال: من اتباعه؟ قال: الفتيان من قومه وغيرهم.

قال: فهل يقاتل قومه؟ قال: نعم.

قال: صفه لي. قال حاطب: فوصفته..

قال المقوقس: قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها، في عينيه حمرة قل ما تفارقه، وبين كتفيه خاتم النبوة، يركب الحمار، ويلبس الشملة، ويجتري بالتمرات والكسر، ولا يبالي من لاقى من عم ولا ابن عم. قال حاطب: هذه صفته.

قال: قد كنت أعلم أن نبياً قد بقي، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج في العرب في أرض جهد وبؤس،

(١) انظر كتابنا (الدين والنبوة في مصر).

(٢) يقصد فرعون موسى.

(٣) فتوح مصر ٤٧.

والقبط لا تطاوعني في اتباعه، ولا أحب أن يعلموا بمحاورتي إياك، وسيظهر على البلاد، وينزل أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما هاهنا، وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفاً، فارجع لصاحبك.^(١)

ثم قال له وهو يودعه: وسوف أرسل معك مبرقة^(٢) يبذرقونك إلى مأمك.^(٣)

والأغلب أن المقوقس كان يعرف من كتب السابقين كيف سيدخل الإسلام مصر، وكيف سيظهر في إفريقية بعد ذلك بسنوات، ولذلك أمر حاطباً أن يكتب الأمر عن القبط، حتى لا يثير بلبلة، ولم يثن الأوان بعد.

ولم يتصل حاطب بأحد، أو يبلغ قبطياً ما جاء من أجله، ألا وهو توصيل كتاب محمد ﷺ إلى المقوقس، فالحراسة التي كانت عليه لم تكن لتأمين طريقه فقط، وإنما لئمنه من الاتصال بأي قبطي، ولذا خرج حاطب من الحدود المصرية ولم يلتق إلا بالمقوقس وحاشيته، ثم أخذ الهدية التي بها ثلاثة من القبط، وأخذ يتحدث معهم في الإسلام، فمال قلب مارية وأختها سيرين إلى الدخول فيه، وتم إسلامهما في المدينة.

يقول ابن عبد الحكم:.. فلما نظر النبي ﷺ إلى مارية وأختها أعجبتهما، وكره أن يجمع بينهما، وكانت إحداهما تشبه الأخرى، فقال: اللهم اختر لنبيك، فاختار الله مارية له، وذلك أنه قال لهما: قولا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فبدرت مارية، فتشهدت، وآمنت قبل أختها، ومكثت أختها ساعة ثم تشهدت وآمنت.^(٤)

أما ثالث المصريين في الهدية فهو العبد (مأبور)، الذي تباطأ في إسلامه، ودخل فيه بعد ذلك، كما تقول أغلب الروايات.

(١) فتوح مصر ٤٧.

(٢) المبرقة: الحرس يتقدمون القافلة.

(٣) فتوح مصر ٤٧.

(٤) فتوح مصر ٤٩.

هذا هو الاتصال الوحيد بين النبي ﷺ وقبط مصر، ولا خلاف بين الرواة والمصادر التي رجعنا إليها في صحة كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس، إلا أن بعض الوثائق في دير سانت كاترين بسيناء تذكر أن هناك اتصالاً جرى بين النصارى في مصر وبين رسول الله ﷺ، وفي ذلك الدير وثيقة تقول إن رهبان الدير^(١) أرسلوا في العام الثالث الهجري (عام ٦٢٥ للميلاد) إلى النبي ﷺ يطلبون منه حماية المدينة، ويذكرون في هذا الصدد رسالة مازالوا يحتفظون بها وضعت عليها بصمة كف، يقولون إنها كف النبي ﷺ.

واحتوت الوثيقة على عهد أمان لهم يعتزون به ويذكرونه في معرض الفخر باستقلالهم في ديرهم عن جهات الحكم والإدارة في مصر.

ولم نعثر بدورنا فيما بين أيدينا من المراجع على ما يؤكد صحة هذه الوثيقة، فضلاً عن أن يكون النبي ﷺ قد زار هذا الدير كما يزعمون، غير أننا نشير إلى هذا الخبر مجرد إشارة حتى لا يكون قد فاتنا شيء مما يقال في هذا المعرض.

يضاف إلى ذلك أن نوعية الخط الذي كتبت به هذه الوثيقة ينفي ثبوت علاقة من هذه الزاوية بين الرسالة وعصر الرسول ﷺ، كما أن وجود بصمة الكف أسفل الرسالة أمر لم يقل بحدوثه أحد ممن تحدثوا عن مكاتبات النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء والأقبال، فضلاً عن أن الدعوة لم تكن آنذاك - العام الثالث الهجري - قد تحركت خارج الجزيرة العربية بشكل أو بآخر، والله أعلم.

لقد كانت رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس خير تمهيد لدخول الإسلام إلى مصر، فما زالت أصداؤها تدوى في نفس المقوقس ومن حوله، ولا سيما إذا كان الإيمان بالرسالة الجديدة ينهى الخلاف المذهبي بين جناحي المسيحية المتقاتلين في مصر.

وإذا صح ما ذكرناه من حوار المقوقس مع حاطب - ولا شيء يمنع من أن يكون صحيحاً - فإن موقف المقوقس فيه يقترب من موقف هرقل عظيم الروم في

(١) دير طور سيناء، وصورة العهد معلقة على أحد حيطانه.

مصر في الإسلام

حواره مع أبى سفيان، وتقصيه عن أحوال النبی ﷺ وأوصافه، وهو حوار مذكور في صحيح البخارى.

فالموقفان لا يختلفان، والدافع وراءهما واحد، وهو ما ثبت في كتب النصارى من تبشير المسيح عيسى بن مريم ببعث نبى آخر الزمان، وبزوغ فجر الرسالة المحمدية الخاتمة.



الفصل الرابع

فتح الإسلام لمصر



بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى في ١٣ من ربيع أول عام ١١ للهجرة (الموافق ٨ من يونية عام ٦٣٢ للميلاد) - ارتدت بعض قبائل العرب في الجزيرة، فمنهم من ادعى النبوة، ومنهم من خرج من الإسلام، ومنهم من امتنع عن دفع الزكاة، فسير الخليفة الصديق أبو بكر إحدى عشرة كتيبة لحرب هؤلاء المرتدين ومنعى الزكاة، وبعد حروب ومساجلات هدأت هذه الفتنة، واستقر أمر الإسلام في جزيرة العرب، وعندئذ قرر أبو بكر نشر الإسلام خارج الجزيرة، فبدأ بحملة لخالد بن الوليد^(١)، وبعثه إلى العراق.

واكتسح سيف الله المسلول ديار مجوس الفرس حتى وصل إلى حدود الشام، في دومة الجندل، وسمع هرقل في القسطنطينية بهذه الفتوحات الإسلامية، فجمع جيوشه وقواته على حدود فلسطين خوفاً من المد الإسلامي العارم الذي اكتسح أمامه الجانب الغربي من فارس، وعلم الخليفة في المدينة بخبر الجيش الرومي، فكان رد فعله سريعاً، وجهز - قبل وفاته بقليل - عدة جيوش لمواجهة الروم، فكانت ثلاثة جيوش، قرابة عشرة آلاف رجل من متطوعة المسلمين، وجعل على الجيش الأول عمرو بن العاص^(٢) وبعثه إلى فلسطين، وعلى الثاني يزيد بن أبي سفيان^(٣) ووجهه إلى الشام، وعلى الثالث شرحبيل بن حسنة^(٤) ووجهه إلى وادي

(١) لقبه رسول الله ﷺ بسيف الله المسلول، أسلم مع عمرو بن العاص قبل الفتح، وخالد من مخزوم من قريش حارب المرتدين وفتح العراق ثم اتجه إلى الشام وانتصر في معركة اليرموك توفي سنة ٢٢هـ - سنة ٦٤٣م.

(٢) سنتحدث عنه بالتفصيل في باب (أمراء مصر في القرن الأول) إن شاء الله.

(٣) ابن أبي سفيان بن حرب الأموي، أمير شجاع أسلم يوم فتح مكة، استعمله النبي ﷺ على الصدقات، سيره أبو بكر إلى الشام، ثم تولى دمشق وخراجها بعد الفتح، له وقائع كثيرة، توفي في طاعون عمواس، ودفن في دمشق عام ١٨ للهجرة، تولى معاوية أخوه إمارة الشام من بعده.

(٤) شرحبيل بن عبد الله الكندي، وحسنة أمه، هاجر إلى الحبشة، وغزا مع رسول الله ﷺ، وفتح الأردن في عهد أبي بكر، وتولى إمارة إحدى مدنها، حتى جاء عمر بن الخطاب الجابية فعزله، فقال له : أعن سخط عزلتني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكني أريد رجلاً أقوى من رجل. توفي في طاعون عمواس عام ١٨ للهجرة، وله من العمر ٦٨ عاماً.

مصر في الإسلام

الأردن، ثم جعل القيادة العامة لهذه الجيوش الثلاثة لأبي عبيدة بن الجراح^(١).

وفتح الله على المسلمين بلاد الشام، إما بوقائع حربية كبيرة مثل: أجنادين واليرموك، أو بصلح مثل: دمشق وحلب، أو باستسلام مثل: بعلبك وحمص وحمص، وكل ذلك خلال ثلاث سنوات، ما بين عامي ١٢ و ١٦ للهجرة.

وجاء دور أولى القبلتين (بيت المقدس) التي طال حصار المسلمين لها، بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وأيقن أهلها أنه لا نجاة من طول الحصار، فطلبوا من المسلمين المصالحة كما صالحهم أهل دمشق، فوافق أبو عبيدة، ولكن النصارى شرطوا شرطاً: أن يكون المتولى لعقد الصلح هو خليفة المسلمين نفسه.

وكان خليفة المسلمين عمر بن الخطاب الذي تولى الخلافة بعد وفاة الصديق في جمادى الآخرة عام ١٣ للهجرة (الموافق ٢٢ من أغسطس عام ٦٣٤ للميلاد)، وبلغته رغبة أهل بيت المقدس في الصلح المشروط، فشد الرحال إلى بيت المقدس، وعاهد أهلها، وأقام الصلاة خارج كنيسة القيامة، حيث مسجد عمر الآن.

ثم كتب عهد الأمان، يقول الشيخ الخضري: .. وعلى ما في الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

وشهد بذلك خالد بن الوليد وعمر بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان.^(٢)

وأقام عمر بن الخطاب في قرية من أعمال دمشق ناحية الجولان، قرب مرج الصفر شمالي حوران، اسمها (الجابية)^(٣)، وعقد مؤتمراً حضره كبار

(١) أمين الأمة، وأحد المبشرين بالجنة، القائد أبو عبيدة الفهري القرشي، أحد السابقين إلى الإسلام، شهد مع الرسول ﷺ المشاهد كلها، وفي أحد انتزاع نصلاً من جبهة النبي ﷺ بفيه، فهتم وصار أثرم التثيتين، تعلقت به الناس لرفقه وأناته وتواضعه، توفي في طاعون عمواس عام ١٨ للهجرة، ودفن في بيسان.

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية ٢ / ٦.

(٣) قال محمد حسونة: واختار للمؤتمر مكاناً كان قواد العرب قد اتخذوا منه مقراً لقيادتهم العليا بالشام وهو (الجابية) لوقوعها على الأرض المرتفعة القائمة إلى الشرق من بحر الجليل (بحيرة طبرية) بحيث تستطيع جنودهم أن تسير على الطرق الرومانية القديمة إلى دمشق في الشمال وإلى الأردن وفلسطين في الجنوب.. وهي تحيط بها المروج الخضراء ويكثر بها الكلا الذي لا تستغنى عنه إيل العرب وخيلهم (الجغرافيا التاريخية الإسلامية ٤٤)

القوادونو الرأي ووضع الأسس والنظم للدولة الجديدة في الشام، ثم عاد إلى المدينة.

ومرت سنتان كان المسلمون قد فتحوا الشام كله تقريباً، حتى وصلوا إلى حدود البلاد الرومية، وجاء عمر بن الخطاب إلى الجابية مرة أخرى عام ١٨ للهجرة، وفي هذه المرة دخل عليه أحد كبار الفاتحين: عمرو بن العاص، وأسر إليه حديثاً هامساً، وأخذ الخليفة يراجع مع نفسه، ويستعرض كل الاحتمالات، ثم كان أمره في النهاية: على بركة الله.

كان هذا الحديث الهامس هو دعوة أمير المؤمنين أن يأذن لعمر بن العاص بفتح مصر، وقد حاول عمرو أن يوضح للخليفة ضرورة هذا الفتح، وأن المسلمين في الشام لن يحسوا بالاستقرار طالما كان هناك جيش رومي بالقرب منهم في مصر، وشرح له أن الزحف إلى مصر أمر طبيعي، فمصر درة الشرق، وصاحبة الأرض الخصبة التي ينساب فيها النيل بالخير، وهي التي هاجر إليها أكثر الأنبياء وفتحها ضمان وأمان للإسلام في الشام، ثم قال له في نهاية حديثه ليشجعه على الموافقة على الفتح: (يا أمير المؤمنين إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم، وهي أكثر الأرض أموالاً، وأعجزها عن القتال والحرب).

وهذا الرأي الذي عبر عنه عمرو بن العاص يدل على معرفة عميقة بشئون مصر، فقد زارها خلال رحلاته التجارية، ولمس ما كان يباعد بين شعب مصر وحكامها الرومان والمتعاونين معهم من الطبقة الحاكمة من القبط، وقد استطاع عمرو أن يقنع أمير المؤمنين بأن شعب مصر لا إرادة له في الحكم القائم في البلاد، بحيث توقع أن يقف الشعب من القوة الجديدة التي تحاول أن تفتح مصر موقفاً سلبياً في أدنى أحواله، إن لم يكن موقفاً مؤيداً لهؤلاء الفاتحين الجدد.

ولم ينس عمرو وهو يشجع الخليفة على الموافقة أن يذكره بحاكم بيت المقدس الرومي (أريطيون) الذي هرب إلى مصر إثر تسليمها للمسلمين، وبدهي أن هذا القائد لن يسكت، وإنما سيحاول جمع شتات جيشه ليكون قوة ضاربة ضد المسلمين بعد ذلك.

أما وضع مصر السياسي - فقد كانت مستعمرة رومانية تحت حكم الإمبراطور هرقل، وأميرها هو جريج بن مينا المقوقس من قبل الروم، وكان

مصر في الإسلام —

المشرف على قصر الحكم المسمى حصن بابليون - كان رجلاً رومياً اسـ الأعيرج.

وكان أمير المؤمنين عندما وافق على فتح مصر علق على هذا الأمر - كما قالت بعض الروايات - بأنه سيبعث لعمر بن العاص لدى عودته إلى المدينة المنورة كتاباً، وشرط شرطاً قال فيه:.. فإن أدركك كتابي أمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف، وإن دخلتها قبل أن يأتي كتابي فامض لوجهك، واستعن بالله واستنصره.^(١)

وانتهز عمرو موافقة أمير المؤمنين، فأسرع في تجهيز الجيش، وخرج من قيسارية^(٢) فعسقلان فغزة فرفح، وكان قوام الجيش أربعة آلاف رجل أكثر من اليمن، وخاصة قبيلة (عك)، وقال الكندي: إن ثلث الناس كانوا من قبيلة (غافق).

وقال ابن دقماق: إنه كان في جيش العرب ممن أسلم من الروم وجماعة من الفرس الذين كانوا باليمن.

إذن فقد كان الجيش الذي خرج مع عمرو من فلسطين مكوناً من عناصر عربية إلى جانب عناصر أخرى من الفرس والروم، تجمعهم راية واحدة هي راية الإسلام، وهدف واحد هو نشر دين الله في أقطار الأرض.

وقد اختلفت الروايات في هل خرج عمرو إلى مصر والخليفة في الشام في المدينة ؟

قال بعض الرواة: إنه خرج والخليفة في الشام، لكن الأغلب أنه أعطى الضوء الأخضر، ثم رحل إلى المدينة، وبدأ عمرو في الاستعداد حتى جاءه شريك ابن عبده بموافقة الخليفة على الغزو، ويأمره أن يخرج بجنوده ويسير سيراً هيناً.

وكان الخليفة قد استشار بعض الصحابة، فكان هناك رأى لعثمان بن عفان جعل الخليفة يتردد فيبعث إلى عمرو خوفاً من أن يكون قد دخل حدود مصر، قال

(١) فتوح مصر ٥٦.

(٢) من أعمال فلسطين على شاطئ البحر الأبيض.

عثمان: إن عمراً لمُجَرَّأً، وفيه إقدام وحب للإمارة، فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمون للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا.

وأسرع الخليفة بالكتابة إلى عمرو قائلاً: إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر، فارجع إلى موضعك^(١)، وإن كنت دخلت فامض لوجهك على بركة الله. ووعده أن يبعث له بالإمداد.

وركب الرسول متجهاً إلى حدود مصر وفلسطين، في نفس الوقت الذي كان فيه عمرو متجهاً إلى حدود مصر الشرقية، وتقابل الرسول وجيش عمرو عند رفح. وعلم عمرو بوجود الرسول، فأخذ يسرع الخطأ حتى يصل لمكان لا يختلف فيه اثنان أنه من مصر، لخوفه أن يكون الخليفة قد تراجع في الإذن بفتح مصر، لأنه لو كان قد دخل الحدود ورجع فقد تكون سبة في جبين العرب وخذلاناً لجيش المسلمين، أن يدخلوا حدود بلد، ثم يرجعوا عنها دون أن يقاومهم أحد، ولذلك أخذ عمرو يدافع الرسول حامل الكتاب، ويمتنع عن لقائه حتى دخل قرية بين رفح والعريش^(٢)، وتأكد أنها من مصر، فدعا الرسول، وجمع كبار الصحابة والقادة في الجيش، وقبل أن يقرأ عليهم رسالة الخليفة، سألهم مؤكداً: ألسنتم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟. أجابوا: بلى. فقرأ عليهم الرسالة وما فيها من أمر الخليفة بالتوكل على الله، والنقد لفتح مصر.

وعلق بنتر على ذلك قائلاً: أما عمرو فقد بدأ أمره، ولم يكن بالرجل الذي ينقض ما بدأ فيه، وعرف أن ذلك الكتاب الذي لحق به لم يأت به بالرضا عما هو فيه، ولهذا لم يأخذه من الرسول حتى مهبط السيل الذي ربما كان الحد بين أرض مصر وفلسطين، وبلغ بسيره الوادي الصغير الذي عند العريش^(٣).

(١) في قيسارية في فلسطين.

(٢) كان اسمها (رينوقولورا)، كانت مدينة ذات حصون، وكان السور العظيم الذي بناه سيزوستريس (سنوسرت الأول) يبدأ من عندها، وينتهي عند الجندل الأول على النيل.

(٣) فتح العرب لمصر ١٧٤.

وهناك روايات ذكرت أموراً غريبة عن خروج جيش المسلمين الفاتح، فهذه رواية تقول إن عمراً خرج بدون إذن الخليفة، حتى إن السيوطي قال: فسار عمرو من جوف الليل، ولم يشعر به أحد من الناس.^(١)

وبعضها قال إن عمراً غرر بجنده في قيسارية مع ما بها من أجناد المسلمين، وخرج بليل وعمر بن الخطاب في الجابية، ولما افتقده أمراء الجيوش الأخرى استكروا فعلته، وشكوه لأمير المؤمنين لتغديره بالمسلمين، وخروجه بهم إلى مصر.

وهذا كلام لا يجيزه عقل، فكيف خرج جيش من أربعة آلاف مقاتل ما بين راكب وراجل، ومعهم معداتهم وعتادهم وماشيئهم وخيولهم وأقواتهم، دون أن يحس بهم أحد، حتى يفتقدهم أمراء الجيوش الأخرى فيشكون لأمير المؤمنين أن عمراً غرر بالجند، وكأنهم بضع عشرات.

والأمر الأقرب للعقل والحقيقة أن عمر بن الخطاب نفسه هو الذي أذن لعمرو بالخروج، وحدد له من سيخرج معه من المسلمين، ووضع له خطة السير، وألزمه فقط بالشرط الذي ذكرناه آنفاً، مع يقين عمر بأن النبي ﷺ قد بشر المسلمين بفتح مصر.

ويجب أن نلاحظ أن خروج عمرو بهذه القوة لفتح مصر لم يكن عملاً يتسم بالمغامرة، فلا يصح أن نتصور أنه خرج بهذه القوة على حساب ما كان يلزم من تأمين الوجود الإسلامي في فلسطين بخاصة، وفي بلاد الشام بعامة، فمن المؤكد أن الوجود الإسلامي في الشام وفلسطين كان قد استقر تماماً في هذه الأراضى، إضافة إلى أن هذا الوجود كانت تحميه قوة تقارب المائة ألف مقاتل مسلم، وخروج عمرو بجيشه المكون من أربعة آلاف لا يمثل إخلالاً بقوة الوجود الإسلامي في المنطقة، بل إنه كان يستهدف من الجانب الآخر تأمين الجناح الغربي للوجود الإسلامي في بلاد الشام، وضرب القوة الرومانية التي كان عمرو يتوقع أن تتحرك لاسترداد هذه البلاد المفتوحة بالإسلام.

(١) حسن المحاضرة ٢٧.

وقبل أن نسير مع عمرو في طريق الفتح، نورد مقولة لبعض المؤرخين اليونانيين، تقول: إن المقوقس اشترى العرب بجزية وعدهم بها، وإنه دفع لهم هذه الجزية لمدة عشر سنين، وذلك قبل دخولهم العرش!!!

وهذا خلط في ترتيب الأوراق، وتشويه للأحداث، فالمعاهدة التي كانت بين العرب والقبط لم تتم إلا بعد فتح حصن بابلين، كما سنرى في حينه إن شاء الله.

خرج عمرو بجيشه من قيسارية في فلسطين، يقول د. حسين مؤنس: سار عمرو لفتح مصر من قيسارية إلى عسقلان، فغزة فرفح، ثم مر بالعرش، وبئر المساعيد ورؤوس الأوراب، وبئر العبد وقعيا، ثم انتهى إلى الفرما.^(١)

وبينما كان في العرش أدركه عيد النحر عام ١٨ للهجرة (الموافق ١٢ من ديسمبر عام ٦٣٩ للميلاد)، فضحى عن أصحابه بكبش . واستأنف المسير بعد أن التقط الجند أنفاسهم، وتهيأوا لرحلة الفتح المبين.



(١) أطلس تاريخ الإسلام ١٣٣.

أول المعارك المصرية

دخل عمرو حدود مصر في الأيام الأخيرة من عام ١٨ للهجرة، وسار حتى وصل الفرما^(١)، بعد أن ترك بساتين النخيل في العريش، وقد سار في نفس الطريق التي سار فيها من قبل إبراهيم ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وقمبيز والإسكندر، والمسيح وأمه عليهما السلام، ثم سار فيها الفرس ثانية من وقت قريب، وهي نفس الطريق التي كان يسلكها التجار وحجاج بيت المقدس، من مصر وإليها.

وفي الفرما وجد عمرو بن العاص أول مقاومة رومية في شكل حامية كبيرة، قيل إن المقوقس هو الذي أرسلها للقاء عمرو، ولكن الأغلب أنه كان هناك حامية فعلاً، وربما بعث المقوقس بمدد لتقويتها عند سماعه باتجاه العرب إلى مصر، وتم فتح الفرما بعد قتال عنيف شرس.

يقول الدكتور شلبي: ولعب المصريون دوراً هاماً في مساعدة المسلمين ضد الروم حتى سقطت الفرما في يد المسلمين.^(٢)

وهذا القول نفسه قال به المقرئ من قبل، ولكن هناك رأياً معارضاً لمؤرخ قبطي قريب العهد من الحوادث، هو: حنا النقيوسي، قال: إن القبط لم يساعدوا المسلمين إلا بعد أن استولوا على الفيوم وإقليمها.

قال بتلر:.. ولسنا ندرى على التحقيق في أي وقت كان هذا، ولكن من الجلي أنه لم يكن إلا بعد فتح حصن بابلون، ولم تكن تلك المساعدة إلا مساعدات قليلة لا تعدو بعض الأمور.^(٣)

(١) الفرما: أو بلوز أو برمون، كانت حصناً على البحر الأبيض، كان يحمل إليها ماء النيل بالمراكب من دمياط، وهي واقعة على بعد ٣٥ كم جنوب شرق بورسعيد، أحرقها الصليبيون عام ١١٦٣ للميلاد (الموافق عام ٤٩٦ للهجرة)، وأكمل إحراقها الوزير شاور وزير العاضد الفاطمي بسبب النزاع بينه وبين ضرغام اللخمى، ومن تلك السنة أصبحت الفرما خراباً لم تعمر بعد ذلك، وأطلالها عبارة عن تلال حمراء تظهر عن بعد شرقى قناة السويس. قال نعوم شقير: بها قبر جالنيوس الحكيم، وهاجر أم إسماعيل منها، وقالوا: هي أول مدن مصر من جهة الشمال، وبينها وبين البحر الأخضر (الأبيض) ثلاثة أميال. (تاريخ سيناء ١٨٤).

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى ١ / ٥٩٠.

(٣) فتح العرب ١٨٧.

وبفتح الفرما وحصنها^(١) في أول محرم عام ١٩ للهجرة (الموافق ٢ يناير عام ٦٤٠ للميلاد)، أصبح الطريق إلى قلب مصر مفتوحاً، والعجيب أن الروم في داخل البلاد وخارجها لم يتحركوا أثناء حصار المسلمين الفرما، ولمدة شهر كامل، ولا نعرف لذلك سبباً إلا ما ذكره بئثر: أنه ربما كان خيانة من المقوقس لدولته العظمى، ليفصل بين بطرقة الإسكندرية وشقها في القسطنطينية... ربما.



(١) أول مسلم اقتحم الحصن هو: السميع بن ولة السبائي.

عمرو في بلبيس^(١)

وتقدم الفاتح المسلم ناحية الجنوب الغربى، ولم نجد أدق من بتلر فى تحديد سير الحملة الإسلامية، فقد قال: إن سير عمرو بجيشه من الفرما إلى أرض، تليها اسمها (مجدول)^(٢).

ثم سار إلى موضع القنطرة الآن، ثم سار إلى مكان الصالحية، وهى طريق مخالفة عن سار قبله من الفاتحين، فقمبيز مثلاً سار من الفرما إلى تل بسطة (الزقازيق حالياً)، وقد سار عمرو بعد القنطرة إلى الصالحية أو القصاصين، ومنها سار جنوباً حيث تلال وادى الطميلات (التل الكبير)، وكان لا يدافع إلا بالأمر الخفيف - كما قال ابن عبد الحكم.

ثم اقترب من مدينة كبيرة بها الروم مجتمعون فى حامية هى مدينة بلبيس، وعلى رأس الحامية (أرطيون)^(٣)، الذى فر من بيت المقدس، وتحصن هنا فى بلبيس، وأخذ يجمع جنود الروم، وقد دار قتال طويل بين المسلمين خارج الحصون والروم من داخلها، وقد دام الحصار شهراً، حتى فتح الله على المسلمين، ودخلوها بعد أن قضوا على قوة الروم، وبعد أن استشهد منهم عدد غير قليل، وخسر الروم ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير.

وتقول القصص والروايات إن (أرمانوسة) ابنة المقوقس كانت فى بلبيس، وكانت فى الطريق لزفافها على ابن هرقل الأمير (قسطنطين)، وعندما استولى عمرو على المدينة - بلبيس - أرسلها معززة مكرمة إلى أبيها حاكم مصر فى (حصن بابليون) مع قيس بن أبى العاص السهمى، فسر المقوقس بقدمها، كما قال المقرئى^(٤).

(١) بلبيس: مدينة فى محافظة الشرقية الآن، شرقى فرع دمياط.

(٢) قال د. حسين مؤنس فى أطلس تاريخ الإسلام صفحة ١٣٤: اتجه جنوباً بغرب حتى مر بقريّة (مجدل).

(٣) وصحة اسمه (أرطيون)، بعد هروبه من بيت المقدس صمم على محاربة المسلمين، وكان له معهم مساجلات حتى فتحت الإسكندرية، كما سنرى.

(٤) خطط المقرئى ١ / ١٨٤.

وقد ألف القس (ش. هـ. بوتشر) رواية تاريخية باسم (أرمانوسة المصرية)، كما كتب جورجى زيدان رواية بنفس الاسم، ولا ندرى شيئاً عن العلاقة ما بين الروائيتين، و(أرمانوسة) هي الاسم القديم المصرى لمدينة (أرمنت).

وخرج الفاتح عمرو متوجهاً إلى قصر الحكم، وعاصمة البلاد (منف)، وسار حتى وصل إلى قرية (أم دنين)^(١) فى جمادى عام ١٩ للهجرة (الموافق أبريل عام ٦٤٠ للميلاد)، وكان للروم حامية قوية فى قلعة حصينة، فهاجمهم عمرو بمن معه من الجند، ولكن طالت المناجزة، فبعث عمرو إلى الخليفة يطلب مدداً، وكانت الإجابة سريعة، ففى التاسع من جمادى الثانية، وصل أربعة آلاف جندي من المدينة، ومعهم كتاب من الخليفة عمر يقول فيه:

((قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجل)^(٢) مقام ألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو (أو ابن الأسود)، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد)). قال بعض المؤرخين: لم يذكر مسلمة، وإنما قال خارجة بن حذافة.

وكان عمر بن الخطاب قد عد الأربعة بأربعة آلاف، ولذلك زاد فى الخطاب قائلاً: ((.. اعلم أن معك اثني عشر ألفاً، ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة.))

وعلق الليث بن سعد^(٣) على هذا التعداد من الخليفة، قال: بلغنى عن كسرى، أنه كان له رجال إذا بعث أحدهم فى جيش، وضع فى عدة الجيش الذى كان فيه ألفاً مكانه، لإجزاء ذلك الرجل فى الحرب، وإذا احتاج إلى أحدهم، فكان فى جيش، فحبسه لحاجته إليه، زادهم ألف رجل.^(٤)

(١) هي قرية المقس، كانت على النيل، ومكانها حديقة الأربكية وباب الحديد ووسط المدينة، جاء فى هامش حسن المحاضرة: سماها الروم تنيدوداس أو تندوتياس، وحدود هذه القرية التى كانت تقع على النيل وقت فتح مصر - هي المنطقة التى تحد اليوم من الغرب ميدان باب الحديد فشارع رمسيس فشارع عماد الدين، ومن الجنوب قنطرة الدكة وشارع للقبيلة، ومن الشرق شارع الدرى الواسع وسكة شق الثعبان وحارة الحضرة، ومن الشمال شارع بين الحارات.

(٢) سنتحدث بالتفصيل عن كل منهم إن شاء الله فى فصل قادم.

(٣) إمام أهل مصر، ولد فى قلقشنده من محافظة القليوبية فى عام ٩٤ للهجرة، قال عنه الشافعى: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به، توفى عام ١٧٥ للهجرة.

(٤) فتوح مصر ٦١.

_____ مصر فى الإسلام _____

وهكذا فعل عمر رضى الله عنه، إذ اعتبر هؤلاء الصحابة أربعة آلاف رجل.

وكانت المناوشات دائرة بين الجيش المسلم والجيش الرومى، حتى وصل المدد، فزادت حدة الحرب، وانتصر المسلمون بعد حصار لهذه القرية دام أكثر من شهر.

وبعد هذا الانتصار، صار للمسلمين قيادة على النيل فى (أم دنين)^(١)، وخاصة بعد أن غنموا كثيراً من السفن التى يستطيعون بها اجتياز النهر إلى العاصمة عند حصن بابليون.



(١) كانت أم دنين على النيل قبل أن يردم الخليج (شارع بورسعيد الآن).

معركة عين شمس^(١)

أثناء انتظار عمرو بن العاص للمدد^(٢)، فكر في طريقة يحاصر بها العاصمة، فسار ببعض جيشه جنوباً بعد عبوره النيل، ووصل قرب منف على الشاطئ الغربي للنيل، وقيل: وصل بسيره حتى (اليهنسا)، ثم استدار راجعاً مرة ثانية.

وبعد انتصاره في (أم دنين)، سار حتى وصل إلى حامية (عين شمس)، وكان بها جيش رومي كبير قوامه عشرون ألفاً، وعليه قائد من أكابر قوادهم اسمه: (تيودور)، وجرت معركة حامية بين المسلمين والروم، وكان النصر المؤزر فيها للمسلمين في رجب عام ١٩ للهجرة (الموافق يونيو عام ٦٤٠ للميلاد).

يقول الدكتور شلبي: وقد هزم في المعركة جيش الروم هزيمة منكرة، بسبب التقسيم الرائع الذي اقترحه عمرو، إذ قسم الجيش ثلاثة أقسام كبيرة، قابل الروم بقسم منها، وفي أثناء المعركة هجم القسم الثاني من جهة، وهجم القسم الثالث من الجهة المقابلة، فحوصر جيش الروم واختل نظامه، وكثرت الضحايا، وفر منه من فر إلى حصن بابلين^(٣).

(١) كان اسمها (أون)، وتردد اسمها كثيراً أثناء وجود بني إسرائيل في مصر، سماها اليونانيون (هليوبوليس)، وغلب على اسمها (المطرية) بعد مجيء المسيح وأمه إلى مصر، واستراحا تحت شجرة فيها أطلق عليها بعد ذلك: شجرة العذراء، ومازال السياح يزورونها ويتبركون بها، وقال البعض: بل هي موضع (تل اليهودية) بجوار قرية (شبين القناطر)، بها آثار قديمة منها مسلة، قال ابن دقماق: كانت عين شمس في الزمن الماضي مدينة عظيمة متسعة متصلة بمصر القديمة التي في موضع الفسطاط في الوقت الحاضر. وقال ياقوت: بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وكان يسكن بها عزيز مصر أيام يوسف عليه السلام. (والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ١٦٠٠ متراً، فالمسافة تساوي ١٤,٤٠ كم).

(٢) ذكر المؤرخون أسماء بعض الصحابة الذين جاءوا في هذا المدد، منهم: الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبد الله بن عمر وخارجة بن حذافة وعبد الله بن سعد بن أبي السرح ونافع بن عبد قيس الفهري وأبو رافع مولى رسول الله ﷺ وعبد الرحمن وربيعه ابنا شريحيل بن حسنة وأبو أيوب الأنصاري وأبو الحرداء وعبادة بن الصامت، وغيرهم، وسنذكر ترجمتهم بالتفصيل إن شاء الله.

(٣) التاريخ الإسلامي ١ / ٥٩١.

مصر في الإسلام

ولابد أن نعرف أن عمراً جعل عين شمس هي منطلقه إلى العاصمة، ففيها ماء كثير، وخير عميم، يستطيع أن يمد الجيش بالمؤونة، وكانت كذلك تقع على ربوة، يمكنه من فوقها أن يعرف ما يدور بالقرب من حصن بابليون، ذلك الحصن الذي كان عمرو حريصاً على محاربة الروم وهم بعيدون عنه، حتى يستكمل قوته وعدته، ثم يضرب ضربته، ولذلك استدرج تيودور لينا جزه في السهل البعيد عن الحصن، ويطبق عليه بالكمينين^(١)، كما ذكرت كل الروايات تقريباً.

وبعد هزيمة الروم، فر أميرهم تيودور إلى الحصن، ومعه شرذمة من الجند، ليجمع جيشه، ويكر على المسلمين ثانية.

وقد حدد بتلر مكان معركة عين شمس، قال: ... وحدث اللقاء بعد ذلك، ولعله في مكان وسط بين معسكري الروم والعرب، عند الموضع الذي اسمه اليوم (العباسية).^(٢)

وتم للمسلمين النصر في عين شمس، فصار شمال شرقي مصر كلها في قبضتهم، ولذلك أصدر عمرو أوامره بنقل المعسكر المسلم إلى ناحية حصن بابليون، حيث القوة العظمى للروم، وعسكر المسلمون في جهة الشرق والشمال منه، وهو نفس المكان الذي حمل اسم الفسطاط - فيما بعد -.

وأثناء انتشار الجيش المسلم حول الحصن سمع أمير منطقة الفيوم الروماني (دومنتيانوس) بهذه الانتصارات فلم ينتظر، بل أسرع بالفرار ليلاً إلى جنوب الوادي تاركاً الفيوم بدون مدافع، وعرف عمرو بن العاص بهرب القائد الروماني، فبعث بكتيبة^(٣) من جنده ضمت الفيوم وما حولها في مدة وجيزة، ورفرف عليها علم الإسلام من ساعتها.

يقول بتلر: وقضى العرب في فتح الفيوم نحو أسبوعين.^(٤)

(١) كان خارجة بن حذافة على أحد الكمينين.

(٢) فتح العرب لمصر ٢٠٧.

(٣) بقيادة ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفى.

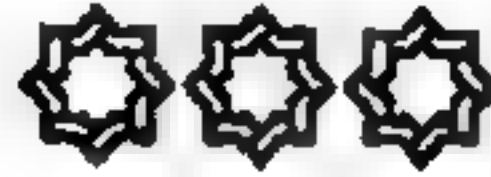
(٤) فتح العرب لمصر ٢٠٧.

_____ مصر فى الإسلام _____

وذهب بعض المؤرخين إلى غير هذا المذهب، ومنهم ابن الأثير وابن خلدون - فهما يقرران أن عمرو بن العاص قد فتح الفيوم وبقية مدن مصر بعد فتح حصن بابلين، والصواب ما قلناه : أن الفيوم فتحت قبل فتح الحصن.

وهناك رواية غريبة قال بها بعض المؤرخين، ومنهم المقرئى وهى: أن عمراً بعث سرية من عين شمس لفتح الإسكندرية، ويرد بتلر على هذه الرواية قائلاً:.. إن هذا يعتبر عملاً غاية فى الحمق من الجهة العسكرية.^(١)

والأغلب والأعقل أن عمراً لم يفكر فى فتح عاصمة مصر (الإسكندرية) - إلا عندما صارت له سيطرة على ما حول حصن بابلين.



(١) فتح العرب لمصر ٢٠٧.

حصن بابليون^(١)

استعد عمرو بن العاص لحصار الحصن في وقت الفيضان، في سبتمبر عام ٦٤٠ للميلاد (أى : شعبان عام ١٩ للهجرة)، وقبل أن نستعرض سير المعركة الفاتحة نلقى نظرة على الحصن من الداخل، فرئيسه المفوض من الإمبراطور هرقل هو زعيم القبط المقوقس^(٢)، وقائد الحصن العسكري جورج أو المندفور أو الأعيرج^(٣) - كما أطلقت عليه العرب -، وثالث الشخصيات الرئيسية في الحصن : تيودور القائد الروماني وأمير الجيش في مصر، الذي هرب عند انتصار العرب في عين شمس.

أما الكنائس داخل الحصن فكانت تدين بالمذهب الخلقيدوني أو الملكاني، ولم يسمح لأحد داخله أن يتعبد بالمذهب اليعقوبي الذي يدين به أغلب المصريين، وطبعاً لم يكن هناك في الحصن أى جندي من القبط، وإنما كانت إقامة القبط في الحصن للقيام بأعمال أخرى غير الحرب والضرب، وكان مذهبهم هو الملكاني، دخلوا فيه مضطرين مجبرين.

(١) أول من بناء الفرس، قيل : بُخْتَنْصَرُ أول غاز فارسي، وقيل : قمبيز، وجاء الإمبراطور الروماني (تراجان) عام ١٠٠ للميلاد ليخمد ثورة لليهود في الإسكندرية، وبنى قلعة مكان الحصن على مرتفع، وبداخل الحصن عدد كبير من الكنائس يصل إلى عشرة، وبيعة يهودية كانت كنيسة مسيحية قبل الفتح، هدمها اليهود بعد شرائها من النصارى، وأقاموا مكانها معبداً لهم، وكان للحصن باب حديدى كبير على المرسى قبالة جزيرة الروضة التى كان بها هى الأخرى حصون قوية مثل بابليون، وكان شرقى الحصن وشماله المزارع الفسيحة والحدائق الغناء والأرض الفضاء التى صارت بعد الفتح مدينة الفسطاط، وكان حول الحصن خندق قديم، أعاد المقوقس حفره عندما سمع بدخول العرب مصر، وجعل فوقه قنطرة متحركة يرفعها وقتما يشاء.

(٢) كان المقوقس يعيش في قصر منيف منيع تحيط به مياه النيل، ويصله بجزيرة الروضة جسر، وجزيرة الروضة جزيرة ما بين الفسطاط والجزيرة، سميت بهذا الاسم في عهد الأفضل أمير جيوش الأيوبيين.

(٣) قال بول نيل : أرطيون هو الأعيرج أو الأعرج، وسمى ابن قرقب، وهو أحد قواد الروم، وقيل هو أرطيون، كان حاكماً للقدس قبل هروبه إلى مصر.

وبدأ عمرو حصاره بأن صفاً قواته في مواجهة الحصن، حول الخندق الذي حفره الروم ليصدوا به العرب، وكان الحصار من الجهات الثلاث الشرقية والشمالية والجنوبية، أما الجهة الغربية فهي ناحية نهر النيل، التي كانت في يد الروم لصلتها بالروضة.

وبدأ الحصار على أغلب الأقوال في شعبان عام ١٩ للهجرة (الموافق سبتمبر ٦٤٠ للميلاد)، ومر شهر والمناوشات صباح مساء، والمسلمون ثابتون جادون حريصون على الفتح، ولذلك حاول المقوقس إخافة العرب بإظهار الروم بأنهم قوة كبيرة في الحصن.

قالت أغلب المصادر إنه جعل على الأسوار النساء والأطفال وأمرهم أن يتجهوا بوجوههم إلى داخل الحصن، وأن يجعل الرجال وجوههم نحو المسلمين، ولكن عمراً لم تهمة هذه اللعبة، واستمر في مناوشة الروم، فاضطر المقوقس إلى الاجتماع بمستشاريه من الجنود ومن أساقفة الحصن، بعد أن عبروا النيل إلى جزيرة الروضة، ثم قطعوا الجسر بينها وبين بابليون، وتشاوروا في الأمر، واتفقوا على أن يبعثوا لعمرو بن العاص ومن معه يعرضون عليهم الصلح، على أن يدفعوا لهم شيئاً من المال، ويرجعوا بعدها إلى ديارهم.

وذهبت الرسل إلى القائد المسلم، ومعهم كتاب من المقوقس فيه: .. إنكم قوم ولجتم بلادنا، وألحتم على قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا، وإنما أنتم عصابة يسيرة، وقد أظلتكم الروم، وجهزوا لكم، ومعهم من العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى في أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبكم ورجائكم، فابعث إلينا رجالاً من أصحابك نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء.^(١)

وقرأ القائد المسلم الكتاب، ولم يرد عليه بسرعة، إنما احتجز الرسل عنده يومين، حتى قلق المقوقس، وتوجس خيفة، لكن من حوله طمأنوه، فليس قتل الرسل

(١) نقلاً عن ابن عبد الحكم، فتوح مصر ٦٥.

مصر فى الإسلام

أو اغتيالهم من شيم المسلمين الفاتحين، وكان عمرو قد حبسهم لأمر فى نفسه، وهو أن يطلعهم على حال المسلمين، بعد أن يتجولوا وسط العسكر المسلم، ويروا ما فيه، حتى إذا عادوا إلى قادتهم نقلوا لهم صورة عن المعسكر الإسلامى.

وفى اليوم الثالث عاد الرسل إلى قصر^(١) المقوقس فى الروضة، ومعهم رد أمير جيش المسلمين صريحاً :

ليس بيننا وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إن دخلتم فى الإسلام، فكنتم إخواننا، وكان لكم ما لنا، وعليكم ما علينا، وإن أبيتم، فأعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، أما الثالثة فهى جهادكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين.

ثلاثة اختيارات : الإسلام أو الجزية أو الحرب.

وأراد المقوقس قبل أن يحسم الأمر - أن يعرف كل شىء عن هؤلاء الغزاة، فجمع الرسل وسألهم عما شاهدوه فى هذه الأيام الثلاثة، فقالوا :.. رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليه من الرفعة، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون فى صلاتهم.

وواضح من هذا الوصف أنه سجل ما كان عليه المسلمون من تكافؤ وانضباط وتأهب للقاء الله، ولا يمكن بسهولة مقاومة هذا الجيش الذى تتوفر فيه هذه المقومات، ولذلك أخذ المقوقس يسترجع حال دولته فى الشام، وما صاروا إليه من الهزيمة على يد هؤلاء الفاتحين، وهو يرى قوة المسلمين التى تتراءى له حول الحصن، وقال لمن حوله : والذى يحلف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد.

(١) كان القصر وسط قلاع الروضة وحصونها، سماه ابن إياس : الهودج، وإن كانت هذه التسمية لم ترد إلا فى العصر الفاطمى فى عهد الخليفة القاهر.

ثم وضع لمستشاريه ضرورة اغتنام الفرصة بمصالحة المسلمين، وانفقوا على أن يبعث لعمر بن العاص يطلب رسلاً للمباحثات والمشاورات، وكان الرد سريعاً: عشرة رجال معهم عبادة بن الصامت^(١)، على أن يكون هو المتكلم، ولا يتعدى الثلاث خصال : الإسلام - الجزية - الحرب.

وركب الرسل المسلمون المراكب، وعبروا إلى جزيرة الروضة.

ودار حوار بين عبادة ومن معه وبين المقوقس عظيم القبط، ذكرته كل كتب السيرة والتاريخ، وسوف نستعرضه^(٢) كله لأنه يعتبر في نظرنا تعبيراً واضحاً ومحددًا عن الحقائق الماثلة في الموقف، وفيه أيضاً يتجلى إيمان المؤمنين ووضوح رسالة الإسلام الفاتح المنتصر، واضطراب الرؤية لدى الرومان والقبط على السواء.

واجتمع المتحاورون، وتقدم عبادة ليكون ممثلاً للجانب المسلم، وقبل أن يتكلم أحد، أمر المقوقس من حوله أن ينحوا عبادة^(٣)، ويقدموا غيره، فرد الرسل المسلمون : إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً، وهو سيدنا وخيرنا المقدم علينا، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله.

قال المقوقس : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم، وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟. قالوا : كلا، إنه وإن كان أسود كما ترى، فإنه من أفضلنا موضعاً، وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً، وليس ينكر السواد فينا.

قال المقوقس لعبادة : تقدم يا أسود، كلمني برفق، فإنني أهاب سوادك، وإن اشتد عليّ ازددت لك هيبة.

فتقدم إليه عبادة، فقال : قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود، كلهم أشد مني سواداً، وأفطع منظراً، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك

(١) جاء في بعض الروايات القليلة أنه المقداد بن الأسود، وليس عبادة، وسنتحدث عن كليهما بالتفصيل - إن شاء الله - في حينه.

(٢) منقول بتصرف من المقرئ (الخطط).

(٣) كان عبادة أسود شديد السواد، فارعاً طوالاً، وكانت سنة آنذاك ٥٨ عاماً.

لى، وأنا قد وليت، وأدبر شبابى، وإنى مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعاً، وكذلك أصحابى، وذلك إنما رغبنا وهمتنا : الجهاد فى الله، واتباع رضوانه، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ولا طلب للاستكثار منها، إلا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً، ما يبالى أحدنا إن كان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهماً، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليلة ونهاره، وشملة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاء، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله، واقتصر على هذا الذى بيده ويبلغه ما كان فى الدنيا، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء فى الآخرة، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا فى الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله فى رضوانه وجهاد عدوه.

فلما سمع المقوقس ذلك منه، قال لمن حوله : هل سمعتم مثل هذا الكلام قط؟، لقد هبت منظر هذا الرجل، وإن قوله لأهيب عندى من منظره، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض، ما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها.

ثم أقبل المقوقس على عبادة، فقال له : أيها الرجل الصالح، سمعت مقالتك، وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت، وما ظهرت على من ظهرت عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة، ما يبالى أحدكم من لقى ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم، ولن تطيقوهم لضعفكم وقتلكم، وقد أقمت بين أظهرنا أشهراً^(١) وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقتلكم وقلة ما بين أيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل دينارين دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتم ألف دينار، فتقبضونها وتتصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به.

(١) كان هذا اللقاء فى الشهر الخامس من الحصار.

حينئذ رد عليه عبادة رداً مفحماً دقيقاً، رد صحابى تخرج فى مدرسة رسول الله ﷺ، وتأدب على يديه، قال : يا هذا، لا تغرنك نفسك ولا أصحابك، أما ما تخوفنا به من جموع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم، فلعمري ما هذا بالذى تخوفنا به، ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه، وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم، وأشد لحرصنا عليهم، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته، وما شئ أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، ولأنها أحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا.

وإن الله عز وجل قال لنا فى كتابه ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة، وألا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا هم فيما خلفه، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا.

وأما قولك : إنا فى ضيق وشدة فى معاشنا وحالنا فنحن فى أوسع السعة، ولو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا لأنفسنا منها أكثر مما نحن فيه، فانظر الذى تريده فيئته لنا، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيها شئت، ولا تطمع نفسك فى الباطل، بذلك أمرنى الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا، أما إن أجبتكم إلى الإسلام الذى هو الدين القيم الذى لا يقبل الله غيره، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته، أمرنا الله تعالى أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا، وكان أخانا فى دين الله، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم، ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم، وإن أبيتم إلا الجزية^(١)، فادوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وأن نعاملك على شئ نرضى به نحن وأنتم فى كل عام أبداً ما بقينا وبقيتكم، ونقاتل عنكم من ناوأكم،

(١) الجزية : مبلغ من المال يدفعه كل رجل حر عاقل بالغ صحيح البدن، قادر على الدفع، من غير المسلمين، ومن أهل الكتاب، وتسقط عنهم بالإسلام، وتدفع فى وقت معين من السنة.

وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم وأحوالكم، ونقوم بذلك عنكم إن كنتم في ذمتنا، وكان لكم به عهد علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم.

هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره، فانظروا لأنفسكم^(١).

وبعد هذا العرض المستفيض من عبادة، انتظر الإجابة من المقوقس، التي كانت الرفض لهذه الخصال الثلاث، ولكنه طلب مهلة للتشاور، وخرج عبادة ومن معه ليترك القوم يتشاورون مع أنفسهم على اختيار واحدة من الثلاث.

وتشاور الروم مع المقوقس، وأشار عليهم بالثانية (الجزية) على أن يبقوا على دينهم، ولكن تحت حكم المسلمين، كما حدث في مدن الشام، ورفض الرومان وأصروا على الحرب، وأسرعوا فقطعوا الجسر الموصل بين حصن بابلين والروضة، استعداداً للقتال.

أما المعسكر الإسلامي فلم يضيعوا الفرصة، وخاصة أن الخليفة استبطن الفتح، فبعث إلى عمرو بقوله: ... وليكن الهجوم ساعة الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة ووقت الإجابة. فما كان من الزبير بن العوام إلا أن قال: إني أهب نفسي لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، ثم وضع سلماته إلى جانب الحصن، وصعد بعد أن طلب من المسلمين إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً، وصعد الزبير على رأس الحصن، وكبر، ونظر المسلمون فرأوه على سور الحصن ومعه السيف، فارتفعت أصواتهم بالتكبير، حتى ظن من بداخل الحصن أن المسلمين قد دخلوه، فهربوا، وفتح الزبير ومن معه باب الحصن، ودارت معركة حامية واستشهد مسلمون كثيرون، وقتل من الروم عدد غير قليل، وأسر الباقون، وقد دفن عمرو بن العاص الشهداء في أصل الحصن من الخارج.

أما المقوقس فإنه عندما رأى نتيجة الصدام حول الحصن ودخله، واستيلاء المسلمين على أكثره لم يجد بداً من أن يتخذ قراره بالاستسلام والتنازل عن السلطة للمسلمين، والالتزام بدفع الجزية على ما حدده عبادة بن الصامت في المفاوضات،

(١) المواعظ والاعتبار ١ / ٢٩٢.

وكانت دينارين دينارين، يتساوى في ذلك الشريف والوضيع، مادام ليس بشيخ فان، ولا صغير غير بالغ، واتفق كذلك المقوقس على أن يخرج جند الروم من الحصن في خلال ثلاثة أيام، ويتركوا كل الذخائر وآلات الحرب للمسلمين.

وقد حددت جميع المراجع تاريخ النصر وكتابة العهد في يوم الجمعة الموافق ٢٢ ديسمبر عام ٦٤٠ للميلاد (الموافق غرة المحرم عام ٢٠ للهجرة)^(١)، ولكن الطبرى يقول: إن الفتح تم في عام ١٦ للهجرة، وقد دام الحصار حول الحصن قرابة السنة أشهر، فيها أيام حرب وأكثرها أيام هدنة بين الطرفين حتى تم الاستسلام والعهد.

وقبل أن نذكر نص العهد بين عمرو والمقوقس نعرض لقصة رواها ابن الأثير، قال فيها : وفي عين شمس نادى عمرو بأصحاب النبي ﷺ، فأجابوه، فقال: تقدموا، فبكم ينصر الله المسلمين. فتقدموا وفيهم أبو بردة وأبو برزة^(٢)، وتبعهم الناس وفتح الله على المسلمين، وظفروا وهزموا المشركين، فارتقى الزبير بن العوام سورها فلما أحسوه، فتحو الباب لعمرو، وخرجوا إليه مصالحين، فقبل منهم^(٣).

والواقع أن خلطاً قد حدث بين وقائع معركة عين شمس التي جرت أحداثها قبل ذلك بحوالى ثمانية أشهر، وبين معركة حصن بابلون التي شهدت نهاية مقاومة القوات الرومية لقوات الفتح الإسلامي، وتمت في المحرم عام ٢٠ للهجرة، ومن المؤكد أن عين شمس لم يكن بها حصن كبابلون، وإنما كانت المعركة فيها مرحلة من مراحل فتح المسلمين لمصر.

وقد اتفق الجانبان على عهد الصلح الذي ذكرته لنا كتب التاريخ، وموجزه :
بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك، ولا ينتقص... ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو

(١) قال بتلر : إن النصر تم في أبريل عام ٦٤١ للميلاد. والأقرب إلى الصواب ما قلناه.

(٢) ربما قصد ابن الأثير أبا بصرة، لأنه لم يرد أبو برزة فيمن دخلوا مصر فاتحين.

(٣) الكامل ٢ / ٢٠٦.

مصر في الإسلام

يخرج من سلطاننا... وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح.

وكتب العهد وردان مولى عمرو بن العاص، وشهد عليه الزبير بن العوام وعبد الله ومحمد ابنا عمرو.

وكان هناك شرط هام في عهد الصلح، هو أن يرسل نص العهد إلى هرقل ليقول رأيه، على أن تبقى جيوش الروم كما هي حتى يأتي رد القيصر، وكانت إرادة الله أسرع من رد القيصر، ففي صباح يوم سمع الناس تكبيراً في معسكر المسلمين، وعرف الروم أن المسلمين قد بلغهم موت هرقل في ١١ من فبراير عام ٦٤١ للميلاد^(١)، فكسر الله الروم بموته - كما قال المؤرخون.

وقد كان هم هرقل جمع الجيوش لمحاربة المسلمين في مصر بعامة، وفي الإسكندرية بخاصة، وكان يقول دائماً : لئن ظهرت العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم، ولذلك عاد جمع كبير من الروم إلى القسطنطينية بعد سماعهم بخبره، وكانوا في طريقهم إلى مصر.

قال بثر واصفاً هذا الصلح : ولكن الصلح الذي أبرم عند بابليون لم يكن إلا عهداً حربياً، ولم يكن عهداً سياسياً، فقد رضى عمرو بأن يشتري الحصن، ويدفع ثمناً له تأمين من كانوا فيه، وخروجهم منه بغير أن يسلموا أو يدفعوا الجزية، وإنما يدفع الجزية من بقى من أهل المدينة^(٢).

وقد اختلفت المصادر العربية والغربية في تحديد عدد المصريين الذين شملهم العهد، وعليهم الجزية، فقالت المراجع الأجنبية إنهم كانوا ستة آلاف أو ثمانية آلاف، في حين قدرت المراجع العربية عددهم بستة آلاف ألف، أى : ستة ملايين، وهذا عدد كبير وغير مقبول، وخاصة إذا أضفنا إلى هذا الرقم عدد النساء والأطفال والشيوخ لصار عدداً ضخماً، مع العلم بأنهم ليسوا كل سكان مصر، إنما نصف مصر تقريباً، من الفرما حتى حصن بابليون، مع إضافة الفيوم وما حولها.

ونحن مع مؤرخي الغرب القائلين بأن عدد القبط الذين وجبت عليهم الجزية ما بين ستة وثمانية آلاف فقط، والله أعلم.

(١) قال بعضهم : مات في مارس عام ٦٤١ للميلاد.

(٢) فتح العرب لمصر ٢٤١.

الفصل الخامس

فتح الإسكندرية



كانت الإسكندرية^(١) هي العاصمة الرسمية للحكم الروماني لمصر، وإن كان لحصن بابلون ومدينة منف الأهمية الكبرى أيضاً، لقد كان الحصن باب الصعيد، أو مصر العليا، فمن تحكم فيه فكأنه تحكم في بلاد الصعيد وجزء من بلاد الشمال في الدلتا، وكذلك مدينة منف فهي العاصمة الفرعونية من مئات السنين، وهكذا وجدنا عمراً قد جمع في يده زمام وادي النيل حيث كان أول عمل قام به بعد فتح الحصن إقامة جسر من السفن في النهر ما بين الحصن والروضة ومنف والجيزة، وبذلك استطاع أن يتحكم في السفن والبضائع السائرة من الشمال إلى الجنوب، وبالعكس.

وكتب عمرو إلى الخليفة عمر شارحاً له تطورات الفتح، وأنه عزم على الاتجاه شمالاً لفتح آخر معقل للروم في مصر، وهو مدينة الإسكندرية، وفي أول يونية عام ٦٤١ للميلاد (الموافق جمادى الأولى عام ٢٠ للهجرة)، استعان بالله وشد الرجال إلى الشمال محاذياً الجانب الغربي لفرع النيل، بعد أن عين خارجة بن حذافة نائباً عنه في الحصن، وترك فوق فسطاطه يمامة آمنة على بيضها، عشت فوقه، وقيل: إنه ترك حارساً للفسطاط بمنع عن تلك اليمامة أي أذى.

وقبل أن نسير مع عمرو في طريق الفتح، يجب أن نعرف أن تيودور القائد الروماني الهارب من الشام إلى عين شمس، ثم هرب ثانياً إلى الحصن ثم إلى الدلتا - قد جمع بعض فلول الجنود الروم في منطقة حصينة اسمها (نقيوس)^(٢)، ليست في طريق الجيش المباشر إلى الإسكندرية، ولذا قرر عمرو العبور إليها، وما إن شاهده تيودور حتى فر هارباً للمرة الرابعة إلى الإسكندرية، وانتهاز المسلمون الفرصة وانقضوا على الروم حتى لم يبق منهم إلا النزر القليل الذي هرب إلى الإسكندرية، ولحق بالقائد الهارب.

(١) بنى الاسكندر المقدوني ١٣ مدينة باسم الإسكندرية في كل البلاد التي فتحها، ومنها هذه المدينة العظيمة التي بنيت قبل الميلاد بثلاثة قرون ونصف تقريباً على ساحل البحر الأبيض مكان قرية كانت تسمى (راقودة)، صارت أعظم عاصمة إقليمية في الإمبراطورية الرومانية من عام ٣٠ قبل الميلاد.

(٢) هي مدينة (زاوية رزين) أو شبشير وباليونانية (فيكيون)، تقع شرقي فرع رشيد بالقرب من منوف التي كانت تحت حكم المسلمين آنذاك، قال بتر : فتحتها المسلمون في ١٣ مايو عام ٦٤١ للميلاد.

يقول بتلر معلقاً على هذه المعركة : فلم يمض زمن حتى عمت الفوضى،
واندلع لهيب الحرب الأهلية بين أهل مصر.. فانقسمت مصر السفلى (الدلتا) إلى
حزبين : حزب مع الروم، وحزب يريد أن يتفق مع العرب.. وقد أصبح من الأمور
المعتادة في ذلك النضال بين الحزبين أن يتقاتل الناس وينهب بعضهم بعضاً أو
يحرقوا البلاد، في حين كان العرب ينظرون إلى كلا الحزبين نظرة الازدراء،
ولا يأمنون لكليهما، ولا يتعاهدون مع أحد منهما.^(١)

أما عمرو فإنه لم يترك (نقيوس) إلا بعد أن بعث في أثر القوم المدحورين
صحابياً هو : شريك بن سمي الغطيفي، ومعه فرقة من الجيش، فلاحقهم حتى
انتصر عليهم في موضع سمي بعد ذلك (كوم شريك).

وقد أضاف د. حسين مؤنس أن موقعة (نقيوس) سبقتها معركة هي
(طرنوط).

وسار عمرو بمن معه متجهاً إلى الشمال الغربي حتى بلغ (الدلتجات)^(٢) دون
أن يلقي مقاومة، فضمها إلى البلاد المفتوحة، ثم سار شمالاً حتى اعترضته كتيبة
رومية عند بلدة (سنطيس)^(٣)، وتقابل الجيشان في وقعة شديدة انهزم فيها الروم،
وتدافعوا ناحية الإسكندرية للاختباء في حصونها، ولم يحاولوا الدفاع عن مدينة
(دمنهور) التي دخلها عمرو بسهولة، ثم تتبع القوات الرومانية الفارة، وسار في
نفس الطريق المؤدى إلى حدود الإسكندرية حتى وصل مدينة (كريون)^(٤)، حيث
وقف القائد تيودور وقفته الأخيرة في مواجهة المسلمين وعلى جانبه الترعة^(٥)،

(١) فتح العرب ٢٤٩.

(٢) إحدى مراكز محافظة البحيرة الآن.

(٣) في بعض المراجع (سلطيس)، وهي مدينة بين كوم شريك وكريون في حدود الإسكندرية،
على بعد حوالي ١٠ كيلو متر جنوبى دمنهور.

(٤) تقع على الترعة العذبة التي تسقى الإسكندرية، وتبعد عنها ٣٢ كيلومتراً، فيها حصن هو آخر
الحصون الرومانية بين بابلون والإسكندرية.

(٥) هي الترعة التي حفرتها كليوباترا السابعة، حكمت مصر من عام ٥١ قبل الميلاد إلى عام ٣٠
قبل الميلاد.

ومن خلفه الطريق الممتد إلى الإسكندرية، وكان تيودور قد جمع الجنود الروم من المدائن المحيطة بالإسكندرية مثل (سحا)^(١) و(بلهيب)^(٢) و(مطوبس).

وتقابل الجيشان، واستعر القتال، وطالت أيامه حتى زادت على عشرة أيام، من الصباح حتى المساء، كان عمرو يصلى فيها صلاة الخوف، حتى من الله عليه بالنصر، ولكن بعد خسارة كبيرة، واستشهاد عدد غير قليل^(٣) من المسلمين، وقتل عدد كبير جداً من الروم، وبفتح (كريون) فتح الطريق إلى الإسكندرية، واستراح عمرو بجنوده قليلاً، ثم تقدم إلى الإسكندرية باسم الله.

ومن الواضح أن عمراً اختار أن يصل إلى الإسكندرية عبر الصحراء حتى لا يواجه كثافة سكانية يتوقع منها المقاومة، ولما انتهى من الإسكندرية استدار لمدن الدلتا، على ما سنتابع من خطة الفتح.

وسنذكر طرفة أثناء معركة كريون، وقبل دخول الإسكندرية، ذكرها بتلر، قال: وحدث في وقت من أوقات القتال أن (وردان) مولى عمرو المعروف كان يحمل لواء المسلمين، فأصاب عبد الله بن عمرو جراحة شديدة، وكان إلى جانبه، فأجهضته شدة القتال، فسأله أن يرتد قليلاً يطلب الروح، فقال له وردان : الروح

(١) من قرى محافظة الغربية الآن، صالحها عمرو على الخراج وهو في طريقه إلى الإسكندرية، ولكن أهلها وأهل سلطيس وسحا أعانوا الروم على المسلمين، فلما فتحت الإسكندرية سبى أهل تلك البلاد، وسنحدث بالتفصيل عن هذه الحادثة إن شاء الله.

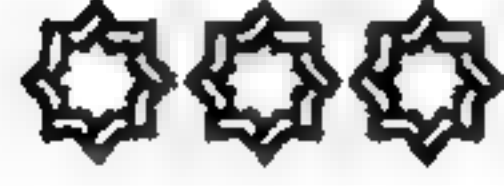
(٢) سحا: قال ياقوت كورة من أعمال الغربية، كان خارجة بن حذافة أثناء حصار الحصن - قد فتحها، تبعد ٣٥ كيلومتراً شمال طنطا.

(٣) قال لوبون في كتابه (حضارة العرب : ٢١٢) : قتل أثناء حصار الإسكندرية الذي دام ١٤ شهراً ٢٣ ألفاً من العرب. وهي في نظرنا مبالغة لا تسندها وقائع تاريخية، فإن عدد العرب الذين جاءوا إلى الفتح مضافاً إليهم المدد الذي أرسله الخليفة عمر بن الخطاب على مراحل تالية لا يزيد على خمسة عشر ألفاً، اللهم إلا إذا كان بعض العرب الذين كانوا يعيشون بمصر قد التحقوا بجيش الفتح، إضافة إلى جماعات من الذين بهرهم انتصار المسلمين فانضموا إليهم، من الأقباط، ودخلوا في الإسلام وقاتلوا في صفوف المسلمين، خصوصاً من أولئك الذين كانوا يخالفون في مسيحيتهم مذهب الدولة الرومانية، وكانوا يرون ضرورة قتالها من الناحية الدينية.

تريد؟ الروح أمامك وليس خلفك، ثم أقبلًا على القتال، فلما سمع عمرو بما أصاب ابنه، بعث إليه من يسأل عن حاله، فتمثل عبد الله بأبيات من الشعر يطمئن بها والده قال :

أبت لي عفتي وأبى بلائي	وأخذى الحمد بالثمن الربيع
وإجشامي على المكروه نفسي	وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأن وجاشت	مكانك تخمدى أو تستريح
لأدفع عن مآثر صالحات	وأخفى بغد عن عرض صحيح ^(١)

فلما سمع عمرو بذلك، قال : إنه ابني حقاً.^(٢)



(١) قصيدة لعمر بن الإطنابة الأنصاري - شرح حماسة أبي تمام للأعلام الشنتمري - المجلد الأول ١٧٣-١٧٤ - تحقيق الدكتور على المفضل حمودان.
(٢) فتح العرب ٢٥٣.

عمرو في الإسكندرية

كان عمرو قد عرف الإسكندرية في الجاهلية، جاءها تاجراً، فدرس طرقها ودروبها ومعالمها، ولم ينس شيئاً منها، حتى إذا دخل الإسلام، أخذ يحلم باليوم الذي ترفرف فيه راية الإسلام على حصونها وربوعها، هذه المدينة كانت أجمل مدائن العالم وأبهاها في ذلك الوقت^(١)، بها الحصون والأسوار المنيعة حول القلاع الحصينة والقباب والمسلات^(٢) والمعابد^(٣) والقصور والكنائس^(٤)، ثم إن بها منارة^(٥) فاروس^(٦) إحدى عجائب الدنيا السبع القديمة، وفوق ذلك الأسطول الهائل الذي يصل بينها وبين العاصمة الرومانية (القسطنطينية)، كل ذلك جعل من الإسكندرية درة في جبين الإمبراطورية الرومانية، ومحط أمل الفاتح المسلم.

وكان هدف عمرو أن يدخلها من الجهة الجنوبية الشرقية، لأن المدينة كانت محمية من جميع الجهات تقريباً، فشمالها البحر الأبيض (بحر الروم)، وجنوبها الترعة وبحيرة مريوط، أما من ناحية الغرب فترعة اسمها ترعة الثعبان وبحيرة إدكو، ولم يبق إلا الشرق أو جزء منه جنوبها الشرقي، وكان أيضاً محمياً بالقلاع

(١) قال جستاف لوبون : كان طول الإسكندرية ٥٠٠٠ متراً وعرضها ١٨٠٠ متراً. (حضارة العرب ٢١٣).

(٢) كان بالإسكندرية مسلتان متماثلتان أطلق عليهما (إبرة كليوباترا) شيدتا عام ١٥٠٠ قبل الميلاد في الأسرة الثامنة عشرة، ونقلتا حديثاً إلى أمريكا وإنجلترا، وضعت الأولى في قلب نيويورك، والثانية في قلب لندن على نهر التايمز.

(٣) من أهم المعابد في الإسكندرية معبد السرابيوم الذي بناه بطليموس الأول، وكان به مكتبة الإسكندرية الشهيرة، وعليه عمود دقلديانوس أو عمود السواري.

(٤) كانت كنيسة القديس مرقس من أعظم الكنائس في الإسكندرية وفي العالم آنذاك.

(٥) هي إحدى عجائب الدنيا السبع القديمة، كانت من الرخام الناصع البياض، كانوا يحرقون النار بها فترشد السفن ليلاً بالوهج، ونهاراً بالدخان، أما مرابها فقد كسرت في زلزال عام ١٣٧٥ للميلاد.. أي : حوالي ٧٧٤ للهجرة، ولم يبق إلا الطبقة السفلى من البرج كما قال بنلر. (فتح العرب ٣٤٥). قال الذهبي في العبر ١ / ٢٧٥: وقعت بمصر زلزلة عظيمة سقط منها رأس منارة الإسكندرية عام ١٨٠ للهجرة.. أي: عام ٧٩٦ للميلاد.

(٦) قال جستاف لوبون في حضارة العرب ٢١٥ : كانت تصل تلك الجزيرة بالبر بطريق معبدة طولها ١٢٠٠ متراً.

والحصون، وهذا هو المكان الذي اختاره عمرو لاقتحامه، واقترب عمرو بجنوده من أسوار الحصون، ولمحهم الروم يعسكرون فأخذوا يرمونهم بالنبال والمنجنيق من أعلى الحصن والأسوار، فترجع المسلمون، ونصبوا معسكرهم أبعد من مرمى نبال الروم، واستمر الوضع ساكناً لمدة شهر، وكان هدف عمرو هو تضيق الحصار على الروم فيبرزوا للقتال، وهو الوضع الأمثل في تلك الظروف، غير أن عمراً كان ينفذ في نفس الوقت خطة أخرى، فلم يترك الوقت يضيع سدى، إلى أن يحين خروجهم من الحصون، وقد قام بعمليتين هامتين :

أولاهما : الاستيلاء على قصور الروم التي كانت حول الإسكندرية، وتركها أصحابها خوفاً من جيش المسلمين، وفروا هاربين إلى داخل حصون الإسكندرية، ثم هدم هذه القصور، ونقل خشبها إلى حصن بابليون عن طريق النيل، ليقيم جسراً يعبرون به إلى الجيزة، وما حولها.

ثانيتهما : بعد شهرين من الحصار أخذ عمرو سرية واتجه إلى مصر السفلى داخل الدلتا، فسار جنوباً إلى كريون ثم دمنهور، واتجه شرقاً حتى بلغ مدينة (سخا)، ولكنه لم يفلح في فتحها، كذلك سار إلى مدينتين أخريين هما طوخ^(١) ودمسيس^(٢)، ولم يوفق في فتحهما أيضاً، فأخذ يغزو بعض القرى المحيطة، وقد أراد بذلك تأمين ظهر الجيش المحاصر للإسكندرية، كذلك كان هدفه من هذه العمليات السريعة القضاء على أي نفوذ محتمل للروم في قلب الدلتا، بحيث تكون مواجهته القادمة للروم في الإسكندرية مواجهة خالصة وحاسمة.

(١) قال ياقوت في معجم البلدان ٤/٤٦: طوخ قرية بصعيد مصر في غربى النيل، يقال لها طوخ يمون، وهناك طوخ الخيل قرية أخرى في الصعيد، وهناك قرية بالحواف الغربى - فرع رشيد - يقال لها طوخ مزيد.

أما بتلر فقال في فتح العرب : هامش ٢٥٩ : هناك على الأقل ستة مواضع في مصر السفلى، وواحدة في مصر العليا باسم طوخ، أما في مصر السفلى فهي طوخ دلكة وطوخ بلفطه وطوخ طنابشا في المنوفية، وطوخ الملك في القليوبية، وطوخ الاكلام في الدقهلية، وطوخ مزيد في الغربية. وربما كانت هي المقصودة لقربها من دمسيس، فهي على بعد ١٥ كيلومتراً منها.

(٢) اسمها ميت دمسيس شرقى طوخ مزيد، على الجانب الشرقى لفرع دمياط، جاء في بعض المراجع : ميت رمسيس، وهذا خطأ.

وعاد عمرو إلى الجيش المرابط على حدود المدينة، وتابع الحصار حتى استبطأ الخليفة عمر في المدينة الفتح، فبعث إلى عمرو قائلاً: ... قد عجبت لإبطائكم في الفتح.. وقد كنت وجهت إليك أربعة^(١) نفر أعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف، إلا أن يكونوا غيرهم ما غير غيرهم، فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب في الناس أن يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل الرحمة، ووقت الإجابة، وليعج الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم.^(٢)

وعندما وصل كتاب الخليفة كان حصار المسلمين للإسكندرية قد اقترب من الشهر التاسع، فأسرع عمرو بجمع معاونيه ومستشاريه من صحابة رسول الله ﷺ، وتشاوروا وتحاوروا، ثم أخذ كل مكانه حتى يصدر القائد أمره، وجلس عمرو يفكر في طريقة للفتح، وأخذ يستشير كل صحابي على حدة، وأعجبه رأى الصحابي مسلمة بن مخلد في أن يعقد إمارة الجيش لأحد الصحابة المعروفين بين الناس، المحبوبين لهم.

وقد سجل المقرئ الحوار الذي دار بين عمرو ومسلمة، قال : استشار عمرو مسلمة، فقال عمرو : أشر علىّ في قتال هؤلاء، فقال له مسلمة : أرى أن تنظر إلى أي رجل له معرفة وتجارب من أصحاب الرسول ﷺ فتعقد له على الناس، فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيكه.

فقال عمرو : ومن ذلك ؟ قال : عبادة بن الصامت.

فدعاه عمرو، فأتاه وهو راكب على فرسه، فلما دنا منه أراد النزول، فقال له عمرو: عزمت عليك أن نزلت^(٣)، ناولني سنان رمحك، فناوله إياه فنزع عمرو عماّمته عن رأسه، وعقد له وولاه قتال الروم، فتقدم عبادة مكانه، فصادف الروم وقاتلهم، ففتح الله على يديه الإسكندرية.^(٤)

(١) هم : الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد، وكانوا في المدد الذي جاء إلى عين شمس من المدينة أوائل الفتح.

(٢) خطط المقرئ ١/١٦٥.

(٣) المقصود من هذا التعبير : الاعتراض على النزول، وسيافه : إنى أعبر عن إصراري ألا تنزل، والتركيب من التراكييب المسكوكة التي تفيد بجملتها دون اعتبار الحرفية.

(٤) خطط المقرئ ١/١٦٥.

أما رواية ابن عبد الحكم، فاعتبرت الرأي في اختيار عبادة للقيادة من تدبير عمرو نفسه، قال : لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الإسكندرية، استلقى على ظهره، ثم جلس، فقال : إني فكرت في هذا الأمر، فإذا هو لا يُصْلِحُ آخره إلا من أصلح أوله - يريد الأنصار - فدعا عبادة بن الصامت، فعقد له، ففتح الله على يديه الإسكندرية في يومه ذلك. (١)

وواضح أن القوة المؤثرة في هذا الموقف كانت مجموعة العناصر التي توفرت للجيش المسلم، وأولها : الإيمان بضرورة تغيير القيادة لتحقيق النصر، وثانيها : أن القائد الأعلى للجيش لم يكن مستبداً برأيه، بل كان يستشير معاونيه وذوى الرأي من جنوده، وثالثها : الاعتماد على تأثير المدد الروحي، حين يكون متمثلاً في حضور شخصية كعبادة بن الصامت، وهو من كبار الأنصار الذين يعرف الناس لهم قدرهم في الجهاد وسبقهم إلى الإسلام، وصدقهم في العزيمة.

كل هذا وغيره هو الذى حسم المعركة في الإسكندرية، ومن المؤكد أن تغيير الوجوه المقاتلة، ولأسيما وجه القائد، قد يشعر الأعداء بأن مدداً جديداً قد وصل من المدينة إلى الإسكندرية، فيدب في قلوبهم الرعب.

ولاشك أن هذا الموقف ليس موقفاً يتيماً يشهد لعمرو بذكائه واقتداره، ولكنه يعبر عن الروح التي كان عمرو يعمل بها في قيادته لجيش المسلمين في فتح مصر، وغيرها من البلدان.

ولو عدنا ونظرنا نظرة شاملة للوضع في المعسكرين المسلم والرومي، مع ضرورة ألا نأخذ الأمر مأخذ الاستسهال، فذلك تبسيط مخل لأمر هي في الحقيقة أشد تعقيداً - لرأينا المسلمين يحاصرون الروم منذ تسعة أشهر تقريباً.

وعلى الرغم من أن الحصار كان من ناحية واحدة، فلا ريب أنه كان حصاراً مجهداً لأن المسلمين كانوا يسيطرون على المجالات الحيوية في قلب الدلتا، وقد استطاعوا أن يطهروا أرجاءها من مراكز المقاومة الرومية، ومعنى ذلك أن قيادة الروم واجهت أمراً عصيباً لأن منفذ تموين الإسكندرية قد نضب بحكم سيطرة

(١) فتوح مصر ٨٠.

المسلمين، كل هذا فتّ في عضد الروم، وأوقفهم أمام حائط اليأس في حين تحرك المسلمون بدافع من رسالة أمير المؤمنين عمر، كان ذلك لحظة بلغ اليأس مبلغه من العدو، وبلغ فيها الحماس قمته في نفوس المسلمين، وخاصة إذا أضفنا إلى ذلك جو الخلاف والصراع بعد موت هرقل، وتولية قسطنطين الذي حكم مائة يوم فقط، ومات بعد مرض سريع، ولا يعرف هل مات ميتة طبيعية أم أغتيل؟

وجاء إمبراطور آخر هو هرقل الثاني، كان لا رأى له، وتسيره أمه الإمبراطورة (مرتينة)، إذ كان رأى هذا الإمبراطور وأمه هو مصالحة العرب، وبهذه المصالحة حدث خلاف في البلاط الإمبراطوري في القسطنطينية، ونتج عن هذا الخلاف فتنة في الإسكندرية، فكبار الروم بها تفرقوا أحزاباً، منها حزبان كبيران : الحزب الأخضر والحزب الأزرق، نفس أسماء الأحزاب المتصارعة من ثلاثين سنة، أيام الصراع بين الإمبراطور فوكاس وهرقل الإمبراطور فيما بعد، حيث انتصر على فوكاس عام ٦١٠ للميلاد - كما ذكرنا.

ولسنا نعرف تماماً سبب هذه الخلافات، فهذا حنا النقيوسي المؤرخ والقريب العهد من الأحداث يقول :.. على أن بعض الناس يذهبون إلى أن اشتداد ذلك الصراع، واستعار لهبه إنما يرجع إلى اختلاف المذاهب الدينية، ولكنه لا يوضح الأمر، ولا يجلو الظلمة عن حقيقة ذلك، فلا ندري أكان بين (المونوفيسيين) و (الملكانيين) أم كان بين (الملكانيين) و (المونوثليين) أم بين اليهود والمسيحيين.^(١)

ونخرج من هذا التعليق بأن خلافاً شديداً وقع بين أطراف كثيرة في الإسكندرية قبيل دخول الجيش المسلم، كل ذلك والمقوقس في عاصمة الإمبراطورية ليعرض أمر الصلح على الإمبراطور، ولما رجع أعاد الهدوء شيئاً ما إلى أهل الإسكندرية، وإن كان هو نفسه لم ينس ما كان من رأيه في ديانة القبط اليعاقبة.

قال بتلر واصفاً حاله آنذاك : فكان يرضى بالإذعان للعدو وإسلام البلاد له ومصالحة من لا يؤمنون بدين المسيح، ولكنه ما كان ليرضى بأن يسالم القبط ويعفو عنهم.^(٢)

(١) فتح العرب ٢٧٣.

(٢) فتح العرب ٢٧٣.

ولذلك عاد سيرته الأولى في إذلال القبط وتعذيبهم وقهرهم، هذا هو الجو الداخلي للإسكندرية، صراع وتقاتل وخلافات، جعلت الفرصة مهيأة لدخول جيش الإسلام، ولكن محاولة الصلح كانت أسرع، فقد جاء المقوقس من القسطنطينية، ومعه عقد الإذعان والتسليم، فرحب به عمرو وأكرم وفادته، وقال له : لقد أحسنت في الشخوص إلينا، فقال المقوقس : إن الناس - أى كبار الروم - قد عولوا على دفع الجزية كيما تقف رحي الحرب، ثم قال : إن الله أعطاكم هذه الأرض فلا تدخلوا بعد اليوم في حرب مع الروم.

يقول بتلر معلقاً على طول مدة المفاوضات بين العرب والروم : ولعل المفاوضات والمشاورة قد استطلت مدة أيام كعادة أهل الشرق في مفاوضاتهم، ثم انتهى أمرها إلى صلح اتفق فيه الجانبان على شروطه جميعاً، وكتب بها عقد^(١) في الثامن من شهر نوفمبر عام ٦٤١ للميلاد^(٢)، ولنسم هذا الصلح (صلح الإسكندرية) كي نميز بينه وبين الصلح السابق الذي عقد في بابلين، فإن هذا الصلح الجديد إنما كان خاصاً في معظم شروطه بالإسكندرية وتسليمها.^(٣)

ولسنا مع بتلر في أن سبب التأخير هو عادة أهل الشرق، وإنما هي الكتب المتداولة بين الأمير والخليفة، فإن عمراً لم يرد عندما عرض المقوقس الصلح والجزية، وإنما قال : إن ورائي أميراً لا أستطيع أن أصنع شيئاً دونه، فإن شئت أن أمسك عنك، وتمسك عني، حتى أكتب إليه بالذي عرضت عليّ، فإن هو قبل ذلك منك قبلت، وإن أمرني بغير ذلك مضيت لأمره؟

وقبل المقوقس، وكتب عمرو إلى الخليفة وجاءه الرد :

أما بعد فإنه جاءني كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن ترد عليه ما أصيب من سبايا أرضه^(٤)، ولعمري لجزية قائمة تكون

(١) بعد تسعة أشهر من الحصار، وقال بعضهم : بل ثلاثة. والأصوب أنها ستة أشهر.

(٢) قال د. حسين مؤنس في الأطلس الإسلامى ١٣٤ : وقع عمرو معاهدة الإسكندرية في ١٦ شوال عام ٢١ للهجرة (الموافق ١٧ سبتمبر عام ٦٤٢ للميلاد).

(٣) فتح العرب ٢٧٦.

(٤) تشير هذه العبارة إلى أن حرباً قامت، وأخذ المسلمون فيها سبايا، ويبدو أن المسلمين كادوا أن يحكموا قبضتهم على الإسكندرية لولا تدخل المقوقس بالصلح.

لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحبة إلى من في^(١) يقسم ثم كأنه لم يكن، فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيروا من في أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومه، فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه فضع عليه من الجزية ما يوضع عليه من أهل دينه.^(٢)

وعلى أساس كتاب الخليفة صاغ عمرو بن العاص عقد الصلح، وقد أوردت كتب التاريخ نصوص هذا العقد، التي أصر عمرو على عرض بنودها على الخليفة أيضاً وبيان ما اتفق عليه الطرفان فيه، وشروطه هي :

الشرط الأول :

أن يدفع الجزية كل من دخل في العقد. ومعروف أن الجزية ديناران ديناران، على كل ذكر بالغ عاقل، فلا يدفع الطفل ولا المرأة جزية، وإذا دخل قبطي في الإسلام رفعت عنه الجزية، وصار عليه ما على المسلمين من زكاة، وفي الجزية ضمان للقبط على أموالهم وكنائسهم وأنفسهم ولهم حرية ممارسة شعائهم الدينية، فهم أهل ذمة لهم ما للمسلمين من حقوق، وقد تفرع عن هذا الشرط ستة شروط، هي :

- ١- لا يخرج القبط من ديارهم.
- ٢- لا يفرق بينهم وبين أزواجهم.
- ٣- لا يطردون من قراهم.
- ٤- لا تؤخذ أرضهم.
- ٥- لا تزداد قيمة الجزية عن دينارين.
- ٦- على المسلمين حماية ظهر القبط من عدوهم.

الشرط الثاني :

أن تعقد هدنة حوالى أحد عشر شهراً، تنتهى في أول بابة القبطى الموافق ٢٨ سبتمبر عام ٦٤٢ للميلاد، وقد جاءت مدة الهدنة عند ابن الأثير أقل من ذلك، والهدف منها هو مكاتبة الخليفة في المدينة عما اتفق عليه الطرفان وانتظار الرد، فهذه سياسة عمرو، لا يقدم على أمر في حكم مصر إلا بعد استشارة الخليفة.

(١) الفىء : الغنيمة والنفل يأخذه الجيش المنتصر، ويقسم على أفراد الجيش.

(٢) رسائل الخلفاء الراشدين ٣٠٦.

_____ مصر فى الإسلام _____

الشرط الثالث :

ألا يترك العرب ما فتحوه من مدن وقرى، ولا يسعوا إلى قتال، وأن يكف روم الإسكندرية عن قتالهم.

الشرط الرابع :

أن يرحل جنود الروم بحراً من الإسكندرية، ومعهم متاعهم.

الشرط الخامس :

ألا يأخذ المسلمون أى كنيسة من المسيحيين، ولا يتدخلوا فى أمورهم الدينية.

الشرط السادس :

السماح لليهود المقيمين فى الإسكندرية باستمرار إقامتهم فيها إذا شاءوا، وكان عددهم - كما قالت أغلب الروايات - سبعين ألف يهودى، أكثرهم من يهود الشام الذين هربوا إلى الإسكندرية من الغزو الفارسى واليونانى والرومانى.

الشرط السابع :

أن يبعث الروم رهائن من قبلهم : مائة وخمسين من جنودهم، وخمسين من غير الجند ضماناً لإنفاذ العقد.

الشرط الأخير :

ألا يعود جيش الروم إلى مصر أو يسعى لردّها.^(١)

ولكن هذا الشرط ما لبث أن نقضه الروم مرات محاولين استرجاع الإسكندرية، لكن المسلمين فى كل مرة كانوا لهم بالمرصاد، وسنتحدث عن هذه المحاولات بالتفصيل - إن شاء الله.

هذه هى نصوص العقد المبرم بين الإمبراطورية الرومانية والجيش انمسلم، أما المقوقس عظيم القبط فقد كان له شروط خاصة، ذكرها ابن عبد الحكم : قال المقوقس لعمره : لا تتقض بالقبط وألزمى ما لزمهم، وقد اجتمعت كلمتى وكلمتهم على ما عاهدتك عليه، فهم متمون لك على ما تحب، وأما الثانية إن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيداً، فإنهم أهل لذلك، لأنى

(١) هذه الشروط مجملة من كتاب فتح مصر لبتلر.

نصحتهم فاستغشوني، ونظرت لهم فاتهموني، وأما الثالثة فإنني أطلب إليك إذا أنا مت أن تأمرهم أن يدفنوني في أبي يُحَنَسَ بالإسكندرية، قال عمرو : هذه أهونهن علينا. (١)

ومن الواضح أن حالة من الانفصال كانت تسيطر على الموقف بين المقوقس والقوة الرومية، مع أن الروم هم الذين اختاروا المقوقس لحكم مصر، ويبدو أن هذه الحالة من التباعد والانفصال بين الفريقين نتجت عن تخلي الروم عن إمداد المقوقس بما يكفيه من القوة لمواجهة جيش الفاتحين، وإحساسه بأنهم غير صادقين في صلحهم، وأنهم لابد وأن ينقضوا هذا الصلح، ولذلك فهو يدعو عمراً إلى عدم مصالحتهم مرة أخرى، وهو احتمال يشير إليه قوله: (فلا تصالحتهم حتى تجعلهم فيئاً...)، ولاشك أن المقوقس الذي كان يعاني في أعماقه من خيبة أمله في قومه كان ينظر إلى جيش المسلمين نظرة استعظام وقدرة على إنزال الهزيمة بالروم وتحويلهم إلى فيء وغنيمة.

ونقطة أخرى هامة هي إحساس المقوقس بأن الأمر مادام قد صار في يد المسلمين فلا بد أن يتقرب إليهم حتى يبقوا على منصبه الديني على الأقل، وهو ما حدث فعلاً، فقد أبقاه عمرو زعيماً للقبط حتى توفي في ١٧ مارس عام ٦٤٢ للميلاد.

وعوداً إلى عهد الاتفاق، فبعده مباشرة نقض بعض الروم شروط الصلح، وهجموا على حامية مسلمة، وقتلوا من فيها على غرة، ولم يتباطأ عمرو، وتقدم لاسترداد الإسكندرية بمن معه من الصحابة، وهرب الروم الرافضون فتابعهم عمرو حتى قضى عليهم، واسترد الإسكندرية من هؤلاء الرافضين للصلح، وهذا الخبر هو الذي يعتمد عليه المؤرخون القائلون : إن الإسكندرية فتحت عنوة، وبغير عهد أو عقد.

وهناك مؤرخون يقولون إن الإسكندرية فتحت صلحاً معتمدين على بعض من شهد الفتح.

يقول ابن عبد الحكم : سأل الليث بن سعد (٢) شيخاً كبيراً عن فتح مصر، فقال: هاجرنا إلى المدينة أيام عمر بن الخطاب، وأنا محتلم، فشهدت فتح مصر،

(١) فتوح مصر ٧٢، وأبو يحنس : كنيسة بالإسكندرية.

(٢) أحد كبار التابعين.

فسئل: وإن كان أناس يذكرون أنه لم يكن لهم عهد، فقال الشيخ: ما يبالي ألا يصلى من قال إنه ليس لهم عهد^(١)، فسئل: فهل كان لهم كتاب؟، فقال: نعم.^(٢) وقد حدد الشيخ الكتب إلى إخنأ ورشيد والمنزلة.

وعلى كل الأحوال فسنحاول بقدر الإمكان ترتيب أحداث فتح الإسكندرية تاريخياً: خرج عمرو من حصن بابليون متجهاً إلى الإسكندرية في أواخر أبريل عام ٦٤١ للميلاد (الموافق ربيع أول عام ٢٠ للهجرة)، وعسكر حول الإسكندرية في يونية، وحاول فتحها حتى رجع المقوقس من القسطنطينية ومعه عهد الصلح في ١٤ سبتمبر ٦٤١ للميلاد (الموافق رمضان عام ٢٠ للهجرة)، وتم الصلح ودخل المسلمون الإسكندرية، وبدئ في كتابة شروط الصلح بعد عدة مراسلات، وأراد عمرو أن يطمئن الخليفة على نتيجة الفتح، فبعث بمعاوية بن خديج ليكون بشيراً بالفتح.

يقول ابن عبد الحكم: فقال معاوية لعمرو: ألا تكتب معي؟، فقال له عمرو: وما أصنع بالكتاب؟ ألسن رجلاً عربياً تبلغ الرسالة وما رأيت وحضرت؟. فلما قدم على عمر أخبره بفتح الإسكندرية، فخرّ عمر ساجداً، وقال: الحمد لله.^(٣)

ولما نقض الروم العهد وكرّ عليهم عمرو وقائلهم، بعث بكتاب إلى الخليفة بعد أن أمر الروم بإخلاء الإسكندرية في ١٦ شوال عام ٢١ للهجرة (الموافق ١٧ سبتمبر عام ٦٤٢ للميلاد) وتسلمها المسلمون بعد خروج جند الروم منها عن طريق البحر، وبذلك صارت إسلامية، وطويت صفحة من تاريخ الاستعمار في مصر، وانتهى عهد الرومان الذي دام أكثر من ستة قرون، وبعد تمام الفتح بعث الخليفة عمر إلى الأمير عمرو بن العاص مرسوماً بولاية مصر، وذلك في نوفمبر عام ٦٤٢ للميلاد (الموافق ذي الحجة عام ٢١ للهجرة).

أما كتاب عمرو للخليفة فكان شاملاً دقيقاً، لم يترك صغيرة ولا كبيرة في وصف الإسكندرية إلا ذكرها، قال عمرو: ... وإن الله فتح علينا الإسكندرية عنوة بغير عهد ولا عقد، وهي مدينة لا أقدر أن أصف لك ما فيها، وهي ثلاث مدائن

(١) يقصد: لن تنفعه صلاته.

(٢) فتوح مصر ٨٥. وكتاب هو: عهد مكتوب.

(٣) فتوح مصر ٨١.

بعضها فوق بعض، تختطف الأبصار من شدة بياض حيطانها، وفيها من الأعمدة الرخام ما لا يحصى، وبها منار من جملة عجائب الدنيا، وليس في سائر الدنيا أعجوبة تشاكله، وبها عمود يقال له عمود السوارى، ارتفاعه سبعون ذراعاً، وقطره خمسة أذرع، وله قاعدتان طول كل واحدة اثنا عشر ذراعاً..

ووجدت بالمدينة أربعة آلاف دار محكمة البناء مفروشة بالرخام الملون، وفي كل دار منها حمام يختص بها، ووجدت بها أربعمئة ملهى يرسم الملوك، ووجدت بها اثني عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر من بعد العصر إلى العشاء، ووجدت بها مائة ألف مركب من مراكب الروم الكبار، ووجدت بها أربعين ألف يهودى وجبت عليهم الجزية، ومن الروم والقبط ستمائة ألف إنسان سوى النساء والصبيان، ووجدت على المدينة ثلاثة أسوار مانعة، فأعان الله تعالى، وفتحت هذه المدينة على أيدي المسلمين.

ومن الواضح أن وصف عمرو للإسكندرية قد توخى الدقة البالغة التى تقدم قائمة بكل موجودات المدينة، حتى عد البقالين والمراكب، ووصف عمود السوارى والمنارة، والدور والحمامات والملاهى... إلخ..

ولو كان فى الإسكندرية آنذاك شىء غير ذلك لأفاض عمرو فى وصفه، فقد كان حريصاً على نقل الصورة الأمينة إلى أمير المؤمنين فى المدينة..

ولسوف نقيدها هذه الرسالة عند الحديث عن (مكتبة الإسكندرية) بعد قليل.



الفصل السادس

فتوحات ما بعد الإسكندرية



بعد أن فتح عمرو العاصمتين بابلين والإسكندرية، كانت هناك بعض الجيوب التي يجب السيطرة عليها حتى تصبح مصر كاملة في حوزة الإسلام، ولذا فقد أرسل عدة سرايا منها سرية عليها (عبد الله بن حذافة السهمي) إلى عين شمس مرة أخرى ففتحها وصالح أهل القرى المجاورة لها، ثم وجه (خارجة بن حذافة العدوي) إلى الفيوم والأشمونين^(١) وأخميم^(٢) وبعض قرى الصعيد الأخرى، ثم وجه (عمير بن وهب الجمحي) إلى تنيس^(٣) وتونة^(٤) ودميرة^(٥) وشطا^(٦) ودقهلة^(٧) وبنا^(٨) وبوصير، ووجه (عقبة بن عامر الجهني) وكذلك (وردان) إلى بقية القرى في مصر السفلى، وبعد نجاح هذه السرايا كان الصلح على ما كان عليه صلح بابلين والإسكندرية.

أما دمياط^(٩) فقد أرسل عمرو بن العاص إليها (المقداد بن الأسود) فحاصر أهلها بمن معه من العساكر حتى فتحها، وكان ملكها خال المقوقس اسمه (الهاموك)، وكان لهذا الملك ابن اسمه (شطا) رأى رسول الله ﷺ في المنام، وفي الصباح أعلن إسلامه، وحارب في صفوف المسلمين حتى استشهد، ودفنه المقداد خارج حدود دمياط.

-
- (١) الأشمونين : مدينة قديمة من مدن الصعيد غربى النيل فى محافظة المنيا حالياً، تجاهها على البر الشرقى للنيل مدينة أنصنا التى منها السيدة مارية زوج النبى صلى الله عليه وسلم.
- (٢) أخميم : مدينة من مدن الصعيد شرقى النيل، فى محافظة سوهاج الآن.
- (٣) تنيس : جزيرة صغيرة فى بحيرة تنيس (المنزل) .
- (٤) تونة : جزيرة فى بحيرة المنزل.
- (٥) دميرة : قرية كبيرة تقع غربى فرع دمياط.
- (٦) شطا : بلد قديم على شاطئ البحر الأبيض على رأس فرع دمياط، تنسب إليها الثياب الشطوية، كانت تصنع بها كسوة الكعبة.
- (٧) دقهلة : قال على مبارك : قرية قديمة من مديرية الدقهلية مركز فرسكور، سميت المحافظة باسمها.
- (٨) بنا : قال ياقوت : بينها وبين سمنود ميلان، وفى أطلس د. مؤنس موضعان على فرع دمياط باسم أبوصير بنا، والموضع الآخر باسم بنا بوصير.
- (٩) دمياط : أول مدينة على رأس فرع دمياط ناحية الشرق بينه وبين جزيرة تنيس (المنزلة).

قال ابن إياس : وكان قتله في ليلة الجمعة نصف شعبان، وتجمع إليه الناس من سائر النواحي، ويقصدون زيارة شطا رحمة الله عليه إلى يومنا هذا.^(١)

قال بتلر : وهو نفسه يوم الجمعة يوم ١٩ من يونية عام ٦٤٢ للميلاد.^(٢)

وبعد هذه الجهود صارت مصر إسلامية، ولكن بقيت نقطة خلاف : هل فتحت مصر عنوة أو صلحاً ؟؟ ولو رجعنا لمقولة عبد الله بن عمرو ملخصاً قصة فتح مصر لعرفنا أنها فتحت عنوة ثم صلحاً.

قال عبد الله: إن أبى قديمها فقاتله أهل اليونة^(٣)، ففتحها قهراً، وأدخلها المسلمين، وكان الزبير أول من علا حصنها.. فقال صاحبها^(٤) لأبى : إنه قد بلغنا فعلكم بالشام ووضعكم الجزية على النصارى واليهود وإقراركم الأرض في أيدي أهلها يعمرونها ويؤدون خراجها، فإن فعلتم بنا مثل ذلك كان أرد عليكم من قتلنا وسبينا وإجلاننا، قال عبد الله : فاستشار أبى المسلمين فأشاروا عليه أن يقسم الأرض بينهم.^(٥)

إذن فقد كان الصلح بحسب مشورة أغلب المسلمين، ثم أقره بعد ذلك أمير المؤمنين في المدينة، كما سنبين في - فصل نظام الحكم الإسلامى - ولم يبق بتقسيم الأرض على المسلمين، وإنما رأى أن تترك لأصحابها على أن يدفعوا خراجها، وقد اتفق على كل ذلك بعد حادثة القرى التي خرجت على المسلمين.

وقصة هذا الخروج أن بعض قرى مصر السفلى، وهى : بلهيب والخيس^(٦) وسلطيس وسخا خرجت ضد المسلمين وسارت مع الروم، فما كان من عمرو إلا أن ضرب أهلها وانتصر عليهم وأخذ منهم سبياً، واستحلهم المسلمون، وقالوا : هذا لنا فى... ثم أرادوا تقسيمهم عليهم، لكن عمراً قال : لا أقدر على ذلك حتى أكتب

(١) بدائع الزهور ٢ / ٢٥.

(٢) فتح العرب ٣١٥.

(٣) اليونة : يقصد حصن بابلين.

(٤) هو المقوقس، والأغلب أن هذا الكلام قيل بعد فتح الإسكندرية وعودة المقوقس من القسطنطينية.

(٥) فتوح البلدان ٢١٢.

(٦) كلها قرى في الدلتا.

لأمير المؤمنين، وبعث مع الاستشارة ببعض السبى إلى المدينة، فردهم عمر إلى مصر ومعهم هذا الرد:

((.. من كان منهم في أيديكم فخيروه بين الإسلام، فإن أسلم فهو من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، وإن اختار دينه فخلوا بينه وبين قريته..)).
ثم وضع أمير المؤمنين القاعدة التي يسير عليها عمرو في معاملته لأهل هذه القرى ومعهم أهل الإسكندرية لأنهم خرجوا مثلهم ثم عادوا إلى حظيرة الإسلام.
قال عمر : اجعل الإسكندرية وهذه الثلاث قرىات ذمة للمسلمين يضربون عليهم الخراج، ويكون خراجهم وما صالح عليه^(١) القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولا يجعلون فيناً ولا عبيداً.^(٢)

ومن الجلى أن عمر رضى الله عنه لم يكن من رأييه في كل أحواله أن يُستعبد الناس للفتاحين، لقد كان يعتق مبدأ، هو: (أن الأصل هو الحرية، وأن الإنسان لا يستعبد ما دام قد ولد حراً)، وإذا كانت هذه الرؤية قد غابت عن بعض من المسلمين، ممن كانوا يتصورون أن الفتوحات طريق إلى الثراء والمغانم، فإن المبدأ الأساسى الذى ألزم به عمر جنوده هو المبدأ الذى تقرر فى كتاب الله، فى قوله تعالى : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

ومادام المصريون قد خضعوا لسلطان الإسلام فمن حقهم أن ينالوا البر والقسط - كما أمر الله، وبذلك لم يستعبد مصرى فى ظل الإسلام، بعكس ما كان المصريون يلاقون على أيدي اليونان والرومان، وغيرهم من الشعوب التى غزت مصر، وأذاقت أهلها القهر والذل والهوان.

لقد كان هذا هو الموقف العمرى؛ تجاه الإنسان لا يستعبد، وتجاه الأرض لا تستملك للفتاحين، بل يبقى فيها أهلوها، ويدفعون خراجها. كان ذلك الموقف نقطة التحول فى نظرة المصريين إلى الإسلام، فدخلوا فى دين الله أفواجا، وصارت مصر بعد ذلك، حصن الإسلام المنيع.

(١) يقصد الصلح السابق فى بابلين.

(٢) فتوح مصر ٨٣.

مصر في الإسلام

وقد رافق فتح الإسكندرية ومصر جملة من الأخبار يمكن أن تحمل على محمل الأساطير، إذ لا سبيل إلى تحقيق ما جاء فيها، وقد اخترنا منها خبرين :

الخبر الأول : ذكره ابن أبياس، وهو يتعلق بفتح حصن بابلون.

يقول الخبر : كان على باب قصر الشمع - حصن بابلون - صنم من نحاس أصفر على خلقة الجمل، وعليه شخص راكب وهو في زي العرب، وعلى رأسه عمامة، وفي رجليه نعلان من جلد، فكانت القبط والروم إذا تظالموا واعتدى بعضهم على بعض يقفون بين يدي ذلك الصنم، ويقول المظلوم للظالم: إذا لم تتصفني قبل أن يجيء هذا الرجل العربي فيأخذ حقى لى منك، إن رضيت أو لم ترض. ويعنون بالراكب على الجمل النبي ﷺ، فلما فتح عمرو بن العاص مصر أخفت القبط ذلك الصنم لئلا يكون حجة عليهم.^(١)

وأما الخبر الثاني فيتعلق بفتح الإسكندرية. قال ابن عبد الحكم : كان بالإسكندرية باب لا يزال مغلقاً دائماً وعليه أربعة وعشرون قفلاً، فعزم المقوقس على فتحه، فنهوه^(٢) عن ذلك القساوسة والرهبان، وقالوا له : لا تفتح هذا الباب واجعل عليه قفلاً كما فعل من تقدمك من ملوك القبط^(٣)، فلم ينته عن فتحه، فقال له الرهبان : نحن نعطيك من المال ما خطر ببالك.. ولا تفتح. فلم يسمع لهم شيئاً وفتح، فلما دخل فيه لم يجد شيئاً من المال، ورأى على صدر الحائط منقوشاً هيئة تصاوير: العرب وهم على خيولهم بعمائمهم، وسيوفهم في أوساطهم، وهم على الخيل والإبل، ورأى تحت هذه الصور كتابة بالقلم القديم فأحضر من قرأ ذلك الخط، فإذا معناه : إذا فتح هذا المكان في آخر الزمان، فتملك العرب المدينة في السنة التي يفتح فيها.^(٤)

(١) بدائع الزهور ١ / ١٠٦.

(٢) الصواب : فنهاه.

(٣) دخلت النصرانية مصر على يد الإمبراطور قسطنطين الأول عام ٣٣٧ للميلاد.

(٤) فتوح مصر ١٠٨.

مصر في الإسلام

يقول ابن إياس معلقاً على هذا الخبر : وكان الأمر كذلك وملكوا^(١) العرب المدينة في تلك السنة، وكان كل من ملك الإسكندرية يجعل على ذلك الباب قفلاً، وهذه الأقفال بعدد من ملك الإسكندرية من الملوك.^(٢)

ومضمون هذين الخبرين يمكن أن يكون جزءاً من تنبؤات الكهنة والعرافين، إن لم يكن مما انتشر بعد الفتح من حكايات وأقاصيص على ألسنة البسطاء، ثم سجلته مراجع التاريخ كما نقلنا.



(١) الصواب (ملك).

(٢) بدائع الزهور ١ / ١٠٦.

نقض الروم عهد الإسكندرية

بعد تمام الفتح الإسلامي لمصر والإسكندرية حاول الروم في القسطنطينية نقض العهد بينهم وبين المسلمين مرتين:

المرّة الأولى: في السنة الخامسة والعشرين للهجرة، حين جهز الروم جيشاً بقيادة عمقويل الخصي، الذي جاء إلى الإسكندرية بجيش جرار به سفن كثيرة وعتاد كبير، وكان الروم قد كاتبوا حلفاءهم من روم وقبط في الإسكندرية قبل رحيلهم، ليقفوا معهم ضد العرب، فاستجاب لهم بعض الروم، أما القبط فلم يرد أنهم تجاوبوا معهم، وكان الأمير على الجيش المسلم آنذاك عبد الله بن أبي السرح^(١)، الذي تسلم الإمارة لتوّه من عمرو بن العاص حيث عزله الخليفة الجديد عثمان بن عفان، وأسرع الأقباط من أهل مصر يطلبون من الخليفة إعادة عمرو قائداً للجيش المسلم الذي سيواجه الروم، فهو أدري بفنون الحرب ضد الروم، وهم أكثر هبة له من غيره من القواد.

قال د. إدوار غالي الذهبي: عندما أغار البيزنطيون على الإسكندرية عام ٢٥ للهجرة (الموافق عام ٦٤٥ للميلاد) لطرده العرب من مصر نجد أهل مصر يسألون الخليفة عثمان بن عفان أن يرسل عمرو بن العاص لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بحروبهم... وأهل مصر ليس الجند العرب في مصر، وإنما القبط.^(٢)

ويبدو أن عمراً لم يكن قد غادر مصر بعد عزله، وأغلب الظن أن الروم لم يفكروا في المجئ إلى الإسكندرية لاستردادها من المسلمين إلا بعد عزل عمرو، وظنهم أن المسلمين مختلفون، وأن قيادتهم متفرقة، وأن القائد المغوار ابن العاص قد اعتزل الجهاد.

ولكن عثمان سرعان ما كتب إلى عمرو، فاستجاب عمرو لأمر الخليفة، وأسرع في وضع خطة الدفاع، وكان الروم قد جمعوا بعض من خرج على المسلمين من الروم دون القبط الذين التزموا بالمعاهدة مع بطاركتهم.

(١) كان أخاً لعثمان بن عفان في الرضاعة.

(٢) معاملة غير المسلمين ١٤٢.

وعندما وصل الجيش الرومى الإسكندرية اتجه ناحية الجيش المسلم للهجوم عليه مرة واحدة، ولكن كانت خطة عمرو التحرك تجاه الجنوب على أن يتتبعهم الروم، وحينئذ يلتفتون إليهم ويأخذونهم على غرة.

واختلف بعض الصحابة مع عمرو على هذه الخطة، ودار حوار بين أحدهم والقائد عمرو، ذكره ابن عبد الحكم، قال: .. قال خارجة بن حذافة لعمرو: ناهضهم قبل أن يكثروا مددهم، ولا آمن أن تنتفض مصر كلها. ورد عمرو: لا ولكن أدعهم حتى يسيروا إلى، فإنهم يصيبون من مروا به، فيخزي الله بعضهم ببعض.^(١)

وكان ما تصوره عمرو، فقد خرج الجيش الرومانى خلف الجيش المسلم فى قلب الدلتا، وجعل الجنود الرومان ينزلون كل قرية فيأكلون طعام أهلها ويشربون خمورهم، وينهبون كل ما يعرض أمامهم حتى وصلوا إلى الجيش المسلم عند نقيوس^(٢)، وتقابل الجيشان.

ووصف ابن عبد الحكم المعركة، قال: فلقوهم فى البر والبحر^(٣)، فبدأت الروم والقبط^(٤) فرموا بالنشاب فى الماء رمياً مباشراً حتى أصابت النشاب يومئذ فرس عمرو فى لينة^(٥) وهو فى البر فعقر، فنزل عنه عمرو، ثم خرجوا - أى: الروم - من البحر فاجتمعوا هم والذين فى البر فنضحوا المسلمين بالنشاب فاستأخر المسلمون عنهم شيئاً، وحملوا على المسلمين حملة ولى المسلمون منها، وانهزم شريك ابن سمي^(٦) فى خيله.

وكانت الروم قد جعلت صفوفاً خلف صفوف، وبرز يومئذ بطريق ممن جاء من أرض الروم على فرس له عليه سلاح مذهب، فدعا إلى البراز، فبرز إليه رجل

(١) فتوح مصر ١٧٥.

(٢) زاوية رزين قرب مدينة ملوف.

(٣) يقصد فرع رشيد.

(٤) ذكرت بعض المصادر أن عدداً قليلاً من سكان مصر من القبط شاركوا الروم فى هذه المعركة.

(٥) لينة: صدره، وهو اللبان أيضاً.

(٦) كان قائد الخيالة.

من زبيد يقال له: حومل، ويكنى أبا مذحج، فاقتتلا طويلاً برمحين يتطاردان، ثم ألقى البطريق الرمح وأخذ السيف، وألقى حومل رمحه وأخذ سيفه، وكان يعرف بالنجدة، وجعل عمرو يصيح: أبا مذحج، فيجيبه: لبيك، والناس على شاطئ النيل في البر على تعبثهم وصفوفهم، فتجادلا ساعة بالسيفين ثم حمل عليه البطريق فاحتمله فكان نحيفاً، ويخترط حومل خنجراً من منطقته أو في ذراعه فضرب به العلاج في ترقوته فأثبته، ووقع عليه فأخذ سلبه، ثم مات حومل بعد ذلك بأيام^(١) رحمة الله عليه، فرئى عمرو وهو يحمل سريره بين عمودى نعشه، حتى دفنه بالمقطم.

ثم شد المسلمون عليهم فكانت هزيمتهم، فطلبهم المسلمون حتى ألحقوهم بالإسكندرية، ففتح الله عليهم وقتل عمرو بن عبد الحميد^(٢).

ولم يكتف عمرو بالانتصار عليهم وقتل قائدهم، وإنما طاردهم في داخل مدينة الإسكندرية وأشبعهم تقتيلاً، حتى كلمه بعض من معه من الجند في ذلك فوقف عن قتالهم في مكان بنى عليه مسجد بعد ذلك سمي (مسجد الرحمة)^(٣)، كما قال ابن عبد الحكم.

ولاشك أن استمرار عمرو في مطاردة فلول الروم إنما كان ليحول بينهم وبين أن يجتمعوا مرة أخرى، ويعاودوا قتال المسلمين، فلما تبين له أنهم انتهوا إلى غير رجعة أمسك عن مطاردة فلولهم، ولم ترد أخبار بأن عمراً أخذهم أسرى، وقد كان بوسعه بعد أن حقق انتصاره الساحق عليهم أن يجمعهم وهم في أضعف أحوالهم، ولكن لم يكن في أسرهم في تقديرنا - أية ميزة سياسية، لأن الأسير إنما يؤخذ للمساومة على فكك أسير مثله لدى الأعداء، وهو مالا وجود له في هذا المجال.

(١) يبدو أن المقصود بكلمة أيام هنا ما يكفي لعودة حومل من مجال المعركة التي خاضها وجرح فيها - عودته إلى الفسطاط ومحاولة علاجه جراحاته إلى أن انتهى المسلمون من مطاردة الروم في الإسكندرية، وتمكنوا من المدينة، ثم عاد عمرو وأصحابه إلى الفسطاط، وهنا مات حومل، فرئى عمرو يحمله إلى مثواه الأخير في المقطم، فدفن حيث مات.

(٢) فتوح مصر ١٧٦.

(٣) قالت د. سعاد ماهر: إن عمرو بن العاص هو الذي وضع أساس هذا المسجد.

مصر في الإسلام

وعاد الأمر كما كان من قبل مجئ حملة عمנוيل، وأخذ الروم في الإسكندرية مع القبط واليهود يدفعون الجزية والخراج لأمير مصر.

ولما علم الخليفة عثمان بخبر الانتصار على الروم للمرة الثانية بقيادة عمرو ابن العاص، أراد أن يكافئه بأن يجعل منه شريكاً لعبد الله بن أبي السرح في حكم مصر، على أن يتولى هو الإمارة والحرب، ويتولى ابن أبي السرح الخراج، فرفض عمرو، وقال قولة مأثورة: (أنا إذن كماسك البقرة بقرنيها، وآخر يحلبها).

وهنا تستوقفنا عبارة عمرو لتساءل عن المغزى الذي كان يقصده بهذا التمثيل؟ أكان يعبر عن مذهب له في الحكم؟ يرى أن يجمع به كل خيوط السلطة بين يديه سواء منها السياسية والعسكرية والمالية والإدارية؟ أم كان يكره أن يعود إلى ولايته مع خضوعه لرقابة ابن أبي السرح وهو في موقفه ممثل لأمير المؤمنين عثمان؟

ويبدو لنا أن الاحتمال الأول هو الراجح، لا لأنه تعبير عن أنانية عمرو أو ميله للاستئثار بالسلطة، ولكن لأن هذا كان اتجاه الحكومة المركزية في المدينة في ذلك الوقت، حيث كانت تعتبر الوالى مسئولاً عن كل شيء، وبذلك نرى عمراً رفض تغيير المبدأ الأساسى دون أن يكون لهذا التغيير مبرر، ومع ذلك فقد امتثل عمرو لأمر الخليفة عثمان، وخرج من مصر بعد انتصاراته الهائلة، واتجه إلى فلسطين بعد أن عاش في المدينة مدة قصيرة، وهناك اعتزل كل شيء، حتى قدر الله له العودة إلى مصر مرة ثانية بعد اثنتى عشرة سنة.

ومرة أخرى ينقض الروم العهد:

معركة ذات الصوارى أو فينيكوس:

مازالت الإسكندرية ومصر حلم الروم الغارب، فقد راودهم هذا الحلم مرات ومرات، وكل مرة يتذكرون العهد مع المسلمين، ولكنهم أجمعوا أمرهم أخيراً على نقض العهد ومحاولة استرداد الإسكندرية مرة ثانية.

ولابد أن نتساءل عن السر الذى دفع الرومان إلى محاولة استرداد مصر، والذى وقف بهم عن هذه المحاولة بالنسبة إلى الشام؟

ولعل النظرة الأولى تجيبنا عن هذا التساؤل، فمن الناحية الجغرافية يعتبر الشام بالنسبة إليهم مجهلاً مغلقاً ليس له امتداد جغرافي في القارة، أما مصر فهي مفتاح إفريقية، وقد كانت للرومان جيوب ومراكز استعمارية على طول الشاطئ الشمالي لإفريقية، ومن الناحية الاستراتيجية يستطيع من يملك مصر أن يحاصر الشام ويسترده في أي صدام قادم، كما أنه يستطيع أن يستخدم المصريين وقوداً لمعاركه في الشرق والغرب، دون حاجة إلى ركوب البحر وحمل الجند على ظهور السفن بما يمثله ذلك من مخاطر تتعرض لها القوة المهاجمة.. غير أنهم واجهوا في هذه المعركة مفاجأة لم يتوقعوها، وهي تقدم المسلمين في أساليب القتال في البحر وصناعة السفن، التي ظهر تفوقها على أضعاف أعدادها من سفن الرومان، كما سيتضح من متابعة سير المعركة.

وكان الأمل هو الذي دعا الإمبراطور^(١) الروماني ومن معه إلى الإقدام على هذه المغامرة - مغامرة استرجاع الإسكندرية، ودار حوار في القسطنطينية بين الإمبراطور وكبار مستشاريه، وأخذوا يتلاومون في تركهم مصر والإسكندرية في يد المسلمين، ثم أجمعوا أمرهم على إعداد أسطول كبير قوامه ألف سفينة، ويتوجهون به إلى الإسكندرية، وكان القائد الإمبراطور نفسه الذي أمر بعدم تخلف أحد من كبار القادة وقال: ما بقاء الروم بعد الإسكندرية؟؟

وهذا هو اللقاء الثالث بين جيوش الروم والمسلمين في مصر، وذلك في عام ٣٤ للهجرة (الموافق عام ٦٥٥ للميلاد)، والخليفة عثمان بن عفان ووالى مصر من قبله عبد الله بن أبي السرح، وكان لما سمع باستعداد الروم واتجاههم إلى الإسكندرية أعد عدته، وخرج للقاء الروم في مائتي سفينة، وتقابل الجيشان.^(٢)

وبدأ القتال أولاً بالنبال والنشاب، ثم تشابك المتحاربون بالسيوف والخناجر، ولكثرة السفن المتحاربة سميت المعركة (ذات الصواري)، وفيها هزم الله جيش الروم، وارتد الإمبراطور قسطنطين^(٣) هارباً إلى بلاده بعد انكساره، وعند جزيرة

(١) هو قسطنطين بن هرقل.

(٢) قيل: خرج معاوية بن أبي سفيان بجيش من الشام واشترك في هذه المعركة.

(٣) هو كونستانتز الثاني ابن هرقل، ولد عام ٦٣٠ للميلاد، وتولى الإمبراطورية عام ٦٥٢ للميلاد.

مصر في الإسلام

صقلية قامت عاصفة شديدة كادت تودي بالبقية الباقية من السفن لولا رسوها على شاطئها.

ويذكر ابن عبد الحكم ما حدث له بعد ذلك، يقول:.. ونجا قسطنطين بمركبه، فألقته الرياح بصقلية، فسأله عن أمره، فأخبرهم، فقالوا: شمت أعداء النصرانية وأفنيت رجالها، لو دخل العرب علينا لم نجد من يردهم. فقال: خرجنا مقتدرين فأصابنا هذا، فصنعوا له الحمام ودخلوا عليه، فقال: ويلكم تذهب رجالكم وتقتلون ملككم؟ قالوا: كأنه غرق معهم، ثم قتلوه وخلوا من كان معه في المركب.^(١)

أما بتلر فيعلق على نتيجة هذه المعركة موضحاً موقف الروم من مصر ومن بقية البلاد المفتوحة، ومبيناً أثر هذه الهزيمة على الجيوش البيزنطية، يقول: وأصاب أسطول الروم بعد خيبته في القتال عاصفة شديدة حتى لم يبق منه إلا حطاماً بعدما كان من عظيم شأنه، وكانت بقاياها لعبة للأمواج تعبت بها، وتشتتها، ومنذ ذلك الحين لم يخش المسلمون شيئاً، اللهم إلا غزوات مفردة... وقد أسرع الانحلال إلى الحضارة الرومانية الإغريقية التي كانت مهيمنة بالبلاد، وحلت محلها حضارة جديدة عربية تسير بخطى وثيدة.^(٢)

فعلاً لقد باءت محاولات أباطرة الروم لاسترداد مصر بالفشل، وأراد الله لمصر أن تبقى عربية مسلمة إلى آخر الزمان - إن شاء الله.

وحتى لا يتكرر غدر الروم، فقد وضع عمرو في ولايته الثانية لمصر قانوناً حربياً، بأن جعل ربع من معه من الجنود رباطاً في الإسكندرية وحدها، يتغيرون كل ستة أشهر، وحذا حذوه الولاة من بعده، فلم يغفلوا عنها، ولم يأمنوا الروم عليها، فهي باب مصر الشمالي، ومفتاحها ناحية البحر الأبيض، ولذلك كان الجند لا يبرحونها.

قال السيوطي: كان بالإسكندرية وحدها سبعة وعشرون ألف مرابط.

(١) فتوح مصر ١٩١.

(٢) فتح العرب لمصر ٤٢٩.

ولابد أن نذكر هنا أن الإسكندرية لم يكن بها خطط وتقسيمات، وإنما كل من وضع رمحاً في مكان فهو له ينزل فيه حتى تنتهي مدة رباطه، ولذلك قيل: لا يحل كراؤها أو بيعها أو إرثها، وإنما هي سكن فقط، وهذه الدور التي سكنها الفاتحون لم تكن ملكاً لأحد، إنما هي منازل الروم التي هجروها بعد الفتح، ورحلوا إلى القسطنطينية، ولم يذكر من الفاتحين أحد اختط وبنى بها إلا الزبير بن العوام فيما بعد.



الفصل السابع

مكتبة الإسكندرية



ويجرنا الحديث عن فتح مصر والإسكندرية إلى قضية هامة ومثيرة، طالما تناولها المؤرخون القدامى والمحدثون، عرباً وأوربيين: قضية مكتبة الإسكندرية الشهيرة، التي كانت إحدى المؤسسات الحضارية الضخمة، أنشأها الإمبراطور بطليموس الأول، (عام ٣٠٠ قبل الميلاد)، بعد أن تسلم حكم مصر خلفاً للإسكندر المقدوني، وكان هدف بطليموس من بناء هذه المكتبة نقل الفنون والآداب والعلوم اليونانية إلى مصر.

وقد اتسعت هذه المكتبة ونمت في عهد كل من بطليموس الثاني والثالث، حتى قيل: إن عدد كتبها بلغ حوالي ٤٠٠,٠٠٠ لفافة متنوعة، ونحو ٩٠,٠٠٠ لفافة مفردة، وكانت هذه اللفافات عبارة عن جلد أو أوراق من نبات البردي مدون عليها كل علوم البشر آنذاك.

وسبب حديثنا عن مكتبة الإسكندرية أن هناك من يقول: إن الفاتح العظيم عمرو بن العاص هو الذي أحرق هذه المكتبة، أو أنه تلقى أمراً من الخليفة عمر بأن يحرقها، فأحرقها، وهو قول باطل لا يحتاج إلى دليل بطلانه، فما كان الفاتحون المسلمون إلا حملة كتاب، انطلقوا بتعاليمه في أرجاء الأرض يعلمون الإنسانية ويزكونها، فليسوا هم الذين يمكن أن يعتدوا على كتب المعرفة الإنسانية، ولا شك أن البلاد الكثيرة التي فتحها المسلمون كانت تملك أيضاً تراثاً مدوناً بلغاتها، مخزوناً في مكتباتها، كبرت أو صغرت، ولم يرو التاريخ أية واقعة أحرق فيها كتاب أثناء هذه الفتوحات الكثيرة، في الشرق أو في الغرب، لأن المسلمين كانوا يعتقدون أن كتابهم الذي جاءهم به نبيهم كان مصداقاً لما بين يديه من الكتب السابقة، فهم لا يحملون في قلوبهم عدواناً، أو إرادة عدوان، على تراث السابقين عليهم، وقد حفظوا عن نبيهم ﷺ قوله في شأن أهل الكتاب: (اتركوهم وما يدينون).

ولذلك تعتبر دعوى إحراق عمرو بن العاص لمكتبة الإسكندرية -إبان الفتح- فرية لا تحتاج إلى دحض، ويكفي أن نرجع إلى أقوال بعض مؤرخي الغرب المعتدلين وإلى الموسوعات الموثقة لنؤكد براءة ساحة المسلمين من هذا الاتهام الخطير، ونكشف عن وجه الحق في هذا الاتهام، ونحدد مرتكبي هذه الجريمة الحضارية.

مصر في الإسلام

وأول من كتب هذه الفرية - فيما وقع لنا حتى الآن - ثلاثة مؤرخين شرقيين عرب، ومن الصدفة العجيبة أن ثلاثهم كتبوا ماكتبوه في القرن السابع الهجري، والثالث عشر الميلادي، أي: بعد الفتح الإسلامي لمصر بأكثر من ستة قرون.

وأول هؤلاء المدعين المؤرخ عبد اللطيف البغدادي^(١) الذي عاش أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري، وقد أورد اتهامه لعمر بن العاص في كتابه (الإفادة والاعتبار بما في أرض مصر من أخبار)، وذكر ذلك الاتهام دون سند أو مرجع.

أما الثاني فهو ابن القفطي^(٢) الذي عاش في زمن البغدادى وبعده بقليل، ونقل الاتهام عن رواية لأسقف نصراني اسمه يوحنا النحوي، الذي توفي إبان الفتح، ونقل عن ابن القفطي هذا الاتهام كل من أبو الفدا والمقريزي.

أما ثالثهم وهو من نفس العصر - القرن السابع الهجري - فهو أبو الفرج العبري^(٣)، إلا أنه ذكرها بالتفصيل المؤكد لصحتها وليس كسابقه الذين ذكروا القصة تلميحاً، لا كتأكيد أبي الفرج.

(١) عاش ومات في بغداد، ولد عام ٥٥٧ للهجرة (الموافق ١١٦٢ للميلاد)، وتوفي عام ٦٢٩ للهجرة (الموافق ١٢٣١ للميلاد)، ويعتبر من كبار الفلاسفة والمؤرخين المسلمين، له تصانيف كثيرة في الحكمة وعلم النفس والتاريخ والطب والأدب، من كتبه: (الإفادة والاعتبار بما في مصر من أخبار) كتبه عندما زار مصر، وذكر فيه حكاية احراق مكتبة الإسكندرية.

(٢) هو علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي، وزير مؤرخ، ولد بقفط بصعيد مصر بمحاظفة أسيوط، ثم انتقل إلى حلب وسكنها وولاه الملك الظاهر بيبرس القضاء بها، ولد القفطي عام ٥٦٨ للهجرة (الموافق ١١٧٢ للميلاد)، وتوفي عام ٦٤٦ للهجرة (الموافق ١٢٤٨ للميلاد)، ذكر قصته عن حريق مكتبة الإسكندرية في كتابه (أخبار العلماء بأخبار الحكماء).

(٣) اسمه جريجوريوس يوحنا بن أهارون بن توما الملطى، ولد عام ٦٢٣ للهجرة (الموافق ١٢٢٦ للميلاد)، وتوفي عام ٦٨٠ للهجرة (الموافق ١٢٧٧ للميلاد)، وهو مؤرخ سرياني مستعرب من نصارى اليعاقبة (المارون) فرّ مع أبيه من مألطة إلى أنطاكية، وتعلم العربية واشتغل بالفلسفة واللاهوت، وتنقل في البلدان، ثم انتطع في بعض الأديرة حتى نصب أسقف في ملطية عام ٦٥٣ للهجرة، وارثنى لرتبة جاثليق على كرسي المشرق، ودفن في دير مارمرقس في الموصل، كان عالماً باللغات الفارسية واليونانية والسريانية.

مصر في الإسلام

قال بئتر: إن القصة فيها عنصر من عدم الثقة، وقد ناقشها جبون بشيء من الإيجاز ثم رفضها، ولم يترجم إلا المختصر العربي لأبى فرج، وقيل: إن القصة ليست في الأصل السرياني ولعلها أدخلت فيما بعد.^(١)

وهذا الدكتور حسن إبراهيم يتهم البغدادي وحده فيقول: فالتبعة واقعة إذن على عبد اللطيف البغدادي، لا على ابن القفطي وأبى الفرج، إذا فرض أن عبد اللطيف هو أول من ذكر هذه المسألة.^(٢)

وسنورد ما قاله أبو الفرج العبري (نقلًا عن كتاب فتح مصر)، قال: قد كان في ذلك الوقت رجل اشتهر بين المسلمين اسمه حنا الأجرومي، وكان من أهل الإسكندرية، وظاهر من وصفه أنه من قسوس مصر، ولكنه أخرج من عمله، إذ نسب إليه زيغ في عقيدته، وكان عزله على يد مجمع من الأساقفة انعقد في حصن بابلون.

وقد أدرك ذلك الرجل فتح مصر والإسكندرية، واتصل بعمر، فلقى عنده حظوة لما توسم فيه من صفاء الذهن، وقوة العقل والذكاء، وعجب مما وجد عنده من غزارة العلم.

فلما أنس الرجل من عمرو ذلك الإقبال، قال له يوماً: لقد رأيت المدينة كلها، وختمت على ما فيها من التحف، ولست أطلب إليك شيئاً مما تنتفع به، بل شيئاً لا نفع له عندك، وهو عندنا نافع. فقال له عمرو: وماذا تعنى بقولك؟ فقال: أعنى بقولي ما في خزائن الروم من كتب الحكمة. فقال له عمرو: إن ذلك أمر ليس لي أن أقتطع فيه رأياً دون إذن الخليفة.

ثم أرسل كتاباً إلى عمر يسأله في الأمر، فأجابه عمر -زعموا- قائلاً: أما ما ذكرت من أمر الكتب، فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء في كتاب الله فلا حاجة لنا به، وإذا خالفه فلا أرب لنا فيه وأحرقها ... (كذا).

(١) هامش فتح مصر ٣٤٨.

(٢) تاريخ الإسلام ١ / ٢٤٢.

فلما جاء الكتاب إلى عمرو أمر بالكتب، فوزعت على حمامات الإسكندرية لتوقد بها، فما زالوا يوقدون بها ستة أشهر، ثم قال ابن العبري: فاسمع واعجب.^(١)

يطلب العجب من الكمية الهائلة للكتب، ونحن بدورنا نعجب من الخبر ككل، فالحكاية لم تذكر كما علمنا - إلا بعد قرابة ستة قرون من دخول المسلمين الإسكندرية، وكأنها كانت في طي النسيان، حتى جاء الراوى ونفض عنها التراب، وأماط عنها اللثام، وهنا سؤال: كيف يأمر الخليفة واليه أمراً بحرق الكتب فيوزعها الوالى على أصحاب الحمامات، ولم يحرقها في مكانها فوق ربوة القلعة عند بناء المكتبة بدلاً من تكلف مشقة حمل الكتب من مكانها إلى الحمامات، ناهيك عن احتمال بيعها أو إخفائها عن طريق هؤلاء الحماميين.

يقول بتلر: وكان من الممكن لحنا فيلبونوس استنقاذ عدد عظيم من الكتب بثمان بخس في تلك الشهور الستة التي قيل إنها جعلت وقوداً للحمامات فيها.

وبعد، فما لاشك فيه أن كثيراً من الكتب في مصر في القرن السابع كانت من الرق - الجلد - وهو لا يصلح للوقود، وما كان أمر الخليفة يجعله يصلح لذلك.^(٢)

ويقول: إن هذه القصة وإن كانت متداولة بين الناس، يمكن أن تكون قد أخذت عن كتاب العصور الوسطى.^(٣)

وكاتب آخر كتب هذه القصة هو: المقرئ في كتابه (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار) قال تلميحاً أثناء حديثه عن معبد السرابيوم: ويذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق أرسطوطاليس الذى كان يدرس به الحكمة، وأنه كان دار علم، وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص بإشارة من عمر بن الخطاب رضى الله عنه.^(٤)

(١) فتح مصر ٣٤٥.

(٢) فتح مصر ٣٤٥.

(٣) السابق.

(٤) خطط المقرئ ١ / ٢٥٩.

وقد وقف بعض المؤرخين المعاصرين ممن لا يتصفون بحياد الموقف، أو بنزاهة الرؤية، أو بموضوعية المعالجة - وقفوا أمام هذا الخبر العجيب، وكأنما عثروا على لُقطة، فطاروا بها كل مطار، وأخذوا يعلقون عليها وصفاً وتفسيراً، وغمزاً ولمزاً، قصداً إلى تشويه صورة الفتح الإسلامي لمصر، بتشويه صورة الفاتح العظيم عمرو بن العاص، ومن هؤلاء القصاص المتأرخ جورجى زيدان، قال فى كتابه (تاريخ التمدن الإسلامى): إن المسلمين هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية. ويدل على ذلك بأن المسلمين كانوا يرون القرآن صفوة العلوم، ولم يجدوا حاجة لسواه.^(١)

وقال فى موضع آخر من كتابه (تاريخ مصر الحديث):... على أن بعض الكتبة ينزهون الإمام عمر بن الخطاب عن تلك الفعل، وكنا قد جاريناهم فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب، ثم تبين لنا بالبحث ترجيح صحتها.^(٢)

وعلى الجانب الآخر نجد من نهض يدفع هذه الفرية، دفاعاً عن التاريخ الإسلامى: جاء فى (الموسوعة العربية الميسرة): كان بالإسكندرية فى العهدين اليونانى والرومانى مكتبتان: الأولى: المكتبة الكبرى، وكانت بالبروكيوم من أحياء الإسكندرية، والثانية المكتبة الصغرى، وكانت بمعبد السرابيوم، وتلك أنشأها بطليموس، وقد بلغت مجموعاتها حوالى ٤٣,٠٠٠ من لفائف البردى.

ولما وصل يوليوس قيصر عام ٤٣ قبل الميلاد نشبت معركة بحرية، واشتعل حريق هائل أتلّف دار صناعة السفن، وما جاورها من المباني وفيها مكتبة الإسكندرية العظمى، وذهب المؤرخ (بلوتارك)^(٣) إلى أن مقدار ما التهمته النيران فى تلك الحادثة بلغ ٤٠٠,٠٠٠ مجلد، وبذلك فقدت الحضارة تراثاً لا يمكن أن يعوض، ورأى يوليوس قيصر أن يعوض مصر عن هذه الخسارة العلمية، فأهدى كليوباترا ما يقرب من ٢٠٠,٠٠٠ مجلد غنمها من مكتبات برماجون^(٤)، وقد

(١) من مقالة (من أحرق الإسكندرية) مجلة الوعي الإسلامى ٣٥٨.

(٢) تاريخ مصر الحديث ٨٩/١.

(٣) مؤرخ وناقد يونانى زار مصر وإيطاليا وأثينا، توفى عام ١٢٠ للميلاد.

(٤) مدينة قديمة شمال غرب آسيا الصغرى، حكمتها أسرة إغريقية منذ حوالى عام ٣٠٠ قبل الميلاد، سماها بتلر: برجاموس.

أودعت هذه المجموعة أحد المعابد، والمعروف أن هذا المعبد ^(١) ومكتبته قد دمرنا في أثناء الثورات التي وقعت في عام ٣٦٦ للميلاد، أما مكتبة معبد السرابيوم ^(٢) فقد امتدت يد التدمير إليها في القرن الرابع للميلاد، فنقل بعض كتبها إلى القسطنطينية، وتشتت الباقي حوالى عام ٣٩١ للميلاد. ^(٣)

ولابد أن نشير إلى دفاع بعض مؤرخى الغرب وتعليقهم، فهذا د. جستاف لوبون يقول: وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم فمن الأعمال الهمجية التى تأبأها عادات العرب، والتى تجعل المرء يسأل: كيف جازت القصة على بعض العلماء الأعلام زماناً؟ وهذه القصة دحضت فى زماننا، فلا نرى أن نعود إلى الحديث فيها، ولا شىء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين فى الإسكندرية قبل الفتح العربى بعناية كالتى هدموا بها التماثيل، ولم يبق منها ما يحرق... وأما ما نجا منها وهو قليل فقد نقل إلى مكتبات آسيا الصغرى وأوربا ليحكه الرهبان - بعد أن ندر وجود الرقوق وارتفعت أثمانها - ويبدلوا بما فيها من كتابات المؤلفين اليونان والرومان مواعظهم الدينية، ولولا العرب لضاع أكثر الكتب الرائعة القديمة التى زُعم أنها حفظت فى أروقة الأديار باعتناء. ^(٤)

وقد ورد فى الخطط التوفيقية قول المؤلف على باشا مبارك:.. فى الندوة السنوية لمجلس اللانستيتيون أى: المجلس التعليمى، من ضمن ما قيل فى جلسة أغسطس عام ١٨٧٤ للميلاد - إن بولص أورو، من تلامذة ماراى أوجستان،

(١) قال بتلر: وخربه القيصر ونهبه عام ٣٦٦ للميلاد، فى أثناء نضال دينى، وأغلب الظن أن المكتبة التى كانت فيه قد ذهبت ضحية فى ذلك النضال. (فتح العرب ٣٥٨).

(٢) قال بتلر: وكان السرابيوم بلا شك حصن الوثنية وملاذها، وظل الوثنيون مدة يغيرون من هناك على المدينة، فثار المسيحيون بأن حاصروا قلعة (الأكروبولس)... ثم اتفق الجانبان على تحكيم الإمبراطور ققضى تيودوسيوس للمسيحيين.. فهرب عبدة الأوثان المصرية القديمة، وأهوى المسيحيون إلى المعبد العظيم، وعلى رأسهم (نيوفيلوس) وجعلوا يهدمونه ويخربون ما فيه، وكان ذلك عام ٣٩١ للميلاد، ولا يختلف فيه اثنان.. فإذا نحن آمننا بأن المكتبة كانت ملحقة بالمعبد، وبأن المعبد قد خرب ودمر، فكيف يمكن إن نقول أن المكتبة قد نجت. (فتح العرب ٣٦٢).

(٣) الموسوعة العربية الميسرة ١٧٣٤.

(٤) حضارة العرب ٢١٣ و ٤٨١.

ومارى جيزوم - لم يجد شيئاً من الكتبخانة حين مروره بالإسكندرية عام ٤١٤ للميلاد، يعنى قبل دخول سيدنا عمرو بلاد مصر بمائة وثلاثين سنة.^(١)

فالظاهر أن القول بأن إحراق كتبخانة الإسكندرية كان بأمر سيدنا عمرو - محض إفتراء اختلقته قسوس النصارى، فإنه قد حصل إحراقها مراراً قبل دخول الإسلام، والكتب القديمة الموروثة عن الأعصر الخالية قد محتها أيدي النصارى.

وهذا تعليق آخر للمؤرخ د. بتلر، فقد أفرد باباً كاملاً فى كتابه (فتح العرب) عن مكتبة الإسكندرية، وفى آخر الباب، قال:.. ولعلنا لا نكون مخطئين إذا نحن أجمالنا فيما بلى أدلة حجتنا، فإن قصصنا حقيقة أن نعرف أمر مكتبة الإسكندرية ومقدار نصيب قصة إحراق العرب لها من الصحة أو الكذب، وقد بينا فيما سلف الأمور الآتية:

١- أن قصة إحراق العرب لها لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة.^(٢)

٢- أننا فحصنا القصة وحللنا ما جاء فيها فالفينا سخافات مستبعدة ينكرها العقل.

٣- أن الرجل الذى تذكر القصة أنه أكبر عامل فيها مات قبل غزوة العرب بزمان طويل - والرجل هو حنا فيلبس - النحوى الأجرومي -، قال بتلر: كان يكتب عام ٥٤٠ للميلاد، أى: قبل الغزو بأكثر من مائة عام.

٤- أن القصة قد تشير إلى واحدة من مكتبتين: الأولى مكتبة المتحف، وهذه ضاعت فى الحريق الكبير الذى أحدثه قيصر - دقلديانوس^(٣) - وإن لم تتلف عند ذلك كان ضياعها فيما بعد فى وقت لا يقل عن ٤٠٠ عام قبل الفتح الإسلامى.

وأما الثانية وهى: مكتبة السرابيوم، فإما أن يكون قد نقلت من المعبد قبل عام ٣٩١ للميلاد، وإما أن تكون قد هلكت أو تفرقت كتبها وضاعت قبل الفتح الإسلامى، فتكون على أى حال اختفت قبل الفتح العربى بقرنين ونصف قرن.

(١) الخطط التوفيقية ١١٥/٧.

(٢) لم يذكر سعيد بن البطريق للمؤرخ المسيحى المصرى، الذى ولد بالقسطاط عام ٢٦٣ للهجرة (الموافق ٨٧٦ للميلاد) هذه القصة مع كتاباته الدقيقة عن مصر.

(٣) حكم الإمبراطورية الرومانية عام ٢٨٤ للميلاد، بداية تاريخ الشهداء.

٥- أن كتاب القرنين الخامس والسادس لا يذكرون شيئاً عن وجودهما، وكذلك كتاب أوائل القرن السابع الميلادي.

٦- أن هذه المكتبة لو كانت لا تزال باقية عندما عقد قيرس (المقوقس) صلحاً مع العرب على تسليم الإسكندرية - لكان من المؤكد أن تنقل هذه الكتب، وقد أبيح ذلك في شرط الصلح الذي يسمح بنقل المتاع والأموال في مدة الهدنة التي بين عقد الصلح ودخول العرب في المدينة، وقدر ذلك أحد عشر شهراً.

٧- لو صح أن هذه المكتبة قد نقلت أو لو كان العرب قد أتلوها حقيقة لما أغفل ذلك كاتب من أهل العلم كان قريب العهد من الفتح مثل (حنا النقيوسي) ولما مرّ على ذلك بغير أن يكتب حرفاً عنه، ولا يمكن أن يبقى شك في الأمر بعد ذلك، فإن الأدلة قاطعة أن رواية أبي الفرج - صاحب القصة التي يتهم فيها العرب - لا تعدو أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة ليس لها أساس في التاريخ.

ثم يختم بتلر دفاعه قائلاً: إن العرب لم تدخل الإسكندرية إلا بعد استيلائهم عليها بعد أحد عشر شهراً، وقد ذكر عهد الصلح أنه يجوز للروم أن يحملوا إلى بلادهم كل أمتعتهم، وفي غضون هذه المدة كان البحر مفتوحاً، ولم تكن أمامهم أية صعوبة لحملها إلى بلادهم، وما كان يصعب على أحد أن يقتنى هذه الكتب قبل أن تقع الإسكندرية نهائياً في أيدي العرب.^(١)

وقد ناقش د. حسن إبراهيم قصة المكتبة، وأورد جميع الآراء الشرقية والغربية في ذلك، قال: وقد طرحت المسألة على بساط البحث في المجلة العلمية الفرنسية، فقال مسيو (لكرك) .. إن من المحقق أن هذه المكتبة لم تكن موجودة في ذلك الوقت، أي: وقت الفتح الإسلامي.

وذكرت دائرة المعارف الفرنسية (الجزء الثالث، صفحة ٦٤٨) أن كثيرين قرروا أن المكتبة الملكية، وكذلك مكتبة السيرابيوم كليهما لم تكن تنتظر غزو العرب لقصد إفنائها... فإن مجموع المؤلفات التي كانت بالسيرابيوم قد أحرقها النصارى في القرن الرابع الميلادي.

(١) فتح العرب ٣٧٠.

وقال د. حسن إبراهيم أيضاً: وأكد ذلك أيضاً (أورازيوس) الذى زار الإسكندرية فى أوائل القرن الخامس الميلادى، أى قبل دخول العرب الإسكندرية بنحو قرن ونصف قرن، وقال: إنه وجد رفوف مكتبة الإسكندرية خالية من الكتب، وما ذلك إلا لأن المسيحيين كانوا ألقوها فى نهاية القرن الرابع الميلادى.^(١)

وقالت المستشرقة الألمانية د. زيجريد هونكه فى كتابها (شمس الله تسطع على الغرب): عندما دخل العرب الإسكندرية لم يكن هناك منذ زمن طويل مكتبات عامة كبيرة، وأما ما اتهم به قائدهم عمرو بن العاص من إحراقه لمكتبة الإسكندرية، والذى يعبر به اليوم عن صورة مفزعة للبربرية والوحشية، فقد ثبت فى أكثر من مناسبة -وبعد أبحاث مستفيضة- أنه مجرد اختلاق لا أساس له من الصحة، إن عمراً فاتح الإسكندرية هو نفسه عمرو الذى ضرب المثل بتسامحه طوال فتوحاته، وحرّم النهب والسلب والتخريب على جنوده، وعمل ما كان غريباً عن فهم الشرقيين القدماء والمسيحيين على السواء. لقد ضمن صراحة للمغلوبين حرية ممارسة شعائرهم الدينية المتوارثة.^(٢)

إن إلصاق تهمة إحراق مكتبة الإسكندرية بالفتح الإسلامى كذب بطل على إفلاس أصحابه، وفجورهم فى نفس الوقت، فلم يكن الإسلام حين جاء إلى مصر بحمل أدنى أثارة من حقد على مصر أو المصريين، بل كان طالب وصل، وحامل دعوة يتوسل إلى تبليغها بكل أساليب الحب، والتقرب من الجماهير والشعوب، وهذا هو سر نجاحه فى كل بلد توجه إليه، بل إن هذا هو سر التأثير العميق الذى حققه فى نفسية الشعوب المفتوحة، حتى تأسلمت عقيدتها، وتعربت ألسنتها، وليس من المعقول أن تكون هذه أهداف الفتح الإسلامى لمصر ثم يرتكب الفاتحون المتحضرون جريمة حضارية هى إحراق مكتبة عالمية تمثل فى ميزان الحضارة تراثاً لا يعرف قدره إلا المسلمون، كيف يحدث هذا؟؟ وفى مصر وحدها من دون بلاد العالمين؟؟

(١) تاريخ عمرو ١١١.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب ٣٦٣ - الترجمة العربية.

أسئلة لا يستطيع أن يجيب عنها المفلسون الفجرة، ممن أرادوا أن يصموا الإسلام بعقدهم النفسية والعقلية والحضارية.

إن مصر لم تعرف الاستقرار والأمان إلا في ظل الإسلام، فأما ما سبق الفتح الإسلامي فهي أحداث هائلة وصراعات مذهبية بين النصارى، أو بين الغزاة اليونانيين والرومان والفرس، وكانت الإسكندرية كما نعلم باباً يدخل منه الغزاة دائماً، ومن الطبيعي أن يستخدم هؤلاء الغزاة كل وسائل التدمير لإرهاب المدافعين عن المدينة، ولا بد أن بعض المتصارعين من الغزاة، أو بعض المتنازعين من النصارى قد أقدم على هذه الفعلة البربرية ضمن مخططه لاحتلال المدينة، أو إرهاب المدافعين عنها.

فأما الفتح الإسلامي فإنه لم يأت عن طريق البحر أو الإسكندرية، بل جاء عبر سيناء، ومر بالمناطق الشرقية من مصر، وحسم المعركة عند حصن بابلون فيما يعرف الآن بمصر القديمة، واستتب الأمر للمسلمين في هذه المنطقة، وسلم المقوقس السلطة للقاتح عمرو بن العاص، وأصحابه، ولم تكن الإسكندرية بعد توقيع عهد الصلح سوى جيب من جيوب المقاومة الرومانية، محكوم عليه بالتصفية، إن عاجلاً، أو آجلاً، وقد استطاع المسلمون أن يصفوا هذا الجيب، ويطردوا الغزاة نهائياً، خلال عدة معارك، لم تكن الإسكندرية طرفاً فيها، بل الغزاة القادمون عبر البحر هم الذين يحاولون العودة إلى البلاد من باب الإسكندرية، ولذلك كان المسلمون في موقفهم آنذاك يقومون بواجب الدفاع عن مصر طبقاً للمعاهدة المبرمة في بابلون - وليس بمعقول أن يقوم المدافعون بإحراق المدينة وهم يحاولون استنقاذها.



الفصل الثامن

بناء العاصمة : الفسطاط



بعد أن فتحت مصر، وجاء الأمر من الخليفة بتولي عمرو بن العاص إمارتها، كان لابد من بناء مركز للحكم وإدارة البلاد، وتلفت عمرو في أبنية الإسكندرية وجمالها وخلوها من ساكنيها الذين هجروها، فأسرع بالكتابة إلى الخليفة في المدينة يستأذنه في جعل الإسكندرية عاصمة لمصر الإسلامية، كما كانت عاصمة لمصر الرومية^(١)، وخاصة أن بيوتها وأبنيتها مشيدة، ودور الحكم ومراكزه خاوية بعد جلاء الروم عنها.

ووصل الرسول إلى عمر بن الخطاب، وكان أول استفسار منه هو : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ وأجاب الرسول : نعم يا أمير المؤمنين إذا جاء الفيضان وجرى النيل.

ورد الخليفة على أمير مصر : إني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف، متى أردت أن أركب راحتي إليكم حتى أقدم عليكم قدمت.^(٢)

ولعلها كانت أمنية لأمير المؤمنين أن يقوم برحلة إلى الأقاليم المفتوحة، كما حدث في زيارته لبیت المقدس، يتفقد أحوال المدن، والولاة، والناس، وقد كان عمر وهو بالمدينة يشعر بمسئوليته عن (عثرة بغلة بالعراق)، ولكن هذه الأمنية لم تتحقق في حياته كلها، رضى الله عنه وأرضاه.

وشاور عمرو صحابته في مكان العاصمة، واتفقوا على المكان حول القسطنطينية^(٣) الخاص بعمر الذي تركوه بجوار حصن بابلليون.

(١) أورد ياقوت الحموي ستة أوجه لضبط كلمة (قسطنطينية)، قال : القسطنطينية - القسطنطينية - القسطنطينية - القسطنطينية - أشهرها (قسطنطينية).

(٢) كان أمر الخليفة هذا لسعد بن أبي وقاص أيضاً، عندما فتح فارس والعراق، ورغب في أن يجعل مدائن كسرى عاصمة للدولة الإسلامية الجديدة، ورفض عمر، فبنى سعد مدينة الكوفة غربى الفرات.

(٣) عرفنا قصة اليمامة التي تركها عمرو على قسطنطينية وهي راقدة على بيضها، وبها سميت المدينة الجديدة، ويؤكد بئر ذلك قائلاً : إن علاقة ذلك الاسم بقسطنطينية عمرو وبقصة اليمامة فيها شيء من الصحة، فإن لفظ (قسطنطينية) يرجع إلى اللفظ البيزنطى (قسطنطين)، وهو اللفظ الرومانى (قسطنطين)، وكان وقت الفتح لفظاً شائعاً على العسكر أو المدينة الحصينة. (فتح العرب لمصر ٢٥٠).

مصر في الإسلام

يقول د. جمال حمدان : فاختار عمرو موضع الفسطاط بدلاً من الإسكندرية، ومن الجيزة، كما كان البعض قد اقترح عليه.^(١)

وكان أول عمل يُبدأ به في أى عاصمة إسلامية، في أى مصر من الأمصار المفتوحة هو بناء المسجد الجامع، وبهذا أمرهم الخليفة، وأن يجعل الوالى لكل قبيلة مسجدها الخاص، حتى إذا جاء يوم الجمعة انضموا إلى المسجد الجامع.

قال القضاعى : لم تكن الجمعة تقام في زمن عمرو بشيء من أرض مصر إلا بهذا الجامع.^(٢)

واختار الفاتحون مكان المسجد الجامع، وكان جنائاً وحدائق قد حازها أحد جنود المسلمين.

قال على مبارك : إن قيسية بن كلثوم التجيبى، أحد بنى سوم، سار من الشام إلى مصر مع عمرو بن العاص، فدخلها في مائة راحلة وخمسين عبداً وثلاثين فرساً، فنظر قيسية، فرأى جنائاً تقرب من الحصن، فخرج إليها وأقام فيها، ثم خرج مع عمرو وخلف أهله فيها، ثم بعد الإسكندرية عاد قيسية إلى منزله.... وتشاور المسلمون أين يقع المسجد الجامع، فرأوا أن يكون منزل قيسية، فسأله عمرو فيه، فقال : إني حزت هذا المنزل، وإني أتصدق به على المسلمين، وارتحل منه، فبنى المسجد.^(٣)

ولابد أن نشير هنا - قبل الحديث عن بناء الفسطاط العاصمة أو بناء الجامع الكبير - إلى أن سلوك الفاتحين الأولين حيال القبط وممتلكاتهم كان محكوماً بشرع الله، وما نص عليه عهد عمرو مع المقوقس، كما كان خاضعاً لتوجيه الخليفة عمر، ومن ثم فإن ما نفذه عمرو بن العاص من أعمال تتصل بإقامة الخطط أو إنشاء المدينة العاصمة، وبناء المساجد والجامع الكبير، لم يكن ذلك في أرض مما يمتلكه أحد من القبط، بل كان في الجهات الخالية من السكان التي يمكن أن نقول عنها إنها تخضع للملكية العامة، ونرى أن هذا يصدق على كل الخطط التي أقيمت في عهد عمرو بن العاص في الفسطاط أو الجيزة أو غيرها في أنحاء البلاد.

(١) القاهرة ١٠.

(٢) الخطط التوفيقية ٤ / ١٤.

(٣) السابق ٤ / ١٢. وقال د. حسن إبراهيم : هو : قيسية (بالباء).

لقد كان اختيار موقع الفسطاط لإقامة العاصمة الجديدة اختياراً موفقاً، فمكان العاصمة الإسلامية الجديدة موقع استراتيجي دقيق، فهو على رأس الدلتا، ويشرف على الوجهين القبلي والبحري، وهو كذلك يشرف على مداخل مصر الصحراوية سواء من ناحية الشرق أو الغرب.

يقول د. إبراهيم العدوي : لم يكن الاختيار اعتباطاً، وإنما توافر لهذا المكان جميع الشروط التي اشترطها عمر بن الخطاب على قادته عند تأسيس الأمصار، وأهمها : القرب من الصحراء، وسهولة الاتصال بالسلطات المركزية في شبه الجزيرة العربية.^(١)

ويعجب المرء حين يتأمل تصرفات هؤلاء الفاتحين في هذه المشكلة الحضارية، فإن اختيارهم يدل على عمق إحساسهم، بل وإدراكهم للمفهوم المدني لإقامة العاصمة، وقد بقي اختيارهم - كما نرى - المحدد النهائي لعاصمة مصر بصورة نهائية بعد ذلك، وإلى أن ينتهي الزمان إن شاء الله.

المسجد الجامع

هو أول مسجد بنى في مصر خاصة وفي قارة إفريقية عامة، وهو خامس مساجد الإسلام بعد المسجد الحرام، ومسجد قباء، ومسجد الرسول ﷺ في المدينة، ومسجد الكوفة.

سمى تاج الجوامع، والمسجد العتيق، ومسجد أهل الراية^(١).

قال ابن دقماق : هو إمام المساجد، ومقدم المعابد، وقطب سماء الجوامع، ومطلع الأنوار اللوامع، موطن أولياء الله وحزبه.^(٢)

بدأ الصحابة في بناء جامع الفسطاط بعد عودتهم مباشرة من الإسكندرية، وبعد أن تسلموا الأرض من قيسية^(٣)، وقد أجمع المؤرخون على أن ثمانين صحابياً من صحابة رسول الله ﷺ وقفوا على بناء المسجد وإقامة قبلته، منهم : الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وعقبة بن عامر، وفضالة بن عبيد، وعمرو بن العاص، وإبناه محمد وعبد الله، ومسلمة بن مخلد، وغيرهم رضي الله عنهم، ومازالوا قائمين حتى حددوا القبلة، وأتموا بناء المسجد.

والمكان الدقيق لحدود المسجد عند بنائه - الذي لا يختلف عليه المؤرخون - هو حول المنبر والمحراب الحاليين، أما مساحته فكانت ٦٦٣ متراً، بطول تسعة وثلاثين متراً وعرض سبعة عشر متراً، وجانبه الغربي جهة نهر النيل، والجانبى

(١) أهل الراية هم من وقفوا تحت راية عمرو في فتح مصر، وسموا بذلك لأنهم لم يكونوا بالعدد الكبير الذى يكون لهم راية، وكرهوا الوقوف تحت راية قبائل أخرى، فقال لهم عمرو : أنا أجعل راية لا أنسبها إلى أحد تقفون تحتها، فرضوا، وأكثرهم من قریش والأنصار. وقال د. العدوى : يرجح أن أهل الراية هم الرؤساء.

(٢) عمرو بن العاص ٢٣٦.

(٣) قال الليث بن سعد : كان مسجدنا هذا حدائق وأعنابا، وقيل كان فيه شجرة (زنزلخت) أصلها من بلاد فارس قالوا إنها من عهد موسى عليه السلام، قطعت عام ٧٩٩ للميلاد. (الخطط التوفيقية ٢/٤).

- القبلى - تجاه حصن بابليون، أما الشرقى والشمالى فيطلان على أرض فضاء خلاء بنيت فيها مدينة الفسطاط، ثم تلتها العسكر^(١) والقطائع^(٢) والقاهرة^(٣) بعد ذلك.

وقد بنى المسجد بالطين وجذوع النخل والطوب اللبن، وجدرانه عارية من البياض والزخرف، ولم يدخل فى بنائه أية أعمدة، خلافا لما يدعيه بعض المؤرخين: من أن عمراً قد هدم بعض الكنائس وأخذ أعمدتها لبناء مسجده.

كما ادعى جورجى زيدان أن المسجد طلى بالذهب كتابة، قال : وأتى عمرو بحجارة الجامع من بقايا منف العظيمة بينها أعمدة كبيرة من الجرانيت، وقطع هائلة من الرخام أقيمت بها جدرانه، وقد قيل إن القرآن كله كان منقوشاً عليها بالذهب.^(٤)

وما يذكره جورجى زيدان فى هذا الصدد هراء فى هراء، وهو مولع دائماً بذكر السخافات التى يقصد بها الإساءة إلى المسلمين. وينسى أنه لو حدث فعلاً واستخدم المسلمون الذهب فى بناء المسجد لهدمه عمر بن الخطاب على رؤوسهم، فلم يفعل المسلمون ذلك، - آنئذ - فى مسجد الرسول!!... وسيأتى موقف عمر من إقامة منبر من الخشب للجامع. ولكن جورجى حريص على إلصاق تهمة الاختلاس والسرقة بالمسلمين فقد سطوا فيما تصور على الكنائس والمعابد، واستولوا على الرخام والجرانيت والذهب، مع أن ثقافة المسلمين المعمارية كانت متواضعة أشد التواضع.

وفرش المسجد بالحصباء، أما سقفه فكان منخفضاً، ولذلك كان المسلمون يصلون خارجه فى الصيف من جهاته الثلاث.

وكان للمسجد ستة أبواب : بابان من الجهة الشمالية، وبابان من الجهة الغربية، وبابان من الجهة الشرقية تجاه دار عمرو بن العاص.

(١) بنيت العسكر عام ١٣٣ للهجرة (الموافق ٧٥٠ للميلاد) بناها العباسيون.

(٢) أنشئت القطائع عام ٢٦٠ للهجرة (الموافق ٨٧٣ للميلاد) تقريباً، بناها أحمد بن طولون.

(٣) بنى جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى، القاهرة عام ٣٥٨ للهجرة (الموافق ٩٦٨ للميلاد).

(٤) تاريخ مصر الحديث ١ / ٩٤.

منبر الجامع

وفكر عمرو في بناء منبر ليعتلى عليه الخطيب يوم الجمعة، وسمع أمير المؤمنين بخبر بناء المنبر، فبعث إلى عمرو: ... أعزم عليك أن تكسره، أما بحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون تحت عقبك؟ وكسره عمرو بن العاص.

وعندما تولى عبد الله بن أبي السرح إمارة مصر عام ٢٦ للهجرة أهدى له ملك النوبة (زكريا بن يوقنى) منبراً لجامع عمرو، وبعث معه نجاره الخاص حتى ركبه.

يقول على مبارك: ... واسم هذا النجار (بقطر) من أهل دندرة، ولم يزل هذا المنبر في المسجد حتى زاد قرّة بن شريك في المسجد فنصب منبراً سواه.^(١)

وقد تتابعت إقامة المنابر في المسجد من عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي حتى أوائل السبعينيات حيث نصب منبر جديد، وأهدى منبر مراد بك إلى الصومال، وفي الثمانينيات نصب منبر فاخر من خشب الأرو، وقام على صنعه وإقامته خطيب الجامع د. عبد الصبور شاهين.^(٢)

إن التعريف بالمسجد الجامع أمر في غاية الأهمية، لأنه الأثر الباقي حتى الآن من أحداث الفتح الإسلامي لمصر.

وما زال ذلك المسجد رمزاً لتلك المرحلة التاريخية الحاسمة، التي قررت مصير مصر، بل مصير العرب، بل مصير الإسلام إلى آخر الزمان، مهما تعرض للإهمال والتخريب في بعض حقب التاريخ وظروفها السياسية، فما زال هو قطب الرحا، ومحور الاهتمام، وما زال يعتبر حرماً للمسلمين من أهل مصر، وممن يفدون إلى مصر من أبناء العالم الإسلامي، ولذلك سوف نتتبع تاريخه عبر الزمان حتى عصرنا هذا.



(١) الخطط التوفيقية ٤ / ١٥.

(٢) تولى الدكتور عبد الصبور شاهين خطبة الجمعة في الجامع العتيق عام ١٩٨٥ للميلاد، وبقي فيه حتى إبريل عام ١٩٩٥.

تاريخ الجامع من بنائه إلى الآن

وقد تتبعنا عمليات الإصلاح والترميم والتوسيع التي نالت المسجد الجامع من تاريخ بنائه في عام ٢١ للهجرة (الموافق ٦٤٢ للميلاد) حتى الآن عام ١٤٢٠ للهجرة (الموافق ١٩٩٩ للميلاد)، ووجدناها حوالى أربعين ما بين بناء وقياس وإصلاح وترميم وبياض، وسوف نقدم ما وقع لنا من نوعية هذه الإصلاحات وتواريخها - بقدر الإمكان:

١- في عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان في عام ٦٣ للهجرة (الموافق ٦٨٤ للميلاد) كان أول عمل في المسجد، وأمير مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري، فقد زاد في الجامع من الناحية الشمالية، ولم يغير في البناء القديم من النواحي الأخرى، ثم فرش به بالحصر بعد أن دهنه، وأقام أربعة صوامع في أركانه الأربعة.

جاء في كتاب مساجد مصر: وكانت هذه الصوامع نواة للمآذن التي أنشئت بمصر بعد ذلك وهي على نمط الأبراج التي كانت بأركان المعبد القديم بدمشق.^(١) وقالت د. سعاد ماهر: وأمر معاوية بابتناء منار المسجد وأمر المؤذنين أن يؤذنوا في وقت واحد.^(٢)

واستجاب مسلمة للأمر، فكان المؤذنون الأربعة يؤذنون معاً للفجر بعد منتصف الليل، وعندما يسمعون مؤذنو مساجد القبائل في الفسطاط يرددون جميعاً الأذان في وقت واحد فيكون لهم دوى شديد.

٢- في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في عام ٧٩ للهجرة (الموافق عام ٦٩٩ للميلاد) هدم أمير مصر عبد العزيز بن مروان البناء القديم للجامع، وأعاد بناءه وزاد فيه من جميع الجهات.

٣- في خلافة الوليد بن عبد الملك عام ٨٩ للهجرة (الموافق ٧٠٨ للميلاد) أمر أخاه عبد الله أمير مصر برفع سقف الجامع.

(١) مساجد مصر ٤.

(٢) أهم مساجد مصر ٤٦.

٤- في خلافة الوليد بن عبد الملك عام ٩٢ للهجرة (الموافق ٧١١ للميلاد) قام أمير مصر قرّة بن شريك بهدم الجامع وأعاد بناءه بعد أن أدخل فيه الطريق الشرقي وكذلك دار عمرو بن العاص، وجعل له المحراب المجوف، وهو المحراب المعروف بمحراب (عمر).

جاء في كتاب مساجد مصر: والمحراب المجوف أحدثه قرّة بن شريك وإلى مصر... مقتدياً بالمحراب المجوف الذي أحدثه عمر بن عبد العزيز بمسجد المدينة المنورة في عام ٨٨ للهجرة (الموافق ٧٠٦ للميلاد).^(١)

وفي البناء الجديد زاد قرّة عدد الأبواب فصارت أحد عشر باباً، ثلاثة من الجهة الشمالية وأربعة في كل من الجهتين الأخريين، وفي عام ٩٤ للهجرة قام قرّة بنصيب منبر جديد، وقالت د. سعاد ماهر: وذهب تيجان الأعمدة الأربعة التي تتقدم المحراب.^(٢)

٥- في خلافة سليمان بن عبد الملك الأموي عام ٩٧ للهجرة (الموافق عام ٧١٦ للميلاد)، أمر أميرها عبد الله بن رفاعة متولى الخراج ببناء بيت المال في وسط الجامع، أعلى الفوارة.

٦- بعد سقوط الدولة الأموية، وتولى الخليفة السفاح العباسي الخلافة أمر وإلى مصر من قبله صالح بن علي بن عبد الله بن عباس - بزيادة مساحة الجامع، فزاده، وأدخل فيه دار الزبير بن العوام، وذلك عام ١٣٣ للهجرة (الموافق ٧٥٠ للميلاد).

٧- في عهد المهدي عام ١٦١ للهجرة (الموافق ٧٨٧ للميلاد) أمر بنزع المقصورة التي بناها معاوية عام ٤٤ للهجرة، ثم أمر بتقصير المنبر حتى يصل إلى طول منبر رسول الله ﷺ في المدينة.

٨- في خلافة الرشيد، وفي عام ١٧٥ للهجرة (الموافق ٧٩١ للميلاد) زاد موسى ابن عيسى العباسي أمير مصر الرحبة التي في آخر الجامع جهة الشمال، المعروفة باسم رحبة أبي أيوب.

(١) مساجد مصر ٤.

(٢) أهم مساجد مصر ٦٥.

٩- وفي خلافة المأمون العباسي عام ٢١١ للهجرة (الموافق ٨٢٧ للميلاد) أمر واليه على مصر عبد الله بن طاهر بن الحسين بتوسعة الجامع، فزاد مساحته من الناحية الغربية^(١)، فتضاعفت رقعته، وأصبحت ١١٢ × ٢٠٠ متراً تقريباً^(٢).

١٠- وفي عام ٢١٢ للهجرة (الموافق ٨٢٩ للميلاد) أتم أمير مصر الجديد من قبل المأمون- عيسى بن يزيد الجلودي بقية الزيادة التي بدأت في العام السابق.

وقد ورد في كتاب مساجد مصر القول: وإن أهم ما يسترعى النظر في رواق القبلة طبال خشبية تعلو بعض تيجان الأعمدة محفور عليها زخارف بارزة يرجع عهدها إلى عمارة عبد الله بن طاهر عام ٢١٢ للهجرة.

١١- وفي عام ٢٥٨ للهجرة (الموافق ٨٢٩ للميلاد) أمر أحمد بن طولون وزيره أبا أيوب بن أحمد بن محمد بن شجاع بتوسعة المسجد، فزاد في الرحبة.

١٢- وفي ٩ من صفر عام ٢٧٥ للهجرة (الموافق ٢٤ يونيو عام ٨٨٨ للميلاد) وقع حريق في الجامع، فأتى على أكثره، فأمر أمير مصر الطولوني خمارويه بعمارته، فأعيد على ما كان عليه حاله من قبل، وكتب اسم خمارويه في دائرة الرواق عند اللوح الأخضر، وأنفق في ذلك ستة آلاف وأربعمائة دينار.

ولكن ابن إياس يقول إنه ترك محروقاً مهتماً حتى العصر الفاطمي.

١٣- في عام ٣٣٦ للهجرة (الموافق ٩٤٧ للميلاد) في عهد الخليفة المستكفي العباسي وأمير مصر أنجور الإخشيدى زاد متولى قضاء مصر أبو حفص العباسي في الجامع، وبنى على سطحه غرفة للمؤذنين، وزخرف الجامع، ونقشه من الداخل.

(١) من المحتمل أن يكون قد حدث انحسار في مجرى النيل ترتب عليه انكشاف جزء من الشاطئ في صورة طرح للنهر فابتعد النيل بذلك عن المسجد، وأمكن توسيعه من الناحية الغربية.

(٢) جاء في كتاب حوليات الإسلام أن مساحة المسجد صارت ١٥٠ ذراعاً × ٩٠ ذراعاً. وقالت د. سعاد ماهر: ١٢٠,٥ × ١١٢,٥ متراً.

تقول د. سعاد ماهر: حتى إذا جاء منتصف القرن الرابع الهجري كان المسجد بالغاً حده في الزخرفة من تذهيب ونقش وتطوير للعمد.^(١)

١٤- في عام ٣٥٧ للهجرة (الموافق عام ٩٦٨ للميلاد) في عهد كافور الإخشيدي زاد الخازن أبو بكر محمد بن عبد الله رواقاً واحداً مقداره تسعة أذرع.

١٥- في عهد العزيز بالله الفاطمي، وفي عام ٣٧٨ للهجرة (الموافق ٩٨٨ للميلاد) زاد الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس^(٢) الفوارة التي تحت قبة بيت المال.

١٦- وفي عام ٣٨٧ للهجرة (الموافق ٩٩٧ للميلاد)، وفي عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي، جدد الوزير يعقوب بن كلس بياض المسجد، وقلع شيئاً من الفسيفساء من أروقته وبيض مواضعه، ونقشت خمسة ألواح وذهبت ونصبت على أبوابه الخمسة الشرقية، وكان ذلك على يد برجوان^(٣) الخادم، الذي ثبت اسمه على الألواح، ثم نزع الاسم بعد مقتله.

وقد خلع ابن كلس منبر جامع عمرو وجعل مكانه منبراً مذهباً، ثم أخرج هذا المنبر إلى الإسكندرية، وجعل في جامع عمرو بها.

١٧- في شعبان عام ٤٠٦ للهجرة (الموافق يناير عام ١٠١٦ للميلاد) أمر الحاكم بأمر الله الفاطمي بعمل رواقين في صحن المسجد الجامع، وزخرفه وزينه، وجعل فيه تتور^(٤) فضة، وزنة ثلاثة قناطير من الفضة ما قيمته مائة ألف درهم، وأمر بزيادة بابين فصار للمسجد ثلاثة عشر باباً، وبعث الحاكم من قصره إلى المسجد الجامع بالفسطاط بألف ومائتين وثمانية وتسعين مصحفاً ما بين ختمات وربعات، فيها ما هو مكتوب كله بالذهب، ومكن الناس من القراءة فيها.

(١) أهم مساجد مصر ٦٦، وتطوير العمدة أي: جعل الأطواق الفضية حول الأعمدة.
(٢) كان يهودياً من البصرة أسلم على يد كافور الإخشيدي الذي وعده بالوزارة إن أسلم، ثم هرب من مصر إلى المغرب حيث رجع إليها في معية المعز لدين الله الذي استوزره، ولما توفي استوزره العزيز ثم الحاكم من بعده.
(٣) كان مدبر دولة العزيز قتله الحاكم بأمر الله في ٢٦ ربيع ثان عام ٣٩٠ للهجرة بعد أن ثقل نفوذه فتخلص منه بالقتل، وإليه تنسب حارة برجوان بالقاهرة.
(٤) التتور: النجفة. قال علي مبارك في خطه ١٨/٤: فاجتمع الناس وعلق في الجامع بعد أن قلعت عتبة الباب حتى أدخل به.

وبمناسبة المصاحف الحاكمة، نذكر أول مصحف وضع في مسجد عمرو، كان مصحف عبد العزيز بن مروان، وكان وضع مصحفاً للقراءة في الجامع، كل يوم جمعة، ثم يحفظ في داره.

يقول علي مبارك: وأول من قرأ فيه عبد الرحمن الخولاني، لأنه كان يتولى القصص والقضاء يومئذ، وذلك عام ٨٦ للهجرة، ولما مات عبد العزيز بيع هذا المصحف في ميراثه فاشتراه ابنه أبو بكر بألف دينار، ثم توفي فاشترته أسماء بنت أبي بكر بن عبد العزيز، فأمكنك الناس منه، وشهرته فنسب إليها، فلما توفيت أسماء اشتراه أخوها الحكم من ميراثها بخمسمائة دينار، وجعله في الجامع، وذلك عام ١١٨ للهجرة، وأجرى على الذي يقرأ فيه ثلاثة دنائير في كل شهر.^(١)

١٨- في عام ٤٣٨ للهجرة (الموافق عام ١٠٤٦ للميلاد) أمر المستنصر بالله الفاطمي بعمل منطقة من الفضة في صدر المحراب الكبير أثبت عليها اسمه، وجعل لعمودي المحراب أطواقاً^(٢) من الفضة، وزاد في المقصورة من الشرق والغرب.

١٩- في عام ٤٤٢ للهجرة (الموافق عام ١٠٥٠ للميلاد) زمن المستنصر عملت للإمام مقصورة من الخشب، ومحراب من الساج الهندي المنقوش، به عمودان من خشب الصندل الطيب الرائحة، وتقلع هذه المقصورة في الشتاء إذا صلى الإمام في المقصورة الكبيرة.

وعمر القاضي أبو عبد الله أحمد بن محمد غرفة المؤذنين بالسطح، وحسنها، وجعل لها روشناً^(٣) على صحن الجامع، وجعل بعدها ممراً ينزل منه إلى بيت المال وجعل للسطح مطلقاً من الخزائن المستجدة في ظهر المحراب الكبير وجعل له مطلقاً آخر من الديوان.

(١) الخطط التوفيقية ٤ / ٢٢.

(٢) بقيت الأطواق حتى زمن صلاح الدين فقلعها منه عام ٥٦٧ للهجرة أثناء تجديد المسجد.

(٣)الروشن : الشرفة

٢٠- في عام ٤٤٤ للهجرة (الموافق عام ١٠٥٢ للميلاد) زمن المستنصر أيضاً زيد في الخزانة مجلس من دار الضرب^(١)، وزخرف هذا المجلس، وجعل فيه محراب، ورخم برخام اقتلعوه من المحراب الكبير.

٢١- في عام ٤٤٥ للهجرة (الموافق عام ١٠٥٣ للميلاد) في عهد المستنصر الفاطمي بنيت المئذنة الثالثة، وموضعها بين مئذنة غرفة المؤذنين والمئذنة الكبيرة.

وقد شهد الجامع كما نرى - لمدة قرابة قرنين من الزمان، من أول العصر الفاطمي حتى قرب نهايته، شهد عهداً من الاهتمام والرعاية، وسنوات من المجد والازدهار، ومبالغة في الحرص على إعلاء شأنه مع وجود جامع الفاطميين الأول: الجامع الأزهر.

ويكفي أن نعرف أنه اختص دون غيره من الجوامع بأنه الجامع الوحيد الذي كان الخلفاء والسلاطين والولاة والأمراء يصلون فيه الجمعة اليتيمة في آخر شهر رمضان.

وقد نشأ هذا التقليد منذ عهد الدولة الفاطمية، كما تقول د. سعاد ماهر:.. فقد كان الخليفة الفاطمي يركب للاحتفال برؤيا شهر رمضان، ثم يستريح أول جمعة منه، فإذا كانت الجمعة الثانية أداها في الجامع الحاكم، فإذا كانت الجمعة الثالثة أداها في الجامع الأزهر، فإذا كانت الجمعة الرابعة صدرت الأوامر بأدائها في جامع عمرو بن العاص، فيقوم الأهالي بعمل الزينات حتى جامع عمرو..^(٢)

٢٢- في عام ٥٦٤ للهجرة (الموافق عام ١١٧١ للميلاد) دخل الصليبيون مصر، وخاف شاور^(٣) أحد وزيري العاضد الفاطمي من تسربهم إلى داخل البلاد فأحرق مدينة الفسطاط، قالوا: أخرج لها عشرين ألف قارورة نפט، وعشرة آلاف مشعل مضمرة بالنار، وفرقت فيها، واستمرت النيران ٥٤ يوماً، وأحرقت مدينة الفسطاط، وأتت النار على أغلب المسجد الجامع.

(١) كانت دار ضرب النقود تابعة لمباني المسجد.

(٢) أهم مساجد مصر ١ / ٧٣.

(٣) الوزير الآخر هو ضرغام الذي اتفق مع العدو.

وهي نتيجة طبيعية للتناقضات المذهبية في المجتمع المصري، وتضارب القوى السياسية فيه آنذاك، وتحالفها مع الشيطان الصليبي، والطائفي.

وقد رحل ملك الروم بجنده من القاهرة التي عسكر فيها- عندما بلغه قدوم أسد الدين شيركوه بعسكر من جهة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام، وكان رحيله في ٧ من ربيع آخر من عام ٥٦٤ للهجرة.

٢٣- تولى صلاح الدين الأيوبي إمارة مصر ما بين عامي ٥٦٤ و ٥٨٩ للهجرة (الموافق عام ١١٦٩: ١١٩٣ للميلاد) وبعد أن استقر أمره جدد بناء الجامع، وذلك في عام ٥٦٨ للهجرة، وأعاد صدر الجامع والمحراب الكبير ورخمه كله، وكتب عليه اسمه.

٢٤- في عام ٦٦٤ للهجرة (الموافق عام ١٢٧٣ للميلاد) في زمن الظاهر بيبرس البندقداري أمر بإقامة سور البحرى (الشمالى) بعد أن مال، وسد نافذتين فيه، وهدم كل الغرف، وترك غرفتين للمؤذنين، وأمر بإبطال جريان الماء من النيل إلى فوارة الفسقية لما فيها من ضرر على جدر الجامع.

٢٥- في عام ٦٦٦ للهجرة (الموافق عام ١٢٧٥ للميلاد) زمن بيبرس أيضاً هدم الجدار المذكور، البحرى الذى فيه اللوح الأخضر وأزيلت العمدة والقواصر العشر ثم عمر الجدار المذكور وأعيدت العمدة والقواصر العشر كما كانت، وزيد في العمدة أربعة، وجلبت كلها، وبيض الجامع بأسره.

٢٦- في عام ٦٨٧ للهجرة (الموافق عام ١٢٩٩ للميلاد) زمن السلطان المنصور قلاوون، شكاه قاضى القضاة سوء حال مسجد عمرو في الفسطاط، فأمر السلطان بإصلاح حاله وتبييضه وتجريد عمده، فجرد نصف العمدة، أى: صار نصف العمود الأسفل أبيض، وبقيته بحاله، ثم أجرى الماء من البئر إلى الفسقية، ورمى ما كان به من أتربة.

٢٧- في عام ٦٩٦ للهجرة (الموافق عام ١٢٩٨؟ للميلاد) اشترى صاحب تاج الدين داراً وهدمها وجعل مكانها سقاية كبيرة، ورفعها إلى محاذاة سطح

الجامع، وجعل لها ممشى يتوصل إليها من سطح الجامع، وعمل في أعلاها أربعة بيوت يرتفق بها في الخلاء (كما جاء في المقرئى).

وكان هذا العمل أول ميسأة في جامع عمرو، وجعل كذلك مكاناً لأزبار الماء العذب وهدم سقاية الغرفة التى تحت المئذنة المعروفة بالمنظرة، وبنهاها برجاً كبيراً من الأرض إلى العلو.

٢٨- فى زمن الناصر محمد بن قلاوون، وفى عام ٧٠٢ للهجرة (الموافق عام ١٣٠٤ للميلاد) حدث زلزال فى مصر فأثر على الجامع، فتولى الأمير سلاى وزير الناصر إصلاح الجامع، فأعاد بناء السور البحرى، وعمل بابين جديدين وأضاف لكل عمود فى الصف البحرى عموداً آخر، ثم جدد العمد كلها وبيض الجامع بعد زيادة رواقين فيه.

جاء فى كتاب أهم مساجد مصر:.. كما يوجد بالوجهة البحرية والوجهة الغربية بعض شبابيك يرجع عهدها إلى عمارة الأمير سلاى لهذا الجامع عام ٧٠٣ للهجرة (الموافق عام ١٣٠٤ للميلاد)، وقد شملت هذه العمارة ذلك المحراب الجصى الجميل الذى لا يزال موجوداً إلى الآن بالوجهة البحرية.^(١)

وقد أورد القلقشندى وصفاً دقيقاً للجامع عام ٧١٣ للهجرة (الموافق عام ١٣١٥ للميلاد)، قال: إن ذرعه ٢٨ ألف ذراع^(٢)، مقدمه ٨٩٥٠ ذراعاً، ومؤخره ٨٩٥٠، وصحنه خمسة آلاف ذراع، جانبه الشرقى ألفا ذراع و ٥٥٠ ذراعاً، وجانبه الغربى كذلك، وأبوابه ثلاثة عشر باباً لكل باب اسم يخصه، فى جانبه القبلى باب واحد، وبه ٢٤ رواقاً... وفيه ٣٦٨ عموداً... وبه ثلاثة محاريب.. وفيه خمس صوامع.^(٣)

٢٩- فى عام ٨٠٠ للهجرة (الموافق عام ١٣٩٨ للميلاد) كان سلطان مصر الملك فرج بن برقوق فى شغل ولهو، فجاء كبير تجار مصر إبراهيم بن على المحلى^(٤) فهدم صدره كله، وأزال اللوح الأخضر وأعاد البناء كما كان أولاً،

(١) أهم مساجد مصر ١ / ١٠.

(٢) الذراع: ٧٥ سنتيمتر.

(٣) صبح الأعشى ٢ / ٣٣٩.

(٤) قال عنه المقرئى: ينتهى نسبه إلى طلحة بن عبيد الله، ولقبه برهان الدين.

وجدد لوحاً أخضر بدل الأول ونصبه مكانه، وجرد العمود وتتبع جدر الجامع، فرم شعثها وأصلح من رخام الصحن ما فسد، ومن السقوف ما وهى، وببيضه كله فصار كما كان وعاد جديداً، وانتهى من عمارته وإصلاحه فى أربع سنوات لم تتعطل صلاة جمعة ولا جماعة فيه أثناءها.

٣٠- فى عهد الأشرف أبو النصر قايتباى (٨٧٢: ٩٠١ للهجرة، الموافق ١٤٦٨: ١٤٩٥ للميلاد) جدد فى أوقات متفرقة بعض جهات الجامع وعمّره وأصلح فيه ما احتاج لإصلاح.

ومرت على الجامع ثلاثة قرون من البلاء والانهدام والضياع وصفها الجبرتي قائلاً:.. ضرب الجامع بخراب مدينة الفسطاط، وبقيت تلالاً وكيماناً، وخصوصاً ما قرب من الجامع ولم يبق بها بعض العمار.. أما الجامع العتيق فلا يصل إليه أحد لبعده وحصوله بين الأتربة والكيمان.. وكان ما أدركنا الناس يصلون به آخر جمعة فى رمضان فتجتمع به الناس على سبيل التسلى من القاهرة ومصر وبولاق.. ويجمع بصحنه أرباب الملاهى من الحواة والقردياتية وأهل الملاعب والنساء الراقصات المعروفات بالغوازي، فبطل ذلك من ثلاثين سنة لهدمه وخراب ما حوله وسقوط سقفه وأعمدته وميل شقه الأيمن، بل وسقوطه بعد ذلك. (أحداث عام ١٢١٢ للهجرة).^(١)

٣١- فى عام ١٢١٢ للهجرة (الموافق عام ١٧٩٨ للميلاد) رأى الأمير مراد بك^(٢) ما أصاب جامع عمرو من خراب، ففكر فى تجديده، وقد حسن له الفقهاء والعلماء ذلك، فأقام أركانه وشيد بنيانه ونصب أعمدته، ولكن فى غير مكانها الأول، وبني منارتين- هما الباقيتان للآن- وجدد جميع سقفه بالخشب النقى، وببيض كل الجامع، وفرشه بالحصر الفيومى، وعلق به اللناديل، وصليت به الجمعة الأخيرة من رمضان عام ١٢١٢ للهجرة.

(١) عجائب الآثار ٥ / ٢٥٤.

(٢) كانت مصر تحت الحكم العثمانى بأمر من استنبول، وعلى رأسهم آنذاك مراد بك وإبراهيم بك.

قال الجبرتي:.. وحضر الأمراء والأعيان والفقهاء، وبعد الصلاة عقد الشيخ عبد الله الشرقاوي مجلسه وأملى حديث: "من بنى مسجداً وتفسير: "إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر".^(١)

وكتبت أبيات من الشعر على ألواح رخام بجوار القبلة، وعلى الأبواب منها:
أحيا لنا ربنا بيتا لطاعته وكان من قبل مصباحا بها فطفى
ونشوة السعد قد قالت مؤرخة يسمو العزيز مراد جامع الشرف
وعلى القبلة أبيات منها:

انظر لمسجد عمرو بعدما درست رسومه صار يحكي الكوكب الزاهي
لاح القبول عليه حين أرخه هذا البناء على مراد الله^(٢)
وعلى باب آخر مكتوب أبيات منها:
ونشوة السعد قد قالت مؤرخة أنشأت حمداً مراد الحي مسجده

٣٢- في فترة الحملة الفرنسية (عام ١٢١٣: ١٢١٥ للهجرة، الموافق ١٧٩٨: ١٨٠١ للميلاد) اهتم العلماء الفرنسيون بجامع الفسطاط من ناحية كونه أول أثر إسلامي في مصر، فرسموه من جميع الجهات، وحددوا ما حوله من منشآت، ثم قاسوا أركانه - كما فعلوا في كل أبنية مصر الأثرية - وسجلوا أنه مربع الشكل تقريباً كل ضلع ١٢٠ متراً.

وإن كانت حال الجامع قد ارتدت كما كانت من سوء والإهمال.

قال الجبرتي: (من أحداث ١٢١٢ للهجرة) ولما حضرت فرنساوية العام القابل جرى على الجامع ما جرى على غيره من الهدم والتخريب، وأخذ أخشابه حتى أصبح بلقعا أشوه مما كان قبل هذه العمارة.

٣٢- في عام ١٢٩٠ للهجرة (الموافق عام ١٨٧١ للميلاد) زمن الخديوي إسماعيل تم قياس الجامع مرة ثانية، فكان كالاتي:

(١) عجائب الآثار ٥ / ٢٥٤.

(٢) مازالت هذه الأبيات موجودة في الجامع.

الناحية الشرقية ١/٣ ١٠٩ مترًا، الناحية القبليّة (الجنوبية) ١/٢ ١١٧ مترًا،
الناحية الغربية ١٠٤ مترًا، الناحية البحرية (الشمالية) ١٢٠ مترًا.^(١)

٣٤- في عصر الخديوي توفيق، وفي عام ١٣٠٠ للهجرة (الموافق ١٨٨٣ للميلاد)
أجريت للجامع بعض الترميمات، بعد أن سقط إيوانه الشرقي والغربي.

وقد وصف على باشا مبارك الجامع وصفاً دقيقاً في كتابه (الخطط
التوفيقيّة)، وكان هذا الوصف حوالي عام ١٢٩٧ للهجرة (الموافق عام ١٨٨٠
للميلاد)، نقتطف منه قوله: وللجامع صحن غير مسقوف طول ضلعه الأكبر ٧٩
مترًا، وطول الأصغر ٧١ مترًا، وجميع الجامع مبنى من الطوب المضروب
المحرق، وليس به الآن من البناء القديم إلا جزء يسير من الجانب الشرقي والقبلي
(الجنوبي).

وسمك ذلك البناء القديم متر وثلثًا متر، والموجود به الآن من الأعمدة الرخام
الصحيحة^(٢) ٢١٥ عمودًا، منها ملقى على الأرض خمسة وثلثون عمودًا...
وبالجامع مصحف كبير مكتوب بالخط الكوفي^(٣) على رق غزال فقد منه بعضه،
وكمّله محمد علي باشا، بخط عربي عام ١٢٤٦ للهجرة، ومصحف آخر داخل
صندوق من وقف المرحوم مراد بك.

وفي صحن الجامع حنفية للوضوء عليها قبة وبداخلها بئر، وبه أيضاً شجرة
ونخلة، وحواليه مساكن موقوفة عليه يصرف ريعها، وجملة ما يتحصل من الإيراد
كل سنة ثلاثة آلاف قرش ومئتان وثلاثة وثمانون قرشاً ونصف قرش عملة مصرية،
عده كل مائة قرش جنيه مصري، يصرف من ذلك على خدمته كل سنة ألف
وأربعمئة وسبعة وسبعون قرشاً وثمانية أنصاف فضة، والباقي تحت يد ناظره
السيد محمد الليثي.^(٤)

(١) ربما كان الفرق في هذا المقياس ومقياس الفرنسيين يرجع إلى ردم بعض أجزائه واختلافاتها
تحت الردم والأثرية.

(٢) ذكر القلقشندي عدد الأعمدة (٣٦٨) عمودًا، وذلك عام ٧١٣ للهجرة (الموافق عام ١٣١٥
للميلاد)، أي: من قرابة خمسة قرون ضاع وانتثر (١٥٣) عمودًا.

(٣) هو مصحف أسماء حفيدة عبد العزيز بن مروان، كان يقرأ فيه يوم الجمعة، وفي عهد المتوكل
العباسي زادوا في قراءة المصحف فكان يقرأ فيه يوم الإثنين والخميس والجمعة.

(٤) الخطط التوفيقيّة ٤ / ٢٨.

_____ مصر فى الإسلام _____

٣٥- فى عام ١٣١٧ للهجرة (الموافق عام ١٨٩٩ للميلاد) زمن الخديوى عباس الثانى جدد سقف الإيوان القبلى وبعض أجزاء الإيوان البحرى.

٣٦- فى عام ١٣٢٣ للهجرة (الموافق عام ١٩٠٦ للميلاد) زمن الخديوى عباس الثانى أيضاً تشكلت لجنة حفظ آثار مصر، ومن مهمتها العناية بالمساجد الأثرية، وفى مقدمتها جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط، فأجريت عدة حفريات فى أرضه وصلت إلى حوائطه القديمة على مر العصور، وأزيلت بعض المباني العشوائية من حوله.

٣٧- فى عهد الملك فؤاد الأول عام ١٣٤٨ للهجرة (الموافق عام ١٩٣٠ للميلاد) أصلح الديوان الكبير، وقويت بعض جدر الجامع.

٣٨- ظل الجامع مهملاً إلا فى شهر رمضان، حيث يصلى الملك أو رئيس الوزراء الجمعة الأخيرة من رمضان (الجمعة اليتيمة) فيه، فيهتم به ويدهن وينظف ويرصف الطريق المؤدى إليه، وعندما قامت الثورة لم يلتفت إلى الجامع البتة.

٣٩- فى عام ١٣٧٨ للهجرة (الموافق عام ١٩٥٨ للميلاد) اجتمع أهل الحى وتناقشوا فى حال الجامع المتردية، وقرروا جمع المال لتوصيل الكهرباء للجامع، وبعد توصيلها اشتروا مكبر الصوت.

٤٠- واستكمالاً لهذه الجهود، وحين تولى الشيخ محمد الغزالي خطبة الجمعة فيه أوائل السبعينات بدأ الاهتمام بالجامع فى عهد محافظ القاهرة الأسبق حمدى عاشور، فخطط الميدان، وزود المسجد بمنبر جديد. وكان مجلس إدارة المسجد برئاسة الدكتور إبراهيم بدران.

٤١- وحين تولى خطبة الجمعة الدكتور عبد الصبور شاهين، أوائل عام ١٩٨٥ - نشطت الجهات الرسمية فى العناية بالمسجد، ونفذت خطة شاملة من الترميم والتعديل، وتعاونت جهود كثيرة على نهضة المسجد، حتى اكتمل العمل، وتولى بتبرع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز بفرش المسجد بالسجاد، وكان ذلك تلبية لدعوة وجهها إليه الدكتور عبد الصبور شاهين وتولى (النساجون الشرقيون) توريد السجاد، وصار الجامع منارة رائعة

وكعبة مقصودة لمئات الألوف المصلين كل جمعة. وقد استطاعت الجهود الذاتية في نفس المرحلة شراء نظام صوتي لإذاعة الخطبة، كما ازدهرت جهود الخير من خلال لجنة الزكاة، حتى بلغ الإنفاق أحياناً مئات الألوف من الجنيهاً للمحتاجين.

٤٢- وفي أوائل عام ١٩٩٥ بدأت (عملية ترميم شاملة، وحين أوشكت على الانتهاء امتدت يد التخريب إلى الإيوان الكبير الشرقي فقوضته، وهدمت أعمدته، لأسباب مجهولة، والله أعلم.

ونظرة كلية إلى المسجد الجامع من الناحية المعمارية من أول بنائه حتى نهاية القرن العشرين الميلادي نراه قد فقد كل معالمه الأولى، ولم يبق إلا المكان الذي أنشئ عليه في العهد الأول.

أما بالنسبة إلى القرن الأول الذي نحن بصدد الحديث عنه فإن المسجد الجامع قد حدث في عمارته ظاهرتان معماريتان على جانب كبير من الأهمية، ذكرتهما د. سعاد ماهر، قالت: الظاهرة الأولى: هي الأربع الصوامع التي أمر معاوية واليه على مصر مسلمة بن مخلد بإنشائها.. وكانت هذه الصوامع - في الواقع - نواة للمآذن التي أنشئت بمصر بعد ذلك.... والظاهرة الثانية: المحراب المجوف الذي أحدثه قرة بن شريك والي مصر من قبل الوليد بن عبد الملك في عام ٩٣ للهجرة، مقتدياً في ذلك بعمر بن عبد العزيز، الذي أنشأ محراباً مجوفاً في مسجد المدينة عام ٨٨ للهجرة.^(١)

ولأهمية جامع عمرو، فقد ظل الجامع الوحيد في الفسطاط زمن الخلفاء الراشدين، وزمن بني أمية، حتى اتسعت رقعة منازل المسلمين، وجاء الخلفاء العباسيون عام ١٣٢ للهجرة، فبنيت مدينة العسكر وبها جامعها، ثم تولى أحمد بن طولون عام ٢٦٠ للهجرة، وبنى القطائع وأسس مسجده الجامع فيها، وأنشئت مدينة القاهرة عام ٣٥٨ للهجرة، ووضع أساس جامعها الأزهر.

(١) مساجد مصر وأولياؤها ١ / ٧٢.

مصر في الإسلام

ولم يكن جامع الفسطاط من ساعة بنائه مقتصراً على أداء الصلوات الجامعة فيه وحسب، وإنما كان جامعة ومدرسة تعقد في أرجائه حلقات الدروس على يد كبار العلماء والفقهاء على مر العصور، فقد سبق الجامع الأزهر بأربعة قرون في وظيفة التعليم والتدريس، وسوف نتعرض لذكر أهم من درس وخطب في الجامع العتيق على مر القرون.

أهم من درس في المسجد، وأشهر من خطب

- النابغى الجليل الليث بن سعد إمام أهل مصر حديثاً وفقهاً، كان كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها في عصره، ولد في قلشندة عام ٩٤ للهجرة (الموافق عام ٧١٣ للميلاد)، وتوفي في الفسطاط عام ١٧٥ للهجرة (الموافق عام ٧٩١ للميلاد).

- الإمام عبد الله بن وهب بن مسلم الفهرى المصرى بالولاء من أصحاب الإمام مالك، ولد عام ١٢٥ للهجرة (الموافق عام ٧٤٣ للميلاد)، وتوفي عام ١٩٧ للهجرة (الموافق عام ٨١٣ للميلاد).

- الإمام محمد بن إدريس الشافعى الهاشمى، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، ولد في غزة عام ١٥٠ للهجرة (الموافق عام ٧٦٧ للميلاد)، وتوفي بمصر عام ٢٠٤ للهجرة (الموافق عام ٨٢٠ للميلاد).

- سلطان العلماء العز بن عبد السلام، تولى بمصر القضاء والخطابة في جامع عمرو، ثم اعتزل، وتفرغ للتأليف، ولد عام ٥٧٧ للهجرة (الموافق عام ١١٨١ للميلاد)، وتوفي عام ٦٦٠ للهجرة (الموافق عام ١٢٦٢ للميلاد)، ودفن في قرافة المقطم.

- المقرئ مؤرخ الديار المصرية، ولى في مصر الحسبة والخطابة والإمامة مرات، له مؤلفات عدة، ولد عام ٧٦٦ للهجرة (الموافق عام ١٣٦٥ للميلاد)، وتوفي عام ٨٤٥ للهجرة (الموافق عام ١٤٤١ للميلاد).

- ابن حجر العسقلانى من أئمة العلم والتاريخ، تصانيفه كثيرة وجليلة في السير والتاريخ والقضاء والأعلام، ولى قضاء مصر مرات، ولد عام ٧٧٣ للهجرة (الموافق عام ١٣٧٢ للميلاد)، وتوفي ودفن في مصر عام ٨٥٢ للهجرة (الموافق عام ١٤٤٩ للميلاد).

وقد أشارت د. سعاد ماهر إلى فروق بين التدريس في كل من جامع عمرو والجامع الأزهر، قالت: كانت الدروس في جامع عمرو تعطى تطوعاً وحسبة لوجه

الله، وكانت الدروس بالجامع الأزهر بتكليف من الدولة، ولذلك فهي تؤجر عليها العلماء والمدرسين، وذلك أشبه بالمدارس والمعاهد النظامية اليوم.

والفرق الثاني نجده متمثلاً في مكان الدرس، فإنه يطلق على أماكن الدرس في جامع عمرو اسم زاوية، وتعرف في الجامع الأزهر باسم حلقة، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن القائمين على التدريس بجامع عمرو من الأئمة المتصوفين وكبار الفقهاء الذين يتخذون ركناً معيناً فيجتمع التلاميذ والمريدون من حولهم، في حين يقوم بالتدريس في الأزهر مدرسون مأجورون يجعلون أعمدة الأروقة مركزاً لجلوسهم، ويلتف الطلبة في حلقة حول العمود، ومن هنا جاء اسم (حلقات الدرس).^(١)

ولو أردنا معرفة حال الزوايا في جامع عمرو لوجدناها كثيرة، حددها المقرئى وسماها، وذكر أنها بلغت في النصف الثاني من القرن الرابع مائة وعشر زاويا، يتصدرها أئمة الفقهاء والقراء وأهل الأدب والحكمة.

ولم يكن دور جامع عمرو مقصوراً على تعليم الرجال فقط، وإنما كان للمرأة مكان في التعليم والتنقيف في جامع عمرو، فهذا المقرئى نقلاً عن ابن الفرات يقول إنه أدرك بالجامع حلقات دروس ووعظ للسيدات، تصدرتها في الدولة الفاطمية واعظة زمانها أم الخير الحجازية.^(٢)

ولم يكن جامع عمرو للعبادة والتعليم فحسب، وإنما كان للقضاء أيضاً، فقد كان فيه مكان لجلوس القاضى لحل النزاعات، وفض الإشكالات وإعطاء الحقوق لأصحابها، وقد حدد المقرئى مكان انعقاد المحكمة وزمانه، وقال: كان جلوس قاضى القضاء به مرتين كل أسبوع.

ووظيفة رابعة للجامع العتيق، وهى: احتواؤه على بيت المال، وكان على شكل قبة عليها أبواب من حديد، يأتى الناس من المدن والقرى لدفع خراجهم وزكاتهم لمتولى الخراج فى صحن جامع عمرو.



(١) أهم مساجد مصر ١ / ٤.

(٢) السابق ١ / ٧٣.

الفصل التاسع

مدينة الفسطاط



مدينة الفسطاط

بعد أن وضع أساس الجامع الكبير الذي كان بمثابة نواة يلتف حولها المسلمون، وبعد أن استقر رأى الصحابة مع أميرهم عمرو على بناء عاصمة الديار المصرية، وبعد أن أشار الخليفة عمر عليهم بمواصفات موقع العاصمة، وبعد أن فطن عمرو إلى أن العاصمة لابد أن تكون في موضع يشرف على مصر كلها السفلى؛ منها والعليا - شرع هو ومن معه في بناء أول عاصمة إسلامية في إفريقية (الفسطاط).

كانت مساحتها عند بناء المنازل وتحديد الخطط حوالي خمسين ألف متر، وحدودها من الجنوب دير الطين أو دير ماريوحنا أو دار السلام حالياً، ومن الشمال أحد جبال المقطم المسمى بجبل يشكر الذي بنى عليه ابن طولون جامعاً فيما بعد - وحتى قنطرة السد، وبصورة أدق من قناطر السباع (السيدة زينب الآن) إلى قلعة الجبل.

وقد وصف المقرئزي عام ٨٢٠ للهجرة (الموافق عام ١٤١٧ للميلاد) الحد الشرقي، قال: من قلعة الجبل وأنت آخذ إلى باب القرافة، فتمر من داخل السور الفاصل بين القرافة ومصر إلى كوم الجراح حتى تنتهي إلى بركة الحبش تحت الرصد.

وبركة الحبش هي بالتحديد عين الصيرة.

أما حدود الفسطاط الغربية فهي نهر النيل، ويتتابع السنين كان هذا الحد يتغير بتحريك جسر النهر نحو الغرب.

كان بناء المدينة بعد بناء الجامع، اقتداء برسول الله ﷺ عندما بنى مسجده في المدينة المنورة، ثم بنى الدور بعد ذلك، وتنافس الفاتحون على المواضع وعلى أقربها إلى الجامع، ومنعاً للخلاف اختار عمرو بن العاص أربعة من الرجال الموثوق بهم وأمرهم بتحديد الخطط^(١) والأحياء والمواضع لإسكان المسلمين،

(١) قال المقرئزي: المقصود بالخطط الحارات، وهي الآن بمعنى الأحياء.

مصر في الإسلام

وهؤلاء الأربعة هم: معاوية بن خديج التجيبي، وشريك بن سمي العطيفي، وعمرو ابن مخزوم الخولاني، وحيويل بن ناشرة المغفاري^(١)، وقام هؤلاء الأربعة برسم الخطط وتحديدوها ورسم الشوارع وإعطاء كل رجل نصيبه ليبنى داره ومسكنه، ولم ينسوا أن يتركوا فراغاً ومساحات بينهم وبين النيل من جهة، وبينهم وبين حصن بابلون من جهة أخرى، وكانت هذه المساحات للدواب ولتدريبات العسكر.

يقول السيوطي: فلم يزل الأمر كذلك حتى ولي معاوية بن أبي سفيان فأقطع في الفضاء، وبنيت به الدور.^(٢)

وبعد البناء جعل عمرو لكل قبيلة مشرفاً وحارساً، وحدد له مكان الحراسة.

قال د. العدوي: كان لكل جماعة عريف مسئول عما يتعلق بشأن من شئون جماعته، ويساعده (المحرس) وهم رجال يتولون حراسة الخطة، وهم أشبه بالخبراء اليوم، ولكل قبيلة مسجد خاص.^(٣)

وكان عدد خطط الفسطاط أربعاً وعشرين خطة.

وكانت الدور التي بناها المسلمون بسيطة ذات طابق واحد، بنيت بالطوب النىء والطين، فلم يكن فيها إسراف ولا تبذير فهم ملزمون بالاعتصام، وخاصة أنهم خرجوا من بلادهم للجهاد والفتح وليس للتفاخر والزينة، فعندما فكر أحد الصحابة وهو خارجة بن حذافة في بناء غرفة فوق داره - أى دور ثان - وبلغ ذلك أمير المؤمنين في المدينة - أسرع بالكتابة للأمير عمرو، قائلاً: أما بعد فإنه بلغنى أن خارجة بنى غرفة، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه.

قال ابن دقماق: ثم أمره أن يدخلها وينصب فيها سريراً، ويقيم عليه رجلاً ليس بالطويل وليس بالقصير، فإن اطلع من كواها هدمها، ففعل عمرو، ولم يبلغ الكوى، فأقرها، وهى أول غرفة بنيت في الفسطاط.^(٤)

(١) ربما كان (جبريل).

(٢) حسن المحاضرة ٤٥.

(٣) نهر التاريخ الإسلامى ١٩٥.

(٤) عمرو بن العاص بين يدي التاريخ ٢٣٢. ويقصد بالغرفة: الدور العلوى.

وأطلقت أسماء على الخطط الخاصة بكل قبيلة أو جماعة دنت دورها وتقاربت مساكنها، ومن تلك الخطط: خطة أهل الراية، وهم الجماعة من قريش والأنصار وخزاعة وأسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وعبس وجرش من بنى كنانة وليث بن بكر، وكانت خطتهم محيطة بالجامع.

وخطة تجيب وهم من كندة، وهم بجوار خطة مهرة من قضاة وخطتهم على سفح جبل يشكر.

وخطة لخم وخطة غافق وخطة حضر موت، وهكذا.

وقد فصل المؤرخ ابن عبد الحكم، ومن بعده المقرئ في خطته أسماء القبائل ومكان كل قبيلة، مع أسماء البيوت التي احتوتها الخطط، ثم ما آل إليه كل بيت وكل مكان حتى زمانهما.

أما المسلمون الفاتحون من أصل فارسي أو رومي فقد فرق بينهم عمرو عند التخطيط.

يقول ابن زولاق:.. وجعلهم في طرفي البلد، فأسكن الروم الحمراء، وأسكن الفرس بنى وائل وراشدة.

والحمراوات أو الحمراء هي قناطر السباع أو السيدة زينب الآن، وجزء من زين العابدين (أو زينهم) وهؤلاء الروم جاءوا مع عمرو من مسلمي قيسارية، وفي هذا المكان بنى العباسيون العسكر فيما بعد عام ١٣٢ للهجرة.

أما الفرس فهم من صنعاء أصلاً، وقد أسكنهم عمرو جنوب شرق مدينة الفسطاط.

قالت د. سعاد ماهر: هم بقايا جند باذان عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام، وأسلموا ورغبوا في الجهاد، فنفروا مع عمرو بن العاص إلى مصر واختلطوا بها.. ولهم إلى اليوم مسجد يعرف بمسجد الفارسيين أو مسجد سيدي العجمي بدير الطين.^(١)

(١) أهم مساجد مصر ٢ / ١٩٦.

أما دار الأمير فقد بنيت شرقي المسجد الجامع، وجعل أمامها أرض فضاء لموقف دواب الجند، وجعل الباب في زقاق أطلق عليه زقاق القناديل. يقول الكندي: قيل له زقاق القناديل لأنه كان يرسمه قنديل يوقد على باب عمرو.^(١)

وكانت هذه الدار لسكن الأمير عمرو لإدارة الولاية، وبقيت الحال كذلك، ينزل كل أمير في داره يصرف منها شئون الدولة حتى استتب الأمر لمعاوية، فبنيت دار خاصة لأعمال الأمير سميت (دار الإمارة).

وذكر بعض المؤرخين أن عمراً ابنتي داراً خصصها للإمارة، وسميها دار الرمل، وربما كانت هذه الدار ملحقة بداره.

أما الزبير بن العوام^(٢)، فقد اتخذ داراً إلى غربي دار عمرو ووضع فيها السلم الذي صعد عليه عند اقتحام حصن بابليون.

واتخذ الصحابي عبد الله بن عمرو داراً ملاصقة لدار أبيه من جهة الشمال، قيل إنه دفن^(٣) فيها لتعذر دفنه إبان ثورة المصريين أول عهد مروان بن الحكم، وضمت الدار إلى المسجد في التوسعات المختلفة - عبر السنين - التي أشرنا إليها من قبل، وما زال هناك في الركن الشمالي الشرقي بالمسجد مقام يقال: إنه قبر الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو، والله أعلم.^(٤)

وقد أورد القلقشندي أسماء دور الصحابة التي تكونت منها خطة أهل الراية، منهم: دار عمرو بن العاص، ودار الزبير بن العوام، ودار قيس بن سعد بن عبادة، ودار مسلمة بن مخلد، ودار عبد الرحمن بن عديس البلوي، ودار وهب بن عمير

(١) فضائل مصر من كتاب عمرو بن العاص ٤٢٩.

(٢) قتل عام ٣٦ للهجرة، ودفن قرب البصرة.

(٣) توفي عام ٦٥ للهجرة.

(٤) ربما كان هذا موقع القبر فعلاً، ولكن حدث عندما وقع أحد السيول أن حاول العمال نزع المياه من المكان، واستتبع هذا حفر المكان، فلم يصل الحفر إلى شيء يدل على وجود قبر رغم عمقه، ولعل الأرض أكلت الجسد، ولم تبق منه على أثر.

الجمحي، ودار نافع بن عبد القيس الفهري، ودار سعد بن أبي وقاص، ودار عقبة ابن عامر الجهني، ودار القاسم وعمرو ابني قيس بن عمرو، ودار عبد الله بن أبي السرح، وغيرهم. (١)

وأثناء تخطيط مدينة القسطنطينية أمر عمرو بن العاص ببناء دار للخليفة عمر، وبعث له قائلاً: إنا قد اختططنا لك داراً عند المسجد وسميناها دار أمير المؤمنين.

فكتب إليه عمر بن الخطاب: بلغني أنك ابتيت لي داراً، وإنني لرجل من الحجاز أف يكون لي دار بمصر؟ فعزمت عليك بالله إلا جعلتها سوقاً للمسلمين.

وامتثل عمرو وجعلها سوقاً لبيع الدقيق، وسميت: دار البركة، وقد اقتطع عبد الله بن عمر منها جزءاً، كان ينزل فيه عندما يجيء إلى مصر.

وقال د. حسن حسني: هي دار البركة، فجعلها سوقاً كان يباع فيه الرقيق، ولذلك كانت تعرف ببركة الحبش أي: الرقيق. (٢)

وقد اهتم عمرو بن العاص بتوفير الخدمات اللازمة لاستمرار حياة الجنود وأسراهم في هذا المجتمع الناشئ، وهي الخدمات التي تفرضها مسئولية الحاكم عن صيانة أحوال الرعية، وذلك كبناء الحمامات العامة وتنظيم الأسواق، والإشراف على رعاية أربطة الخيل وتدريب مخازن المؤن، وتحديد ساحات التدريب المستمر للكبار والصغار ليكونوا على استعداد لأية مفاجأة.

(١) صبح الأعشى ٢ / ٣٣٠.

(٢) ورقات من الحضارة العربية ١ / ٥٩.

منازل المسلمين بالجيزة

كان على عمرو بعد أن انتهى من معركة الإسكندرية، وعاد إلى القسطنطينية أن يرتب وجود المسلمين في المنطقة بحيث يضمن لقواته سرعة الحركة، وفي نفس الوقت يحميها من المباغته، ونظر إلى غربي موقعه حيث يمتد النيل تحت قدميه، فبعد أن استقر الأمر في القسطنطينية بعث إلى الجند من القبائل ليلحقوا ببقية المسلمين، ويختطوا لهم خططاً بجوارهم، ولكنهم أبوا، وقالوا له: مقدم قدمناه في سبيل الله وأقمنا به، وما كنا لنرغب عن مكان نحن فيه من أشهر.

فكتب عمرو إلى الخليفة يستشير في هؤلاء، وقال: إن همدان ويافعا.... ومن كان معهم أحبوا المقام في الجيزة، فكتب إليه عمر: كيف رضيت أن تفرق عنك أصحابك؟ وتجعل بينك وبينهم بحراً؟ لا تدري ما يفاجئهم، فلعلك لا تقدر على غيائهم، فاجمعهم إليك ولا تفرقهم، فإن أبوا وأعجبهم مكانهم بالجيزة، فابن عليهم من فيء المسلمين حصناً.

وجمع عمرو كبراءهم، وقرأ عليهم الكتاب، فأبوا ترك الجيزة، فأمر عمرو ببناء الحصن عليهم، وكان اختيار المكان المخصص أرض يافع بن زيد، وقد بدئ في بنائه عام ٢١ للهجرة، وانتهى عام ٢٢ للهجرة، وعندما أحس المسلمون أنهم سيعيشون داخل الحصن رفضوا وقالوا لعمرو: لا حصن لنا إلا سيوفنا.

ومع حرص الخليفة والأمير على سلامتهم ببناء الحصن، إلا أنهم كانوا - في واقع الأمر - يشعرون بالأمان مادامت سيوفهم موصولة بأيديهم، ولعلهم أحسوا ثقل الحياة داخل أسوار الحصن، فأثروا أن يعيشوا متحررين من هذا القيد الذي يشبه الحصار.

وفي الأرض الفضاء غربي النيل، بدأ الفاتحون يرسمون خططهم، ويبنّون منازلهم كما فعل إخوانهم شرقي النيل في القسطنطينية، وبمرور الوقت وزيادة عدد العرب المقيمين في الجيزة بلغت بناياتهم وخططهم قريباً من أرض الحرث والزرع الخاصة بالقبط.

_____ مصر في الإسلام _____

يقول السيوطي: وكان بين القبائل فضاء من القبيل إلى القبيل.. وكثر الناس، ووسع كل قوم لبنى أبيهم، حتى كثر البنيان والتأم خطط الجزيرة.^(١)
على أن الجزيرة لم تنفصل عن الفسطاط، إنما هي امتداد لها.

يقول د. جمال حمدان واصفاً الجزيرة وعلاقتها بالعاصمة (الفسطاط): وبدأت الجزيرة تلعب دور رأس الجسر أمام الفسطاط.. أي همزة الوصل بين العاصمة والصعيد.. وكانت جزيرة الروضة أشبه بنصف جسر طبيعي بين الجزيرة والفسطاط يكمله عادة نصف آخر معلق من السفن الثابتة.^(٢)

وقد سكن المسلمون الفاتحون ما بين الفسطاط والجزيرة، عدا أفراد متناثرين في القرى المختلفة المفتوحة، وفي الإسكندرية، ولكنهم كانوا على شكل رباط، أي: يتغيرون كل مدة معينة.

وبعد الفتح وفد عرب من الجزيرة على مصر، فانتشروا في ربوعها وقد تزايد عددهم حتى زاد عن الأربعين ألفاً في عهد معاوية بن أبي سفيان.

وقد حدد المقرئ في خطته أسماء هؤلاء الوافدين وأسماء قبائلهم، وأسماء البلاد التي استوطنوها من شمال مصر حتى جنوبها. وكان لذلك أثره في انتشار اللغة العربية على ما سيأتي إن شاء الله.

(١) حسن المحاضرة ٦٥.

(٢) القاهرة ١١.

قبور المسلمين

كانت طبيعة الأرض أن النيل يسير بمحاذاة جبل المقطم الذي يشرف على مساكن المسلمين من الناحية الشرقية، وهو جبل يمتد من بلاد الحبشة وأسوان جنوباً على شاطئ النيل، حتى ينقطع عند القسطاط، وقد سمي كل موضع منه باسم كما قال ياقوت.

وهو جبل لا ماء فيه ولا مرعى، ومن ذلك اشتقوا اسمه (المقطم)، أى: من القطم أو القطع؛ لانقطاع الشجر فيه.

ويتراوح ارتفاعه ما بين ٢٤٠ متراً إلى ٣٧٥ متراً، كما أن به أودية كثيرة، ذكرت د. سعاد ماهر بعضاً منها، قالت: وإلى الجنوب من مدينة القاهرة يوجد كثير من الوديان بجبل المقطم أهمها وادى التيه، ووادى دجلة بالقرب من المعادى، ووادى أبو سالى، ووادى رشيد، ووادى حوف بمنطقة حلوان.^(١)

سار عمرو بن العاص مع المقوقس يوماً بجوار المقطم، وسأله: مالجبلكم أقرع، وليس به نبات ولا شجر كجبال الشام؟

قال المقوقس: ما أدري، ولكن الله تعالى أغنى أهل مصر^(٢) بهذا النيل بزرعون عليه، ولكننا نرى فى كتبنا ما هو خير من ذلك. قال عمرو: ما هو؟

قال المقوقس: ليدفن تحته قوم يبعثهم الله تعالى يوم القيامة لا حساب عليهم. فقال عمرو: اللهم اجعلنى منهم.

وقال ابن عبد الحكم: عن الليث بن سعد: سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار، فعجب عمرو من ذلك، وقال: أكتب فى ذلك إلى أمير المؤمنين، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: سله لم أعطاك به ما أعطاك وهى لا زرع ولا يستتبط بها ماء ولا ينتفع بها؟ فسأله فقال: إنا لنجد صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: إن

(١) أهم مساجد مصر ١ / ٤٨.

(٢) يَصْد. أنهم غير محتاجين لزراعة الجبل.

_____ مصر في الإسلام _____

لا نعلم غراس الجنة إلا للمؤمنين، فاقبر بها من مات من المسلمين قبلك، ولا تبعه بشيء. (١)

وكان أول من قُبر في سفحه رجل من المعافر يقال له عامر.

وتحول سفح جبل المقطم تجاه الفسطاط مقبرة للمسلمين، دفن فيها عدة من الصحابة منهم عمرو بن العاص وعبد الله بن الحارث الزبيدي وعبد الله بن حذافة وعقبة بن عامر الجهني وأبو بصرة الغفاري ومسلمة بن مخلد وغيرهم.

وصار هذا المكان بعد ذلك مستراداً للصالحين ضم أجداث كثير منهم، وبمرور الوقت أصبح غربي المقطم مدافن المسلمين حتى يومنا هذا.

ولم يخذل عمرو بن العاص المقوقس إنما أعطاه جزءاً من الأرض ليدفن فيه من مات من قبط مصر النصارى.

تقول د. سعاد ماهر نقلاً عن الكندي: لما أخبر عمرو بن العاص المقوقس برد الخليفة عمر بن الخطاب بالاحتفاظ بجبل المقطم وعدم بيعه، قال له المقوقس: ما على هذا صالحتي. فقطع له عمرو قطيعاً نحو بركة الحبش، بدفن فيها النصارى. (٢)

وبركة الحبش هي ما يعرف بعين الصيرة أو هي منطقة البساتين الآن.



(١) معجم البلدان ٥ / ١٧٦.

(٢) أهم مساجد مصر ١ / ٥٠.

خليج أمير المؤمنين

واسمه خليج مصر، وخليج اللؤلؤة، وخليج القاهرة، وقصة حفره أنه بينما المسلمون يبنون الفسطاط أصابت الحجاز ضائقة^(١) وجهد شديدان، بعد أن عز المطر وجفت الأرض، فكتب عمر بن الخطاب لواليه عمرو بن العاص، قائلاً: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاص بن العاص، سلام أما بعد، فلعمري يا عمرو ما تبالي إذا شبت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معي، فياغوثة^(٢) ثم يا غوثاه.

فكتب إليه عمرو بن العاص: لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص، أما بعد، فيالبيك ثم يا لبيك، قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي، والسلام عليك ورحمة الله.^(٣)

ووصلت قوافل الخير المدينة، وفكر عمر في طريقة يختصر بها سير العير والقوافل من مصر إلى الحجاز، وسأل نفسه: لماذا لا يكون هناك طريق مائي بدلاً من الطريق البري الطويل الذي تسير فيه الجمال عبر سيناء، وأسرع في استدعاء عمرو ومعه جماعة من أهل مصر، ولما قدموا، قال لعمرو: يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر، وهي كثيرة الخير والطعام، وقد ألقى في روعي لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر، وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين - أن أحفر خليجاً في نيلها حتى يسيل في البحر، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة، فإن حملة على الظهر يبعد، ولا نبلغ منه ما نريد، فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل رأيكم.

هذا قول، وهناك قول آخر يرى أن صاحب فكرة حفر خليج موصل للبحر هو عمرو نفسه.

(١) قالت بعض المصادر إنها ضائقة عام الرمادة، وهذا خطأ، لأن عام الرمادة كان في عام ١٨ للهجرة أي قبل فتح مصر.

(٢) فتوح مصر ١٠٣.

(٣) فتوح مصر ١٠٤.

قال ابن عبد الحكم: قال عمر بن الخطاب لعمر بن الخطاب: يا عمرو إن العرب قد تشاءمت بي، وكادت أن تهلك على رجلى، وقد عرفت الذى أصابها، وليس جند من الأجناد أرجى عندي أن يغيث الله بهم أهل الحجاز من جندك، فإن استطعت أن تحتال لهم الحيلة يغيثهم الله.^(١)

وفكر عمرو بن العاص فى طريقة تيسر الطريق على القوافل إلى الحجاز، وقال للخليفة: ما شئت يا أمير المؤمنين قد عرفت أنه كانت تأتينا سفن فيها تجار من أهل مصر قبل الإسلام، فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج، وأنسد، وتركته التجار، فإن شئت أن نحفره، فننشئ فيه سفناً يحمل فيه الطعام إلى الحجاز فعلته. فقال له عمر: نعم وأعزم عليك إلا حفرته، وهكذا أمره بعمل هذا الخليج.

وتقول بعض الروايات إن عمر أتبأطاً فى الحفر بناء على مشورة بعض أصحابه المصريين، وأرسل إلى الخليفة بتعل بصعوبة هذا العمل، وأنه عسر لا يلتئم، فبعث إليه عمر كتاباً عنيفاً، قال فيه: إلى العاص بن العاص، فقد بلغنى كتابك تعتل فى الذى كتبت إلى به من أمر البحر، وأيم الله لتفعلن أو لأقلعنك بأذنك أو لأبعثن من يفعل ذلك. ثم حدد له وقتاً للحفر، وقال: لا يأت عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء الله.

ثم عاجله بكتاب آخر فيه: لا تدع بمصر شيئاً من طعامها وكسوتها وبصلها وعدسها وخلها إلا بعثت إلينا منه.^(٢)

وقد أكدت كل المصادر التاريخية أن الخليج حفر فى عام واحد، وإن كان بعض المؤرخين يذهب إلى أنه انتهى منه فى سنة أشهر فقط، المهم أن الخليج حفر فى حياة عمر بن الخطاب حتى إنه قيل إن عمر رأى مكان رسو السفن الآتية من مصر على الميناء القريب من المدينة (الجار)^(٣)، وهو فى طريقه إلى الحج، والغالب أنه قد انتهى منه عام ٢٢ للهجرة (الموافق ٦٤٢ للميلاد).

(١) فتوح مصر ١٠٤.

(٢) فتوح مصر ١٠٤.

(٣) مدينة على البحر الأحمر - القلزم - بينها وبين المدينة يوم وليلة، ترفأ إليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والصين والهند. (معجم البلدان).

مصر في الإسلام

وكان مسار الخليج شمال حصن بابلينون فعين شمس وينحرف شرقاً حتى القلزم عند السويس.

وقبل أن ندقق في مساره لابد أن نرجع إلى قصة حفره من أيام الفراعنة، فالتفكير في وصل البحر الأحمر (القلزم) بالنيل قديم من القرن الثامن عشر قبل الميلاد، حيث حفره سنوسرت الثالث (سيزوستريس)^(١) في الأسرة الثانية عشرة، وتولى حكم مصر (من عام ١٨٧٨: إلى عام ١٨٤٩ قبل الميلاد)، وسمى ما حفره قناة سيزوستريس.

وبعد أكثر من ١٢ قرناً، حاول فرعون مصر نيخاو الثاني من الأسرة السادسة والعشرين إتمام الحفر ووصل النيل بالبحر، وكان ذلك ما بين (عام ٦١٠: إلى عام ٥٩٥ قبل الميلاد)، ولكن نيخاو لم يتمه.

ومر قرن من الزمان، وجاء دارا الفارسي (من عام ٥٢٢: إلى عام ٤٨٦ قبل الميلاد) وأتم حفر الخليج.

قال هيرودوت^(٢): إنه رأى هذا الخليج ووصفه بأنه كان من السعة بحيث يتسع لمرور سفينتين.

وبمرور الوقت لم يهتم الحكام بالخليج، حتى ردمته الرمال، ودخل الإسكندر المقدوني مصر.

وفي عهد بطليموس الثاني (من عام ٢٨٤: إلى عام ٢٤٦ قبل الميلاد) أعاد فتح هذا الخليج مرة أخرى، وسارت فيه السفن، ولكنه غير قليلاً من مساره، فبدلاً من خروج القناة من النيل عند الزقازيق الحالية، جعلها تتفصل من عند فاقوس الحالية.

ومازال الخليج مستعملاً حتى كان عهد آخر ملكات البطالمة كليوباترا السابعة تولت حكم مصر (من عام ٥٠: إلى عام ٣١ قبل الميلاد) وتصارعت مع الرومان، ولكنها فشلت، فحاولت الهروب عن طريق الخليج ناحية الشرق.

(١) اسم أطلقه عليه اليونانيون.

(٢) زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد.

يقول المؤرخ بلوتارك في قصة محاولتها الهرب هذه: بعد معركة أكتيوم حاولت كليوباترا أن تنفذ البقية الباقية من أسطولها، فأمرت بمرور سفنه في القناة إلى البحر الأحمر، ولكن انخفاض النيل أعاقها عن إتمام ذلك.^(١)

ودخلت مصر تحت الحكم الروماني بعد هزيمة كليوباترا، وأهمل الخليج مرة أخرى، حتى عهد الإمبراطور البيزنطي (تراچان) (من عام ٩٨ إلى عام ١١٥ للميلاد)، فأعاد حفره، وكان الخليج لا يستعمل إلا في وقت الفيضان، ثم ترك حتى جاءه عمرو بن العاص، وحفره بناء على رغبة أمير المؤمنين في فتح طريق مائي بين مصر والحجاز.

قال ياقوت :

"ولم يزل تحمل فيه الولاة المؤن والبضائع، إلى أن حمل فيه عمر بن عبدالعزيز، ثم أضاعته الولاة بعد ذلك إهمالا، وسفت عليه الرمال، فانقطع وصار منتهاه إلى ذنب التسماح (بحيرة التسماح) من ناحية بحر القلزم، وأمر أبو جعفر المنصور (عام ١٤٤ هـ) بسد الخليج حين خرج عليه محمد بن عبدالله بن حسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة ليقطع عنه المسيرة فسد إلى الآن.^(٢)

وقد تتابعت عوامل الزمن على هذا الخليج، حتى ردم الجزء الواقع منه داخل مدينة القاهرة، وكان مكان شارع الخليج المصري (شارع بورسعيد حالياً).

قال الأستاذ أحمد حسين: في أول فبراير عام ١٨٩٧ للميلاد (الموافق عام ١٢١٥ للهجرة)، صدر أمر عال بردم الخليج المصري، وتحويله إلى طريق عمومي مراعاة للصحة العامة من ناحية، وتيسيراً للمواصلات في القاهرة من ناحية ثانية، إذ تعهدت شركة الترام أن تقوم بنفقات ردمه، ومد خطوط الترام فيه.^(٣)

(١) عمرو بن العاص ٢٤٠.

(٢) معجم البلدان ٣٨٦/٢.

(٣) موسوعة تاريخ مصر ٣ / ١١٨٣.

وهناك وصف محدد لطريق الخليج الذي احتفروه عمرو وأورده صاحب كتاب (عمرو بن العاص) عن عالم الآثار محمد رمزي، قال: إن فم الخليج وقت فتح العرب لمصر كان واقعاً بشارع الخليج المصري في حذاء مدخل شارع بنى الأزرق بأرض جنينة لاذ، الواقعة في الجهة الغربية من جامع السيدة زينب، لأن النيل في ذلك الوقت كان يجري في المكان الذي فيه اليوم شارع بنى الأزرق، وما في امتداده شمالاً إلى قرية أم دنين^(١)، ثم يسير الخليج قليلاً إلى الشرق ثم ينعطف إلى الشمال حتى نهاية المدينة، ثم يمر في الأراضي الزراعية إلى أن يلتقى بالترعة الإسماعيلية عند العباسية بمحافظة الشرقية، ثم يسير الخليج شرقاً ثم إلى مدينة الإسماعيلية، ومنها إلى السويس حيث البحر الأحمر.^(٢)

وقال المؤرخون: كان طول الخليج من فم الخليج حتى البحر الأحمر تسعون ميلاً أي حوالي ١٤٠ كيلومتراً.

والوصف الذي ذكره عالم الآثار يبين لنا أن البحيرات المرة كانت على اتصال بالبحر الأحمر زمن الفتح، أي: إن هذه الوصلة كانت ضمن الحفر. ونذكر هنا قناة السويس التي حفرت في القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري) وتربط بين البحرين الأبيض والأحمر، هذه القناة فكر في حفرها عمرو بن العاص في القرن الأول الهجري، وذلك بأن يصل بحيرة التمساح والبحيرات المرة بالبحر الأبيض، وعرض ذلك على أمير المؤمنين، ولكن الخليفة رفض وأنكر، وقال: إنه يمكن الروم من السير إلى البحر الأحمر، وقطع السبيل على من أراد الحج.

كذلك فكر في هذا الوصل الخليفة هارون الرشيد، لكن وزيره يحيى البرمكي قال: إذا يخطف الروم الناس من المسجد الحرام والطواف... فامتنع عن ذلك. قال جورجى زيدان: وربما فكر فيه غيره من ملوك المسلمين، ولم يخرجوه إلى حيز الفعل.^(٣)

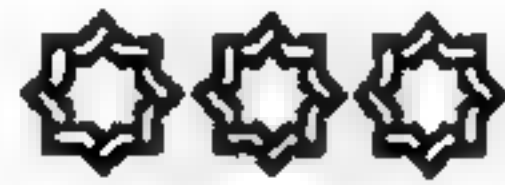
(١) اسمها المقس، وهي مكان الأزبكية وباب الحديد حالياً.

(٢) عمرو بن العاص ٢٤٥.

(٣) تاريخ مصر الحديث ٢ / ٢١٠.

والذى خاف منه خلفاء المسلمين هو ما حدث تقريباً بعد ثلاثة عشر قرناً، وبعد حفر قناة السويس، فقد دخل الإنجليز لاحتلال مصر عن طريق القناة، بعد أن طلب أحمد عرابي من ديليسبس ردمها، ولكن المهندس الفرنسى طمأنه ووعدته بعدم دخول أى جندي القناة من ناحية بورسعيد، ولكن الخطة الاستعمارية رأت ضرورة تسرب الجيوش الإنجليزية عن طريق القنال ووصولها إلى التل الكبير حيث يعسكر الجيش المصرى بقيادة أحمد عرابي، وكانت بداية الاستعمار عام ١٨٨٢ للميلاد. لله درك يا عمر فكأنك كنت تستشف الغيب من مئات السنين، أكثر من ثلاثة عشر قرناً، وكذلك وزير الرشيد يحيى البرمكى.

إن ذلك يدل على عمق الرؤية الاستراتيجية لدى هؤلاء القادة، الذين لم يدرسوا فى كليات أركان الحرب، ولا تخصصوا فى دراسة معارك التاريخ. لقد أدركوا ذلك بثاقب نظرهم، وصادق حدسهم، فوقوا الأمة كثيراً من الأخطار التى وقع فيها من بعدهم، حين لم يتعلموا دروس التاريخ وعبره.



الفصل العاشر

نظام الحكم الإسلامى فى مصر



الجزية والخراج

بعد أن استقر الأمر للمسلمين في مصر، وبعد أن خطط عمرو بن العاص مدينتي القسطنطينية والجزيرة بدأ في إدارة هذه الدولة الجديدة التي دخلت حوزة الإسلام، وكان نظام الخلافة أو الحكومة المركزية هو النظام العام، أما النظام المتبع في كل قطر على حدة فقد كان على نظم الدول المغلوبة من ناحية الإدارة والولايات، كما قال صاحب كتاب الحضارة الإسلامية.^(١)

ودرس عمرو بن العاص نظام الرومان في إدارتهم لمصر، ووجد أنهم قسموا مصر إقليمين: مصر العليا وهي الصعيد جنوباً حتى النوبة والسودان، ومصر السفلى وهي الدلتا حتى ساحل البحر الأبيض، ثم قسمت بعد ذلك إلى أجزاء أصغر.

يقول د. العدوي: فقسم عمرو - مصر تقسيماً إدارياً إلى أقسام تسهل للأهالي عملهم، وهي الأقسام التي أطلق عليها الكور بدلاً من الكلمة البيزنطية (باجارشى)... فكانت هذه الكور أشبه بالمحافظات في الوقت الحاضر، وكان لكل إقليم حاكم حمل لقب (صاحب الكورة) ومهمته تنظيم العلاقات بين الأهالي والإدارة المركزية.^(٢)

أما د. حسين مؤنس فقد وضع بالتفصيل النظام الإسلامي المحلي الجديد، وما طرأ عليه من تغيير بالنسبة إلى الحكومات السابقة، يقول: لما استولى العرب على مصر أطلقوا (أسفل الأرض) على الوجه البحري، واسم (الصعيد) على الوجه القبلي، ثم أبدلوا اسم (أوجستامنيك)^(٣) إلى اسم الحوف، وأطلقوا على إقليم مصر^(٤) اسم الريف، وجعلوا الحوف ١٤ كورة، بدلاً من ١٣ قسماً كانت في عهد الرومان، كما جعلوا الريف ٣١ كورة، بدلاً من العشرين قسماً، فكان المجموع ٤٥ كورة في

(١) صفحة ٤١٧.

(٢) نهر التاريخ ١٧١.

(٣) أوجستامنيك: قسم إداري يشمل ما يلي: فرع دمياط شرقاً، وفرع رشيد غرباً، وهو أحد قسمي الوجه البحري.

(٤) بقية الدلتا، وهو القسم الثاني للوجه البحري.

الوجه البحرى، أما الصعيد فجعلوه ٣٠ كورة، أى: مجموع الكور فى الوجهين كان ٧٥ كورة، وكانت هذه الكور مكونة من عدد كبير من القرى، كما يقول الدكتور حسين مؤنس.^(١)

ولكن الشيخ عبد الله الشرقاوى يقول: كان فى مصر زمن عمرو بن العاص أربعون كورة، وعدد قراها ألفان وثلاثمائة وخمس وسبعون قرية.^(٢)

وبناء على هذا النظام كان عمرو بن العاص فى الفسطاط ومعه عبد الله بن أبى سرح مشرفاً على مصر العليا، وكان يدير البلاد إدارة دقيقة، وقد عمل على تنظيم مصر بحكمة ودراية مع مشورة أمير المؤمنين من حين لآخر، وعامل الفلاحين القبط معاملة لم يعرفوها من قبل، فالعدل والإنصاف واحترام نظمهم وعاداتهم ومعتقداتهم هو الأساس الأول فى المعاملة، ثم ترك حرية العبادة لهم واختيار البطارقة والقساوسة والشمامسة.

يقول حنا النقيوسى - الذى كان بعد الفتح بخمسين سنة: قد تشدد عمرو فى جباية الضرائب التى وقع الاتفاق عليها، ولكنه لم يضع يده على شىء من ملك الكنائس، ولم يرتكب شيئاً من النهب أو الغصب، بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر مدة حياته.^(٣)

وقال جورجى زيدان: قسم عمرو مصر إلى كور أو أعمال يرأس كلا منها حاكم قبطى تأتية القضايا، فينظر فيها، ويصدر أحكامه إلى من هم تحت حكمه رأساً، فحصل الأهليون على راحة لم يكونوا رأوها منذ أزمان، وساد الأمن فى بلادهم.^(٤)

وسمح عمرو كذلك ببناء الكنائس والأديرة، حتى إننا وجدنا تاريخ بناء كنائس كثيرة كان فى القرن السابع الميلادى، ولم يتدخل عمرو فى شئون الكنيسة بطائفيتها من يعاقبة وملكانية، بل ترك كل فرد يعبد الله على هواه: (لكم دينكم ولى دين).

(١) أطلس الإسلام ٣٢٢.

(٢) تحفة الناظرين ٦٩.

(٣) فتح مصر ٣٨٧.

(٤) تاريخ مصر الحديث ١ / ١٩١.

ووجد القبط أخيراً جواً من الحرية، وتنفسوا الصعداء، فلا خوف من مذهب الرومان، ولا تعسف بطارقتهم، وزاد على ذلك أنه لم يقف في طريق بنائهم لكنائس جديدة في المدن الجديدة.

يقول جستاف لوبون: وسار عمرو بن العاص في مصر على غرار ما فعل عمر بن الخطاب في القدس، فشمّل الديانة النصرانية بحمايته، وسمح للأقباط بأن يستمروا على اختيار بطريق لهم كما كان في الماضي، ومن تسامحه أنه أذن للنصارى في إنشاء الكنائس في المدينة الإسلامية التي أسسها.^(١)

وفي هذا الجو الجديد أمر عمرو بن العاص بإعادة البطريق بنيامين الذي فر من ظلم المقوقس، ودعاه إلى مزاولة عمله في كنيسة الإسكندرية بعد أن اختفى طريداً يضرب في أنحاء الصعيد، ويهيم على وجهه، لا يعرف له مكان، مدة ثلاثة عشر عاماً، وكتب عمرو من أجله كتاب الأمان الذي ذكره بتلر، ونصه: أينما كان بطريق القبط بنيامين، نعهده بالحماية والأمان وعهد الله، فليأت الشيخ البطريق آمناً على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر، والذين في سواها، لا ينالهم أذى ولا تخفر لهم ذمة، فليأت ليلى أمر ديانتته، ويرعى آل ملته.^(٢)

ولم يلبث عهد الأمان أن وصل بنيامين، فعاد من مخبئه ودخل الإسكندرية، وتقول المصادر: إنه قابل عمراً ولقيه الأخير بكل ترحاب وتكريم، وجعل له ولاية أمر النصرانية في مصر.

يقول د. إدوار نقلا عن (كتاب السينكسار) وهو الكتاب الذي يسجل يوميات القديسين، ويقرأ أثناء الصلوات بالكنيسة.

جاء به أنه في اليوم التاسع من شهر طوبة (١٧ يناير) تحتفل الكنيسة بذكرى البابا بنيامين، ويروى (السينكسار) أن العرب جاءوا إلى مصر، وفتحوها بقيادة عمرو بن العاص، ثم يقول: وقرب عمرو رؤساء القبط منه وأحسن معاملتهم.

فاتجه الأقباط إلى إصلاح شئون الكنيسة التي كان قد اختل نظامها، وتفرق شملها، فقدموا إلى ابن العاص، وأعلموه بخبر اختفاء البابا بنيامين، طالبين عودته إلى كرسيه، فاستدعاه ومنحه الحرية الدينية، وأعاد له الكنائس التي كانت قد

(١) حضارة العرب ٢١٦.

(٢) فتح العرب ٣٨٢.

اغتنبها البطريق الملكاني (البيزنطي)، وأمر أن يتصرف في أمورها كما يريد، فاستطابت لذلك قلوب المسيحيين، وشكروا حسن صنيع عمرو إليهم.^(١)

وليس معنى إعطاء الحرية الكاملة لليعاقبة القضاء على المذهب الملكاني، وإنما بقي المذهبان متعايشين جنباً إلى جنب في مصر، ينعم أتباعهما بالحماية والرعاية والطمأنينة في ظل الإسلام الفاتح.

وعود إلى نظام الإدارة في مصر، فمن المعلوم أن العرب لم يكن لهم عهد بنظم إدارية، فقد خرجوا من جزيرتهم للفتح ونشر دعوة الإسلام في أقطار الأرض، راجين ثواب الله، ولذلك لم يتهافتوا على الاشتغال بالزراعة أو الصناعة أو العمالة بوجه عام.

وقابلت عمراً مشكلة خلو الوظائف بخروج أصحابها من الروم، وعودتهم إلى بلادهم بعد رفضهم أن يكونوا رعايا دولة إسلامية، وحاول عمرو راب هذا الصدع في الدولة الجديدة، فأسرع في سد هذا الخلل بعمال من قبط مصر، حتى صار كل جامعي الضرائب ومسجلي الدواوين والحسبة - تقريباً من النصاري، وكلهم تحت نظام مضبوط في يد القائد العام للدولة المسلمة الجديدة الأمير عمرو.

يقول د. العربي:.. سنة الإسلام في معالجة كل مجال من مجالات الحياة أن يعبئ تعاليمه الخلقية والاقتصادية والحكومية في جبهة مترابطة.^(٢)

هذا بالنسبة إلى الإدارة وشئون الحكم والاقتصاد والديوان، أما بالنسبة إلى زراعة الأرض فقد تركت كلية في أيدي أصحابها من القبط، لأنهم تملكوها في ظل الإسلام، فقد كان هؤلاء الزراع أجراء في هذه الأرض إلى عهد قريب تحت الحكم الروماني، أما الآن فقد أصبحت الأرض في أيديهم، ما داموا يزرعونها، وما داموا يدفعون الخراج الذي حددت قيمته، ثم أمر عمرو بأن تحدد في كل قرية وكل كورة قطعة من الأرض يخصص ريعها لإصلاح الأبنية العامة وصيانتها والإنفاق عليها، مثل: المساجد والكنائس والحمامات وأماكن العلاج والخانات وسكن العجزة واليتامى.

(١) النموذج المصري للوحدة الوطنية صفحة ٣٦، عن كتاب الصادق الأمين المستعمل بكنائس الكرازة المرقسية، نشره الايفومانس فيلوتاؤس المقاري والقس ميخائيل المقاري ١ / ٢٨١.

(٢) محاضرات في النظم الإسلامية ١٣٣.

مصر في الإسلام

وبدهى أن يستشير عمرو الحاكم الجديد من لهم قدر من الخبرة والدراية، فربما كان لديهم ما يشيرون به لسياسة الدولة الجديدة، ولإصلاح شئونها وتخصيب أرضها وتكثير ثمرها، وقد أوردت المراجع مشورتين كانتا بين عمرو وكل من المقوقس وبنيامين البطريق، وعجيب أن يكونا بهذه المثابة مع الفاتح الذي هزمهما منذ قريب، قال عمرو للمقوقس: يا مقوقس^(١) لقد وليت مصر إحدى وثلاثين سنة، فأخبرني بما يكون فيه عمارة أراضى مصر؟ قال: إني رأيت الذى يقوم بعمارة أرض مصر: حفر خلجانها، وإصلاح جسورها، وتمد ترعها، ولا يؤخذ من خراجها إلا من غلالها، ويحجر على عمالها المطل^(٢)، ويمنعهم من أخذ الرشاء، وترفع عن أهلها المعاون والهدايا ليكون ذلك قوة للمزارعين على وزن الخراج.

وقد طلب الخليفة عمر من الأمير عمرو أن يستشير أيضاً البطرك بنيامين^(٣) بعد أن عاد إلى منصبه، فسأله عمرو عن خير وسيلة لحكم البلاد وجباية أموالها، فأشار عليه البطريق بأمور قريبة مما ذكره المقوقس، وسنعرض ما ذكره بثلث نقلاً عن ابن عبد الحكم من هذه المشورة قال لعمرو:

- ١- أن يستخرج خراج مصر فى أوان واحد عند فراغ الناس من زروعهم.
- ٢- أن يدفع الخراج فى أوان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم - يعنى بعد جنى الثمار.
- ٣- أن تحفر خلجانها كل عام.
- ٤- أن تصلح جسورها وتسد ترعها.
- ٥- ألا يختار عامل ظالم ليلى أمور الناس.^(٤)

وقد زاد المقرئ فى بنود الاستشارة التى حدد فيها بنيامين شروط الحكومة الناجحة، قال:

- ١- أن يجبى الخراج من غلة الأرض.

(١) تولى حكم مصر من قبل هرقل عام ٦١٠ للميلاد.

(٢) المطل: التأخير فى دفع الجزية والخراج.

(٣) بقى بنيامين مختفياً لمدة ١٣ عاماً قبل الفتح الإسلامى، وأمنه عمرو، وأعادته.

(٤) فتح العرب ٣٩٦.

٢- أن يعطى العمال أرزاقهم بغير انقطاع.

٣- ألا يباح مطلق أهلها لنلأ يرتشوا.

وقد سار عمرو بن العاص في حكمه لمصر سيرة الحاكم المسلم العادل المقتصد الرءوف بأهل البلاد، الصادق المخلص الحريص على سكان مصر من قبط وغيرهم، وقد سار في معاملة الفلاحين بما أشار عليه كل من المقوقس عظيم القبط، وبنيامين البطريق، فلم يجمع الخراج إلا من غلة الأرض.

وقبل أن نستطرد لابد أن نفسر الفرق بين الجزية والخراج، وكيف قن عمرو حسابهما في أول الفتح؟

ونشير إلى نقطة مهمة هي أن نظام الخراج والجزية لم يكن موحداً في جميع البلاد الإسلامية المفتوحة، فكل بلد له وضعه وله نظمه.

يقول صاحب كتاب (الدولة العربية) : فقد أقر عمر بن الخطاب النظم المالية الساسانية في العراق وفارس، في حين أقر النظم البيزنطية في الشام ومصر.^(١)

وكان أول نظام متبع في حكم مصر الاقتصادي في العهد الإسلامي أن كتب عمرو للمصريين كتاباً - كما قال البلاذري - وشرط لهم إذا وفوا بذلك ألا تباع نساؤهم وأبنائهم، ولا يُسبوا، وأن تقرر أموالهم وكنوزهم في أيديهم، فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر فأجازه، وصارت الأرض أرض خراج.

ولنذكر هنا تعريف كل من الجزية والخراج:

فالجزية: مبلغ يدفعه كل رجل حر عاقل صحيح البدن قادر على الدفع من غير المسلمين من أهل الكتاب، وتسقط عنهم بالدخول في الإسلام، وتدفع في وقت معين من السنة.

أما الخراج: فهو أجرة الأرض والإتاوة والغلة والحصّة من المال تدفع سنوياً من غلة الأرض، على اعتبار أن الأرض ملكية عامة للأمة الإسلامية، وإذا انتقلت الأرض من أيدي أهل الذمة إلى أيدي المسلمين أو أسلم صاحب الأرض، فيجب عليه - مادامت الأرض في يده - دفع الخراج لأنه مؤبد مع الأرض، فهو حقها، وقيل : إن كلمة الخراج كلمة يونانية معناها ضريبة.

(١) التاريخ السياسي للدولة العربية ٢/٢٥٥. والساسانية: الفارسية.

وقد ذكر عبد الله بن عمرو ما كان ملزماً به القبط من جزية وخراج، قال: فوضع أبى على كل حال^(١) دينارين جزية، إلا أن يكون فقيراً^(٢)، وألزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أرباب حنطة وقسطى زيت، وقسطى خل، وقسطى عسل رزقاً للمسلمين تجمع فى دار الرزق، وتقسم فيهم، وأحصى المسلمين فألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنساً أو عمامة وسراويل فى كل عام أو عدل الجبة الصوف ثوباً قبطياً^(٣).

وبعد فترة أعيد تقييم الجزية والخراج فى ضوء المتغيرات البيئية، وللتيسير على أصحاب الأراضى الخراجية، ولتغطية نفقات المجاهدين المرابطين على الحدود، والمحافظين على أمن البلاد، فتم الاتفاق على رفع الجزية إلى ما يقارب الضعف.

قال ابن عبد الحكم:.. وجزية أهل مصر أربعون درهماً على أهل الوراق^(٤) منهم، وأربعة دنانير على أهل الذهب، كذلك ترتب الخراج بصورة عملية أكثر فاقترصر على القمح والشعير، واختفت القباطى والبرانس، وما إلى ذلك، قال ابن عبد الحكم: أما الفدان فعليه أربب قمح وويبتان^(٥) من شعير^(٦).

ولا نشك فى أن هذا التغيير كان انعكاساً لنوع من المرونة فى العلاقات بين الجانبين، وتبعاً لحال السوق من ارتفاع الأسعار أو انخفاضها، وهو ما عبر عنه عمرو بن العاص عندما جاءه صاحب إخوان، فقال له: أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبر لها، فقال له عمرو معبراً عن غموض الموقف، وأنه لا يملك أن يتنبأ بما سيحدث: لو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن خفف عنا خففنا عنكم^(٧).

(١) الحال: من بلغ الحلم، قال عنه عمر: من جرت عليه المواسى.

(٢) إذا كان فقيراً أعانه بيت المال على دفع الجزية.

(٣) فتوح البلدان ٢١٢.

(٤) الوراق: الفضة.

(٥) الويبة: ستة عشر قدحاً، والأربب للمصرى ست وبيات. (الذخائر والتحف ٢١٠)

(٦) فتوح مصر ١٥٤. وإخوان: كورة قرب رشيد ناحية الإسكندرية.

(٧) فتوح مصر ١٥٤.

ومعنى ذلك أن الأمر متوقف على الظروف التي تفرض أحكامها على الجميع، وبذلك ينتفى عن موقف عمرو إرادة التعسف والإجحاف بحقوق الناس.

وهناك نقطة كانت تتبع الخراج والجزية ويلزم بها القبط، وهى ما ذكره ابن عبد الحكم: ويضيفون من نزل بهم من أهل الإسلام ثلاث ليال^(١).

وعبارة (يضيفون) هنا إشارة إلى ما أقره الإسلام فى نظم المجتمع العربى من ضرورة أن يتحمل المضيف نفقة الضيافة لمن ينزل به من الضيفان ثلاثة أيام، وهو حق واجب الأداء، وقد كان عمرو يوفر من خلال هذا الشرط مئونة الجنود الفاتحين الذين يجوبون البلاد طويلاً وعرضاً لحماية حدودها، والقيام على مسئولية الأمن فى أنحائها.

تقول د. سيدة الكاشف معلقة على هذه الضيافة: يذكر المواردى واجب ضيافة المسلمين على أهل الذمة باعتبار أن الضيافة نوع من أنواع الجزية، ويشترط فى الضيافة المدة.. قال المواردى: وإذا صولحوا على ضيافة من مر بهم من المسلمين قدرت عليهم ثلاثة أيام، وأخذوا بها، لا يزدادون عليها كما صالح عمر النصارى فى الشام على ضيافة من مرّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون، ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة، وتببيت دوابهم من غير شعير، وجعل ذلك على أهل السواد دون المدن^(٢).

وينبغى ملاحظة أن واجب الضيافة مكفول أساساً فى أخلاق العرب قبل الإسلام، ثم هو صلة من أخلاق البر بابن السبيل والمنقطع، فإذا فرض المسلمون هذا الحق على القبط تجاه من يمر بهم من المدافعين عن القرى والنجوع والحدود فإن ذلك يعنى كفالة تموين هذه الحاميات، إلى جانب نشر هذا الخلق فى المجتمع الجديد.

ومن المؤكد أن سياسة دقيقة وضعت آنذاك لحصر مقدار الأرض التى فى حوزة كل قرية حتى يتسنى للحسبة تحديد الخراج بالدرهم، فقد كان فى كل كور

(١) السابق.

(٢) أحكام أهل الذمة ٤٢.

_____ مصر في الإسلام _____

صاحب كورة، ثم يليه أفراد وظيفتهم تحديد كل صغيرة وكبيرة على كل مصري مسلم أو نصراني.

يقول د. العدوي: وجاء بعد طبقة أصحاب الكور رؤساء القرى ومشايخها، وقد عرفتهم الإدارة الإسلامية باسم (موازيت)^(١).. وجرى تنسيق العمل بين الإدارة الإسلامية، وتلك الإدارات المحلية وفق خطة محكمة وإشراف دقيق.^(٢)

وقد لوحظ أن الخراج والجزية كانا يدفعان في موعد محدد من العام، وكان ما يبعث منه إلى العاصمة (المدينة) محدد الوقت أيضاً، فكل الأمور تسير بدقة متناهية، وتقول الروايات إن الخليفة عمر استبطأ مرة خراج مصر، فبعث الكتاب ثلث الكتاب لعمر بن العاص منبهاً إياه مرة وعائياً ثانية وموبخاً ثالثة أخرى، وقد نقلنا بعض هذه الكتب من بتلر الذي نقلها بدوره من ابن عبد الحكم والبلاذري والمقريزي.

ففي السنة الثالثة لفتح مصر عام ٢٣ للهجرة (الموافق عام ٦٤٤ للميلاد) بعث الخليفة إلى عمرو قائلاً: إني فكرت في أمرك، والذي أنت عليه، فإذا أرضك واسعة عريضة رفيعة، وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة في بر وبحر، وإنها قد عالجها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم، فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جذب، وقد أكرت في مكاتبك في الذي على أرضك من الخراج، وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر، ورجوت أن تفيق فترفع إلى ذلك، فإذا أنت تأتيني بمعارض تعباً بها لا توافق الذي في نفسي، لست قابلاً منك دون الذي تؤخذ به من الخراج قبل ذلك، ولست أدري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك؟

فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة، وإن كنت مضيقاً نطعاً إن الأمر لعلني غير ما تحدث به نفسك، وقد تركت أن أبثلي ذلك منك في العام^(٣) الماضي رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك، وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك

(١) المازوت: تعريب كلمة Mazot، وهي تعني العمدة بلغة البيزنطيين. (نهر التاريخ ١٧١)

(٢) نهر التاريخ الإسلامي ١٧١.

(٣) قال بتلر: ربما كان ذلك الخطاب عام ٦٤٤ للميلاد.

عمال السوء وما توالس^(١) عليك وتلف، اتخذوك كهفاً، وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه، فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه، فإن النهر يخرج الدر والحق أبلج، والسلام.^(٢)

والكتاب- كما نرى- كله عتاب وتأنيب، وتهديد بإبعاده، وهو لم ينسب التقصير لعمر، وإنما للحاشية المحيطة به، ومع ذلك فقد رد عليه عمرو رداً رقيقاً مذكراً بإياه بموقفه^(٣) من رسول الله ﷺ وصاحبه أبى بكر، قال: ... ولقد عملنا لرسول الله ﷺ ولمن بعده فكنّا بحمد الله مؤدين لأمانتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا، نرى غير ذلك قبيحاً والعمل به شينا.. معاذ الله من تلك الطعم، ومن شر الشيم.. فإن الله نزهني عن تلك الطعم الدنية، والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضاً، ولم تكرم فيه أخاً، والله يابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد غضباً لنفسى، ولها إنزاهاً وإكراماً، وما عملت من عمل أرى على فيه متعلقاً، ولكنى حفظت مالم تحفظ، ولو كنت من يهود يثرب ما زدت، يغفر الله لك ولنا.^(٤)

ولن نستطرد فى سرد هذه المراسلات، وإنما كل هنا هو إظهار ما كان عليه حال الحكومة الإسلامية، فالوالى غير حر فى تصرفاته المالية، إنما هو محاسب بكل دقة عن كل صغيرة وكبيرة، ورحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقد كان يحاسب كل وال حساباً عسيراً، ويبدأ بأن يسجل مقدار ما عنده عند توليه الإمارة، وإذا زاد عنده شئ حاسبه عليه، وربما أخذه ووضع فى بيت المال، أو أخذ نصفه للمسلمين.

وهناك كتاب ذكره القلقشندى بعثه الخليفة عمر مستفسراً عن مصدر أموال عند واليه على مصر عمرو بن العاص، قال: سلام عليك، أما بعد، فإنه قد بلغنى أنه فشّت إليك فاشية من خيل وإبل وبقر وعبيد، وعهدى بك قبل ذلك لا مال لك، فاكتب إلى من أين أصل هذا المال؟^(٥)

(١) التوالس: التناصر فى خب وخديعة. (المعجم الوسيط).

(٢) فتح العرب ٣٩٧.

(٣) كان عمرو عاملاً لرسول الله ﷺ فى عمان يجمع صدقاتها وزكاتها بعد إسلامه عام ٨ للهجرة، ومات ﷺ وعمره فيها، فأبقاه أبو بكر.

(٤) فتح العرب ٣٩٨.

(٥) مآثر الخلافة ٣ / ٣٨٠.

ورد عمرو: لعبد الله أمير المؤمنين، سلام عليك، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه أن فاشية مال فشت لي، وإنه يعرفني قبل ذلك ولا مال لي، وإنني أعلم أمير المؤمنين أنني ببلد السعر فيه رخيص، وأنني أعالج من الزراعة ما يعالجه الناس، وفي رزق أمير المؤمنين سعة، والله لو رأيت خيانتك حلالاً ما خنتك.^(١)

ولم يسكت أمير المؤمنين، إنما بعث إليه بالقول الفصل، قال: إنني قد خبرت من عمال السوء ما كفى.. وقد سؤت بك ظناً، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك، فأطلعه طلعة، وأخرج إليه ما يطالبك به، وأعفه من الغلظة عليك، فإنه برح الخفاء. وجاء محمد إلى مصر وقاسمه ماله.

يقول البلاذري: لما قاسم محمد بن مسلمة عمرو بن العاص، قال عمرو: إن زماناً عاملنا فيه ابن حنتمة (يقصد عمر) هذه المعاملة لزمان سوء، لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج.^(٢)

فقال محمد:.. لولا زمان ابن حنتمة هذا الذي تكرهه ألفت معتقلاً عنزاً بفناء بيتك يسرك غزرها^(٣)، ويسوؤك بكاؤها.

قال عمرو: أنشدك الله ألا تخبر عمر بقولي، فإن المجالس أمانة.

قال: لا أذكر شيئاً مما جرى بيننا وعمر حي.^(٤)

وقد يكون من واجبتنا أن نفسر هذا الموقف الذي يزداد على مر الشهور تعقداً بين أمير مصر وأمير المؤمنين، فلا شك أن عمراً حين تسلم مصر كان حريصاً على إصلاح ما بها من خلل في المرافق والإدارة، وقد كان يرى من واجبه طبقاً لمشورة المقوقس وبنيامين أن ينفق على إصلاح تلك المرافق، فيبنى الجسور، ويطهر الترع، وقد كان يستهلك جزءاً كبيراً من الدخل العام خراجاً وجزية، وهو

(١) مآثر الخلافة ٣/٣٨٠.

(٢) الديباج والخز: نوعان من الحرير.

(٣) الغزر: كثرة اللبن.

(٤) فتوح البلدان ٢١٧.

الذى أثر على ما كان يرسله إلى أمير المؤمنين بالمدينة من فائض هذا الإنفاق العام، ولا بد أن نتصور أن هذا الإنفاق كان يتزايد من عام لآخر مع بسط يد الإدارة الإسلامية على أنحاء البلاد، ولم يكن لدى عمر في تقديرنا صورة صحيحة عن واقع هذا الإنفاق حتى ظن بعمر و الظنون، وتصور أنه يحبس عن المسلمين حقهم الذى سبقت منه نماذج فى العام الأول والثانى، ولو كانت لدى أمير المؤمنين صورة صحيحة فعلاً لعذر عمر، لأن الخليفة لم تكن تتقصه النية الصالحة والرغبة الصادقة فى إصلاح أحوال العباد، وإنما حرصه كله أنه كان يخشى على ولاته من الدنيا، وأن يغلبهم الشيطان على أمرهم، فيزيغ بهم عن الصراط.

ومع هذه الروح العادلة والدقة المتناهية فى معاملة الولاة ومحاسبتهم نرى أناساً من المستشرقين والمغرضين من أتباع الطائفية ينتهزون فرصة المراسلات بين الخليفة والأمير، فيتناولون على عمرو ويتهمون به بأنه كان يأخذ الخراج لنفسه، ولكن هؤلاء وجدوا من يرد عليهم من المستشرقين أنفسهم.

ونذكر هنا رأى واحد منهم، هو بتلر حيث يقول: فإننا لو آمنا بأن الطمع والجشع قد دبا فى قلب عمرو، لم يكن لنا أن نذهب إلى أنهما قد ملكا عليه لبه فأنسياء العدل، وجعلاه يتخلى عن أداء أمانته نحو المصريين.^(١)

فهذا هو الخليفة الذى يراقب ولاته ويحاسب كلا منهم على كل صغيرة وكبيرة، وهذا الوالى الذى يطيع ويلتزم بكل تعاليم الخليفة، وهذا يذكرنا بقصة المصرى المعروفة، الذى ضربه ابن عمرو بن العاص، فأسرع القبطى، وشكا إلى الخليفة فى المدينة، ولم يتوان الخليفة، بل أسرع وبعث من يأتى بابن الوالى ليقتص منه القبطى، ثم قال قولته المشهورة المدوية عبر العصور الموجهة لعمر بن العاص: يا عمرو، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟؟.

ونسترجع الحديث عن الجزية والخراج، ونستعرض مقدارهما، فى ولاية عمرو بن العاص.

قال البلاذرى، فى كتابه (فتوح البلدان): وجبى عمرو خراج مصر وجزيتها ألفى ألف.^(٢)

(١) فتح العرب ٣٩٩.

(٢) فتوح البلدان ٢٢٣.

ولكن المقرئى وبعض المؤرخين رأوا أن الخراج والجزية كانا اثني عشر ألف ألف دينار.

ونحن بدورنا نستبعد هذا الرأي، والأرجح هو الرقم الأول الذى ذكره البلاذرى، وسنورد رأى د. ضياء الدين الرئيس فى قيمة الخراج ومناقشته لكل من رأى البلاذرى والمقرئى، قال: ونحن نرى أن التقدير الثانى - رأى البلاذرى وقدامة بن جعفر - هو الأرجح، بل الأصوب، ولنا على ذلك أدلة عديدة، فأولها: أن البلاذرى وقدامة كلاهما متقدم على المقرئى.

وثانيها: أن المقرئى نفسه نص على أن هذا الذى جباه عمرو ثم عبد الله^(١) إنما هو على الجماجم خاصة دون الخراج^(٢)، أى: إنه كانت الجزية على الرؤوس، باعتبار أن الجزية - بالاتفاق - هى ديناران على كل رجل، أى دون: النساء والصبيان والشيوخ^(٣).

كما ذكر المقرئى أيضاً فى موضع آخر: فيكون معنى ذلك أن عدد الرجال الذين أدوا الجزية ستة ملايين، فإذا اعتبرنا الرجال ثلث أو ربع أو خمس السكان كان عدد السكان الكلى ١٨ أو ٢٤ مليوناً على الترتيب، وهذا غير معقول بالمرّة، وقد قرر مؤرخو مصر البيزنطية أن عدد سكانها كان فقط ٧ ملايين بالإضافة إلى ثلاثمائة ألف فى الإسكندرية، ونرجح أن هذا نقص فى عهد الخلفاء بعد جلاء الروم^(٤).

هذا ما حلله د. الرئيس، ونحن معه فى أن الخراج المصرى فى زمن عمرو كان مليونى دينار فقط، وزاد فى عهد عثمان على يد عبد الله بن سعد بن أبى السرح إلى ٤ ملايين^(٥).

وربما كانت هذه الزيادة كما يقول د. الرئيس: نتجت عن ضبط الإحصاء أو عن استبدال جزء من الضريبة العينية بضريبة نقدية، كما ذكرنا آنفاً.

(١) هو عبد الله بن أبى السرح، تولى بعد أن عزل عثمان بن عفان عمراً عام ٢٦ للهجرة.

(٢) خطط المقرئى ٩٨.

(٣) السابق ٧٦.

(٤) الخراج والنظم المالية ١٥٢.

(٥) السابق ١٥٦.

مصر في الإسلام

وبما أن الجزية كانت حوالى مليونين، فقد كان عدد الرجال وقتئذ مليوناً، ومنهم ستمائة ألف في الإسكندرية وحدها، كما قال بذلك عمرو بن العاص في خطابه للخليفة، ويكون بذلك عدد سكان مصر زمن الفتح ما بين ٤ : ٧ ملايين.

وإن كان عرض لنا في موسوعة (قصة الحضارة) خبر عن عدد المصريين جاء فيه: في العصر الروماني في مصر كان عدد سكان العاصمة -الإسكندرية- ٨٠٠,٠٠٠، وعدد سكان مصر كلها ٨,٥٠٠,٠٠٠.^(١)

أما د. حسين مؤنس فقال: عدد سكان مصر في زمن الفتح العربى لا يتجاوز ستة ملايين نسمة.^(٢)

ونتساءل الآن هل كانت قيمة الجزية والخراج آنذاك مجحفة بالفلاح المصرى ؟

إننا لو رجعنا إلى ما كانت عليه الضرائب أيام الرومان واليونان لوجدنا أن ما فرض على المصرى من جزية أقل بكثير مما كان يلزم بدفعه من قبل، وقد اعترف بذلك كثيرون من كتاب النصارى والمستشرقين، وسوف نستعرض بعضاً من أقوالهم.

قال فيليب حتى: ولندكر أن الجزية التى فرضها الفاتحون العرب على أبناء البلدان المنسلخة عن فارس وبيزنطة كانت أقل مما كان يفرض عليهم فى ظل الحكومات السابقة.^(٣)

وقال بتلر: إن ضرائب الروم كانت - من غير شك - فوق الطاقة، وكانت تجرى بين الناس على غير عدل، وإن وطأة الضرائب خفت بعد فتح العرب، كما أن العرب أزالوا ما كان مقررأ من التفريق بين الناس فى جباية الضرائب.^(٤)

أما جورجى زيدان فقد قارن بين مقدار الجزية، وما كان يأخذه الرومان من البلدان المستعمرة، قال: الجزية ليست حديثة من مستحدثات الإسلام.. فقد فرضها

(١) قصة الحضارة ١١ / ٩٧.

(٢) أطلس تاريخ الإسلام ٣٢٢.

(٣) تاريخ العرب ١ / ١٩٤.

(٤) فتح مصر ٣٩٣.

اليونان والرومان من قبل، وإن الرومان وضعوا الجزية على الأمم التي أخضعوها، وكانت أكثر كثيراً.

وقال جستاف لوبون: كانت الجزية دينارين، أى: خمسة عشر فرنكاً.^(١)

كيف كان يقسم الخراج ؟

كان الوالى يجمع الجزية والخراج فى مواعدهما، ثم يرسل الخمس إلى العاصمة (المدينة المنورة)، وكان ذلك التزاماً بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ... الخ﴾ [الأنفال: ٤١]، ثم تبقى الأربعة الأخماس فى مصر، وعلى الوالى تحديد حاجة البلاد من خلالها.

قال السيوطى: كان عمرو بن العاص يبعث إلى عمر بن الخطاب بتجزية بعد حبس ما يحتاج إليه.^(٢)

وما يحتاج إليه هو رواتب الجند وتجهيز الجيش من معدات وخيول ودواب وغيرها، وإقامة السدود والجسور وشق الترع والإنفاق على كل ما يلزم الزراعة، وبناء المنشآت العامة من مساجد وحمامات وخانات ودور إيواء العجزة والأيتام وغير ذلك، ثم مرتبات العاملين والمحصلين وموظفى الديوان.

وقد قدر عمر بن الخطاب للولاة رواتبهم، وكذلك كبار موظفى الدولة، وبعث لكل أمير بذلك، وكان هذا التحديد بعد النظر بعين الاعتبار للمتقدمين فى دخول الإسلام والمصاحبين لرسول الله ﷺ، وهذا ما التزم به الخليفة عمر عند تقسيمه العطايا فى المدينة، فقد زاد فى عطاء أمهات المؤمنين، وعطاء من شهد بدرأ مع رسول الله ﷺ، وبعث لعمرو قائلاً: أَنْظِرْ مَنْ قَبْلَكَ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ^(٣)، فأتهم لهم العطاء مائتين، وأتمها لنفسك لإِمْرَتِكَ.

(١) حضارة العرب ٢١٢.

(٢) حسن المحاضرة ٤٨.

(٣) كان هناك صحابة مع عمرو بن العاص ممن شهد بدرأ وما بعدها مثل الزبير، ولكنهم خرجوا إلى المدينة، وصارت أعطياتهم على ديوان المدينة. والشجرة هى بيعة الرضوان عام ٦هـ.

مصر في الإسلام

وفي رواية: وأبلغ ذلك بنفسك وأقاربك، وأتمها لخارجة بن حذافة^(١) لشجاعته، ولعثمان بن أبي العاص الثقفي^(٢) لضيافته.

ولنا كلمة أخيرة: عن الجزية والخراج، فلم تكن هذه الأموال المفروضة ضريبة تدفع دون مقابل، بل كان يقابلها الدفاع عن البلاد، والحماية والمنعة وحقق الدماء، ومقاتلة العدو دونهم، فإذا فرض أن أخذ المسلمون الجزية ومنعهم شيء من الدفاع عن البلاد فإنهم كانوا يردون الجزية لأهل الذمة.

وقد ذكر البلاذري كيف رد المسلمون لأهل حمص جزيتهم عندما حيل بينهم وبين الدفاع عنهم، قال: إنه حين جمع هرقل للمسلمين الجموع، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك، رد المسلمون على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من خراج، وقالوا: قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم على أمركم. فحينئذ قال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم.^(٣)

وكان نتيجة لذلك التصرف انضمام أهل حمص إلى المسلمين، ومساعدتهم ضد الروم.

وقد فسر (ت. أرنولد) الحكمة من جمع الجزية، قال: وقد فرضت الجزية على القادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التي كانوا يطالبون بأدائها لو كانوا مسلمين، ومن الواضح أن أية جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي.^(٤)

وقال أيضاً: وكان على هؤلاء الذين يتحولون إلى الإسلام أن يؤدوا - بدلاً من الجزية - الصدقات الشرعية، وهي الزكاة، التي كانت تفرض سنوياً على معظم أنواع الممتلكات المنقولة والعقارية.^(٥)

(١) صحابي جليل كان على الشرطة، جعله عمرو يصلى بالناس يوم ١٧ رمضان عام ٥ للهجرة، فقتله الخارجي، وهو يظنه عمراً.

(٢) تولى قضاء مصر في آخر عام لخلافة عمر بن الخطاب، ثم لخلافة عثمان، وبقي قاضياً حتى عام ٤٢ للهجرة، وكان قد جعله على الطائف، ثم سكن البصرة بعد ذلك.

(٣) فتوح البلدان ١٣٢.

(٤) الخراج ١٦٨، عن الدعوة للإسلام لأرنولد ٥٨.

(٥) الخراج ١٦٩.

وهذا جستاف لوبون يؤكد سلوك المسلمين القويم في جمع الجزية، يقول: ولم يكن سلوك عمرو بن العاص في مصر أقل رفقا من عمر، فقد عرض على غير المسلمين حرية دينية تامة، وعدلاً مطلقاً، واحتراماً للأموال، وجزية سنوية ثابتة لا تزيد على خمسة عشر فرنكاً عن كل رأس، وقد بالغ العرب في الوقوف عند حد الشروط، والتقيّد بها، فأحبهم المصريون الذين ذاقوا الأمرين من ظلم عمال القسطنطينية النصارى، وأقبلوا على اعتناق دين العرب ولغتهم أيما إقبال.^(١)

ولم يكن الخلفاء يتركون الولاية وشأنهم ما داموا يدفعون الخمس، وإنما كانت الكتب تبعث تترى لوصايتهم وتذكيرهم بالعهد الذي أخذوه على أنفسهم.

ويقول رسول الله ﷺ: ((من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة))، وقوله: ((لا تعذبوا الناس، فإن الذين يعذبون الناس في الدنيا، يعذبهم الله يوم القيامة)).

وهذا عمر بن الخطاب يرسل لكل ولاته: ((لا تكلفوهم ما لا يطيقون)).

ويأتى الخليفة عثمان بن عفان، فيبعث لهم بقوله: ((أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، ولم يخلقوا جباة)).

وكان أول كتاب لعثمان بعث به لعمال الخراج، قال فيه: ((أما بعد، فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا بالحق، خذوا الحق، وأعطوا الحق به، الأمانة الأمانة قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها، والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم)).^(٢)

وفى عهد معاوية بن أبى سفيان - كما يقول ابن عبد الحكم: جعل رجلاً يدور على المجالس صباح كل يوم، فيقول: هل ولد الليلة فيكم مولود؟ هل نزل بكم نازل؟ فيقال: ولد لفلان غلام ولفلان جارية. فيقول: سموهم، فيكتب.

(١) حضارة العرب ١٣٥.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ٥ / ٤٤.

فإذا فرغ أتى الديوان.. عن ابن لهيعة، قال: فأعطى مسلمة بن مخلد أهل الديوان أعطياتهم وأعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق الكتبة وحملان القمح إلى الحجاز وبعث إلى معاوية بستمائة ألف دينار فضلاً^(١).

إن هذا الذي أكدته مصادر التاريخ ليدل دلالة واضحة على أن الفاتحين المسلمين لم يكونوا ذوى أطماع، ولم يحكموا بالهوى فيما بينهم وبين أبناء البلاد، وإنما التزموا الوفاء بما اتفقوا عليه في عهد الفتح، ثم إنهم بموجب الأمانة التي فطروا عليها كانوا ينفقون ما يأخذون من خراج وجزية في مصالح البلاد بإصلاح ما تهدم من الجسور، وشق ما انسد من الترعر ومجارى المياه، وكانهم إنما جاءوا ليكونوا خدماً لأبناء مصر، لا سادة يستعبدونهم، مع أنهم كانوا نوعية من الرجال لها قدرها وعظمتها وتضحياتها التي تجعلها تيجاناً على الرؤوس، إنها تربية محمد ﷺ ومنهاج الإسلام الحنيف.



الأرض الزراعية في شريعة الإسلام

كان الخليفة عمر قد بعث بنظام تقسيم العطاء بعد أن حلت مشكلة الأرض، واستقر الأمر على عدم تقسيم البلاد المفتوحة على الفاتحين.

وقد ظهرت هذه المشكلة عند فتح العراق ثم الشام ثم مصر، وكان سعد بن أبي وقاص بعد فتح القادسية قد كتب إلى أمير المؤمنين ينبئهم أن الناس سألوهم أن يقسم بينهم غنائمهم، وما أفاء الله عليهم من مدن بما فيها من ناس وبيوت وشجر وشوارع، وبنفس المعنى كتب أبو عبيدة عندما فتحت الشام، كل ذلك قبيل فتح مصر.

وجمع عمر الصحابة لاستشارتهم، قال د. ضياء الدين الريس نقلاً عن أبي يوسف وأبي عبيد : فرأى كثير منهم أن يقسم حقوقهم عليهم. فكان عمر يقول : لو قسمته لم يبق بعدكم شيء، فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدوا الأرض قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ؟ ما هذا برأى، فما يسد به الثغور !! وما يكون الذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره؟

فاكثروا عليه وأجابوا : كيف تقف ما أفاء الله علينا بأسياقنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا؟....

وكان على رأس المؤيدين للتقسيم : عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وبلال بن رباح... وأيد عمر في رأيه من المهاجرين: علي وعثمان وطلحة ومعاذ وابن عمر.^(١)

ولما اشتد الخلاف بين عمر وصحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين، عرض الأمر على عشرة من الأنصار، خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج، وشرح القضية، ووضح الصورة قائلاً: أرأيتم هذه الثغور؟ لا بد لها من رجال يلزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام؟ لا بد أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون ومن عليها؟

(١) الخراج ١٠٧.

مصر في الإسلام

وكانت الإجابة الواحدة القاطعة التي صارت دستوراً بعد ذلك على كل بلد مفتوح، قال الأنصار جميعاً : الرأي رأيك، فنعم ما قلت وما رأيت.

قال الشيخ مصطفى الزرقا : وقد ذهب عمر إلى خلاف الرأي، فاعتبر الأراضي من الفئ الذي تتعلق به حقوق المسلمين عامة، حاضريهم وآتيهم رعاية لمصلحة الأجيال وحقوقها في بيت المال، فأبقى الأرضين لأهلها وطرح عليها ضريبة الخراج.^(١)

وكان القرار الخطير الذي استقرت عليه السياسة المالية للدولة الإسلامية : أن تعتبر الأرض ملكاً للأمة الإسلامية بجميع أجيالها، لا أن تكون فيئاً متقاسماً بين الأفراد يتداولونه ويرثه الأبناء عن الآباء.

وعندما فتحت مصر طبق هذا القرار، وكان المصري يدفع خراج الأرض، حتى إذا دخل الإسلام يلزم بدفعه أيضاً، ولا يسقط عنه بإسلامه إلا الجزية ؛ لأنها تدفع عن شخص، أما الخراج فهو ضريبة الأرض التي تتفق على الحكومة وإدارتها للبلاد وحشدها لحماية الحدود، وهو اعتبار لا يتغير بإسلام صاحب الأرض أو بقاءه على غير الإسلام.

وقد نستدرك هنا على الرأي القائل بأن الأرض الخراجية هي أرض مستأجرة من الدولة باعتبارها مالكة لها، ونحن في الواقع لا نرى هذا الرأي باستيلاء الدولة على الملكيات الخاصة، وتحويلها إلى ملكيات عامة - كما يرى المذهب الاشتراكي، فالإسلام منذ كان، يحترم الملكية الخاصة مادامت تؤدي التزاماتها المالية تجاه الدولة : وهي ملكية ناشئة عن التخصيص والاستخلاف، لا على سبيل الاستبداد - كما هو شأن الفلسفة الرأسمالية.

فلم يستول أي رجل من الفاتحين على جزء ولو يسير من الأرض الزراعية، ولم يمتن أحد من المجاهدين مهنة الزراعة، وإنما خرجوا للفتح ونشر الإسلام، وليس لزراعة الأرض وامتلاك الضياع، وتسويد الإقطاع، واستعباد العباد.

وقد وجدنا صحابياً واحداً ملك جزءاً من أرض مصر الزراعية في أول الفتح، وهو : عبد الله بن سندر التجيبي.

(١) المدخل الفقهي العام ١/١٦١.

وقصة (ابن سندر) أنه كان عبداً لزنباع الجذامي^(١) في المدينة، وذات مرة شاهد زنباعُ ابنَ^(٢) سندر يقبل جاريته، فعاقبه بأن جدع أنفه وأذنه، وقال بعضهم إنه جبه أي : قطع ذكره، وأتى العبد المجدوع رسول الله ﷺ، وشكا له فعلة سيده، فقال ﷺ : انطلق فأنت حر. ثم شرع ﷺ معاملة العبيد وسياستهم، وقال : ((لا تحملوهم ما لا يطيقون وأطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، فإن رضيتم فأمسكوا، وإن كرهتموهم فبيعوا، ولا تعذبوا خلق الله، ومن مثل به أو أحرق بالنار، فهو حر، وهو مولى الله ورسوله)).

وفرّح ابن سندر بالحرية، وسأل رسول الله ﷺ شيئاً آخر، قال : يا رسول الله أوص بي. فقال عليه السلام : أوصى بك كل مسلم.

وعاش ابن سندر حياة رسول الله ﷺ معزراً مكرماً، حتى خلفه أبو بكر الصديق، فجاءه ابن سندر، وذكره بمقالة النبي ﷺ، فعاله أبو بكر، وأنفق عليه وعاش نفس الحياة الكريمة العزيزة، حتى استخلف عمر رضي الله عنه، فجاءه ابن سندر، وكرر عليه وصاة رسول الله ﷺ، فقال له عمر : إن شئت أن تقيم عندي أجريت عليك مالاً، أو انظر أي المواضع من البلاد المفتوحة أحب إليك، فأكتب لك. فاختار ابن سندر مصر، وقال : إنها أرض ريف.

قال ابن سعد : فكتب له عمر إلى عمرو بن العاص : أما بعد فإن سندر^(٣) قد توجه إليك، فاحفظ فيه وصية رسول الله ﷺ. فقطع له عمرو بأرض مصر معاشاً، فعاش فيها ما عاش، فلما مات قبضت في بيت المال، ثم أقطعها الإصبع بن عبد العزيز، فما كان لهم في الأرض مال خير منها.^(٤)

وقد ذكر ابن عبد الحكم رأياً آخر في أولولة أرض ابن سندر، قال : وكان عمر بن الخطاب قد أقطع ابن سندر منية الإصبع^(٥)، فحاز لنفسه ألف فدان. وسبب

(١) هو زنباع بن روح بن سلامة الجذامي، له صحبة، عاش في فلسطين.

(٢) قيل : صاحب القصة هو سندر الأب.

(٣) في بعض الروايات : أن المجدوع هو سندر الأب، قال ابن سعد : إنه كان كافراً عندما جدع.

(٤) الطبقات ٧ / ٥٠٦.

(٥) قال ابن سعد في الطبقات ٧ / ٥٠٦ : ومنية الإصبع معروفة بمصر.

تسمية منية الإصبع - كما قال ابن عبد الحكم - أنه لما مات ابن سندر اشتراها الإصبع بن عبد العزيز بن مروان من ورثته.^(١)

والمكان الذي كان ملكاً خاصاً لابن سندر في ذلك الزمان البعيد صار الآن وسط العاصمة جهة العباسية، وهو أراضي كنيسة بطرس (الكثدرائية) ودير الملاك والدمرداش وما والاها بشارع مصر والسودان والقبة وما حولها، وما زال هناك ميدان وشارع باسم ابن سندر في منطقة سراي القبة.

وسار الوضع على هذا المنوال، لا تملك للأرض الزراعية للفاتحين، اللهم إلا استثناء واحداً حين تملك أحد الصحابة - غير ابن سندر أرضاً في مصر، وهو الصحابي الجليل عقبة بن عامر الجهني^(٢) الذي ولي إمارة مصر في عهد معاوية بن أبي سفيان.

وقصة هذا التملك كما ذكرها ابن عبد الحكم - أن عقبة كتب إلى معاوية يسأله نقيعاً^(٣) في قرية يبني فيها منازل ومساكن لأهله، فأمر له معاوية (بألف ذراع × ألف ذراع)، وحددها له في الجيزة، فقال له مواليه ومن حوله : أنظر إلى أرض تعجبك فاختر فيها وابتن. فقال عقبة : إنه ليس لنا ذلك، لهم في عهدهم - أي القبط - ستة شروط منها، ألا يؤخذ من أرضهم شيء، ولا يزداد عليهم، وأن يقاتل عنهم عدوهم من ورائهم و... وأنا شاهد على ذلك - وتوقف عند ما حدده له أمير المؤمنين معاوية.

وما اقتطع لعقبة بن عامر هو ما يعرف الآن بمنية عقبة أو مبيت عقبة.

قالت د. سعاد ماهر : وكلمة (منية) أي: ميناء، لأنها واقعة في ذلك العهد على الشاطئ الغربي للنيل، قبل تحوله إلى الشرق.^(٤)

(١) فتوح مصر ١٣٧.

(٢) كان صاحب بغلة رسول الله ﷺ الشهباء، يقودها له في الأسفار.

(٣) النقيع : أو النقعاء : الأرض الحرة الطين، المستوية، ليس بها حزونة. (المعجم الوسيط).

(٤) أهم مساجد مصر ١ / ٢٨٦.

ولكن هذا لا يمنع أن يكون للمكان الآن اسم آخر هو: ميت عقبة، وكلمة (ميت) من المتوارث عن اللغة المصرية القديمة، بمعنى قرية، ومثلها لفظة (كفر) المأخوذة عن السريانية.

غير أن لنا وقفة أمام خبر عن أمير مصر وفاتها عمرو بن العاص، وهو يشير إلى أنه ربما تملك أرضاً كان يزرعها، وهو ما ورد خلال رسالته إلى عمر ابن الخطاب - أمير المؤمنين، من قوله : وإني أعالج من الزراعة ما يعالجه النلس، فهل كان عمرو يملك فعلاً أرضاً يزرعها ؟ ذلك ما نتوقف في الإجابة عنه، لأن الأخبار لم تزد بأنه ورث بنيه شيئاً من ذلك، ولعلها مساحات في القسطاط قام بزراعتها حتى يموت أهله، ويستغنى بها عن التماس القوت من الأسواق.



علاقة الفاتحين بأصحاب الأرض

لم تكن العلاقة بين المسلمين وأصحاب الأرض علاقة جباية الجزية والخراج فحسب، وإنما كانت علاقة مودة وحب وتسامح لم يجد المصريون لها مثيلاً على طول حياتهم تحت إمرة الملوك الفراعنة والهكسوس والفرس واليونان والرومان.

وبهذا الجو الجديد انفتح أمام المصريين باب الحرية فصاروا يمارسون عقائد أديانهم دون إزعاج، أو تدخل من جانب المسلمين.

وكان السبب في هذا الجو الجديد من الرفاهية والطمأنينة التزام الفاتحين بروح الإسلام، وما أملاه عليهم كتابهم، وما علمهم إياه رسولهم، فقد تأسست الدولة على التقوى، وشادها العدل والإحسان.

وكان الهدف الأول لهؤلاء هو الآخرة ونشر دين الله، أما مغنم الدنيا فكانت آخر ما يفكرون فيه، ولذلك كان أول ما نعم به النصارى من القبط - بعد الفتح - حريتهم الدينية، فقد مارسوا عقائدهم، وخاصة المذهب اليعقوبي (الأرثوذكس) بكل حرية، بعيداً عن الاضطهاد والتعسف الذي كانوا يلاقونه على يد أصحاب المذهب الملكاني من الرومان.

فهذا جيون يصف حال المصريين، قال : إن العرب استقبلوا في مصر كالمنقذين للكنيسة اليعقوبية، وفي أثناء حصار منف^(١) عقدت معاهدة سرية نافذة بين جيش انتصر وشعب كان من العبيد، وبوثيقة الضمان هذه حطم طغيان الملكانيين : الكنسى والمدنى.

وقال أيضاً : قد اتبع المسلمون سياسة التسامح مع الأمم المغلوبة، ونجحت سياستهم، وتركوا للناس حرية الضمير والعبادة.^(٢)

أما بتلر صاحب كتاب (فتح العرب لمصر)، فيكفى أن نقتبس منه بعض النصوص التي يدافع فيها عن عدالة المسلمين إبان الفتح، قال :... قال مطران

(١) يقصد بابليون الحصن.

(٢) الخراج ١٦٩.

نسطورى: وهؤلاء الذين أعطاهم الله السلطان فى أيامنا لا يحاربون دين المسيح، بل هم يدافعون عن ديننا ويجلون قسوسنا وقديسينا، ويهبون الهبات لكنائسنا وأديرتنا. (١)

وقال على لسان القبط : وقالوا فى أنفسهم : لعلنا نجد فى حكم المسلمين قراراً واطمئناناً نأمن فيه على ديننا، فلا نكره على شىء فيه ضرر على أموالنا، ولا نتحمل من الخراج والجزية إلا قدرأً نطيقه، ولعل أكبر ما حملهم على الرضا بحكم العرب رفع ما كان يبهظهم من الضرائب، فقد كان الروم يجبون من مصر أموالاً يتعذر علينا أن نعرف مقدارها، ولكنها كانت بلاشك كثيرة الأنواع ثقيلة الوطأة شديدة الأذى، فأحل العرب محلها الجزية والخراج للأرض، ومهما يكن من مقدارهما فقد كانت لهما فضيلة البساطة، وكانت الجزية ثابتة المقدار محدودة القصد. (٢)

لقد كانت سياسة المسلمين رائعة تدل على فهم للدين، ومحاولة تطبيق مبادئه فى الدول المفتوحة، فهذا عمرو بن العاص لا يفرق بين ملكانية ويعقوبية، ولا يهتم بمنازعات مذهبية، أو أحزاب كنسية، أو مجامع كهنوتية، ولذا لم يتحيز لفريق دون فريق، بل أقر الحرية الدينية للجميع، ورفع الاضطهاد الملكانى عن اليعاقبة، وأعطى الأمان لكبير بطارقتهم (بنيامين) الذى اختفى من الظلم والاضطهاد ثلاثة عشر عاماً، والتف حوله القبط بعد أن أمن من الخوف، واطمان بعد البلاء، التفوا حوله يقيمون شعائرهم الدينية فى حرية وسعادة واطمئنان.

وهذا ميخائيل السورى بطريق اليعاقبة يشيد بمواقف المسلمين منهم فى كل من مصر والشام، فيقول : إن رب الانتقام استقدم من المناطق الجنوبية أبناء إسماعيل لينقذنا بواسطتهم من أيدي اليونانيين (٣) ... وقد أصابنا خير ليس بالقليل بتحرينا من قسوة الرومان وشرورهم، ومن غضبهم وحفيظتهم علينا من جهة، ومن جهة أخرى سادت الطمأنينة بيننا. (٤)

(١) هامش ١٤١ من فتح العرب.

(٢) فتح العرب ٢٣٣.

(٣) كان الحكم آنذاك للروم، وليس للإغريق.

(٤) تاريخ اللغة العربية ٤٦.

والمؤرخ ساويرس بن المقفع يصف شعورهم السعيد بدخول المسلمين إلى مصر بقوله : كانت الشعوب فرحين (كذا) مثل العجول الصغار إذا حل رباطهم، وأطلقوا على أمهاتهم.^(١)

ولو نظرنا إلى دور عبادة النصارى لوجدنا إبان الفتح بعض الأديرة والكنائس، وقد هدم فسمح الأمير المسلم لهم بإعادة بنائه، وتبييضه، كما صرح لهم ببناء كنائس جديدة، حتى إننا لو رجعنا إلى تاريخ بناء بعض الكنائس لوجدناه قد تم خلال القرن السابع الميلادي - الأول الهجري.

ونتيجة لما وجدته القبط من حسن معاملة ورقة وموادعة من الفاتحين المسلمين رأينا عقلاء من الروم ومن القبط انتهى بهم الأمر إلى الدخول في الإسلام بعد أن كانوا شاهدوا تنازع المذاهب المسيحية، واضطهاد أصحابها، ومحاربة بعضهم لبعض، وهو ما جعلهم يزهدون في المسيحية، ويلتمسون طريق الحرية والمساواة بدخولهم الإسلام، لقد كانت حال المسلمين جذابة لكل ذي لب، فالسمو والصفاء هما السمة المتأصلة للدين الجديد^(٢)، أما التعصب للمذاهب المختلفة فلم يكن قد ظهر بعد، ولذلك دخل المصريون في دين الله أفواجا - لا لكي يتساوا مع الفاتحين المسلمين في الحقوق والواجبات كما قال بذلك بعض ذوى الأهواء من المستشرقين، وإنما دخلوا في الدين الجديد عن رضا واقتناع وإيمان.

وهذا د. بتلر : يؤكد هذه الحقيقة، ويقول : ليس من العدل أن يقال إن كل من أسلم من القبط إنما كان بقصد الدنيا وزينتها، وإذا كان منهم من أسلم طمعاً في أن يتساوى بالمسلمين الفاتحين حتى يكون له ما لهم وينجو من دفع الجزية^(٣)، فإن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقيدتهم غير راسية، أما الحقيقة المرة فهي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان من عصبان لصاحبها، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله، ونسيت ذلك في ثوراتها وحروبها التي كانت تنشب بين شيعها وأحزابها، ومنذ بدأ ذلك لهؤلاء

(١) السابق.

(٢) ارجع للجزء الأول من هذا الكتاب.

(٣) من يسلم تسقط عنه الجزية، ويبدأ في دفع الزكاة.

العقلاء لجأوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه، واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته. (١)

وعلى ذلك فكل النصارى الذين أسلموا لم يدخلوا فى الدين الجديد بدافع اقتصادى أو سياسى، أى : ليتساووا بالمسلمين فى الحقوق والواجبات، لأن الإسلام سوى بينهم وبين المسلمين، ما داموا يدفعون الجزية، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، وهذا خليفة المسلمين عمر يبعث بكتاب لعمرؤ يقول فيه:.. وإن معك أهل ذمة وعهد، وقد أوصى رسول الله ﷺ بهم، وأوصى بالقبط، فقال: استوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً، ورحمهم أم إسماعيل، وقد قال ﷺ : من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته، فأنا خصمه يوم القيامة. احذر يا عمرو أن يكون رسول الله ﷺ لك خصماً، فإنه من خاصمه خصمه، والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة وأنست من نفسى ضعفاً، وانتشرت رعتى، ورق عظمى، فأسأل الله أن يقبضنى إليه غير مفرط، والله إنى لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً أن أسأل عنه. (٢)

وهذا عمرو بن العاص يخطب فى المسلمين على منبر الفسطاط، يقول : استوصوا بمن جاورتموهم من القبط خيراً، حدثنا أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لكم منهم صهراً وذمة، فعفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم. (٣)

وغنى عن البيان أن نشير هنا إلى ما تمثله هذه الكلمات من فاتح مصر وواليتها عمرو بن العاص من قيم ومبادئ كانت دستوراً لحكم البلاد، ولاشك أن المصريين وجدوا فيها روحاً جديدة لم يعرفوها فى أحد من الغزاة السابقين.

لقد شهدت مصر قبل الفتح الإسلامى معارك التاريخ كلها، ووطئ أرضها قادة العالم، فلم يتركوا على هذه الأرض من الملامح والذكريات سوى أشلاء المصريين متناثرة فى الساحات، لقد ذاق المصريون الأهوال فى كل جولة من

(١) فتح العرب ٣٢٥.

(٢) رسائل الخلفاء الراشدين ٣١٣.

(٣) حسن المحاضرة ١ / ٦٧.

جولات التاريخ القديم، ولم يكن ذلك بدعاً، فقد كان ما يحدث في مصر هو الذي يحدث في الشام وفي فلسطين.

ويكفي أن نعود بالذاكرة إلى ما فعله (يشوع) بالمدينة المقدسة حين فتحها، وبأريحا حين أحرقها، وقتل كل ذي روح فيها، جاء في سفر يشوع :... وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف.. وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها.^(١)

وقفّى على أثر يشوع كل الغزاة من بنى إسرائيل والأباطرة من رومان وفرنس ويونان، ممن اعتنقوا الوثنية أو المسيحية، فكانت سياساتهم هي الإبادة الكاملة لمخالفهم في الرأي، وفرض العقيدة بالقوة والإكراه، فإما التحول إلى ديانتهم، وإما القتل والتعذيب، بل إن الطوائف المسيحية فيما بينها كانت ترتكب من الفظائع ما لا يمكن تصوّره، تتكياً بمخالفهم في الرأي أو في العقيدة. وهذا هو سلوك النصارى مع المسلمين في الأندلس، حيث أكرهوهم على التنصر في عهد فرديناند وإيزابيلا وما بعدهما وأقاموا لهم محاكم التفتيش. لقد أثبت التاريخ أن احترام نفس الإنسان، وعقيدته وحرّيته لم يكن إلا عند المسلمين، دون غيرهم من أتباع الوثنية، ومعتنقي الأديان الأخرى.

وأفاق المصريون على صوت عمرو بن العاص وهو يوصي بهم، وينذر من ينالهم بأذى، ويضرب لهم المثل في الوفاء والرحمة، ويعلن أن ذلك هو الإسلام الذي جاء به نبي الرحمة، وأن هذه هي سياسة أمير المؤمنين، فلا بد أن تسيطر على المصريين حالة من الذهول، إذ إنهم لم يعرفوا من قبل غازياً بهذه الروح السخية السمحة، ولا شك أن هذا الوضع فتح طريقاً للمصريين إلى الإسلام.

ولم تكن المعاملة الحسنة اللينة للقبط من الوالى عمرو بن العاص وحده، بل كان كل الولاة الذين جاءوا بعده يسرون بوجه عام على نهجه، فلم يتدخلوا في أمور العقيدة النصرانية أو اليهودية ولا في اختيار زعمائهم الدينيين، وإنما تركوا كل ذلك لأساقفتهم وبطارقتهم وأخبارهم.

(١) سفر يشوع ٦ / ٣٨٥.

وقد زاد في تسامح الأمراء أنهم سمحوا للقبط ببناء كنائس جديدة، مع أن شروط الصلح كانت لا تبيح إقامة كنائس جديدة، على أن يكتفى بإصلاح المتهدم منها.

يقول السيوطي : وأول كنيسة بنيت في فسطاط مصر الكنيسة التي خلف القنطرة أيام مسلمة بن مخلد^(١)، فأنكر الجند على مسلمة، وقالوا له : أنقر لهم أن يبنوا الكنائس؟. حتى كاد يقع بينهم وبينه شر، فاجتمع عليهم مسلمة يومئذ، فقال : إنها ليست في قيروانكم^(٢)، إنما هي خارجة في أرضهم. فسكتوا عن ذلك.^(٣)

ونرى في عهد الأمير الأموي عبد العزيز بن مروان^(٤) أنه قد سمح للنصارى ببناء كنائس كثيرة منها : كنيسة القديس مرقس، في الإسكندرية، وكنيسة مار جرجس، وكنيسة أبي كير^(٥) في قصر الشمع داخل حصن بابليون.

وكذلك كنيسة أبو سرجة، قال سعيد بن بطريق : بنيت في عهد الخليفة عبد العزيز بن مروان.^(٦)

وعندما انتقل عبد العزيز للإقامة في حلوان^(٧)، بنى النصارى كنائس فيها.



(١) تولى مصر من عام ٤٨ إلى عام ٦٣ للهجرة.

(٢) القيروان : يريد منطقتكم.

(٣) حسن المحاضرة ٢ / ٥.

(٤) تولى مصر من عام ٦٥ إلى عام ٨٦ للهجرة.

(٥) جاء في كتاب الكنائس القبطية ٥١ كنيسة أبا كير نسبة للشهيد سيروس الذي استشهد في زمن الاضطهاد بسبب العقيدة الدينية.

(٦) الكنائس القبطية ٢٥.

(٧) حلوان : ضاحية جنوبى الفسطاط على النيل.

الفصل الثاني عشر

مقياس النيل



كانت الحياة الزراعية قائمة على النيل، وكان الخراج مرتبطاً بما تنتجه الأرض من خير، وقد رأى عمرو ضرورة قياس النيل ليستطيع جباية الضرائب بالعدل والقسطاس المستقيم، مع العلم بأن ماء النيل كان يقاس على عهد الفراعين، وعندما علم أمير المؤمنين علاقة الفيضان^(١) بالأرض بعث يطلب من عمرو أن يشرح له ذلك، ويبين مدى تأثير الفيضان على الأرض.

فكتب عمرو:.. إني وجدت ما تروى به مصر حتى لا تقحط أهلها أربعة عشر ذراعاً، والحد الذي يروى منها سائرهما حتى يفضل عن حاجتهم، ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعاً، والنهائيتان المخوفتان في الزيادة والنقصان وهما الظماً والاستبحار اثنا عشر ذراعاً في النقصان وثمانية عشر ذراعاً في الزيادة.

قال المقرئ: فاستشار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب علياً رضي الله عنه في ذلك، فأشار بأن يكتب إليه أن يبني مقياساً.. وأن ينقص ذراعين من ١٢ ذراعاً، وأن يقر ما بعدها على الأصل، وأن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعاً أصبعين.^(٢)

يعنى ذلك أن يكون الاحتكام في فرض الخراج إلى هذا المقياس بحيث يراعى العدالة والرحمة في آن، فإذا بلغ المقياس اثني عشر ذراعاً حاسبهم على خراج عشرة أذرع، فإذا تفوق على ذلك نقص من كل ذراع أصبعين لحساب الشعب المصري، فتكون الرحمة دائماً فوق عدالة المقياس.

ونفذ عمرو أمر الخليفة، وبنى المقياس في حلوان^(٣)، وبدأ في محاسبة الفلاحين بهذه الطريقة.

(١) قال ابن تغرى بردى : كان الماء في عيد الصليب، وهو ١٤ تـخـلـو من توت -أول أيلول في أعلى زياداته. (النجوم الزاهرة ١ / ٥٥)

(٢) خطط المقرئ ١ / ٥٨.

(٣) في عام ٢٤٧ للهجرة أمر الخليفة المتوكل العباسي ببناء مقياس للنيل بجزيرة الروضة بدلاً من مقياس حلوان، الذي استمر العمل به من ساعة إنشائه. قال صاحب حوليات الإسلام : وتولى رعاية المقياس المهندس محمد بن كثير الفرغاني، الذي قدم من العراق لهذا الغرض.

مصر فى الإسلام

قال د. أبو رابية : وقد أقام عمرو أيضاً مقاييس النيل بأسوان ودندرة لتكون معياراً صادقاً للزراعة والرى والضرائب فى كل عام.^(١)

أما اشتغال العرب الفاتحين أنفسهم بالزراعة فلم يتم إلا فى أواخر العصر الأموى، زمن الخليفة هشام بن عبد الملك (من عام ١٠٥ : عام ١٢٥ للهجرة)، وكان عامل خراجه على مصر عبد الله بن الحبحاب، وكان أناس من الجزيرة ينتقلون إلى مصر، ويعيشون فيها، وجاء أناس من قبيلة قيس، فأنزلهم عبد الله فى منطقة الخوف شمال شرقى القسطنطينية - محافظة الشرقية وما حولها - وأخذ هؤلاء يربون الخيل ويتاجرون فيها، ثم رويداً رويداً أخذوا يعملون بالزراعة، وبذلك اقتربوا من المصريين وأصهروا إليهم، وبدأ الامتزاج حتى اشتد التغلغل بمجىء كل أمير ومعه حاشيته وحاميته، حتى إذا مات أو عزل، بقيت الحامية التى تكون ما بين عشرة وعشرين ألفاً.

وأخيراً جاء الخليفة المعتصم العباسى (من عام ٢١٨ : عام ٢٢٧ للهجرة، الموافق عام ٨٣٣ : عام ٨٤١ للميلاد) وتبعه الخليفة المتوكل، وكان العجيب ههما بالاستغناء عن العرب فى الشئون الإدارية والعسكرية، وأن يحل محلهم الترك، وهنا اضطر بقية العرب القاطنين فى مصر إلى مزاولة مهنة الزراعة والصناعة، وبدأوا فى التغلغل فى القرى والنجوع، وخاصة الصعيد، وتركوا العاصمة وما حولها.

وعودة إلى اهتمام الولى المسلم عمرو بمصر، البلد الزراعى الذى يعتمد على النيل اعتماداً كلياً، فقد ذكرت المراجع كلها الاهتمام الشديد بالرى والصرف والفيضان وتحسين الإنتاج ومعاقبة الذى يهمل الأرض، وجعل الاهتمام بالأرض شرطاً من شروط عقد الاستزراع على الفلاحين، ونصه كما ذكرته د. سيدة الكاشف : وما بَوَّرْتَ فعليك خراجه.^(٢)

وبذلك استقر فى ضمائر الناس ووعيههم معنى الحزم، إلى جانب معنى العدل، فلا أحد يستطيع أن يفرط فى ذرة تراب، لأنه فى النهاية مسئول عن

(١) عمرو بن العاص ٢٥٨.

(٢) مصر فى فجر الإسلام ٢٧١.

_____ مصر في الإسلام _____

خراجها، ملزم بأدائه، فإما أن يزرع لينتج ما يمون به حياته وحياة أمته، وإما أن يترك الأرض لمن يقدر على زراعتها، ويفى وفاء كاملاً بكل حقوقها.

ومن ملاحظات اهتمام عمرو بالأرض التركيز على وسائل إنتاج الأرض من حفر ترع وخلقجان وتقوية جسور وقناطر، وتطهير مصارف وما إلى ذلك.

يقول السيوطي : فشكّل عمرو بن العاص قوة من المصريين، عددها مائة وعشرون ألف عامل مهمتها الأولى العمل في حفر القنوات، وإقامة الجسور والقناطر.^(١)



(١) حسن المحاضرة ١ / ٦٣.

عروس النيل وألوهيته

وما دمنا نتحدث عن مصر والنيل، فلا بد أن نذكر في هذا الصدد ما كان يعتقد المصريون في النيل من ألوهية، وما كانوا يصفون عليه من قداسة، حتى إنهم كانوا يخصصونه في موسم فيضانه بهدية سنية يتقربون بها إليه، كأنما يستدرون عطفه وماءه، وقد عرف ذلك في الآداب الشعبية بعروس النيل.

يقول ابن تغرى بردى:.. لما ولى عمرو بن العاص مصر أتاه أهلها حين دخل بؤونة (يونيو) من أشهر القبط المذكورة، فقالوا: أيها الأمير، إن لنيلنا عادة أو سنة لا يجرى إلا بها. فقال لهم: وما ذلك؟

قالوا : إنه إذا كان في اثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر من عند أبويها، وأرضينا أبويها، وأخذناها، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل فيجرى.

فقال لهم عمرو بن العاص : إن هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله.^(١)

كانت المسافة هائلة بين هذه المعتقدات الوثنية وما يعتقد المسلمون الفاتحون من إسناد كل أمر إلى الله، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين، وهو الذى ينزل الغيث من السماء ليخرج به نبات الأرض، وقد وقع الصدام بين المعتقدين حين اقترب موعد الفيضان في شهر بؤونة، وذهب المصريون لعمرو وإلى مصر يستأذنونهم في أن يؤدوا شعيرتهم المرسومة للنيل، ورأى عمرو فى ذلك وحشية بشعة، وشركاً بالله لا يقبله الإسلام، وكانت فرصة ليلقن المصريين درساً فى التوحيد، وليعلمهم ضرورة التخلّى عن هذه المعتقدات الخرافية، والالتزام بالدين الجديد الذى لا بد أن يحل لهم المشكلة، واستمهلهم حتى أرسل إلى أمير المؤمنين عمر يطلعه على ما عشش فى عقول القوم من أساطير، ويستصحه فى هذا الأمر.

ورد أمير المؤمنين : قد أصبت، إن الإسلام يهدم ما قبله، وقد أرسلنا إليك ببطاقة ترميها فى داخل النيل إذا أتاك كتابى.

(١) النجوم الزاهرة ١ / ٣٥.

ونص البطاقة : من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد، فإن كنت تجرى من قبلك، فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك.

وانتظر المصريون ما سيقوم به حاكمهم لإنقاذهم وإنقاذ زراعتهم، وكانت المدة التي استغرقتها المراسلة قرابة ثلاثة أشهر : بؤونة وأبيب ومسرى وأوائل توت (الموافق يونيو ويوليو وأغسطس وأوائل سبتمبر)، ووصل رد أمير المؤمنين.

يقول ابن تغرى بردى :.. فعرفهم بكتاب أمير المؤمنين وبالبطاقة، ثم ألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم عيد الصليب^(١) بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها، لأنه لا يقوم بمصالحهم فيها إلا النيل، فأصبحوا يوم عيد الصليب، وقد أجراه الله ١٦ ذراعاً في ليلة واحدة، وقطع تلك السنة القبيحة عن أهل مصر ببركة سيدنا عمر رضى الله عنه^(٢) أو لنقل : بفضل عقيدة التوحيد التي حملتها البطاقة.

وبدهى أن بطاقة المؤمنين لم تكن موجهة إلى النيل، بل إلى عقول أهل مصر، التي ترسبت فيها أبنية الشرك، وأن الأوان لهدم هذه الأبنية، وإزالة رواسبها، حتى يتجلى لأبصار المصريين وبصائرهم حقيقة التوحيد والإسلام.

إن أحداً لا يستطيع أن يتجاهل تأثير هذه البطاقة الخارقة على عقول المصريين ومعتقداتهم، لقد تزلزلت كل الأساطير التي نسجتها فترة الجاهلية المصرية، وكانت ما تزال تحتل عقول الناس، فإذا بها تتساقط كما يتحات ورق الشجر عند ذبوله، وإذا بالناس يرون النيل بغير العين التي ألفوا أن يروه بها، أصبح النيل مخلوقاً مسخراً لهم، لا إلهاً متحكماً في أرزاقهم، ... لقد أصبح النيل مطية مذلة يركبها الإنسان المصرى إلى الرخاء.

وفى ذلك ما فيه من الانقلاب العقائدى الذى أصاب الناس فى أعماقهم، وهبأهم ليتعقلوا رسالة الإسلام، الفاتح الجديد الذى جاء ليفتح القلوب قبل أن يفتح البلاد.

(١) يوم الصليب : ١٤ توت - أول أيلول (سبتمبر)، وكان قمة الفيضان.

(٢) النجوم الزاهرة ١ / ٣٦.

مصر في الإسلام

هذه المواقف وأمثالها مما كرم الله به بعض عباده من الصحابة - كانت بمثابة جلاء للبصائر، وإزالة للغشاوة التي غطت على رؤية الإنسان المصري، منذ كان مستعبداً للكهنة والسحرة، فإذا بدولة الأوهام تسقط، قطعة قطعة، وخرافة خرافة، ليحل محلها البناء الجديد، بناء العقيدة التوحيدية.



الفصل الثاني عشر

النظام الإدارى والمالى فى مصر الإسلامية



لو نظرنا إلى مصر في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) - لوجدنا أنها كانت ولاية تابعة للمدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، وواليها هو الحاكم الفعلي المباشر المقيم في القسطنطينية، وهو الذي يختاره الخليفة المقيم في المدينة المنورة.

وللوالى سلطة واسعة، ويديره مقاليد الأمور كلها، الخاصة بولايته: من شئون الدين وشئون الدنيا من جيش ومال وقضاء وتعليم وزراعة وحرب وغيرها.

فهو يؤم المسلمين في الصلاة في الجامع الكبير، وهو يعد الجيش، ويقود المسلمين في الحرب أو يختار من ينوب عنه في قيادة الجيش، ذلك الذي كان فاتحاً لإفريقيا شمالاً أو غرباً أو جنوباً، ثم هو يشرف على جمع الجزية والخراج والزكاة، ويحدد المنصرف منها والمرسل إلى دار الخلافة في عاصمتها، وعليه تعيين رئيس الشرطة لمعاونته في حفظ الأمن وحماية النفس والمال، ولهذا الشرطى صلاحية اختيار معاونيه من حفظة الأمن والنظام.

ومن أعمال الوالى أيضاً إدارة الدولة داخلياً، فهو يختار الكتبة والمحاسبين وجامعى الخراج، الذين كانوا غالباً من القبط في أول عهد الحكومة الإسلامية، وذلك لأن الروم الذين كانوا في هذه الوظائف تركوا مصر بعد الفتح.

وكان من عمل الوالى أيضاً الإشراف على كتبة الدواوين الذين يسجلون أسماء السكان من قبط وعرب، حتى يتسنى لكل فرد أخذ عطائه، ودفع ما عليه من جزية وخراج وزكاة وصدقات في الوقت المحدد، ودون تأخير.

وللوالى سلطة هامة، وهي اختيار القضاة، فبعد أن كان الوالى هو القاضى الوحيد، اتسعت أعمال الولاية، وتشعبت فروعها، وكثر عدد الناس، فكان الوالى يختار قضاة للفصل في مشكلاتهم الاجتماعية واليومية من زواج وطلاق وميراث وبيع وشراء وقرض، كذلك كان يشرف على تنفيذ الأحكام بين المتقاضين، وفض الخصام بين المتنازعين، كل ذلك مع الإشراف على إقامة الحدود لتصان محارم

الله، وتحفظ حقوق المسلمين والذميين على السواء.

وكما ذكرنا في حديثنا عن الجامع العتيق - كان وجود المشرفين على كل من القضاء والمحاسبة والمال والديوان في جامع عمرو بن العاص في القسطنطينية، وكان لكل عامل مكانه المحدد وزمائه الذي يتصدر فيه لوظيفته.



العملة المتداولة

وقبل أن نترك هذا الفصل لابد أن نتحدث عن العملة التي كانت متداولة في ذلك العصر بين المسلمين وأصحاب البلاد المفتوحة وخاصة مصر، في القرن الأول الهجري.

ولنرجع قليلاً إلى العصر الجاهلي لنرى أن العرب في الحجاز قد عرفوا العملة البيزنطية من دراهم ودنانير، وتعاملوا بها، وكانت الوحدة هي (الصولديوس) الذي سكه البيزنطيون على أساس الدراخمة اليونانية - الدرهم.

وعرف العرب كذلك الدراهم الفارسية المسماة بالبغلية، وتعاملوا بها على أنها تبر، فالمعول عليه هو وزن العملة - سواء كانت ذهباً أو فضة - وليس قيمتها الاسمية المتفق عليها.

وقد حدد الخليفة عمر بن الخطاب الوحدة في العطاء والزكاة والخراج على أساس المتقال^(١)، ووزن المتقال = ٢٢ قيراطاً إلا كسراً، وقال بعضهم: بل عشرون، ووزن السبعة مثاقيل = عشرة دراهم، والدينار المستعمل كان ذهباً خالصاً من الشوائب، ووزنه ٣٣,٧٥ قيراطاً.

وسوف نستعرض العلاقة بين النقود المتداولة في الأمصار في العصر الإسلامي الأول، فالدينار من الذهب، والدرهم من الفضة، وكل ١٠ أوزان درهم = ٧ أوزان دينار. وإن كان جورجى زيدان حدد الوزن غير ذلك قال: والدينار متقال من الذهب ووزن الدرهم درهم من الفضة وكان الدينار يبدل بعشرة دراهم وفي عهد بني أمية زادت قيمة الدينار فصار ١٢ درهماً.^(٢)

والعملات الصغيرة من الدينار هي الحبة، وكل دينار = ٦٦ حبة.

(١) حدد ابن سراج الفرق بين الدينار والمتقال، قال: والمتقال المعيار الذي توزن به النقود، وكان الدينار يساويه، والفرق بينهما أن الدينار اسم للقطعة من الذهب المضروبة والمتقال ميزانها الذي تقدر به. (في النظام المالي الإسلامي ١٧١)

(٢) تاريخ مصر الحديث ٣٦/٢.

مصر في الإسلام

قال الكتاني: وكانوا يتعاملون بها في جميع البلدان، أما أجزاء الدرهم فهي كالآتي :

الدرهم = ستة دوانق (جمع دانق)

والأوقية = ٤٠ درهماً

والنش = ٢٠ درهماً.

النواة = ٥ دراهم.

الشعيرة = ١ على ٦٠ من وزن الدرهم.

وقد أقر رسول الله ﷺ هذه التعاملات، وسار عليها الخلفاء من بعده، والأغلب أن المسلمين الأول قد ضربوا نقوداً.

قال جورجى زيدان: ذكر المرحوم جودت باشا أنه رأى نقوداً ضربها الأمراء والولاة في عهد الخلفاء الراشدين أقدمها ضرب سنة ٢٨ للهجرة - في عهد عثمان - في قسبة هرنك طبرستان وعلى دائرها بالخط الكوفي (بسم الله ربى).^(١) ولما جاء عبد الله بن الزبير عام ٦٠ للهجرة ضرب دراهم ودنانير، وتعمل بها حتى مات عام ٧٣ للهجرة، فكسرت، ولم يتعامل بها، وكانت ممسوحة الوجهين.

وإن كان جورجى زيدان قال: كان عليها: أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بخط بهلوى^(٢).

أما النقود الإسلامية التي ضربت على رسم الحاكم المسلم - ذهباً أو فضة - فقد ضربت في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وكان ضرب أول دينار إسلامي عام ٦٧ للهجرة، ومعياره نفس المعيار السابق، وطابعه بيزنطي لأنه حمل صورة الخليفة على أحد الوجهين، وعلى الوجه الآخر الشهادة، ولم تكن هذه الدنانير تحمل اسم المكان الذي ضربت فيه، وإن كان من الأغلب أنها ضربت في دمشق.

(١) تاريخ مصر الحديث ١ / ١١٢.

(٢) فارسي قديم.

وقد ذكر أيضاً أن أول من ضرب الدنانير الإسلامية هو معاوية بن أبي سفيان، قال بذلك الشيخ حمزة فتح الله المصري في (المواهب الفتحية في علوم اللغة) ٢٥٣/١، وعليها تمثاله منقلداً سيفاً.^(١)

وفي عام ٧٤ للهجرة ضرب الخليفة عبد الملك دنانير عليها الشهادة فقط، وليس عليها صورته، وكان ذلك في كل من دمشق والفسطاط.

وقد ذكر صاحب الحوليات قصة النقود الإسلامية، قال: تم في عام ٧٧ للهجرة تعريب النقود الإسلامية منذ أن فسخ عبد الملك المعاهدة البيزنطية قبل أربع سنوات، بعد ذلك استقلت العملة الإسلامية العربية عن التبعية البيزنطية^(٢) مما أدى إلى تجدد حروب الصوائف بين الدولتين.

وخلت العملة من دينار ودرهم من الصور، ونقش على وجه منها (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وعلى الوجه الآخر (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله).

كما نقش على الوجه الأول: (ضرب هذا الدينار عام ٧٧ للهجرة) واقتصر الضرب على دمشق والفسطاط.^(٣)

وقد ذكر ابن الأثير أن ضرب عبد الملك للدنانير جاء نتيجة لاستشارته خالد ابن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان أول عالم مسلم في الكيمياء، قال ابن الأثير: فأحضر - عبد الملك - خالد بن يزيد بن معاوية فاستشاره، فقال: حرم دنانيرهم - أي الروم - واضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى، ف ضرب الدنانير والدراهم.^(٤)

وسنجد ذكراً لذلك في أثناء الحديث عن ولاية عبد العزيز بن مروان، الذي شارك في ضرب الدنانير في الفسطاط بعد أن ضربت في دمشق.

(١) نظام الحكومة النبوية ٢ / ٦٩.

(٢) قال العلامة الكتاني: وقد كنت رأيت في سفرى لتطوان عام ١٣٤١ للهجرة درهماً من هذه الدراهم الهرقلية منقوشاً عليه صورة هرقل، ثم اشتريت بعد ذلك درهماً رسم عليه اسم قيصر وصورته، ولعله أحد القياصرة المعاصرين لأول الإسلام. (نظام الحكومة النبوية ١ / ٤١٦)

(٣) حوليات الإسلام ٨٠.

(٤) الكامل ٤ / ١٦٧.

مصر في الإسلام

وقد اختلف المؤرخون في استعمال المسلمين العملة الورقية، فمنهم من قال إنهم عرفوها، ومنهم من رفض هذا القول، ومن هؤلاء البلاذري الذي قال: إن عمر بن الخطاب قال: هممت أن أجعل الدراهم من جلود الإبل، فقبل له: إذا لا بعير، فأمسك.

أما من قال بتعامل العرب المسلمين بالأوراق النقدية بدلاً من الذهب والفضة فهو الكتاني الذي قال:.. ووقع في رسالة لصديقنا الكاتب الكبير الأصيل السيد توفيق البكري في (الموافق بين الأعراف الأوربية والأعراف العربية) منقولة في كتاب (صهاريج اللؤلؤ) صفحة ٢٩٠: أن عمر بن الخطاب كان يستعمل الورق والجلود مكان النقود للحاجة، وأنشد البكري لأبي تمام:

لم ينتدب عمرٌ للإبل يجعلُ منْ جلودها النقد حين عزَّ الذهبُ

يقول الكتاني: وبمكتبتنا في قسم النقود دراهم مكتوبة بالكوفي عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وفي آخر الكتابة اسم علي، ويقطع الناظر المتأمل في كتابتها ونقشها القديم أنها لعلي بن أبي طالب.^(١)

(١) الموافقات ٢ / ٦٩.

العربية في مصر

ونقصد بالعربية: اللغة مرتبطة بأمرين، أولهما: أنها لغة الفاتحين الذين اندفعوا من قلب الجزيرة العربية إلى الأقطار المحيطة بها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وكانت مصر هي الجبهة الغربية التي طالما استقبلت موجات الهجرة العربية، التي استوطنت المنطقة الشرقية بين النيل والبحر الأحمر، وعاشت فيها قبائل الأنباط.

وثاني الأمرين: أنها لغة الرسالة المحمدية، نزل بها القرآن، الذي كان الدافع الرئيس لاندفاع هؤلاء الفاتحين خارج موطنهم لينشروا رسالة الإسلام، ويقيموا شريعة الله في الأرض، ويقوموا ما انحرف من عقائد الشعوب نحو الوثنية، والمجوسية، ويحرروا العقيدة الدينية مما شابها من آثار الشرك والتثليث، وقد جاء ذلك في تعاليم القرآن في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

لقد واجه المصريون زحف اللغة العربية باعتبارها لغة الفاتحين، وباعتبارها لغة العقيدة الجديدة التي يُدْعَوْنَ لاعتناقها.

وكانت المواجهة على ثلاثة محاور:

المحور الأول: المحور السياسي، والثاني: المحور الاجتماعي، والثالث: المحور الدعوى الديني.

فعلى المحور السياسي بدأت علاقة أهل مصر باللغة العربية في صورة العهد الذي أبرمه عمرو بن العاص مع المقوقس، ومن نصوص هذا العهد:

((بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان، على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم، وبرهم وبحرهم، ولا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقض، ولا تساكنتهم النوبة، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى أصواتهم (لصوتهم)، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع.

عنهم من الجزية بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم من الجزية بقدر ذلك، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه ما عليهم، ومن أبى منهم واختار الذهاب، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطتنا، عليهم...

عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمة المؤمنين^(١))) ولعل هذا النص هو أول نص بالعربية تقع عليه أعين المصريين، وإن كان عهدهم بالعربية المنطوقة بعيداً، فيما تسجله الدراسات المصرية.

وهو أيضاً النص الذي سجل تحولاً خطيراً في حياة مصر، فقد خلصها من أيدي الرومان الطغاة، وقرر مصيرها بتلك الروح التي تتسم بالسماحة والأمان، ولم يكن للمصريين إلا أن يترقبوا مدى وفاء هؤلاء الفاتحين بما وعدوا به في عهدهم المبرم، الذي أزاح الرومان ومظالمهم إلى الأبد.

من خلال هذا العهد بدأت العلاقات بين الفاتحين والمصريين، وهي علاقات اجتماعية تنشأ في الأسواق، وتتوثق بالتعامل السليم، وتزداد توثقاً بالجوار، والتعارف، ثم بالتزوج بالمصريات، وهو أمل كل وافد إلى مصر، لاسيما إذا كان العربي جاء ضمن الفاتحين، وليس معه زوجة، ومن حقه أن يتزوج بأكثر من واحدة، من أولئك النسوة الجميلات ذوات المعنى والطعم الجديد والغريب.

والهدف من ذلك فضلاً عن مطلب للمتعة والعفة - تكثير المسلمين، وتكوين مجتمع مسلم، يكثر فيه السواد العربي.

ويذكر هنا ما روى من أن الزبير بن العوام طلب من عمرو بن العاص أن يقسم أرض مصر بين الفاتحين كما قسم الرسول ﷺ خيبر، فقال عمرو: لا.. حتى أكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. فرد عليه قائلاً: ((أقرها حتى يغزو حبلُ الحبلَة))، أي: حتى يغزو أولاد الأولاد.

ومعنى ذلك أن موجة الفاتحين كان ينبغي أن تتضاعف، عن طريق الزواج بالمصريات، وهو ما حدث فعلاً بصورة مذهلة أشاعت العربية في الشارع، والسوق، وفي القرية والمدينة، ومن جيل لآخر ازداد اندماج العرب المسلمين

(١) النجوم الزاهرة ١ / ٢٤.

مصر في الإسلام

بطبقات المجتمع المصري، وتداخلت المصالح المتبادلة على المستوى الاجتماعي، فسهل هذا الاختراق الاجتماعي التحول من القبطية إلى العربية شعبياً.

فإذا انتقلنا إلى المحور الثالث، وهو محور الدعوة، كان علينا أن نشير إلى الهدف الأسمى الذي دفع إلى حركة الفتوحات الإسلامية، وهو تبليغ الدعوة الإسلامية إلى الشعوب المفتوحة، وتحويل هذه الشعوب من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

وحسب المصريين أن يشهدوا بأعينهم تأثير بطاقة عمر بن الخطاب، التي خاطب بها نهر النيل بالعربية، وهو تأثير مذهل - حتى يحفظوا نص البطاقة باعتباره نص التحويل من الوثنية إلى التوحيد عقدياً، وإلى العربية لغوياً.

ومن المؤكد أن نظرة الفاتحين إلى الشعب القبطي المصري كانت تؤمل في تحويله من عقيدة التثليث إلى عقيدة التوحيد، أي: نقله من النصرانية إلى الإسلام، ومن ثم، من القبطية المهزومة أمام اليونانية والرومانية - إلى العربية الفاتحة المنتصرة.

لقد جاءت إلى مصر كوكبة عظيمة من الصحابة في جيش الفتح، ووفد إليها أيضاً جماعات كثيرة من الصحابة، ومن التابعين، لنشر الدعوة الإسلامية، وتعليم المسلمين، صغاراً وكباراً، تعاليم الإسلام، وقد كان الداخلون إلى الإسلام من المصريين بحاجة إلى معرفة العربية، ليقروا القرآن، ويتعلموا حديث رسول الله ﷺ، ويصححوا عبادتهم.

وهكذا انتشرت العربية في مصر بفعل العوامل المختلفة، السياسية، والاجتماعية، والدينية، فما إن وافى العقد التاسع من القرن الأول حتى عربت الدواوين، وحكمت العربية المجتمع بعد مضي أقل من ستين سنة من الفتح الإسلامي، أي: بعد جيلين اثنين، وكان تعريب الدواوين على يد أمير مصر عبد الله بن عبد الملك عام ٨٦ للهجرة، وكان هذا إجراء تأكيداً لواقع اللغة في المجتمع، فقد غلب استعمال العربية آنذاك على القبطية، كما كان دعوة لكل من لا يعرف العربية من الأقباط أن يتعلمها، تيسيراً لحياته وحركته في المجتمع الذي صار معظمه من المسلمين.

الفصل الثالث عشر

أمرء مصر المسلمون



أمراء مصر المسلمون

من المحرم عام ٢١ للهجرة: المحرم عام ١٠١ للهجرة

الموافق ١٠ من ديسمبر عام ٦٤١: أول يوليو عام ٧١٩ للميلاد

. تولى أمر مصر الإسلامية فى القرن الأول الهجرى خمسة عشر أميراً، منهم أربعة من قبل الخلفاء الراشدين فى المدينة، والباقيون أمراء لبنى أمية فى دمشق.

وكان أولهم فاتح مصر العظيم عمرو بن العاص، الذى تولى إمرتها مرتين، الأولى من المحرم عام ٢١ للهجرة إلى عام ٢٦ للهجرة (الموافق ١٠ من ديسمبر عام ٦٤١ إلى عام ٦٤٥ للميلاد).

والإمارة الثانية فى ربيع أول عام ٣٨: غرة شوال عام ٤٣ للهجرة (الموافق سبتمبر عام ٦٥٨: ٦ من يناير عام ٦٦٤ للميلاد)، حيث انتقل إلى الرفيق الأعلى.

وسوف نلقى الضوء على سيرة هؤلاء الأمراء، ومدى تأثيرهم فى تاريخ مصر الإسلامية، ودور كل منهم فى نشر دعوة الإسلام.

عمرو بن العاص

قال الذهبي: عمرو داهية قريش، ورجل العالم، ومن يضرب به المثل في الفطنة والدهاء والحزم.^(١)

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم^(٢) بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر القرشي السهمي.

يلتقى مع رسول الله ﷺ في الجذ السابع: كعب بن لؤى.

يكنى: أبا عبد الله، وأبا محمد.

وكلت إلى ذويه من بنى سهم الحكومة في الجاهلية، والمقصود بالحكومة: القضاء، أي: إن كبار القرشيين كانوا يحتكمون إلى زعماء بنى سهم فيما يختلفون فيه ويتنازعون عليه، وكان لبنى سهم أيضاً الإشراف على الأموال الخاصة بالآلهة الأوثان.

أما والد عمرو: العاص بن وائل، فكان من سادات قومه وأشرافهم، وأحد أقطاب الكفر الذين كانوا يكيدون للإسلام ورسوله، ويستهزئون به، مات كافراً بعد الهجرة بشهر، كان ذا تجارة واسعة وبذخ وجاه وكثرة أموال، إلا أنه كان ماطلاً لا يحب رد الحقوق إلى أصحابها.

وقد حدث ذات مرة - وعمرو في الرابعة عشرة من العمر تقريباً - أن ابتاع العاص سلعة من أحد بنى يزيد في اليمن، ثم رفض دفع ثمنها، ولما أيقن الرجل أنه لن يسترد حقه قرر أن يفضح العاص، فوقف على أعلى جبل في مكة: جبل أبي قبيس، مستجيراً صارخاً طالباً العون، فخف إلى نجدته كبار القوم من قريش، وراضوا الرجل وأعطوه حقه.

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٦٦.

(٢) ذكر النسابة عشرة بطون من قريش انتهى إليها الشرف في الجاهلية والإسلام، وهم: بنو هاشم، وبنو أمية، وبنو نوفل، وبنو عبد الدار، وبنو أسد، وبنو تيم، وبنو مخزوم، وبنو عدي، وبنو جهمج، وبنو سهم قوم عمرو.

مصر في الإسلام

ثم اجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان، وتعاهدوا، وتحالفوا على نصرة المظلوم والوقوف في وجه الظالم.

يقول ابن هشام:.. وسمى حلف الفضول، وقد قال ﷺ فيه: لقد شهدت في دار ابن جدعان حلف الفضول، وما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعى إليه في الإسلام لأجبت.^(١)

أما والد عمرو فهي سلمى بنت حرملة من اليمن، سبأها بعض فئلك الحرب وباعوها، وانتقلت من بيت إلى بيت بيعاً وشراءً حتى وصلت إلى بيت العاص ابن وائل.

فصل عمرو كل شيء عن تاريخ أمه في حادثة ذكرها الرواة، قال المبرد: إن حساده جعلوا لرجل ألف درهم على أن يسأل عمراً - وهو على دست الإمارة ومنبر الخطابة عن أمه، فقال له: من أم الأمير ؟

فأمسك عمرو عن غضبه، وقال: أمي سلمى بنت حرملة، تلقب بالنابعة، من بني عنزة، أصابتها رماح العرب، فبيعت في عكاظ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان، فوهبها للعاص بن وائل، فولدت له وأنجبت، فإن كانوا جعلوا لك شيئاً فخذ.^(٢)

ولد عمرو بن العاص - على الأغلب - عام ٥٠ قبل الهجرة، وهناك رأى قائل بمولده عام ٤٤ قبل الهجرة، المهم أنه قال: إنه شهد يوم مولد عمر بن الخطاب، فهو إذن كان واعياً بما يجري في المجتمع، وليس أقل من خمس سنوات، وقد ولد ابن الخطاب - على أكثر الروايات - عام ٤٠ قبل الهجرة.

فيكون مولد عمرو بن العاص ما بين عامي ٤٥ و ٥٠ قبل الهجرة، والله أعلم.

وتربى عمرو في كنف أبيه العاص، فخوراً بينوته، شديد الاعتداد به وببشيرته، معتزاً بنسبه، وكان العاص من سادات قريش وأشراف العرب، وكانت التجارة هي رأسماله، ولاتساع التجارة فقد تعددت أسفاره بين اليمن والشام ومصر،

(١) السيرة ١ / ٢٦٠. وكان ﷺ في قرابة العشرين من العمر.

(٢) الكامل ٤٤٧.

مصر في الإسلام

في رحلتى الصيف والشتاء، وكان عمرو المرافق الدائم لوالده في حله وثرحاله، حتى أصبحت التجارة والسفر المدرسة الأولى التى تخرج فيها عمرو، وتعلم منها أحوال الحياة، ومواقع البلاد، وأسرار الشعوب، وسياسة الأمم.

وكانت تربية عمرو تربية أبناء سادة، فتعلم ركوب الخيل، واستخدام السيف، وحيل القتال من كثرة وفرة استعداداً لمواجهة قطاع الطرق، وفتاك العرب الذين يقابلونهم في رحلاتهم التجارية، وقوافلهم الضخمة، كذلك تعلم السباحة^(١) فى الآبار ومجارى المياه، ثم تعلم القراءة والكتابة والحساب، وتعلم فى سفره الدائم جغرافية البلاد، وشيئاً من تواريخها.

وقد ذكر الرواة سفر عمرو إلى مصر أكثر من مرة، وقيل: إنه زار الإسكندرية، وعرف دروبها وطرقها وشعابها، حتى إن الخليفة عندما طلب منه وصفها كتب له كل صغيرة وكبيرة عنها، وكأنه أحد أبناءها.

وأسلم عمرو فى صفر عام ٨ للهجرة، يقول خالد بن الوليد فى قصة إسلامهما: خرجت، فلقيت عثمان بن طلحة^(٢)، فذكرت له الذى أريد - أى الإسلام - فأسرع بالإجابة، وخرجنا جميعاً، فدلجنا سحراً، فلما كنا بالهـ^(٣) إذا عمرو بن العاص، فقال: مرحباً بالقوم. قلنا: وبك. قال: أين مسيركم؟ فأخبرناه وأخبرنا أنه يريد أيضاً النـ^(٤) ليسلم، فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة على النـ^(٥) أول يوم فى صفر عام ٨ للهجرة.^(٦)

قال عمرو: فتقدم خالد فأسلم وبائع، ثم دنوت، فقلت: يا رسول الله إني أبايعك على أن تغفر لى من ذنبى ما تقدم، ولا أذكر ما تأخر. فقال ^(٧): يا عمرو،

(١) لعل هذه كانت سمة العصر فى ممارسة الرياضات المختلفة، وقد أثر عن الرسول ^(٨) قوله : أحسنت العوم فى بئر بنى عدى بن النجار. (نظام الحكومة ٩٣/٢)

(٢) هو : هو عثمان بن طلحة بن عبدالعزى بن عبدالدار القرشى العبدري الحجبى، قتل أبوه وعمه وإخوته الأربعة كفاراً يوم أحد، هاجر فى هدنة الحديبية مع خالد وعمرو، وقال النـ^(٩) ألفت إليكم مكة بأفلاذ أكبادها. مات سنة ٤٢هـ فى مكة.

(٣) الهـ: ربما كان مكاناً بالقرب من مكة.

(٤) الطبقات ٤ / ٢٥٢.

بايع، فإن الإسلام يَجِبُ^(١) ما قبله، وإن الهجرة تجب ما قبلها. فبايعته وانصرفت.^(٢)

كان رسول الله ﷺ على دراية بكل أصحابه، فقد عرف عمراً، واختار له ما يناسبه من حب الرياسة واعتداده بالنسب، وقدرته على الإقناع، وجرأته، وإقدامه، فبعثه بعد إسلامه مباشرة لهدم الصنم (سواع) الذي عبدته هذيل، وكان من مسئولية بنى سهم في الجاهلية.

ثم بعثه لقضاعة أخوال أبيه، وكانوا يتأهبون للزحف على المدينة، فهزمهم في موضع سمي بذات السلاسل.

وندبه ﷺ في عمل ثالث، هو: الدعوة إلى الإسلام في عمان، وحمل كتاب رسول الله ﷺ إلى ملكيها، وكان عند حسن ظن الرسول ﷺ به، فدخل الملكان في الإسلام، وبقيتا في ملكهما، وجزاه ﷺ بأن جعله على الزكاة في هذه البلاد، يجمعها ويوزعها على الفقراء، وله منها نصيب العاملين عليها.

قال عمرو: ما عدل بي ﷺ وبخالد بن الوليد منذ أسلمنا أحداً من الصحابة في حربه.

وانتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وتولى أبو بكر الصديق، فأبقى عمراً على ولايته الزكاة، وبعث إليه بكتاب، وكانت صدمة شديدة لعمرو بوفاة الرسول ﷺ.

يقول العقاد: ولم ير عمرو قط في حزن كالحزن الذي غمره يوم ورد إليه ذلك الكتاب، فبكى طويلاً، وجلس يتلقى العزاء كما يتلقاه في أقرب الناس إليه.^(٣) وظهرت فتنة المرتدين في الجزيرة، فبعث الصديق عمراً - بعد أن أمده بجيش - ليحارب مرتدى قضاعة، فهزمهم، وكافأه الصديق بأن ولاه أمر قضاعة.

(١) يَجِبُ: يمحور.

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٣١.

(٣) عمرو بن العاص للعقاد ٦٠.

ثم ما لبث أن استدعاه عندما سمع أن هرقل قد جمع الجيوش، واتجه إلى فلسطين، فسير الصديق أربعة جيوش إلى الشام لتطبق على جيش هرقل، وأمرؤها هم: أبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق، وشرحبيل بن حسنة إلى وادي الأردن.

قال ابن الأثير: وأمرهم الخليفة أن يعاون بعضهم بعضاً، وأن يكونوا جميعاً تحت إمرة أبي عبيدة، وأن يستقل عمرو بفتح فلسطين، وأن يمد الجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة إلى ذلك.^(١)

وكان الصديق قد جعل جيش عمرو تسعة آلاف معظمهم من مكة والطائف وهوازن، وأمره أن يجعل سبيله إلى فلسطين عن طريق العقبة، ثم أسر إليه حديثاً خاصاً: أن يكاتب أبا عبيدة، وينجده إذا أراده، ولا يقطع أمراً إلا بمشورته.

وخرجت الجيوش في أواخر عام ١٢ للهجرة، وبدأت رايات النصر ترفرف على الأمصار بعد أن فتح الله على المسلمين أكثر بلاد فارس والروم، وكان أول فتح لعمر بن العاص هو (غزة).

قال العقاد نقلاً عن ماير: إن سكان غزة المسيحيين خرجوا مع جيش الروم عندما حاصرهم العرب، إلا أنهم عادوا إليها بعد اطمئنانهم إلى الفاتحين، ودخل فريق كبير منهم في الإسلام، وذهب المتكلمون عنهم إلى عمرو بن العاص يطلبون منه قسمة الكنائس بينهم، فقسمها بينهم على حسب عددهم، وأعطى الكنيسة الكبرى لأصحاب العدد الأكبر، وهم المسلمون، وأمر بإبقاء الكنيسة الأخرى لمن بقى على دينه من المسيحيين.^(٢)

وقد كان هذا السلوك من عمرو معبراً عن موافقة مبدئية لتحقيق العدل بين المسلمين وبين من بقى على دينه من أبناء الشعوب المفتوحة، وهو نموذج لما صار إليه تصرفه في مصر بعد ذلك.

(١) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٩٥.

(٢) عمرو بن العاص للعقاد ١٥٨.

أما الفتح الثاني فكان (اليرموك)^(١) وقد اشترك فيه جميع القادة، وتعاهد المسلمون على النصر أو الشهادة، واتفقوا على قيادة خالد بن الوليد الذي أتى لتوّه من فارس، وهجم الروم بقضهم وقضيضهم على المسلمين، فكشفوا، وسقطت خذلانا رايّتهم، فأسرّع كل من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص لأخذها في يده، وأخذها عمرو واندفع يقاتل المتقدمين من الروم حتى أدبروا مهزومين، وكان النصر المؤزر.

وجاءت المعركة الثالثة لعمرو مع الروم في (أجنادين)، وفيها كان لعمرو موقف شجاع قلما يتكرر.

قال ابن الأثير: لما انهزم الروم يوم أجنادين انتهوا إلى موضع ضيق لا يعبره إلا إنسان بعد إنسان، فجعلت الروم تقاتل عليه، وقد تقدموه وعبروه، فتقدم هشام بن العاص^(٢)، فقاتلهم حتى قتل ووقع على تلك التلّة فسدّها، فلما انتهى المسلمون إليها، هابوا أن يوطنوه الخيل، فقال عمرو بن العاص: أيها الناس إن الله قد استشهد، ورفع روحه، وإنما هو جثة، فأوطنوه الخيل. ثم أوطأه هو، ثم تبعه الناس حتى قطعوه، فلما انتهت المعركة بهزيمة الروم، ورجع المسلمون إلى المعسكر، كرّ عليه عمرو، فجعل يجمع لحمه وعظامه وأعضائه، ثم حمله في نطع^(٣)، فواراه.^(٤)

وشارك عمرو في حصار دمشق لمدة ستة أشهر، فكان على جيش من الجيوش الأربعة المحاصرة حتى استسلمت صلحاً بعد ذلك في ١٤ من رجب عام ١٥ للهجرة.

وخرج بجيشه بعد ذلك إلى (بيسان)، وحاصرها حتى فتحها، وصالح أهل (طبرية وفحل)، وكتب للخليفة بفتح الأردن.

(١) لما نزل الروم على ضفة اليرموك في الواقصة، وصار الوادي خندقاً لهم، صاح عمرو بن العاص: أيها الناس، أبشروا، حصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير.

(٢) أخو عمرو بن العاص من الأب، أسلم وهاجر قبله، استشهد في أجنادين عام ١٣ للهجرة.

(٣) النطع: قطعة من الجلد.

(٤) أسد الغابة ٥ / ٤١٢.

مصر في الإسلام

واتجه إلى فلسطين، وفيها القائد الرومي الداهية (أرطيون)^(١) واستقل عمرو جيشه، فكتب للخليفة يطلب المدد، فقال الخليفة عمر قولته المشهورة: قد رمينا أرطيون الروم بأرطيون العرب فانظروا عمّ تنفرج؟

ثم كتب الخليفة إلى القواد المسلمين أن يسيروا بجيوشهم إلى قيسارية والرملة وبيت المقدس (إيليا) ليشتغلوا الروم عن عمرو، وهزم أرطيون الروم في ثمانين ألفاً، وفر إلى بيت المقدس نهاية عام ١٥ للهجرة، وكان من نتائج هذا الانتصار اذعان الروم في بلاد كثيرة، ومصالحتهم عمراً - مثل (يافا ونابلس وعسقلان والرملة وعكا وببيروت ومرج عيون ورفح).

وتم بعد ذلك فتح بقية المدن الفلسطينية، حتى وصل إلى بيت المقدس، فأخذ يرسل أرطيون ليسلم له المدينة صلحاً، ولكنه أبى، فحاصرها عمرو قرابة أربعة أشهر، وجاء أبو عبيدة، وكرر عليهم الإسلام أو الجزية، فطلبوا التفاوض مع الخليفة عمر بنفسه، وتم الاتفاق، وكتب عهد الأمان عام ١٦ للهجرة في الجابية بالقرب من دمشق.

وجاء عمر ثانية إلى الجابية عام ١٨ للهجرة، وفيها دار الحديث بينه وبين عمرو بن العاص على فتح مصر - كما عرفنا.

وسوف نسرد أسماء البلاد التي فتحها البطل عمرو بن العاص صلحاً أو حرباً: غزة، أجنادين، اليرموك (مشاركة)، بيت المقدس (مشاركة)، نابلس، اللد، الرملة، عمواس، سبيطية، مرج جبرين، يافا، مرج عيون، عكا، عسقلان، رفح، وببيروت، ثم درة الفتوحات: مصر.

وبعد أن فتح مصر، قضى في ولايتها قرابة خمس سنين من المحرم عام ٢١ للهجرة إلى عام ٢٧ للهجرة، يتولى إدارتها وخراجها والدفاع عنها، ويساعده في ذلك جمع من الصحابة، وتولى عثمان الخلافة، وفكر في عزل عمرو عن مصر، ولكنه انتظر حتى استقرت الأمور في الإسكندرية بعد نشوب الفتنة على يد عمرو بن عبد الحميد (أنظر فصل فتح مصر) الفصل الرابع.

(١) ينطقها العرب (أرطيون).

مصر في الإسلام

وبعد انتصار عمرو عرض عليه عثمان تولى شئون الحرب، على أن يتولى عبد الله بن أبي السرح - أخو عثمان في الرضاعة - شئون الخراج، ورفض عمرو، وخرج من مصر معتزلاً في فلسطين، وكان لا ينزل مكة أو المدينة إلا حاجاً أو معتمراً.

ولم يتركه الوشاة والحاقدون، بل كانوا يوقعون بينه وبين الخليفة، واستدعاه عثمان مرة، وخلا به، وابتدره قائلاً: يا ابن النابغة، أطلعن عليّ، وتأتيني بوجه، وتذهب عني بوجه آخر؟.

ويرد عمرو في هدوء: إن كثيراً مما يقوله الناس، وينقلون إلى ولائهم باطل، فأتفق الله يا امير المؤمنين في رعيته^(١).

ونقل عنه الوشاة أيضاً، أنه قال: إنني كنت ألقى الراعي، فأحرضه على عثمان.

وهذا فيما نرى كذب صراح، تأباه أخلاق عمرو وتجربته، ثم ماذا سيفعل الراعي - لو صح القول - بخليفة المسلمين؟ وما شأن رجل يعيش في الصحراء، ليس معه إلا غنيماته، بأمور الدولة والحكم؟ مع ما يفصله عنها من مسافات هائلة مادية وأدبية؟...

ومن ناحية أخرى، لقد كان الخليفة عثمان كلما أعيته الحيلة، وطلب المشورة، بعث في إحضار عمرو ليستشيره، فهو يعلم إخلاصه ودينه، ومن ذلك ما حدث عندما اشتدت الأزمة، واستحكمت، أراد عثمان أن يعرف رأى عمرو في ذلك، ويطلب منه المشورة. يقول الطبري: قال عثمان لعمرو: ما ترى يا عمرو؟. قال: أرى أنك قد لنت لهم، وتراخيت عنهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك، فتشد في موضع الشدة، وتلين في موضع اللين، وإن الشدة تنبغي لمن لا يألو^(٢) الناس شراً، واللين لمن لا يخلف الناس بالنصح، وقد فرشتها جميعاً باللين^(٣).

(١) الطبري ٥ / ١٠٩.

(٢) لا يألوا: لا يكف.

(٣) تاريخ الطبري ٤ / ٣٤٣.

ما أروعها نصيحة ومشورة، فهذا الرأي الصفي من عمرو يسديه إلى أميره وأmir المؤمنين عثمان يقطع أولاً: بأن ما نسبته بعض الرواة إليه من تحريض الرعاة على عثمان كذب، لا يصح اعتماده في الحكم على موقف عمرو من الخليفة من ناحية، وعلى شخصية عمرو من ناحية أخرى.

وثانياً: يرسم هذا الرأي صورة سياسية باهرة لشخصية عمرو في صدقها وذكائها وتجربتها، وهي أمور ما كانت لتجتمع إلا في عمرو، فقد استطاع أن يعالج الموقف بكل احتمالاته ووجوهه في ضوء ما حفظ من أصول السياسة التي كان ينتهجها عمر بن الخطاب، ولقد كان يتمنى أن يسير عثمان على نهج عمر، بدلاً من سياسته المترخية التي أدت إلى تخبط الناس، وتمردهم عليه.

واعتزل عمرو الفتنة في أواخر عهد عثمان، فلم يزر المدينة، شأنه في ذلك شأن مجموعة من الصحابة، منهم: سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأبو موسى الأشعري، وغيرهم.

واستشهد ذو النورين، واختار الصحابة علي بن أبي طالب، وبدأت الفتنة الكبرى بهروب قتلة عثمان إلى جيش الخليفة الجديد، مما جعل معاوية والي الشام -من عشرين سنة تقريباً- يرفع شعار القصاص لعثمان، لاسيما وأن السيدة نائلة بنت الفرافصة، زوج الشهيد عثمان كتبت إليه تحمله مسئولية القصاص من قتلة زوجها، وربما كان هذا هو السبب في إصرار علي بن أبي طالب على نزعته من ولاية الشام.

ومع أن كلاً من المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عباس وغيرهما حاولوا تنبيهه عن عزمه في إقالة أمراء عثمان، وخاصة معاوية، فإن الخليفة علياً أصر على طرد كل الولاة السابقين، وازدادت الفتنة اشتعالاً.^(١)

(١) قال الإمام الغزالي: ما جرى بين علي ومعاوية رضي الله عنهما كان مبنياً على الاجتهاد، لا منازعة من معاوية في الإمامة، إذ ظن علي رضي الله عنه أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة عشائريهم، واختلاطهم بالعسكر يؤدي إلى اضطراب أمر الإمامة في بدايتها، ورأى التأخير أصوب، وظن معاوية أن تأخير أمرهم مع عظيم جنايتهم، يوجب الإغراء بالأنفة، ويعرض الدماء للسفك، وقد قال أفاضل العلماء: كل مجتهد مصيب... (إحياء علوم الدين ١ / ٨٦)

اما عمرو فقد كان شديد القلق على مصر، وما تؤول إليه أمورها في ظل ولاية غير أكفاء، وسياسة مضطربة، لقد كان يرى أن بقاء مصر الإسلامية هو الشرط الأساسي لاستمرار المسلمين في الشام وفلسطين، مع ملاحظة فشل الفتوحات في الجبهة المغربية، آنذاك حتى الإسلام لم يستقر في بلاد المغرب إلا في العقد الثامن تقريباً، ولذلك فقد كان موقفه مع معاوية، وعودته إلى ولاية مصر فيما بعد لتأمين الوجود الإسلامي فيها، فقد كان على الهمة، على القصد، ينظر إلى الأمور نظرة استراتيجية، لا تقف أمام الأحداث العارضة بقدر ما تستهدف احتواء أخطار المستقبل القريب والبعيد. وتدافعت أحداث الفتنة الكبرى، حتى آلت إلى التحكيم الذي شارك فيه عمرو، وبعد التحكيم دخل عمرو مصر للمرة الثانية عام ٣٨ للهجرة، بعد غياب عنها اثنتي عشرة سنة، حتى اختار المسلمون معاوية خليفة بعد أن تنازل الحسن بن علي له في ربيع أول عام ٤١ للهجرة (عام الجماعة)، حيث أخدمت ريح الفتنة.

وعاد المسلمون بعد حروب ومنازعات صفاً واحداً، وبعد أكثر من خمس سنوات لم يخرج فيها جندي مسلم للغزو والفتح، لطف الله بالأمة، ورجع المسلمون للفتح، حتى وصلوا إلى حدود الصين شرقاً، والقوقاز شمالاً، وأسبانيا والبرتغال غرباً.

ولى الخليفة معاوية الأموي عمرو بن العاص إمارة مصر رسمياً، واتفق معاوية مع عمرو على جعل مصر طعمة له طول حياته، لا يغرم من خراجها إلا أعطية الجند، والنفقة على مصلحتها، واستقرت الأمور في مصر، وأخذ الوالي عمرو يصلح ما أفسدته الأيام الماضية، وبدأ بإطفاء نار الفتن الطائفية التي تأجبت بين عثمانية وشيعة وخوارج وأمويين، حتى هدا الناس، وأقبلوا على أميرهم، محبين، مخلصين، يزرعون أرضهم، ويجنون ثمارهم، ويدفعون زكاتهم وخراجهم لأمرهم.

وفي سنوات الولاية الثانية أشرف عمرو بنفسه على القضاء والخراج والجند والشرطة، فقسم البلاد إلى مديريات، وأقام على كل منها قاضياً مسلماً، وآخر قبطياً، يفصل في النزاع الديني والمدني لغير المسلمين، وفقاً لشرائعهم.

مصر في الإسلام

جاء في كتاب (تاريخ الإسلام السياسي)، صفحة ٢٧٢: وقد تحبب عمرو إلى القبط، وأطلق لهم حرية الدين، وأقام العدل بينهم، فتمتعوا بالهدوء والطمأنينة.

ولم ينس عمرو في خضم مسئولياته الجسام حديث رسول الله ﷺ، فكان يرويه للناس، ويذكرهم به، ويدعوهم إلى حفظه والالتزام بتعاليمه.

وقد ورد له في كتب الصحاح سبعة وثلاثون حديثاً، مع قصر المدة التي قضاها في صحبة رسول الله ﷺ، وانشغاله بما ندبه إليه من مسئوليات قتالية وإدارية.

لقد عاد عمرو إلى مصر، كما تعود العافية إلى البدن، وكما يفد النسيم الأصيل، لينعش أنفاس المحرومين.

وفاة الفاتح عمرو بن العاص

واقترب عمرو البطل الصنديد من التسعين، أو زاد قليلاً، فوهن جسمه، وتتابع مرضه، واقترب من اللقاء.

فكان يحاسب نفسه طويلاً، ويبدى الندم، ويطلب المغفرة، ويدعو دعاء، ذكر ابن عساكر بعضاً منه عن أناس سمعوه، قال:.. سمعت عمرو بن العاص يصلى بالليل، وهو يبكي، ويقول: اللهم إنك آتيت عمراً مالا، فإن كان أحب إليك أن تسلب عمراً ماله ولا تعذبه بالنار، فاسلبه ماله، وإنك آتيت عمراً أولاداً فإن كان أحب إليك أن تتكل عمراً ولده ولا تعذبه بالنار، فائكله ولده، وإنك آتيت عمراً سلطاناً، فإن كان أحب إليك أن تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار، فانزع منه سلطانه.^(١)

وقد ذكرت كل كتب السيرة الساعات الأخيرة من حياة البطل، والحوارات التي دارت بينه وبين ابنه، وبينه وبين بعض عواده.

فهذا ابنه عبد الله يقول له عندما تأكد أنها النهاية: يا أبت إنك كنت تقول: عجباً لمن ينزل به الموت وعقله معه كيف لا يصفه؟، فصف لنا الموت وعقلك معك.

فقال: يا بني، الموت أجل من أن يوصف، ولكني سأصف لك منه شيئاً، أجدني كأن على عنقي جبل رضوى، وأجدني كأن في جوفى شوك السلاء، وأجدني كأن نفسي يخرج من ثقب إبرة.^(٢) والتفت عمرو لابنه يوصيه الوصية الأخيرة، قال: يا بني إذا مت، فاغسلني غسلة بالماء، ثم جفني في ثوب، ثم اغسلني الثانية بماء قراح، ثم جفني في ثوب، ثم اغسلني الثالثة بماء فيه شيء من كافور، ثم جفني في ثوب.. ثم إذا حملتني على السرير فامش بي مشياً بين المشيتين، وكن خلف الجنازة، فإن مقدمها للملائكة، وخلفها لبني آدم، ولا تصحبنى نائحة ولا نار، فإذا وضعتني في القبر فسن^(٣) على التراب سناً... فإذا فرغتم من قبري، فامكنوا

(١) عمرو بن العاص ٣٤٥.

(٢) الطبقات ٤ / ٢٦٠. وجبال رضوى: بين ينبع والمدينة.

(٣) أي: صبوه صباً

عند قبري قدر ما ينحر جزور، ويقسم لحمها، فإنني أستأنس بكم، حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربى. (١)

وقد أراد رضى الله عنه أن يعطى درساً لمن حوله من الجند قبل أن يتركهم، ويغادر دنياهم.

قال الذهبي: لما نقل عمرو بن العاص، قال لصاحب شرطته: أدخل وجوه أصحابك. فلما دخلوا، نظر إليهم، وقال: هاقد بلغت هذه الحال، ردوها عنى. فقالوا: مثلك أيها الأمير يقول هذا؟؟ هذا أمر الله لا مرد له. قال: قد عرفت، ولكن أحببت أن تتعظوا، لا إله إلا الله. فلم يزل يقولها حتى مات. (٢)

وهذا ابن خلكان يذكر آخر كلمات قالها عمرو بن العاص، وهو يودع دنياه، قال: اللهم إنك أمرتنا فعصينا، ونهيتنا فارتكبنا، وهذا مقام العائذ بك، فإن تعف فانت أهل العفو، وإن تعاقب فيما قدمت يداي، اللهم لا برىء فأعذر، ولا عزيز فانتصر، ولا مستكبر، بل مستغفر، أستغفرك وأتوب إليك، لا إله إلا الله. وما زال يرددتها حتى مات. (٣)

وانتقل عمرو إلى الرفيق الأعلى في ليلة عيد الفطر عام ٤٣ للهجرة (الموافق أول عام ٦٦٤ للميلاد)، ودفن في سفح المقطم، حيث لا يعرف قبره بالتحديد حتى الآن، لأنه أوصى ابنه عبد الله ألا يميز لحده بشيء، ولكن حدده بعضهم أنه غربى قبر الإمام الشافعى، فى الموضع الذى يقال عنه مقابر قریش، حيث دفن الصحابة: عقبة بن عامر الجهنى، وأبو بصرة الغفارى، وعبد الله بن الحرث الزبيدى، وعبد الله بن حذافة، وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ ممن دفن فى المقطم.

وقال ابن عبد الحكم: دفن عمرو بالمقطم من ناحية الفج، وكان طريق الناس يومئذ إلى الحجاز، فأحب أن يدعو له كل من مرّ به، أخبرنا بذلك ابن عفير. (٤)

(١) الطبقات ٤ / ٢٠٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣ / ٧٧.

(٣) وفيات الأعيان ٢ / ٤٠٥.

(٤) فتوح مصر ٢٥٣.

ووضح الشيخ الشرقاوى هذا المكان، قائلاً: دفن بالمقطم، وهو جبل الجبوشى، من ناحية الفج، وكان طريق الناس يومئذ إلى الحجاز، فأحب أن يدعو له من مر به من الناس.^(١)

وقد وصف الإمام الليث بن سعد عمرو بن العاص وصفاً دقيقاً، قال: كان عمرو قصيراً، عظيم الهامة، ناتئ الجبهة، واسع القم، عظيم اللحية، عريض ما بين المنكبين، عظيم الكفين والقدمين.^(٢)

وقد زاد المعافرى فى وصفه قال: رحلت أنا ووالدى إلى صلاة الجمعة تهجيراً بعد حميم^(٣) النصارى بأيام يسيرة... فقام عمرو على المنبر فرأبت رجلاً ربعة قصير القامة وافر الهامة أدعج^(٤) أبلج^(٥) عليه ثياب موشاة كأن به العقيان^(٦) تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة^(٧).

رحم الله عمرو بن العاص رحمة واسعة، وجزاه عنا - نحن بنى مصر - خير الجزاء.

وهذه بعض أبيات أشاد بها أحمد شوقي بعمرو بن العاص فى قصيدته (كبار الحوادث فى وادى النيل):

من كعمرو البلاد والضاد مما	شاد فيها والملة الغراء ؟
شاد للمسلمين ركناً جساماً ^(٨)	ضافى الظل دأبه الإيواء
طالما قامت الخلافة فيه	فاطمأنت وقامت الخلفاء
فابك عمراً إن كنت منصف عمرو	إن عمراً لنير وضاء ^(٩)

وقال أيضاً فى إسلامه وخالد بن الوليد فى يوم واحد :

(١) تحفة الناظرين ٣٩.

(٢) فتوح مصر ٥٨.

(٣) عيد من أعياد النصارى أسمه (عبد الغطاس) وهو يوم ١١ طوبة.

(٤) أسمر اللون. (الوسيط)

(٥) مضى نضر.

(٦) الذهب الخالص.

(٧) تاريخ مصر الحديث ٩٨/١.

(٨) الجسام: العظيم.

(٩) الشوقيات ١ / ٣١.

إسلامه وخالداً في آن
السيف والرأى بيوم أجمعاً
بالفاتحين بُشِّرَ الإسلام
ثم قال عن فتوحاته:

عمر القنا والرأى والجدود
على فلسطين حمى الرايات
حتى حوى لعمر الإقليم
سما إلى مصر بطرف وطمح
وجّهة فهب والغزاة
رمى به الفاروق في الحدود
وحمل الخيل إلى الغايات
وحاز للإسلام أورشليم^(٢)
ولم يزل بعمر حتى سمح
كما أطار الصيد^(٣) البزاة^(٤)

وقد أحسن أمير الشعراء حين سار مع عمرو عند دخوله مصر من العريش
حتى الإسكندرية، وذكرها بلداً بلداً، وحصناً حصناً، لله درك يا عمرو، ورحمة الله
عليك يا مادح عمرو.

وهذا شاعر النيل حافظ إبراهيم، يقول:

وأنت تعرف عمراً في حواضرها
لم تثبت الأرض كابن العاص داهية
وقال أحمد محرم:

جمعت لحربهم يا عمرو بأساً
وكنيت القائد الفطن الملقى
وما للحرب إلا كل طباً
أمير الحند يالك من سرى
أجل يا عمرو ما بك من خفاء
شأوت السابقين إلى محل
وذلك فضل ربك زيد فيه
يزلزل كل جبار عني
فنون المكر والكيد الخفي
يصرفها برأى عبقري
أصاب إمارة الجند السرى
إذا فزع الرجال إلى الكفى
يجاوز غاية الأمد القصي
على يده لذي الجد الحظي^(٥)

(١) مثني رزء، وهو المصاب الفادح.

(٢) القدس.

(٣) الصيد: جمع صائد. والبزاة: جمع باز، وهو نوع من الصقور.

(٤) دول العرب وعظماء الإسلام.

(٥) ديوان حافظ إبراهيم ٨٧.

(٦) الإلياذة الإسلامية ٤٤١.

عبد الله بن أبي السرح

والى مصر من عام ٢٦ للهجرة إلى عام ٣٦ للهجرة تقريباً

هو ثانى ولاية مصر الإسلامية: أبو يحيى عبد الله بن سعد بن أبي السرح بن الحارث بن جذيمة بن نضر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى القرشى، أخو عثمان فى الرضاعة، ولد قريباً من عثمان الذى ولد عام ٤٧ قبل الهجرة.

ولم يدخل عبد الله فى الإسلام إلا قبل فتح مكة، وهاجر إلى رسول الله ﷺ، وقد كان عارفاً بالكتابة، فضمه رسول الله ﷺ إلى كتاب الوحي، وكان الشيطان له بالمرصاد فزين له الردة، فارتد وعاد إلى مكة، حتى كان يوم الفتح، فكان ممن أهدر رسول الله ﷺ دمهم لردته.

واختفى عبد الله عند أخيه عثمان مستجيراً تائباً طالباً المغفرة من الله والأمان من رسوله، وجاء عثمان لرسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله، بايع عبد الله (ثلاث مرات)، فبايعه ﷺ بعد الثالثة.

وعاد عبد الله إلى حظيرة الإسلام تائباً مستغفراً، ولم يظهر منه بعد ذلك إلا كل صلاح وتقوى، حيث شارك فى حركة الفتوحات.

خرج عبد الله مع عمرو فى فتح مصر، وكان على الميمنة فى كل المعارك من العريش حتى الإسكندرية، وكانت له مواقف مشرفة فى هذه الفتوحات، ثم ولاه عمر بن الخطاب صعيد مصر بعد أن غزا النوبة^(١) أو الأساود، وكان قد غزاها مرتين، المرة الأولى بعد الفتح مباشرة، حين بعث عمرو بن العاص عام ٢١ للهجرة بجيش إلى الجنوب، ووصل إلى (إنقولا) أو (دنقلة)، وأرغم ملك النوبة على الاستسلام، والخضوع لدولة الإسلام.

وسجل المقرئى هذا الفتح قائلاً: لما بعث عمرو عبد الله بن أبي سرح بعد فتح مصر - عام ٢١ للهجرة، فى عشرين ألفاً، فمكث بها زماناً، فكتب عمرو يأمره بالرجوع.^(٢)

(١) يقصد بالنوبة: صعيد مصر الأعلى حتى حدود الحبشة بما فيه السودان.

(٢) خطط المقرئى ١ / ٣٢٣. وربما كان عدد هذا الجيش مبالغاً فيه.

أما الفتح الثاني للنوبة، فكان أثناء ولايته لمصر عام ٣١ للهجرة، وفي هذا اللقاء عقدت معاهدة بين المسلمين وملك النوبة، واتفق الطرفان على الأمان، وأن يسمح بتنقل التجار بين مصر والنوبة، وأن يحافظ النوبيون على المسجد الذي بناه المسلمون في دنقلة، وكان هدف عبد الله من بناء المسجد التمهيد لنشر الإسلام في إفريقية كلها.

يقول الشيخ الصواف: ودامت المعاهدة ستة قرون.^(١)

وكان عبد الله قد تولى إمارة مصر بعد أن انتصر عمرو بن العاص على الروم في الإسكندرية لما نقضوا العهد^(٢) بقيادة عمנוيل عام ٢٥ للهجرة، وكان عبد الله محباً للجهاد، فقد تم في أثناء ولايته فتح كثير من البلاد في المغرب، وجنوب مصر.

وقد كان عبد الله يؤمن أن سلامة مصر منوطة بالحفاظ على حدودها، ولذلك استأذن الخليفة عثمان في الخروج غرباً لخروج من صالحهم أيام عمرو بن العاص، وجهاز جيشاً قوامه عشرون ألفاً عام ٢٧ للهجرة، وقد تميز هذا الجيش الكبير بالنظام والكفاءة وإيمان المقاتلين، وكان بالجيش كثير من الصحابة والتابعين، وقد سميت هذه الغزوة (بغزوة العبادلة) لمشاركة سبعة من الصحابة اسمهم (عبدالله)، وهم: عبدالله بن أبي سرح، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن جعفر، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عمرو بن العاص.

وعاود عبد الله غزو شمال إفريقية عام ٣١ للهجرة بعد أن كتب له عثمان قائلاً: إن فتح الله عليك فلك من الفئ خمس الخمس.

وخرج في عشرة آلاف، وافتتح شمال إفريقية سهلها وجبالها، وعاهدهم، ونقضوا العهد، فخرج إليهم مرة ثالثة عام ٣٣ للهجرة، وحاربهم حتى أقرهم على الإسلام أو الجزية.

(١) رحلتى إلى الديار الإسلامية ١ / ٣٩

(٢) انظر حديثنا عن (نقض الروم عهد الإسكندرية).

_____ مصر في الإسلام _____

وكان ملك الروم على شمالي إفريقية، من طرابلس إلى طنجة، على المحيط هو (جرجير)^(١)، وقد أخذ عبد الله يتبعه فاتحاً حتى وصل إلى (سببلة)^(٢)، وهناك دعاه مرة أخرى إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، فامتنع وتحصن بالمدينة، وبعث من ينادى الجند: من قتل عبد الله بن أبي سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي.

ونادى عبد الله في جيشه: من يأتي برأس جرجير نفلته مائة ألف، وزوجته ابنة جرجير وأستعمله على بلاده. وطال الحصار، ثم فتحت، وقتل عبد الله بن الزبير جرجير، وقسم عبد الله بن عباس الغنائم بين القواد والأجناد.

يقول حسن عبد الوهاب: صالحهم عبد الله بن أبي سرح على مقدار من المال قيل: ثلاثمائة قنطار ذهباً، فدفعوه إليه، والقنطار حينئذ = ٨٤٠٠ دينار، فيكون المبلغ المدفوع مقابل الصلح مليونين ونصف المليون فرنكاً ذهباً، على سبيل التقريب.^(٣)

وقد أقام عبد الله في إفريقية في هذه الفتوحات سنة وثلاثة أشهر.

يضاف إلى سيرة عبد الله بن أبي سرح أنه كان محباً للمغامرة، وهو جانب من مقوماته الشخصية، فقد قاد المسلمين في أول معركة بحرية وقعت بين المسلمين والروم عام ٣٥ للهجرة، وهي معركة (ذات الصواري)، وانتصر فيها المسلمون - كما ذكرنا من قبل.

(١) جرجير: هو جريجور البطريق الرومي.

(٢) مدينة آثارها بجوار مدينة القيروان بتونس.

(٣) تاريخ تونس ٥٥.

نشأة الفتنة في مصر

والعجيب أن هذه الإنجازات التاريخية التي اكتسحت الوجود الرومي في المنطقة كانت لها آثار سلبية على الصعيد الإسلامي، فقد ترتب على غياب الأمير عن مصر مدة طويلة في الفتوح ظهور تيارات مناوئة للخلافة وتوجهاتها، فظهرت طائفة تعلن رفضها لكل من عثمان وواليه عبد الله.

يقول ابن تغري بردي: ونشأ في مصر طائفة من أبناء الصحابة يؤلبون الناس على حرب عثمان وحرب عبد الله بن أبي سرح، واجتمعوا واستنفروا من مصر ستمائة راكب يذهبون إلى المدينة في صفة معتمرين في شهر رجب عام ٣٥ للهجرة لينكروا على عثمان.. وأمر الجميع عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وعبد الرحمن التجيبي، ومحمد بن أبي بكر، وأقام بمصر منهم محمد بن حذيفة يؤلب الناس، ويدافع عن هؤلاء.^(١)

وأسرع عبد الله في العودة لمصر، ومكاتبه الخليفة ينبهه، ولكن الركب النائر وصل إلى المدينة أولاً، فأسرعوا إلى مقابلة الخليفة وطالبوه بعزل عبد الله وتولية محمد بن أبي بكر، فوافق الخليفة، وعزل عبد الله وولى محمداً.

وخرج الركب متجهاً إلى مصر بالوالي الجديد، وفي الطريق بدأت الفتنة عندما وجد هؤلاء الخارجون كتاباً مرسلاً على لسان عثمان وبختمه يأمر والي مصر عبد الله بقتل طائفة منهم وصلب آخرين، فعادوا إلى المدينة للتحقيق في هذا الأمر، وقال لهم الخليفة: إن هذا الكتاب مدلس وليس له علم به، وصدقه أناس وكذبه آخرون، وتفاقت أحداث الفتنة، وزاد أوارها، وتجرأ الثوار على مقام الخلافة، واستشهد الخليفة عثمان في ذي الحجة عام ٣٥ للهجرة (الموافق ١٧ من يونية عام ٦٥٦ للميلاد).

(١) النجوم الزاهرة ١ / ٨١.

وتولى على بن أبي طالب الخلافة، فكان أول همه عزل جميع ولاة عثمان،
ونصحه بعض الصحابة أن يتمهل، ولكنه أبى.

قال الطبري: قال عبد الله بن عباس:.. أبعث إلى عمال عثمان بعهودهم
تقرهم على أعمالهم، ويباعون لك الناس، فإنهم يُهدّثون البلاد، ويُسكنون الناس..
فقال على: والله لا كان هذا أبداً.^(١) وأصر على أن يمضى في قراره بعزل
ولاة عثمان.

وفاة ابن أبي سرح

بعث علي بن أبي طالب والياً جديداً على مصر هو الصحابي قيس بن عباد الأنصاري، وخرج عبد الله بن أبي سرح إلى عسقلان في شوال عام ٣٦ للهجرة، وقيل: بل إلى الرملة في فلسطين، وعاش بعيداً عن الفتنة، فهو أحد الصحابة الذين اعتزلوا الحياة السياسية في هذه الفترة، فلم ينحز إلى علي ولا إلى معاوية.

لقد كان دعاؤه دائماً: اللهم اجعل خاتمة عملي الصلاة.

واستجاب الله دعاءه، ففي يوم من أيام عام ٣٧ للهجرة، وأثناء صلاة الصبح قرأ في الركعة الأولى بأم القرآن والعاديات، وفي الثانية بأم القرآن وسورة أخرى، وسلم عن يمينه، ثم ذهب يسلم عن يساره، فقبضه الله إليه. (١)

وانتهت حياة رجل من رجالات الإسلام، رجل مجاهد، قائد، حاكم، دافع عن فتوحات الإسلام، وذاد عنه المعتدين.

(١) أسد الغابة ٣ / ٢٦٠.

قيس بن سعد بن عبادة

من شوال عام ٣٦ للهجرة إلى ربيع أول عام ٣٧ للهجرة

ثالث من تولى إمارة مصر في عهد الخلفاء الراشدين هو: الأنصارى قيس بن سعد بن عبادة بن دليم، من الخزرج.

أسلم قيس مع أبيه يوم العقبة، وكان سعد أبوه أحد النقباء الاثني عشر الذين اختارهم النبي ﷺ ليكونوا رؤوساً في قومهم قبل الهجرة.

وبعد أن هاجر الرسول ﷺ، جاء سعد بابنه قيس لرسول الله ﷺ ليعلمه، فكان بمنزلة الشرطي لرسول الله ﷺ حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، ويوم فتح مكة أخذ رسول الله ﷺ راية الأنصار من أبيه، ودفعها إليه.

كان قيس شريفاً فاضلاً كريماً كأبيه.

ذكر ابن الأثير حادثة تظهر نجبته وفضله وكرمه، قال: كان قيس في سرية فيها أبو بكر وعمر، فكان يستدين ويطعم الناس، فقال أبو بكر وعمر: إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيه. فمشيا في الناس، فلما سمع سعد بن عبادة، قام خلف النبي ﷺ فقال: من يعذرني من ابن أبي قحافة وابن الخطاب؟؟ يبخلان على ابني. (١)

وقال ﷺ عن قيس: إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت. (٢)

واشتهر قيس بالدهاء والمكر، قال: لولا الإسلام لمكرت مكرأ لا تطيقه العرب، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: المكر والخديعة في النار، لكنت من أمكر هذه الأمة. (٣)

(١) أسد الغابة ٤ / ٤٢٥.

(٢) كنز العمال ١١ / ٧٤٢.

(٣) قال ابن الأثير: كان دهاء العرب حين ثارت الفتنة خمسة يقال لهم: ذوو رأى العرب ومكيدتهم: معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وقيس بن سعد بن عبادة والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن بديل بن ورقاء، فكان قيس وابن بديل مع علي، وكان المغيرة معتزلاً، وكان عمرو مع معاوية. (أسد الغابة ٤ / ٤٢٢)

وكان قيس بن سعد يحب علي بن أبي طالب، ووقف معه بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، واختاره عليّ لولاية مصر، في شوال عام ٣٦ للهجرة، واستطاع أن ينهض بمسئولية الحكم في هذه الساعات الحرجة، وهو ما دفع معاوية إلى التقرب إليه، ومحاولة استمالته، ولما رأى منه عناداً وعدم استجابة، أشاع في أهل الشام أن قيساً قد بايع معاوية، وبلغ ذلك علياً، فعز عليه ولم يصدق، ولكن من حوله زينوا له عزله، فأراد أن يتأكد من تغير قيس، فبعث إليه كتاباً يأمره أن يغزو من تخلف عن البيعة -أي: غزو معاوية في الشام-، وكان رد قيس الاعتذار قائلاً: إن كنت أمرتني لتختبرني، فابعث علي عملك بمصر غيري.

وأسرع علي فاستجاب، وبعث والياً آخر هو: الأشتر مالك بن الحارث النخعي، الذي ما لبث أن قتل^(١) في الطريق عند السويس، فبعث عليّ رضي الله عنه والياً آخر هو: محمد بن أبي بكر، وقال: ما كان لمصر إلا أحد رجلين، قيس ابن سعد والآخر الأشتر، وكان قد حزن علي الأشتر حزناً شديداً، وقال: لقد كان لي كما كنت لرسول الله ﷺ.

أما قيس فقد كان محباً لعليّ بن أبي طالب، فلم يلمه عليّ عزله، وإنما عذره، وعرف أنه خدع، وخرج من مصر متجهاً إلى العراق ليكون مع عليّ، فجعله في مقدمة جيشه، حتى استشهد أمير المؤمنين في رمضان عام ٤٠ للهجرة.

وكان قيس بن سعد قد ترك مصر في ربيع أول عام ٣٧ للهجرة، فتكون إمارته لمصر أربعة أشهر وخمسة أيام.

وعندما تولى الخلافة الحسن بن عليّ صار قيس من شيعته، حتى كان عام الجماعة عام ٤١ للهجرة، حين تنازل الحسن لمعاوية عن خلافة المسلمين، حينئذ اعتزل قيس الحياة السياسية، وعاش في المدينة حتى مات بها عام ٦٠ للهجرة، في أواخر عهد معاوية، رضي الله عنهما.

(١) قال الذهبي: لقي الأشتر عبداً من عبيد عثمان بن عفان، فسقاه عسلاً مسموماً. (العبر ١/٤٥). ونسب بعضهم مقتل الأشتر إلى معاوية مستدلاً بتعليقه علي هذا الحادث حين قال: إن لله جنوداً منها العسل. ولا دليل في هذا.

وقد ذكر ابن عبد الحكم قصة عن قيس تبين مدى نزاهته، قال: ... واختط قيس بن سعد في قبلة المسجد الجامع - في القسطة - (دار الفلفل)^(١). ولما عزله على كان الناس يقولون: إنها له، حتى ذكر ذلك له فقال: إنما بنيتها من مال المسلمين، ولا حق لي فيها، ولما حضرته الوفاة قال: إني كنت بنيت داراً بمصر.. فهي للمسلمين ينزلها ولا تهم^(٢).

(١) قال بعضهم عن دار الفلفل: كانت لسعد بن أبي وقاص.

(٢) فتوح مصر ٩٨.

محمد بن أبي بكر

من رمضان عام ٣٧ للهجرة إلى صفر عام ٣٨ للهجرة

رابع من تولى إمارة مصر في عهد الراشدين وآخرهم، محمد بن أبي بكر ابن عامر (أبي قحافة) التيمي القرشي، شقيق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أمه الصحابية الجليلة، صاحبة الهجرتين أسماء بنت عميس^(١)، ولدته وهي في طريقها إلى الحج مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع عام ١٠ للهجرة.

رباه علي بن أبي طالب بعد وفاة أبي بكر الصديق، وزواجه من أمه أسماء، كان على خلق وصلاح حتى سموه (عابد قریش)، كنى باسم ابنه القاسم أحد علماء وفقهاء المدينة السبعة في زمنه.

ووقعت الفتنة فكان محمد بداهة مع علي، اتهمه بعضهم بالمشاركة في دم عثمان رضي الله عنه، لدخوله مع من دخل ساعة قتل ذي النورين.

وجعله أمير المؤمنين علي في مقدمة جيوشه، وخاصة في معركتي الجمل وصفين.

ولما قرر علي عزل قيس بن عباد عن ولاية مصر، وبعث الأشر^(٢) إليها والياً، ثم ما لبث أن قتل قرب السويس - لم يجد علي أوفق من ربيبه ليحل محل قيس في ولاية مصر.

وجاء محمد إلى مصر من قبل الخليفة الراشد علي بن أبي طالب، ودخلها في رمضان عام ٣٧ للهجرة، وكان أول عمل له هو محاولة القضاء على الفتنة القائمة بين العثمانية والعلوية، ولكنها كانت محاولة فاشلة، لم ينتج عنها خير.

ولم يكن حكيماً في معالجة هذا الأمر، ففضى شهور ولايته في صراعات ومناجزات مع العثمانيين الذين تحصنوا في قرية (خربتا) - في محافظة البحيرة حالياً، وعليهم صحابيان جليلان هما مسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج.

(١) تزوجت أسماء بنت عميس جعفر بن أبي طالب، وهاجرت معه إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، ولما استشهد في سرية مؤتة، تزوجت أبا بكر، ثم تزوجت علياً، توفيت بعد استشهاد زوجها في عام ٤٠ للهجرة.

(٢) كان الأشر من فرسان علي المعدودين، وكان سيد قومه وخطيبهم، عده المؤرخون ممن حرض على قتل عثمان.

ولصغر سن^(١) محمد، لم يستطع أن يحسن التدبير والمراوغة كما كان يفعل قيس بن عباد.

وقد ذكرت المراجع أن قيساً لم يترك محمداً بدون إرشاده ونصحه حتى يستطيع مواجهة الفتنة المشتعلة في مصر، وهي لا تحتاج إلا للأمير الحصيف، قال له: لا يمنعني عزله إياي - يقصد علياً - من نصحي لك، ولقد عزلني عن غير وهن ولا عجز، فاحفظ ما أوصيك به، يدم صلاح حالك: دع معاوية بن خديج ومسلمة بن مخلد وبشر بن أرطاة ومن ضوى إليهم.. وإن أتوك فاقبلهم، وإن تخلفوا عنك، فلا تطلبهم، وألن جناحك لهذا الحى من مصر، وقرب عليهم مكانك، وارفح عنهم حجابك.. وأنزل الناس منازلهم، فإن استطعت أن تعود المرضى، وتشهد الجنائز، فافعل، فإن هذا لا ينقصك.. والله موفقك.

تقول د. سعاد ماهر: وبدلاً من أن يأخذ محمد بن أبى بكر برأى قيس أو يعمل بنصائحه، عمل بعكس ما أوصاه تماماً... فبعث إلى دور الخارجية فهدمها، ونهب أموالهم وسجن ذراريهم، فنصبوا له الحرب.^(٢)

ويقول د. حسن إبراهيم:.. فأظهر الخيلاء، وأساء إلى العثمانية، وبعث لزعيمهم معاوية بن خديج يدعوه لبيعة على، فلم يجبه لطلبه، فهدم محمد بن أبى بكر دورهم، ونهب أموالهم، وحبسهم.^(٣)

وبعد التحكيم جاء جيش الشام إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص، فأسرع العثمانية إلى الانضمام إليه.

وذكر ابن تغرى بردى تفاصيل هذه الساعات الحرجة، قال: وكتب عمرو إلى محمد صاحب مصر: أما بعد، فنج عني بدمك، فإننى لا أحب أن يصيبك منى قلامة ظفر، والناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك، وهم مُسلموك، فأخرج منها، فإننى لك من الناصحين...

ومعه كتاب معاوية يقول: يا محمد إن غيب البغى والظلم عظيم الوبال، وسفك الدماء الحرام من النعمة في الدنيا والآخرة، وإنا لا نعلم أحداً كان على عثمان

(١) كان حينئذ في السابعة والعشرين.

(٢) مساجد مصر وأضرحتها ٢ / ٢٣.

(٣) تاريخ الإسلام السياسى ٢٧٢.

مصر في الإسلام

أشد منك، فسعيت عليه مع الساعين، وسفكت دمه مع السافكين.. ولن يسلمك الله من القصاص أينما كنت، والسلام.

فطوى محمد الكتابين، وبعث بهما إلى علي بن أبي طالب، وفي ضمنهما يستجده، ويطلب منه المدد، والرجال، فورد عليه الجواب من عند علي بن أبي طالب بالوصية والشدة، ولم يمهه بأحد.^(١)

وربما كان ذلك لانشغاله بمشكلة التحكيم، وما نتج عنها من خروج أقوام من شيعته عليه في العراق، ومحاربتهم لهم في معركة (النهروان)^(٢)، ولذلك لم يجد أمير مصر بداً من مقابلة الجيش العثماني والجيش الشامي، فلم يلبث أن هزم، ابن أبي بكر وقبض عليه.

وعندما دخل عمرو بن العاص الفسطاط، جاءه عبد الرحمن بن أبي بكر الذي كان في جيشه، يطلب منه العفو عن أخيه محمد، وحاول عمرو ذلك، لكن معاوية بن خديج أصر على القصاص، وقتل محمد، وقال: لقد منعوا عن عثمان الماء، ثم قتلوه صائماً.

وقتل محمد بن أبي بكر في ١٤ صفر عام ٣٨ للهجرة، بعد ولاية دامت قرابة خمسة أشهر فقط، ومات آخر وال لمصر من قبل الخلفاء الراشدين.

أما ما حدث من تمثيل بجثته فقد أمسكنا عن الحديث عنه رفقا بمشاعر القراء، وصونا لها عن مطالعة لون من البشاعة والقسوة لا علاقة له بأخلاق الإسلام.

ودفن في سفح المقطم، وبنى على قبره مسجد.

قال الزريكي: ودفنت جثته مع رأسه في مسجد يعرف بمسجد زمام، خارج مدينة الفسطاط، وقد زرت قبره في الفسطاط.^(٣)

وتقول د. سعاد ماهر: هناك أكثر من مكان يقال إن به رأس محمد بن أبي بكر، ففي حارة الباطلية بالأزهر عند جامع سودون القصري المعروف بجامع

(١) النجوم الزاهرة ١ / ١٠٩.

(٢) كورة واسعة بين بغداد وواسط من الناحية الشرقية، فيها وقعة مشهورة بين علي رضي الله عنه والخارجين عليه.

(٣) الأعلام ٦ / ٢٢٠.

مصر في الإسلام

المدعى ضريح في خلوة يعرف بضريح محمد بن أبي بكر الصديق، وعليه تابوت مرقوم في كسوته اسمه، وله خادم، ونافذة على الطريق، ويزوره كل من مر عليه بقراءة الفاتحة، والدعاء عنده.

وقالت: ويقع مسجد محمد بن أبي بكر في مصر القديمة بشارع الودائع.. ويعرف باسم محمد الصغير، كما كان يعرف باسم زمام، وذلك أنه بعد مضي مدة من قتله أتى (زمام) مولى محمد بن أبي بكر إلى الموضع الذي دفن فيه، وحفر فلم يجد سوى الرأس فأخذه، ومضى به إلى المسجد المعروف بمسجد زمام، فدفنه فيه، وبني عليه المسجد، ويقال إن الرأس مدفون في القبلة، وبه سمي مسجد زمام.^(١)

وتولى عمرو بن العاص بعد محمد بن أبي بكر ولايته الثانية لمصر، ولكن بعد أن انتقلت حاضرة الخلافة من المدينة المنورة إلى دمشق الشام، عاصمة دولة بني أمية، وعاش عمرو في القسطنطين حتى توفي غرة شوال عام ٤٣ للهجرة.



وواضح أن هؤلاء الولاة كانت ولايتهم قصيرة، وحافلة بالاضطرابات والقلق التي شغلته عن تحقيق أي إصلاح في البلاد، فقد كان إخماد الفتن شغلهم الشاغل، وكانوا إذا أخمدوا فتنة، ظهرت لهم أخرى على امتداد البلاد، وتوزع مواقع الجند المسلمين على خريطتها. وشعب مصر بعيد كل البعد عن هذه الصراعات، فقد كان المسلمون من المصريين قليلين، تغلب عليهم سمة المسالمة، والبعد عن صراعات الحكام، بعضهم مع بعض، ولذلك كانت تلك الفتن تخمد بمجرد قتل قائدها، فينضم أنصار القائد القليل إلى صف القائد المنتصر، وعبثاً نحاول البحث عن أي أثر لإصلاح المجتمع، بتعليم الناس قواعد الدين الجديد، وأصوله وشرائعه - فلا نجد لذلك أثراً، وقد كان من فضل الله أن هذه الفترة لم تطل، فقد دام هذا الوضع المحزن أقل من عقد من الزمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم استقامت الأمور بعد ذلك في اتجاه الإصلاح والدعوة إلى الإسلام والتوحيد.

(١) مساجد مصر وأضرحتها ٢ / ٢٤.

عتبة بن أبي سفيان

تولى من شوال عام ٤٣ للهجرة إلى ذي الحجة عام ٤٤ للهجرة

لما توفي عمرو بن العاص في غرة شوال عام ٤٣ للهجرة، بعث الخليفة معاوية والياً جديداً على مصر، هو أخوه لأبيه: عتبة بن أبي سفيان، وكان عتبة قد أسلم صغيراً، حتى إذا كان عهد الخليفة عمر ولاء إمارة الطائف، وفي عهد عثمان لزمه حتى استشهد يوم الدار، ثم كان مع عائشة في وقعة الجمل، وذهبت عينه فيها، وانتقل بعد ذلك إلى الشام، فولاه معاوية الطائف، وجعله أميراً على الحج عامي ٤١ و ٤٢ للهجرة، ثم ما لبث أن ولاء مصر، فجاءها في ذي القعدة عام ٤٣ للهجرة، وكانت ولاية جامعة للخراج والصلاة.

كانت أحداث الفتنة قد خمدت، وبدأ عهد من الهدوء باختفاء عناصر الاضطراب في فترة ولاية عمرو بن العاص الأخيرة، فكان ذلك تمهيداً رائعا للولاية الجديدة.

اشتهر عتبة بالصلاح والتقوى والعدل والمهابة والفصاحة، قيل: أخطب بنى أمية عتبة بن أبي سفيان ومروان بن الحكم.^(١)

ولعدله أحبه الناس، قال يوماً في الجامع الكبير بعد خطبة طويلة: إن البيعة متتابعة، لنا عليكم السمع والطاعة، ولكم علينا العدل، فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه، فناداه المصريون: سمعاً سمعاً، وناداهم عتبة: عدلاً عدلاً.

ويعتبر عتبة بن أبي سفيان في الحقيقة بداية أحوال الاستقرار وعهد الإصلاح الذي بداه عمرو بن العاص في ولايته الثانية، ولذلك نجد في كلماته دائماً - وقد حفظها لنا التاريخ - سمة التأمل والمعالجة العقلية، ومحاولة إصلاح طبائع الناس ونفوسهم، وعلى الرغم من قصر المدة التي عاشها والياً على مصر، فإن كلماته تعتبر في نظرنا نصوص الدستور الأخلاقي الذي وضعه للناس قاعدة يسير

(١) قال الأصمعي: الخطباء من بنى أمية عتبة بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان.
(الأعلام ٤ / ٢٠١)

عليها الحكم، وتقنن بها العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ويكفي أن يضع قاعدة أن طاعة الرعية هي مقابل العدل من الراعي، وهو معنى من استقامة التفكير وجدناه كثيراً عند الراشدين أبي بكر وعمر، فهو لم يتصور نفسه دكتاتوراً كل همه أن تتحنى له الهامات خضوعاً ورعياً من سيفه وسوطه.

ونراه لا يتجسس على نوايا الناس، ولا يأخذهم بالظنة، فإن أحوال القلوب بيد الله، وليس للحاكم إلا ما ظهر، وهو اتجاه مأخوذ من تعاليم النبوة (لنا الظاهر والله ينولي السرائر)، وهذا قوله للناس:.. واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم، دون قلوبكم، فأصلحوا لنا ما ظهر، ونكلكم إلى الله فيما بطن، وأظهروا لنا خيراً وإن أضمرتم شراً، فإنكم حاصدون ما أنتم زارعون، وعلى الله أتوكل، وبه أستعين.^(١)

ولقد كان عتبة رجل مبادئ، عركته الحياة، وعلمته التجارب، فكل الكلمات التي أثرت عنه كانت في الواقع تلخيصاً لتجاربه، وتعبيراً عن ذكاء هذه التجارب.

ولننظر إليه في وصيته لمعلم أولاده، وسنجد أن فطرته قد هدته إلى قواعد من علم النفس التربوي، لم تعرف علمياً إلا في العصر الحديث، وربما نسب بعضها إلى مفكرين جاءوا بعده بعدة قرون.

ومن ذلك مثلاً رأيه بأن تزاحم المعاني في عقل الطفل مفسدة لعقله فعلاً - (فكرة الكلام ينسى بعضه بعضاً)، ونلمح اتجاهاً تربوياً من اتجاهات العصر الأول، عصر النبوة، فقد كان النبي ﷺ حريصاً في تعليمه لصحابته ألا يزودهم بشيء من الجديد، حتى يحسنوا تثبيت القديم في عقولهم وسلوكياتهم، والتعليم في نظره سلوك أولاً يقوم الموقف المعرفي، والمعلم هنا هو مصدر هذا السلوك، وهو كتاب القدوة، فما ينفع علم لا ترجمة له في العمل، ولا ينجح عالم غير ملتزم بما يدعو الناس إليه.

وهذه وصيته التي تثير إعجابنا بشخصيته وفكره، يقول:.. ليكن إصلاح بئى إصلاحك لنفسك، فإن عيوبهم^(٢) معقودة بعيبك، فالحسن عندهم ما فعلت، والقبیح ما

(١) العقد الفريد ٤ / ١٣٩.

(٢) في بعض النسخ: عيونهم معقودة بعينك.

تركت، وعلمهم كتاب الله، ولا تُملَّهم فيتركوا، ولا تدعهم منه فيهجروا، وزوهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفه، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مشغلة^(١) للفهم، وهددهم بي، وأدبهم دوني، وكن كالطبيب الرفيق الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، وامنعهم من محادثة النساء، واشغلهم بسير الحكماء، واستزدني بأدبهم أزدك، ولا تتكلمن على عذر مني، فقد اتكلت على كفاية منك.^(٢)

لقد كان عتبة يربط الأجر بالإنتاج، وهو معنى قوله (واستزدني بأدبهم أزدك)، فكلما ازداد الأبناء في أدبهم وعلمهم استحق مؤدبهم زيادة في أجره، والعكس أيضاً صحيح في سياق هذه الوصية.

أما عتبة في ممارسته للسلطة فهو آية في العقل والحسم، لقد أعطى الناس العدل مقابل الطاعة، فإذا هم نكثوا بالعهد، واختاروا العصيان، فليس إلا الوجه الآخر الذي يعتدل به الميزان، ويتحقق به العدل مرة أخرى، ولذلك لا يجب أن نثيرنا خطبته العاصفة التي روتها كتب التاريخ، قال فيها: بعد أن حمد الله وأثنى عليه.. يا أهل مصر^(٣) إياكم أن تكونوا للسيف حصيداً.. إن الله جمعكم بأمر المؤمنين بعد الفرقة، فأعطى كل ذي حق حقه... فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق بإحياء الفتن، وإماتة السنن، فأطاكم وطأة لا رmq معها، حتى تنكروا مني ما كنتم تعرفون.. وأنا أشهد عليكم الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.^(٤)

وخطبهم مرة أخرى، قال:.. يا أهل مصر، خف على ألسنتكم مدح الحق، ولا تفعلونه، وذنم الباطل، وأنتم تأتون، كالحمار يحمل أسفاراً أثقله حملها، ولم ينفعه

(١) في البيان والتبيين: مضلة.

(٢) النجوم الزاهرة ١ / ١٢٣.

(٣) إن الخطاب هنا موجه إلى الجند الذين شاركوا في الفتح، ثم استوطنوا مصر، فصاروا من أهل مصر، ومنهم كان الثوار على عثمان، أما القبط، فلم يكونوا مقصودين بالخطاب إلا ضمناً، ولم تكن لهم مشاركة في الفتنة التي راح ضحيتها عثمان رضي الله عنه.

(٤) العقد الفريد ٤ / ١٣٧.

علمها، وإني لا أداوي داءكم إلا بالسيف، ولا أبلغ السيف ما كفاني السوط، ولا أبلغ السوط ما صلحت الدرة، فالزموا ما ألزمكم الله لنا، تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا. (١)

لا ينبغي أن نثيرنا هذه الكلمات، فنرى فيها نزوعاً إلى الجبروت، أو ميلاً إلى ظلم الرعية، فقد كان يهدف إلى تقويم موقفهم، وإبعادهم عن الفوضى حتى تعود العدالة إلى سيرتها الأولى.

لقد كانت كلماته في هذه الخطب علاجاً لحالة من الزيغ والانحراف كانت تؤذن بالفوضى، فردتهم هذه الكلمات إلى موقف التعقل والتخلي عن العصيان، واستقامت بذلك قناتهم، لكن التاريخ لم يسجل على عتبة أنه أراق الدماء أو أزهق الأرواح.

وإذا انتقلنا إلى دراسة البعد الاقتصادي في تفكير عتبة بن أبي سفيان، فستبهرنا كلماته التي أوصى عامله على أمواله بالحجاز، تلك الكلمات التي تلقفها أعيان المجتمع الإسلامي، فجعلوها دستوراً لعلاقتهم بعمالهم أيضاً، وهي كلمات تحتاجها جهود التنمية في زماننا هذا.

قال عامله - سعد القصير -: ولأني عتبة أمواله بالحجاز، فلما ودعته، قال لي: يا سعد، تعاهد صغير مالي فيكثر، ولا تضع كثيره فيصغر، فإنه ليس يشغلني كثير مالي عن إصلاح قليله، ولا يمنعني قليل ما في يدي عن الصبر على كثيره مما ينوبني.

قال سعد: فقدمت المدينة، فحدثت بها رجالات قريش، ففرقوا بها الكتب على الوكلاء. (٢)

والشيء المحزن حقاً أن هذا الرجل لم يطل عمره في هذه الولاية أكثر من سنة، ثم عجل الله له الأجل، فكان مشهد توديعه للحياة أبلغ عبرة.

(١) أسد الغابة ٣ / ٥٦٠. والسابق ٤ / ١٤٠.

(٢) العقد الفريد ٣ / ٣٤.

قال ابن عبد ربه: ولما اشتكى شكاته التي مات فيها، تحامل إلى المنبر، فقال: يا أهل مصر، لا غنى عن الرب، ولا مهرب من ذنب، إنه قد تقدمت مني إليكم عقوبات كنت أرجو يومئذ الأجر فيها، وأنا أخاف اليوم الوزر منها، فليتني لا أكون اخترت دنيائى على معادى، فأصلحتكم بفسادى، وأنا أستغفر الله منكم، وأتوب إليه فيكم، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه، ورجوت ما كنت أخاف اغتياًلاً به، وقد شقي من هلك بين رحمة الله وعقوبته، والسلام عليكم سلام من لا ترونه عائداً إليكم... قال الراوى: ولم يعد.^(١)

وهذا كلام ترعد منه القلوب، وتزلزل جوانب النفوس، فكأن عتبة يراجع نفسه في كل ما أبرم من قرارات وأحكام خلال ذلك العام المبارك الذى حكم فيه مصر.

ومع أن هذه الأحكام قد أحدثت في الواقع إصلاحاً شاملاً، واستقراراً، فإنه يخشى أن يكون جارٍ ذات مرة عن نهج العدل وسنت الحق.

وهى مراجعة يحتاج أن يقوم بها كل حاكم، لا تقليداً لعبة فحسب، وإنما تأسيساً برسول الله ﷺ، حين وقف في آخر حياته يقول للناس: "أيها الناس، من كنت جلدت له ظهراً، فهذا ظهري، فليستقد مني، ومن كنت أخذت له مالاً، فهذا مالي، فليأخذ منه، ولا يخش الشحاء، فإنها ليست من شأني".

وكان عتبة قد خرج مرابطاً إلى الإسكندرية، وبنى بيتاً في حصنها، ولكن القدر لم يمهل حتى يعود للفسطاط، مكان إمارته، فمات في الإسكندرية في ذى الحجة عام ٤٤ للهجرة، ودفن في مدافنها، رضى الله عنه وأرضاه.

عقبة بن عامر

تولى من ذى الحجة عام ٤٤ للهجرة إلى ربيع أول عام ٤٧ للهجرة

سادس ولاية مصر في الإسلام، الصحابي الجليل عقبة بن عامر بن عباس، من جهينة، من قضاة، يرجع أصله إلى اليمن.

روى عقبة واقعة مع رسول الله ﷺ تبين لنا أصله اليمنى، قال: قال ﷺ يوماً: من كان هنا من معدّ فليقم، فقام رجال، وقمت معهم، فقال لى: اجلس، قال ففعل بى مرتين أو ثلاثاً، فقلت: يا رسول الله ألسنا من معد ؟

قال: لا، قلت: ممن نحن ؟، قال: أنتم من قضاة بن مالك بن حمير. (١)

وكان عقبة راعى غنم قرب المدينة، ولما هاجر رسول الله ﷺ، وسمع عقبة بما جاء به، أراد أن يدخل في الإسلام، قال: قدم رسول الله ﷺ وأنا فى غنم لى أراها، فتركها، ثم ذهبت إليه.

ودخل عقبة على رسول الله ﷺ مبايعاً، فسأله إن كان سيعيش فى المدينة أو يرحل إلى قومه قضاة ؟ وكان جوابه أنه سيقم.

روى ابن سعد: قال عقبة: يا رسول الله جئت أباعك. فقال: بيعة أعرابية تريد أو بيعة هجرة. قلت: بيعة هجرة. فبايعنى على الهجرة وأقمت. (٢)

ويقصد رسول الله ﷺ بالبيعة الأعرابية، أن يبايع ويرجع إلى البادية من حيث جاء، وقد كان ذلك مرفوضاً فى تلك المرحلة المبكرة التى أعتبت الهجرة، إذ كان يُخشى على من يسلم أن يعود إلى البادية، فيبتعد عن الدين، ويرتد إلى الكفر.

وكان بقاء المسلمين فى المدينة نوعاً من الاستقرار، بجانب منبع الوحي، ومصدر الإيمان، ليتزودوا من علم الدين على يد رسول الله ﷺ، وليتكون منهم جيش الإسلام وأمة المؤمنين. (٣)

(١) كنز العمال ١٢ / ٤٩٥.

(٢) الطبقات ٤ / ٣٤٤.

(٣) النجوم الزاهرة ١ / ١٢٧.

وقد كانت الهجرة فعلاً تعنى هجرة الوطن إيثاراً للإيمان، ومن هؤلاء المؤمنين الذين استقروا بالمدينة، وتركوا التبدى كان جيش الدعوة الذي حقق الله به النصر في كل المعارك.

ولما دخل عقبة الإسلام، كان من خدم رسول الله ﷺ، يأخذ بزمام بغلته، ويقودها في الأسفار، وهو من أهل الصفة، أى: من المهاجرين الفقراء الذين لم يكن لهم مأوى، ولا بيت بالمدينة، وإنما كان منزلهم في مسجد رسول الله ﷺ شمالي الحجرات.

وعقبة ممن جمع القرآن الكريم في مصحف خاص به.

قال ابن يونس: رأيت مصحفه بمصر على غير تأليف مصحف عثمان، وفي آخره: كتبه عقبة بن عامر بيده. (١)

ولم يكن عقبة كاتباً فقط، بل كان شاعراً، قارئاً (٢)، عالماً بالفرائض، فقيهاً، فصيح اللسان، راوية لأحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، قيل: خمسة وخمسين. وقال ابن تغري بردي: وللمصريين عنه نحو مائة حديث. (٣)

وفي عهد أبي بكر خرج عقبة مع المحاربين في الفتوحات إلى الشام، وفي عهد عمر كان هو البشير إلى المدينة بفتح دمشق.

تقول د. سعاد ماهر:.. وصل إلى المدينة المنورة في سبعة أيام، ورجع منها في يومين ونصف ببركة دعائه عند قبر النبي ﷺ، وتشفعه به في تقريب طريقه. (٤)

ولما شبت نار الفتنة كان عقبة في صفوف معاوية، وحارب معه في صفين، وحين استقر الأمر لمعاوية، وبعد وفاة عتبة بن أبي سفيان، بعث بعقبة والياً على خراج وصلاة وحرب وشرطة مصر، وكان ذلك في عام ٤٤ للهجرة.

(١) قال الذهبي: الإمام المقرئ أبو عبس أحسن الناس صوتاً. (سير أعلام النبلاء ٤٠٦/٢)

(٢) النجوم الزاهرة ١ / ١٢٧.

(٣) كانوا حوالي أربعمئة رجل من المهاجرين منهم أبو هريرة، وابن أم مكتوم، وصهيب وسلمان وخباب وبلال.

(٤) مساجد مصر وأولياؤها ٨٥/١.

وعاش عقبة أميراً على مصر، ورأى معاوية أن يوجهه لعملية جهاد لا يصلح فيها غيره، فأمره أن يتوجه إلى جزيرة (رودس)، في الوقت الذي أرسل الوالي الجديد مسلمة بن مخلد، وأوصاه أن يكتم ذلك عن عقبة حتى يخرج للغزو. ولا شك في أن تصرف معاوية على هذا النحو كان احتياطاً، قصد به الحفاظ على الولاية، حتى لا يحدث فراغ في السلطة بغيبة عقبة، وقد كان ذلك ثمرة تجربة سبقت على عهد عثمان بن عفان، فقد خرج الوالي عبد الله بن أبي سرح لعملية مماثلة، فنشأ عن تغيب الوالي الرسمي فتنة هائلة، وما كان معاوية بالذي يرتكب مثل هذا الخطأ مرة أخرى.

وتسلم مسلمة بن مخلد زمام السلطة بعد أن غادر عقبة الفسطاط في طريقه لرودرس.

قال ابن تغري بردي: فكان ذلك لعشر بقين من ربيع الأول.^(١) بعد أن دامت ولاية عقبة سنتين وثلاثة أشهر.

وقد وصل عقبة إلى شاطئ البحر ومعه جنوده، وبدأ في نشر الرايات على السفن^(٢)، فبلغه خبر ولاية مسلمة، فعلق على ذلك قائلاً: ما أنصفنا معاوية عزلنا وغربنا، قال هذا كمن يعتب على أمير المؤمنين لأنه لم يطلعه على تفاصيل هذا التحرك، ثم أخذ طريقه إلى حيث أمره أمير المؤمنين، وأتم مهمته، وهو راض قرير العين، بإنجاز ما كلف به.

لقد كان عقبة رجلاً فريداً بين أقرانه، نذر نفسه للجهاد، وعلم أن الله اختاره لصفات فطره عليها، وأنه ينبغي أن يلزم طريق الجهاد لا يحيد عنه، فشارك بعد ذلك في حصار القسطنطينية تحت إمرة يزيد بن معاوية، وهي أولى محاولات فتح القسطنطينية التي مات خلالها أبو أيوب الأنصاري، ودفنه يزيد تحت أسوارها.

ويبدو أن عقبة كان ملماً ببعض ما يؤخذ على مسلمة، ولكنه أثر أن يسلك مسلك الورع الذي يبدو في قوله حين قدم إلى مسلمة بعد توليته مصر: أتذكر يوم قال ﷺ: من علم من أخيه سبة فسترها، ستره الله بها من النار يوم القيامة؟ قال مسلمة: نعم. قال عقبة: فلهذا آخيتك.

(١) النجوم الزاهرة ١ / ١٢٨.

(٢) كان عقبة أول من نشر الرايات على السفن المحاربة.

وعلى كل، فلا بد أن نسجل هنا إعجابنا بالرجلين كليهما، فإن مسلمة لم يضق بعقبة، بل أبقاه معه أكثر من عشر سنوات دون أن يخشى أذى من خلفه، شأن الولاة الذين يقضون على أسلافهم تأميناً لاستمرارهم في الولاية، لقد تعايش الرجلان بكل الحب، وتأخيا على مدد من تعاليم النبوة، ولذا عاش عقبة في مصر آمناً، في البلد الذي اختاره، يروى حديث رسول الله ﷺ، ويبلغ دعوته، ويأتيه الصحابي من المدينة كجابر بن عبد الله وأبي أيوب الأنصاري، وغيرهما، ليتناقشوا في حديث سمعه من رسول الله ﷺ، ودام على ذلك إلى أن وافاه الأجل في أواخر عهد معاوية^(١) عام ٥٨ للهجرة، ودفن في سفح المقطم، وكان قبل وفاته قد أوصى بما خلف: سبعين فرساً بجعابها^(٢) ونبالها في سبيل الله.

قال ابن تغري بردي : وليس في الجبانة قبر صحابي مقطوع به إلا قبر عقبة، فإنه زاره الخلف عن السلف.^(٣)

وقيل: إن البقعة التي دفن فيها عقبة المذكور، بها أيضاً قبر عمرو بن العاص، وقبر أبي بصرة الصحابييين.^(٤) والله أعلم.

قالت د. سعاد ماهر عن ضريح ابن عامر: وظل قبر عقبة بن عامر محل عناية ملوك مصر وولاتها، حتى جاء صلاح الدين الأيوبي، فهدم المبنى المقام على المقبرة، وأنشأ مكانه قبة كبيرة، تولاها الملوك من بعده بالتجديد.^(٥)

ومما روى عن عقبة من أحاديث رسول الله ﷺ قوله: كنت آخذاً بزمام بغلة رسول الله ﷺ فقال: هل أعلمك سورتين؟ فقلت: بلى يا رسول الله. قال: فاقرأ (قل أعوذ برب الناس وقل أعوذ برب الفلق)، ثم أقيمت الصلاة، فتقدم، فصلى بهما، وقال: اقرأهما كلما نمت وقمت. وفي رواية: أمرني ﷺ أن أقرأ بالمعوذات دبر كل صلاة.

(١) قالت د. سعاد ماهر: توفي في اليوم الذي توفيت فيه السيدة عائشة في ٨ شعبان عام ٥٨ للهجرة.

(٢) الجعاب: جمع جعبة، وهي: وعاء السهام والنبال.

(٣) النجوم الزاهرة ١ / ١٢٩.

(٤) النجوم الزاهرة ١ / ١٣٠.

(٥) مساجد مصر وأولياؤها ١ / ٨٧.

وروى الإمام أحمد عنه حديثاً قال: ذهب عقبة إلى المسجد الأقصى ليصلي، فرآه الناس فاتبعوه، فقال لهم: مالكم؟ قالوا: أتيناك لصحبتك لرسول الله ﷺ لتحدثنا بما سمعت منه. قال: انزلوا فصلوا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من عبد يلقى الله عز وجل لا يشرك به شيئاً، ولم يتد^(١) بدم حرام إلا دخل من أي أبواب الجنة شاء.^(٢)

وهذه روايات عنه ذكرها ابن عبد الحكم: قال ﷺ: كفارة النذر كفارة اليمين. وقال ﷺ: من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهن، فأطعمهن، وسقاهن من جذبه، كنَّ له حجاباً من النار.

وقال ﷺ: من توضأ، فجمع عليه ثيابه، ثم خرج إلى المسجد، كتب له كاتبه بكل خطوة عشر حسنات، وما زال في صلاة مادام ينتظر الصلاة، ويكتب من المصلين من حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه.

وقال ﷺ من قال على ما لم أقل، فليتبوأ بيتاً في جهنم.

وقال ﷺ: يوم النحر ويوم عرفة وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، هي أيام أكل وشرب.

وقال ﷺ من توضأ فأحسن وضوءه، ثم صلى صلاة غير ساه ولا لاه، كفر عنه ما كان قبلها من سيئة.

وقال ﷺ عن عمرو بن العاص: نعم أهل البيت أبو عبد الله وأم عبد الله وعبد الله.

وقال ﷺ: المؤمن أخو المؤمن، ولا يحل لمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه حتى يذر، ولا يحل لمؤمن أن يخطب على خطبة أخيه حتى يذر.

وسأل عقبة النبي ﷺ: هل فضلت سورة الحج على القرآن؟ قال: نعم ومن لم يسجد فلا يقرأ بها.^(٣)

(١) لم يصب منه شيء.

(٢) كنز العمال ١٥ / ٣٥.

(٣) فتوح مصر ٢٨٨.

مسلمة بن مخلد

تولى من ربيع أول عام ٤٧ الهجرة إلى رجب عام ٦٢ للهجرة

أول أنصارى تولى إمارة مصر: أبو سعيد مسلمة بن مُخَلَّد بن الصامت بن ثعلبة الخزرجي، وهو أيضاً أول أمير يتولى إمارة مصر والمغرب معاً.

ولد مسلمة قبل الهجرة بسنوات، قال يوماً على المنبر: أسلمت وأنا ابن أربع سنوات، وتوفي رسول الله ﷺ، وأنا ابن أربعة عشرة سنة. أى: إنه أسلم عام الهجرة، وهو ما يعنى أن قومه دخلوا في الإسلام حول هذا التاريخ.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها قوله عليه السلام: من ستر مسلماً في الدنيا ستره الله عز وجل في الدنيا والآخرة، ومن نجى مكروباً، فك الله عز وجل عنه كربته من كربات يوم القيامة، ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته. (١)

وكان مسلمة ورعاً، تقياً، حافظاً للقرآن، يطيل العبادة.

قال مجاهد (٢): كنت أرى أنى أحفظ الناس حتى صليت خلف مسلمة بن مُخَلَّد الصبح، فقرأ سورة البقرة، فما ترك ألفاً ولا واواً. (وفى رواية: فما أخطأ فيها ألفاً ولا واواً). (٣)

شارك مسلمة في فتح مصر، فكان على المدد الذى بعثه الخليفة الفاروق لعمره، وقال له: إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف منهم رجل مقام ألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد. كانت سن مسلمة آنذاك قريباً من خمس وعشرين سنة، وكان الخليفة عمر قد جعله على صدقات قبيلة فزارة قبل أن يخرج إلى مصر مجاهداً.

(١) رواه أحمد في أسد الغابة ٥ / ١٧٤.

(٢) مجاهد التميمي، من التابعين، وأحد القراء الكبار.

(٣) خطط المقرئ ٢ / ٨٤.

وفى الفتح كان له الباع الطويل، إذ كان ممن تسلق السلم والصور مع الزبير، حتى فتح الله لهم حصن بابلين، وبه فتح أغلب مصر، وكان من المقربين للقائد عمرو بن العاص، يعتمد عليه ويستشير، مع فارق السن الكبير بينهما^(١).

فعندما حاصر المسلمون الإسكندرية، وطال الحصار، قال عمرو لمسلمة: أشر علىّ في قتال هؤلاء. فقال مسلمة: أرى أن تنتظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله ﷺ، فتعقد له على الناس، فيكون هو الذي يباشر القتال، ويكفيكه.

فقال عمرو: ومن ذلك؟ فأشار مسلمة عليه بعبادة بن الصامت.

قال المقرئ: فدعاه عمرو وأتاه وهو راكب على فرسه، فلما دنا أراد عبادة النزول، فقال عمرو: عزمت عليك أن نزلت، ناولني سنان رمحك. فناوله إياه، فنزع عمامته عن رأسه، وعقد له، وولاه قتال الروم، فتقدم عبادة مكانه، فصادف الروم، وقتلهم، ففتح الله على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك.^(٢)

وعاش مسلمة مع عمرو في مصر، وقد عينه مشرفاً على الطواحين والغذاء، حتى عزل الخليفة عثمان عمراً، وخرج عمرو إلى فلسطين، فلم يمكث مسلمة في مصر بعد ذلك، وإنما خرج إلى المدينة وعاش فيها، حتى بدأت الفتنة الكبرى بين عليّ ومعاوية، فرحل إلى الشام قبل أن يستتب الأمر لمعاوية، ثم كان معه في صفين، وأراد معاوية مجازاته فأمره على مصر والمغرب معاً.

وكان مسلمة مغرمًا بالغزو لنشر الإسلام، وهو الذي زين لمعاوية غزو القسطنطينية، فبعث معاوية جيشاً كثيفاً، فيه كثير من الصحابة كابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن الزبير وأبي أيوب الأنصاري، وعليّ الجيش يزيد بن معاوية، ومات أبو أيوب خلال هذه المحاولة، فدفنه يزيد تحت أسوار القسطنطينية - حسب وصيته.

(١) كانت سن مسلمة حول الخامسة والعشرين، أما عمرو فكان قد تخطى الستين بكثير.

(٢) خطط المقرئ ١ / ١٦٤.

مصر في الإسلام

وقد سير مسلمة الجيوش من مصر في ولايته براً وبحراً إلى بلاد المغرب، وإلى الجزر التي في البحر الأبيض (جزر الروم)، وهو الذي أكمل فتح جزيرة رودس عام ٥٢ للهجرة، بقيادة الصحابي جنادة الأزدي.

وقد أثار فتح رودس الروم، فجاءوا بجيش لغزو مصر من ناحية الساحل عند بحيرة البرلس، وذلك عام ٥٣ للهجرة، ولكن مسلمة كان لهم بالمرصاد، فردهم وهزمهم شر هزيمة في معركة استشهد فيها الصحابي عائذ بن ثعلبة البلوي، ووردان مولى عمرو بن العاص وغيرهما..

غير أن كثرة خروجه للغزو، واتساع مطامحه في هذه السبيل - أرهق المجاهدين معه، فكرهوا منه ذلك، وخاصة الغزوات البحرية، وأظهروا له الاستياء، فقام فيهم خطيباً، قال: يا أهل مصر.. ما نقمت مني؟ والله لقد زدت في مددكم وعددكم وقوتكم على عدوكم، اعلموا أنني خير ممن يأتي بعدى، والآخر منا لآخر شر^(١). وفي رواية: والذي نفسي بيده، لا يأتيكم زمان إلا الآخر فالآخر شر، فمن استطاع منكم أن يتخذ نفقاً في الأرض فليفعل^(٢).

على أن مسلمة لم يقصر همه على الفتح فحسب، بل اهتم بالإصلاحات الداخلية، ومنها تعليم الناس الدين الجديد، فبنى المساجد الصغيرة في كل مكان من مصر، في القرى والكفور، ثم اتجه إلى المسجد الجامع في القسطنطينية محاولاً إصلاح ما أفسدته الأيام والظروف، فعمل خطة في عام ٥٣ للهجرة لترميم المسجد وتوسعته وتجديده، دون أن يقترب من البناء القديم الذي بناه عمرو بن العاص، ثم بيضه وفرشه بالحصر بعد أن كان مفروشاً بالحصباء، ثم بنى في كل ركن من أركانه الأربعة صومعة، أي: غرفة صغيرة، وهي إضافة تميز بها آنذاك أول مساجد الإسلام في إفريقيا.

ومسلمة هو أول من بنى المآذن^(٣) في المساجد، فقد أمر ببناء منارة في كل مسجد، وكتب عليها اسمه، ثم سن سنة لطيفة ذكرها على مبارك، قال: أمر مسلمة مؤذني الجامع - جامع عمرو - أن يؤذنوا الفجر إذا مضى نصف الليل، فإذا

(١) قال أبو نعيم في كنز العمال ١٣ / ٥٩٨: قال مسلمة:.. والآخر فالآخر.

(٢) الإصابة ٦ / ١١٨.

(٣) ذكر المقرئ أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي أشار على واليه بابتداء منار المسجد الذي في القسطنطينية.

فرغوا من أذانهم أذن كل مؤذن في الفسطاط في وقت واحد، فكان لأذانهم دوى شديد. (١)

وكان المتبع عند الفجر ضرب ناقوس لإيقاظ الناس.

تقول د. سعاد ماهر: وأمر ألا يضرب في المسجد بناقوس عند الفجر، كما كان يُفعلُ أولاً، وبذلك يعتبر مسلمة بن مخلد أول من جعل المآذن في المساجد الإسلامية. (٢)

ولم يهمل مسلمة القبط، إنما قدم لهم مآثر مازالوا يذكرونها له، فقد ترك لهم حرية بناء الكنائس الجديدة، مع التصريح بتجديدها وترميم القديم منها.

يقول د. ادوارد: وقد أجمع المؤرخون على أنه قد بنيت في مصر عدة كنائس في القرن الأول الهجري، منها كنيسة مارمرقس بالإسكندرية ما بين عامي ٣٩ و ٥٠ للهجرة، كما بنيت أول كنيسة بالفسطاط في حارة الروم في ولاية مسلمة بن مخلد ما بين عامي ٤٧ : ٦٨ للهجرة. (٣)

ومات معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بني أمية عام ٦٠ للهجرة، وتولى ابنه يزيد الخلافة، فأقر مسلمة على ولاية مصر والمغرب.

وقد عاش مسلمة بن مخلد حياة حافلة بالأعمال الجليلة في إمارته لمصر والمغرب، حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى في رجب عام ٦٢ للهجرة، وهو الأرجح، وقيل في ذي الحجة (الموافق أبريل عام ٦٨٢ للميلاد) ودفن في الإسكندرية^(٤)، رضى الله عنه.

(١) الخطط التوفيقية ١٥/٤.

(٢) مساجد مصر وأولياؤها ٣٧/٢.

(٣) معاملة غير المسلمين ١٤٠. وصواب التاريخ: ما بين عامي ٤٧ و ٦٢ للهجرة.

(٤) قالت د. سعاد ماهر: (عن ابن زولاق وابن الزيات): مات مسلمة بن مخلد بمصر - الفسطاط - وهو الأصح، وقبره بمصر بخط مذبج الجمل، ومذبج الجمل بمصر القديمة الآن، ويعرف الشارع الذي به ضريح مسلمة باسم شارع مسلمة بن مخلد، أما الآن فقد تغير اسم الشارع الموجود به الضريح، وأصبح سوقاً للباعة المتجولة، متفرع من الشارع المؤدى إلى جامع عمرو بن العاص، والضريح عبارة عن زاوية صغيرة بداخلها غرفة مربعة تقوم عليها قبة صغيرة. (مساجد مصر ٣٧/١)

وقبل أن نترك ترجمة الأمير مسلمة ينبغي أن نعلق على واقعة حدثت زمن مسلمة، تدلنا على أن وسام الصحبة مع رسول الله ﷺ كان أرفع شأنًا، وأكثر تأثيراً من أى اعتبار آخر يمكن أن يميز بين هؤلاء الأسلاف.

فإن من تولى الولاية منهم، لم تكن تميزه السلطة عن الآخرين، كما أن من عزل من الولاة لم يكن يفقد اعتباره الاجتماعى بين الناس.

ولنأخذ مثلاً على ما نقول قصة أبى أيوب الأنصارى حين زار عقبة بن عامر فى مصر بعد عزله، قال الذهبى: جاء أبو أيوب عقبة بن عامر بمصر ليسأله عن حديث، فالتقاء مسلمة وعانقه. (١)

والقصة بالتفصيل كما ذكرها عطاء بن رباح، قال: خرج أبو أيوب إلى عقبة ابن عامر، وهو بمصر، يسأله عن حديث سمعه من النبى ﷺ لم يبق أحد سمعه من رسول الله غيره وعقبه، فلما قدم أتى منزل مسلمة بن مخلد الأنصارى، وهو أمير مصر، فأخبر به، فعجل، فخرج إليه، فعانقه، ثم قال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ غيرى وغير عقبة، فابعث من يدلنى على منزله: قال: فبعث معه من يدلّه على منزل عقبة، فأخبر عقبة، فعجل، فخرج إليه فعانقه، وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيرى وغيرك فى ستر المؤمن، قال عقبة: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: من ستر مؤمناً فى الدنيا على عورة، ستره الله عز وجل يوم القيامة.

قال أبو أيوب: صدقت. ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته، فركبها، راجعاً إلى المدينة، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر. (٢)

ما أعظم هذا الجيل، الذى علم الدنيا الأمانة والتفانى فى طلب العلم، حفاظاً على سنة رسول الله ﷺ، وإثباتاً لأقواله ووصاياهم، حتى إنهم كانوا يضربون فى

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ٤٢٥.

(٢) مجمع الزوائد ١ / ١٣٤.

الأرض شهوراً، بحثاً عن قولة قالها رسول الله ﷺ لا تزيد على سطر واحد، فإذا بالرجل منهم يتحمل من أجل هذا السطر وعناء الطريق، مخافة أن يموت دون أن يبلغ هذا السطر إلى الدنيا، ويوثق روايته لمن يأتي بعده من جيل التابعين.

إننا لا نعلم في تاريخ الإنسانية موقفاً كهذا، إلا ما سجله التاريخ لجيل الأمانة من صحابة رسول الله ﷺ، ورضى الله عنهم أجمعين.

سعيد بن يزيد

تولى من رمضان عام ٦٢ للهجرة إلى شعبان عام ٦٤ للهجرة

بعد وفاة مسلمة بن مخلد، عين الخليفة يزيد بن معاوية والياً آخر على مصر، هو: سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدي، وجاء سعيد إلى مصر، ودخلها في رمضان عام ٦٢ للهجرة، وكان سعيد صغير السن، رغم قول بعض الرواة بصحبته، واستبعد كثير منهم ذلك، مع أنه روى كثيراً من أحاديث رسول الله ﷺ، منها قوله: عن رجل من الصحابة قال: يا رسول الله أوصني. قال: أوصيك أن تستحيي من الله كما تستحيي رجلاً صالحاً من قومك.

وصل سعيد إلى مصر، وشاهده كبار الناس وفضلاؤهم، فاستصغروه، فقالوا: يغفر الله لأمر المؤمنين، أما كان فينا مائة شاب كلهم مثلك، يولى علينا أحدهم؟، وبالغوا في ازدرائه والبعد عنه.

قال ابن تغري بردي: ولم يزل أهل مصر من الشنآن له والإعراض عنه والتكبر عليه، حتى توفي يزيد بن معاوية^(١)، ودعا عبد الله بن الزبير الناس لبيعته، وقامت أهل مصر بدعوته، وسار منهم جماعة كثيرة إليه، فبعث عبد الله بن الزبير عبد الرحمن بن جحدم أميراً على مصر، واعتزل سعيد، فكانت ولايته سنتين إلا شهراً، وقيل سنتين وأشهر^(٢).

ولو استعرضنا حال مصر خلال السنتين اللتين تولى فيهما سعيد، لوجدنا أن حال البلاد لم يكن في استقرار، وإنما كانت الحروب تحيط بالبلاد شرقاً وغرباً، فمن جهة الشرق خرج عبد الله بن الزبير، وطالت الحروب بينه وبين بني أمية، وفي الغرب خرج كسيلة البربري الذي ارتد بعد إسلامه، وهجم على عساكر المسلمين، وعليهم عقبة بن نافع، واستولى على أمر إفريقية، ولم يستطع سعيد أن يرد هذه الهجمات البربرية على بلاد المغرب.

(١) توفي يزيد في ربيع أول عام ٦٤ للهجرة.

(٢) النجوم الزاهرة ١ / ١٥٨.

مصر في الإسلام

أى : إن الحروب والاضطرابات لم تترك فرصة للوالى سعيد بن يزيد أن يتفرغ لمصر وإصلاحاتها الداخلية وشنونها الدينية، فكل ما أثر عنه حبه للعلم، ورواية حديث رسول الله ﷺ.

غير أن قصر مدته لم يسمح بظهور تصدعات فى السلطة الداخلية، حتى كانت خلافة عبد الله بن الزبير.

عبد الرحمن بن جحدم

تولى من شعبان عام ٦٤ للهجرة إلى رجب عام ٦٥ للهجرة

ظلت الدولة الإسلامية تموج وتفور بالأحداث بعد وفاة يزيد بن معاوية،
والذى يهمنى مصر وما حولها، فقد استولى عبد الله بن الزبير على مكة عام ٦٣
للهجرة، وبعث بأمراء من قبله إلى بعض الأمصار، ومنها مصر، التى بعث إليها
فى شعبان عام ٦٤ للهجرة عبد الرحمن بن إياس بن الحارث بن جحدم الفهرى
القرشى، الذى دعا لابن الزبير خليفة، فتبعه الناس، وأظهر له آخرون الولاء مع ما
يضمرون فى قلوبهم من الحب لبني أمية.

ولم يمكث عبد الرحمن فى مصر إلا شهراً قليلاً، وسمع الناس أن مروان
بن الحكم قد استولى على الخلافة فى الشام، وهو فى طريقه بجيش كبير إلى مصر،
وجهاز عبد الرحمن جيشاً لملاقاة مروان، الذى ما لبث أن وصل إلى مصر، وتقابل
الجيشان، وتحاربا يوماً أو يومين، وقتل أناس كثيرون، ثم تصالح مروان مع عبد
الرحمن على أن يتخلى عن الإمارة، وولى مروان ابنه عبد العزيز إمارة مصر.

وفى أثناء هذه الفتنة توفى الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو، فلم يستطع
المشيكون الخروج بجنازته إلى سفح المقطم حيث المقبرة، فدفنوه فى داره التى
ضممت إلى المسجد العتيق فيما بعد.

وهكذا عانت هذه المنطقة من الدولة الإسلامية قرابة ثلاث سنوات من عدم
الاستقرار، جرّاء الفتن والحروب، حتى تولى مروان بن الحكم، وتبعه ابنه عبد
الملك.

ولابد أن نذكر أن الناس فى سائر البلاد، عدا مصر والمغرب عام ٦٤ - لم
يحجوا، لأن ابن الزبير كان مسيطراً على سبل الحج، ولكن عبد الرحمن بن جحدم
والى مصر من قبل ابن الزبير خرج بمن أراد الحج من المصريين والمغاربة، فحج
بهم فى ذلك العام.

عبد العزيز بن مروان

تولى من رجب عام ٦٥ للهجرة إلى ١٣ جمادى الأولى عام ٨٥ للهجرة هو أبو الأصبع عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية القرشي، عاشرُ أمراء مصر الإسلامية، وخامسُ أمراء بني أمية، وأول أمير من قبل بني مروان، فقد ولاه أبوه مروان بن الحكم مصر، فوصلها في رجب عام ٦٥ للهجرة. وكان مروان قد زحف على مصر في غرة جمادى الأولى عام ٦٥ للهجرة، وبعد صراع مع الزبيريين - كما سبق - استتب الأمر لمروان، وولى ابنه عبد العزيز أمر مصر، ولما توفى مروان في ٢٧ من رمضان عام ٦٥ للهجرة، تولى الخلافة عبد الملك بن مروان، وأقر إمرة أخيه عبد العزيز على مصر.

شخصية عبد العزيز

كان عبد العزيز أقرب أبناء مروان إليه، فقد عاصر الأحداث الأخيرة في الدولة الإسلامية من أول الفتنة، فكان مع مروان^(١) أبيه يوم قتل عثمان، وكان طفلاً صغيراً، ثم خرج معه إلى الشام عندما طردهم ابن الزبير من المدينة، بعد وفاة يزيد عام ٦٣ للهجرة، ودرس عبد العزيز السياسة من ينابيعها وأحداثها، ودرس الدين من مصبه في المدينة، وروى عن أبي هريرة أحاديث عن رسول الله ﷺ، وقد عده ابن سعد - في طبقاته - في الطبقة الثانية من التابعين.^(٢)

وعبد العزيز والد خامس الخلفاء الراشدين (عمر)، الذي تولى الخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الملك عام ٩٩ للهجرة.

قال ابن سعد: لما أراد عبد العزيز الزواج من أم عاصم بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب، قال لقيمه: اجمع لي أربعمئة دينار^(٣) من أطيب مالى، فإنى أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح.^(٤)

(١) مع أن أخاه عبد الملك ولد قبله عام ٢٦ للهجرة، وولد عبد العزيز بعده.

(٢) الطبقات ٥ / ٢٣٦.

(٣) مثل مهور أمهات المؤمنين.

(٤) الطبقات ٥ / ٣٣١.

وكان مروان قد غلب على مصر كما علمنا سنة ٦٥هـ، ثم أقام ابنه عبدالعزيز أميراً عليها للصلاة والخراج، وتهيب عبدالعزيز أن يكون فيها وحده وليس معه أحد من بني أبيه فقال له مروان: يا بُنَيَّ عُمَّهُم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك واجعل وجهك طلقاً تصفُ لك مودتهم وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن لك عيناً على غيره، وينقاد قومه إليك، ثم نصحه بكلمة أخيرة قال: وما عليك يا بُنَيَّ أن تكون أميراً بأقصى الأرض، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك وخمولك في منزلك؟^(١) ثم أمره بتقوى الله في السر والعلانية والاهتمام بالصلاة وإنفاذ الوعود واستشارة القوم وعدم التعجل.

وقد ميز الله عبد العزيز بميزات حببت فيه سكان مصر، سواء من القبط أم من العرب، فقد كان كريماً جواداً سخياً، قيل إنه كانت تتصب له كل يوم حول داره ألف قصعة للأكلين، ثم تحمل مائة قصعة على العجل إلى قبائل مصر.

وكان القبط النصارى يحبونه، فقد سمح لهم ببناء كنائس جديدة في بلاد مصر، خاصة في الإسكندرية والفسطاط وحلوان.

ومن صفاته أنه كان رجاعاً إلى الحق، لا يستكف أن يتقبل النصيحة ممن دونه، ومن ذلك ما روى أن رجلاً دخل عليه في ولايته يشكو إليه صهراً له، فقال: إن خنتي^(٢) ظلمني. فقال له عبد العزيز: من خنتك؟ - بفتح النون - . فقال: الرجل الختان الذي يختن الناس. فقال عبد العزيز لكتابه: ما هذا الجواب؟ فقال أيها الأمير إنك لحننت^(٣)، والرجل يعرف اللحن، وكان ينبغي أن تقول: من خنتك - بالضم -. فقال عبد العزيز: أتراني أتكلم بكلام لا تعرفه العرب؟ والله لا شاهدت الناس حتى أعرف اللحن. فأقام في بيته جمعة لا يظهر، ومعه من يعلمه النحو، فصلى بالناس الجمعة الأخرى، وهو أفصح الناس.^(٤)

وكان عبد العزيز أخاً سمحاً محباً لإخوته وأصلاً لهم، وما دار بينه وبين عبد الملك يدل على ذلك.

(١) خطط المقرئ ٢٠٩/١.

(٢) الختن: زوج البنت.

(٣) أخطأت في اللغة.

(٤) النجوم الزاهرة ١ / ١٧٥.

فقد عهد مروان بالخلافة لابنه عبد الملك ثم عبد العزيز، ولما تولى عبد الملك حاكمت في عينه فجعلها لابنيه سليمان والوليد من بعده، وخلع منها عبد العزيز، فبعث إليه في مصر أن يتنازل عن الخلافة لابنه، فرفض عبد العزيز مرتين، وفي الثالثة كتب عبد الملك إليه أن يحمل خراج مصر إليه، وكان عبد العزيز مستقلاً يملك مصر بجميع خراجها وشئونها المالية، ويديرها بحكومة منفصلة عن دمشق، أشبه شيء بالحكم الذاتي في عصرنا، وكما كانت حال عمرو ابن العاص في فترة حكمه الثانية لمصر، ولذلك غضب غضباً شديداً عندما أمره عبد الملك أن يبعث إليه بالخراج، أي: إنه اعتبره أميراً تحت وصايته، ومن قبله.

وقد أورد ابن تغري بردي رده الأخير على الخليفة، قال: فكتب إليه عبد العزيز: إني وإياك قد بلغنا سناً لم يبلغها أحد من أهلنا، وإننا لا ندرى أينما يأتيه الموت أولاً^(١)، فإن رأيت ألا تُغثَّ^(٢) على بقية عمري، ولا يأتيني الموت إلا وأنت واصل فافعل. فرق له عبد الملك، وقال: لا أغثَّ عليه بقية عمره، وقال لابنيه (سليمان والوليد)^(٣): إن يريد الله أن يعطيكمها، لم يقدر أحد من الخلق على ردها عنكما، ثم قال لهما: هل قارفتما حراماً قط؟ قالوا: لا والله. قال عبد الملك: نلتماها ورب الكعبة.^(٤)

وعاش عبد العزيز والياً على مصر، حتى توفي قبل أخيه بسنة وبضعة أشهر، فتولى ابنه أخيه عبد الملك الخلافة بعد ذلك دون منازع.

وقد سكن عبد العزيز خلال ولايته الفسطاط، واختط بها داراً عظيمة للإمارة عام ٦٧ للهجرة، وسماها دار الذهب، وجعل لها قبة مذهب.

قال القلقشندي: ... ونزلها بنوه من بعده، فلما هرب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية إلى مصر نزل هذه الدار، فلما رقهه القوم^(٥)، أمر بإحراقها، فلامه

(١) توفي عبد العزيز في جمادى الأولى عام ٨٥ للهجرة، وتوفي عبد الملك في شوال عام ٨٦ للهجرة.

(٢) تفسد.

(٣) تولى الوليد الخلافة في شوال عام ٨٦ للهجرة، وتولى سليمان في جمادى الآخرة عام ٩٦ للهجرة.

(٤) النجوم الزاهرة ١ / ١٧٤.

(٥) القوم هم: بنو العباس، وذلك عام ١٣٢ للهجرة.

في ذلك بعض بنى عبد العزيز، فقال: إن أبق أثبها، لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وإلا فما تصاب به في نفسك أعظم، ولا يتمتع بها عدوك من بعدك.^(١)

وعود إلى عبد العزيز الذي نزل الفسطاط، حتى إذا كان عام ٧٠ للهجرة، وقع طاعون كاسح في مصر، فرحل جنوباً حتى وصل إلى أرض فضاء جنوبى الفسطاط على نهر النيل، فاشتراها من القبط بعشرة آلاف دينار، وسماها حلوان، وبنى فيها الدور والقصور والمساجد، وزرع البساتين والكروم والأشجار والنخل، ولهوائها الجميل ومياهها المعدنية لم يفكر في العودة إلى الفسطاط، إلا للصلاة في الجامع الكبير^(٢) في الجمعة والأعياد، ولم ينس عبد العزيز القبط في حلوان، فبنى لمن سكن معه منهم كنيسة.

يقول بتلر: فلما جاء البطريق إسحق قيل: إن حاكم مصر نفسه عبد العزيز ابن مروان أمر أن تبنى كنيسة في مدينته الجديدة حلوان.^(٣)

وفي حلوان ضربت الدنانير الإسلامية، وبُنِيَ كذلك مقياس للنيل، وفي عام ٦٩ للهجرة أمر عبد العزيز ببناء قنطرة الخليج الكبير في طرف الفسطاط بالحمراء القصوى قرب السيدة زينب.

قال ابن قيس الرقيات معظماً لحلوان:

سُقياً لحلوان ذى الكروم وما صُنِفَ من تينه ومن عنبه^(٤)

وعاش عبد العزيز في حلوان يدير ولايته حتى توفي في ١٣ جمادى الأولى عام ٨٥ للهجرة، بعد موت ابنه الأصبع بستة عشر يوماً بطاعون جاء إلى مصر، وحمل ليصلى عليه في المسجد الكبير في الفسطاط، ويدفن مع سابقيه في سفح المقطم.

قال المسعودي: كان يقول عند موته: ياليتنى لم أكن شيئاً، ياليتنى كهذا الماء الجارى.. هاتوا كفى - ثم يخاطب الدنيا: أف لك، ما أقصر طولك وأقل كثيرك!!^(٥)

(١) صبح الأعشى ٢ / ٣٣١.

(٢) لم ينس عبد العزيز جامع عمرو، إنما زاد فيه، ووسعه، وأدخل فيه الرحبة.

(٣) فتح العرب ٣٩٠.

(٤) معجم البلدان ٢ / ٢٩٤.

(٥) مروج الذهب ٤ / ٢٥٠.

سك العملة الإسلامية

ولعبد العزيز بن مروان الفضل الأول في أسلمة النقود، وذلك أن عبد الملك كتب لملك الروم^(١) عام ٧٦ للهجرة كتاباً جاء فيه ذكر (قل هو الله أحد) وذكر النبي ﷺ مع التاريخ، فضاق الملك الرومي بذلك، وتوعد المسلمين قاتلاً: إنكم أحدثتم كذا وكذا فاتركوه، وإلا أتاكم في دنائيرنا من ذكر نبيكم ما تكرهون.

فعظم ذلك علي عبد الملك، واستشار أخاه عبد العزيز وخالد بن يزيد بن معاوية^(٢)، فكان رداً واحداً: حرم دنائيرهم واضرب للناس سكة جديدة فيها ذكر الله.

وصادف هذا الكلام هوى في نفس عبد الملك، وفسخ المعاهدة بينه وبين البيزنطيين، وقرر هو سك نقود إسلامية، وخاصة أنه - كما قال ابن تغري بردي - وجد دراهم ودنائير تاريخها قبل الإسلام بثلاثمائة سنة أو أربعمائة مكتوب عليها: بسم الأب والابن وروح القدس.^(٣)

وضرب أول دينار إسلامي في دمشق، ثم أمر الخليفة أخاه عبد العزيز أن تكون القسطنطينية في مصر هي المركز الثاني لضرب النقود الإسلامية، وقد سبق في فصل النظام الإداري والمالي في مصر الإسلامية إفاضة في موضوع أسلمة النقود.

وقبل أن نترك عبد العزيز بن مروان، نذكر عملاً قام به، لم يعمل به غيره، وهو أنه أول من عرّف في مصر، أي أقام وقفة عرفات في مصر، كما تقام في الحج، وذلك عام ٧١ للهجرة، وولاة أمر المسلمين اثنان: عبد الملك بن مروان على مصر والشام والمغرب وما حولها، والثاني عبد الله بن الزبير على مكة والمدينة والعراق، وكان عبد الله ينتهز فرصة الحجيج، فيخطب فيهم مسيئاً لبنى أمية، وحاضاً على الخروج عليهم، فما كان من عبد الملك إلا أن بنى مسجد الصخرة

(١) الإمبراطور جستنيان الثاني.

(٢) خالد أول من نقل صناعة الكيمياء إلى العرب، وخاصة في مدرسة الإسكندرية.

(٣) النجوم الزاهرة ١ / ١٩٣.

_____ مصر في الإسلام _____

والمسجد الأقصى، وأقام ما يشبه الحج في القدس، وأمر أخاه عبد العزيز بعمل ذلك في ٩ من ذي الحجة عام ٧١ للهجرة، فيقف الناس، ويصلون، ويذبحون أضحياتهم كأنهم في مكة.

والحق أن ذلك من بدع السياسة، ونتائج الصراع على السلطة - وهو لا يجوز في شرع الله، بل هو حدث من الأحداث المنكرة في دين الله، لأنه نوع من التزييف الذي يفسد به الحكام عقائد الرعية، ويشوهون حقائق الدين، وما نعلم حاكماً - في تاريخ الإسلام - لجأ إلى مثل هذا الأسلوب المجترئ على الدين، مهما تكن الظروف التي تواجهه، وغاية ما بلغه بعض الحكام في هذا المجال أن يلجأوا إلى تعطيل الفريضة، بإخافة الطريق، أو منع الناس من السفر.

عبد الله بن عبد الملك

تولى من ١١ جمادى الآخرة عام ٨٥ للهجرة إلى صفر عام ٨٩ للهجرة

هو ابن الخليفة عبد الملك بن مروان، تولى مصر بعد وفاة عمه عبد العزيز، ولد في عام ٥٨ للهجرة، ومع صغر سنه^(١) كان محباً للجهاد والغزو، ولذلك كان عبد الملك يندبه للغزوات في بلاد الروم، وعندما جاءه نعى عبد العزيز أسرع في طلب ابنه عبد الله، الذي كان في صراع مع الروم بعد أن فتح مدينة (المصيصة)، وهي مدينة على حدود بلاد الشام، ومن ثغورها، بين أنطاكية وبلاد الروم قرب طرسوس، وجاء عبد الله وسار إلى مصر ودخلها في ١١ من جمادى الآخرة عام ٨٥ للهجرة.

وكانت الوصية الأولى من عبد الملك لابنه أن يعفى على آثار عبد العزيز، فاستجاب عبد الله، وغير جميع عمال عمه، وجاء بعمال جدد، ثم اهتم بالبناء، فأقام عدة أبنية، منها مسجد جامع كبير عرف باسم مسجد عبد الله.

وتوفي عبد الملك بعد تولية عبد الله بسنة وشهر، وتولى الوليد الخلافة، فأبقى لأخيه ولاية مصر لفترة قصيرة، ثم عزله.

قال الشافعي: كان عبد الملك عند وفاته وصى الوليد بثلاثة نفر، قال له: على بن عبد الله^(٢) -العباسي- في نسبه وقرابته وانقطاعه إلينا: أكرمهم واعرف حقهم، وأخوك عبد الله أقره على مصر ولا تعزله عنها، وعمك محمد بن مروان أقره على الجزيرة واعرف له موضعه.

فأول ما بدأ بأخيه، عزله عن مصر بقرة بن شريك، وعزل عمه عن الجزيرة، وضرب علياً بالسوط مرتين.^(٣)

(١) قال ابن تغري بردي: كانت سنه عند توليه إمارة مصر - سبعا وعشرين سنة.

(٢) جد الخلفيتين العباسيين: أبو العباس السفاح، وأبو جعفر المنصور.

(٣) الديارات ٢١٦.

_____ مصر في الإسلام _____

وتذكر بعض المراجع أن عبد الله كان جائراً ظالماً، يأخذ الرشوة، ويبترز الخراج، ولذلك عزله أخوه الوليد في أول سنة ٩٠ للهجرة، ولم يتركه ينعم بما أخذه من خيرات مصر وهداياها، وتحفها، وإنما بعث له وهو في طريقه إلى دمشق من أحاط به في الأردن، وأخذ كل ما كان معه، وكانت ولاية عبد الله ثلاث سنوات وعدة أشهر.

والذي يهمنا في شخصية عبد الله وترجمته، هو العمل الجليل الذي قام به في أثناء ولايته لمصر، وهو تعريب الدواوين.

قال جورجى زيدان: في عام ٨٦ للهجرة، جعلت الكتابة في دواوين مصر باللغة العربية، وكانت لا تزال بالقبطية، يتولى أمرها (أنتش)، فعزله عبد الله بن عبد الملك، وولى مكانه ابن يربوع الفزارى، من أهل حمص.^(١)

هذه الخطوة ما كانت لتتم لولا أن الإسلام كان قد انتشر في مصر، واعتنقه أغلبية تكفى لفرض التعامل باللغة العربية، على مختلف المستويات.

(١) تاريخ مصر الحديث ١٢٠.

قرة بن شريك

تولى من أول ربيع أول عام ٩٠ للهجرة إلى ربيع آخر عام ٩٦ للهجرة

جاء إلى مصر بعد عزل عبد الله بن عبد الملك الأمير قرة بن شريك بن مرثد بن الحارث بن قيس بن عيلان العبسي، قال عنه صاحب الأعلام: العبسي الغطفاني المصري القنسريني.

اشتهر بالظلم والخبث، وقيل: كان فاسقاً صُلْباً جباراً، اتفقت الخوارج على قتله عند زيارة الإسكندرية، وعلم بالمؤامرة، فقبض عليهم، وقتلهم.

كان عمر بن عبدالعزيز يعيب على الوليد توليته كلاً من قرة بن شريك والحجاج بن يوسف لإشاعة ظلمهما، ويشاء الله - كما تقول الروايات - أن يموت الاثنان في وقت واحد، قرة في مصر، والحجاج في العراق، وذلك في ربيع أول عام ٩٦ للهجرة.

والذي يهمنا في فترة تولية قرة بن شريك لمصر اهتمامه الكبير بجامع عمرو بن العاص، ففي عام ٩٠ للهجرة، هدم المسجد، وبناء من جديد، وزاد في بنائه، وأدخل فيه الطريق الشرقي، وبيت عمرو بن العاص، وبنى منبراً جديداً، وجعل للجامع أحد عشر باباً، كما أنه بنى مساجد أخرى.

يقول السيوطي: بنى بفسطاط مصر المسجد الذي في حصن الروم، ويعرف باسم العيلة.^(١)

وكان الوليد بن عبد الملك هو الذي أمر بتلك التعديلات والتوسعات، حيث عني بكل مساجد العالم الإسلامي، وأمر ولاته بالعناية بها، وتوسعتها، وخاصة في العواصم الكبيرة مثل الفسطاط والبصرة والكوفة، واهتم هو بما في الشام وفلسطين، فبنى المسجد الأموي في دمشق، ومسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى في بيت المقدس.

(١) حسن المحاضرة ١٤٣.

مصر في الإسلام

ومن أعمال قرّة بن شريك الجليّة التي تحسب له في مصر اهتمامه ببركة الحبش، التي تقع شمالي الفسطاط، فبعد أن كانت بركة، وحولها أرض موات، أحياها، وغرس فيها القصب، فصارت منتزهاً، واستفاد منها.

وقرّة بن شريك هو الذي سُجل في عهده الديوان الثالث، والديوان هو الدفاتر التي يسجل فيها أسماء أفراد الجيش والقبط ودافعى الزكاة والجزية والخراج ومستحقى العطاء.

وكان الديوان الأول في عهد عمرو بن العاص، والثاني في عهد عبد العزيز ابن مروان، والثالث في عهد قرّة بن شريك.

عبد الملك بن رفاعة

تولى من ربيع آخر عام ٩٦ للهجرة إلى ربيع أول عام ٩٩ للهجرة

تولى إمارة مصر بعد وفاة قرة بن شريك عبد الملك بن رفاعة بن خالد الفهمي، وكان من عام ٩١ للهجرة متولياً الشرطة في مصر، وقد اشتهر عبد الملك بالعدل بين الرعية، وبالأمانة والعفة.

قال عنه الليث بن سعد: كان عبد الملك يقول: إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطاق - يقصد النافذة.

وذكر عنه ابن إياس مزيداً من الاهتمام بشئون الرعية في مصر، قال: لما تولى مصر نظر في مصالح قرى مصر، وخرج بنفسه وطاف البلاد (قبلى وبحرى)، فأحصى من القرى نحو عشرة آلاف قرية، في كل قرية خمسمائة من الرجال الأقباط الذين تفرض عليهم الجزية فكانت مدة غيبته في هذه السرحة ستة أشهر حتى رجع إلى القسطنطينية^(١). ولا شك في ضعف هذا الخبر لما فيه من المبالغة في الأرقام إلى حد غير معقول ولا مقبول، وكل ما يستفاد منه هو اهتمامه بشئون البلاد، باعتباره رجل شرطة.

لقد تولى عبد الملك ولاية مصر مرتين، الأولى في أواخر عهد الوليد بن عبد الملك، الذي ما لبث أن توفي في ١٥ من جمادى الآخرة عام ٩٦ للهجرة.

ولما استخلف سليمان بن عبد الملك أبقى عبد الملك والياً على مصر، ثم تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، فعزل عبد الملك، وتولى بعده أيوب بن شرحبيل.

والولاية الثانية لعبد الملك كانت في محرم عام ١٠٩ للهجرة، ولكنه لم يبق فيها إلا خمسة عشر يوماً، وتوفي، ودفن في المقطم.

(١) بدائع الزهور ١/١٢٦.

أيوب بن شرحبيل

تولى من ربيع أول عام ٩٩ للهجرة إلى ١٧ من رمضان عام ١٠١ للهجرة

في صفر من آخر سنة من القرن الأول الهجري، تولى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز بن مروان خلافة المسلمين في دمشق.

وكان أول عمل قام به هو تغيير ولاية الأمصار، فعزل عبد الملك بن رفاعه وولى أيوب بن شرحبيل^(١) بن أبرهة الأصبحي من بني الصبّاح.

وجاء إلى مصر في ربيع أول عام ٩٩ للهجرة، وعندما وصل إليها، بدأ في تنفيذ أوامر الخليفة.

أولها : إغلاق الحانات وأماكن بيع الخمر، وتكسير القدور، وعدم السماح ببيعها أو الإتجار فيها، ثم قام بعمل إداري مهم هو إبعاد القبط عن إدارة الكور والدواوين والمواريث، وأحلّ رجالاً مسلمين محلهم، وقد حاول أيوب التعاطف مع المصريين، والعناية بشئونهم، حتى حسنت أحوال سكان مصر في أيامه التي لم تدم طويلاً، ولم تزد عن سنتين ونصف السنة.

فقد توفي عمر بن عبد العزيز في رجب عام ١٠١ للهجرة، وجاء يزيد بن عبد الملك، فأقر أيوب بن شرحبيل على مصر، ولكن القدر لم يمهلّه، فتوفي في رمضان عام ١٠١ للهجرة، بعد عمر بن عبد العزيز بشهرين، رضى الله عن الجميع.

وهكذا نختّم ترجمة أمراء مصر المسلمين من قبل الخلفاء الراشدين في المدينة، ومن قبل خلفاء بني أمية في دمشق الشام، وذلك منذ فتحها عام ٢٠ للهجرة على يد عمرو بن العاص حتى نهاية القرن الأول الهجري.

(١) جده أبرهة بن شرحبيل، أحد الصحابة الذين فتحوا مصر مع عمرو بن العاص، وكان ممن اختط في الجيزة، وعاش فيها.

الفصل الرابع عشر

الصحابة الفاتحون



فتح عمرو بن العاص مصر عام ٢٠ للهجرة، ودخل معه أربعة آلاف محارب من قبائل شتى، أكثرهم من قبائل عك وجذام ولخم وبلى اليمنية، مع عدد من قريش وأسد والأوس والخزرج.

على أنه يهمننا هنا من دخل مصر من صحابة رسول الله ﷺ ضمن هذا الجيش الفاتح، أو في المدد الذي أرسله الخليفة عمر بعد ذلك، ومن هؤلاء الصحابة من سكن مصر بعد أن استقر فيها الإسلام، ومنهم من تركها إلى بلاد إسلامية أخرى مفتوحة في الشام والعراق والمغرب.

وهناك صحابة جاءوا إلى مصر بعد الفتح، إما للمشاركة في فتح المغرب، أو لسبب سياسي، أو لاستشارة واحد من الصحابة في مصر في حديث أو غيره.

وقد اختلف المؤرخون في عدد من دخل مصر من الصحابة في جيشي الفتح. فهذا ابن ربيع الجيزي يعدهم مائة ونيفاً وأربعين رجلاً.

أما جلال الدين السيوطي في كتابه (حسن المحاضرة) فقد عددهم ثلثمائة وخمسة وثلاثين صحابياً، وسمى هذا الكتاب الذي ضمنه حسن المحاضرة: (در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة)، وقال في مقدمته:.. وبعد، فقد ألف الإمام محمد بن ربيع الجيزي الذي والده صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنه كتاباً فيمن دخل مصر من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين في مجلد، فأورد مائة ونيفاً وأربعين رجلاً، وأورد في أحاديثهم، وما رواه أهل مصر، وقد فاتته جماعة لم يذكرهم، ذكر بعضهم ابن عبد الحكم في (فتوح مصر)، وبعضهم ابن يونس في (تاريخ مصر)، وبعضهم ابن سعد في (طبقاته)، وقد أردت أن ألخص كتاب محمد بن ربيع الجيزي، وأضم إليه ما فاتته.. وأرتبه على حروف المعجم، وأزيد التراجم، فأذكر الاسم والكنية واللقب، واسم الأب والجد والنسب والسن والوفاء، وما تفرد الصحابي بروايته، وسميته (در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة).^(١)

وقد أحصينا من كتاب الإمام السيوطي أسماء من سكنوا مصر، واختطوا بها، فوجدناهم قرابة الخمسين.

(١) حسن المحاضرة ٧٨.

أما الصحابة الفاتحون الذين عاشوا في مصر فترة، ثم توفوا فيها، أو استشهدوا في معارك فتحها، فقد وجدناهم زادوا على الثلاثين.

أما الصحابة الذين جاءوا لمصر بعد الفتح لعمل سريع، مثل رواية ومراجعة حديث، أو إحضار رسالة للوالي، أو جاءوا للاشتراك في فتوحات المغرب والنوبة، ولا معبر لهم إلا مصر - فكانوا أكثر، عدداً منهم حوالي الثلاثين.

وسنورد الآن أسماء الصحابة الذين دخلوا مصر فاتحين، سواء في جيش عمرو بن العاص الأول، أو في المدد مع الزبير بن العوام، أي: من دخل مصر مقاتلاً مجاهداً، وسنرتبهم ترتيباً هجائياً، كما فعل السيوطي، مع الرجوع إلى بقية المؤرخين حتى نستطيع استيفاء أكبر قدر من المعلومات عن هؤلاء الصحابة الفاتحين، مع الاختصار بقدر الإمكان، ثم استعراض دور هؤلاء الصحابة في نشر الدعوة الإسلامية، ورواية الحديث الشريف، وتعليم المصريين الذين دخلوا في الدين الجديد مع الإشارة إلى أهم ملامح شخصياتهم وبصماتهم التي تركوها على صفحات تاريخ الفتح الإسلامي لمصر وإفريقية.

فمثلاً وجدنا أن أكثر من ثمانين صحابياً فاتحاً قد نقلوا حديث رسول الله ﷺ، ورووه إلى أهل مصر وإفريقية، وأن من بين من شهد مع رسول الله ﷺ بدرأ وما بعدها أكثر من عشرة، وممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة بيعة الرضوان من بلى وحدها - كما قال السيوطي - مائة رجل، والمقل يقول: إنهم سبعون.

كما وجدنا أن أكثر من سبعين صحابياً اشتركوا في بناء المسجد الجامع في القسطة، وهكذا.

ولسوف نعرض سير هؤلاء - فيما يلي موجزة بقدر الإمكان كما وعدنا، وبقدر ما تسعنا المعلومات المتاحة، وقد استصفينا من بين الركام الكثير تراجم مائة وتسعين من هؤلاء الصحابة، تحقنا من مشاركتهم في أحداث الفتح الإسلامي، ونرجو ألا يمل القارئ متابعة سيرهم، فهم جميعاً يستحقون منا العرفان والشكر باعتبارهم مجاهدين بأموالهم وأنفسهم، وباعتبارهم ممثلين لكل المجاهدين المجهولين الذي اختفى ذكرهم في الأرض، وسجلت أمجادهم ملائكة السماء..

وباعتبارهم أولاً وأخيراً أصحاب الفضل الذين حملوا إلينا عقيدة الإسلام، وأدوا إلينا أمانته، فإليهم يرجع الفضل في إسلامنا، إلى آخر الزمان، ولهم من الله أجر الدعاة المجاهدين، وأجر من اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين. وحسبنا أن نذكر هنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة".

وإلى القارئ تراجم هؤلاء الصحابة الأبطال (مرتين هجائياً) :

(١) أبرهة بن شرحبيل بن أبرهة بن الصباح الحميري: وفد على رسول الله ﷺ مبايعاً، ففرش له رسول الله ﷺ رداءه، وروى عن رسول الله ﷺ أحاديث.

بعد نهاية الفتح، وبناء القسطنطينية، بعثه عمرو ليكون مرابطاً في الفرما، ومعه سرية من المسلمين.

قال ابن الأثير: وبعث عمرو إلى الفرما أبرهة بن الصباح، فنزل بها، وبعث عوف بن مالك إلى الإسكندرية، فنزل بها.^(١)

وأبرهة ممن اختطوا بالجيزة، وعاش فيها بعد ذلك.

(٢) أبيض بن حمال بن مربد (أو مرثد) بن ذى لحيان المازني السبئي اليماني: كان اسمه أسود، فسماه رسول الله ﷺ أبيض، كان بوجهه قوباء^(٢)، أتلقت وجهه وأنفه، ودعاه النبي ﷺ، فمسح على وجهه، فلم يُمس ذلك اليوم، وفي وجهه أثر.

جاء إلى النبي ﷺ في المدينة، وأعلن إسلامه مع وفده، وأراد أن يحتكر الملح في بلده.

قال ابن حبان: استقطع أبيض بن حمال النبي ﷺ - لما وفد عليه - الملح الذي بمأرب، فأقطعه إياه، فلما ولي، قال رجل: أتدري ما أقطعت له؟ إنما أقطعت له الماء العِدَّ^(٣). فانتزع منه.

(١) أسد الغابة ١ / ٥٦.

(٢) مرض جلدي يتقشر منه الجلد وينجرد من الشعر. (المعجم الوسيط)

(٣) العد: الدائم الغير المنقطع.

وهذا تطبيق للمبدأ القائل (الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلا والنار)، وقد كان رسول الله ﷺ قد أقطعه الملح، وهو بضاعة تستخرج وتحمل، وتباع وتشترى، فأما حين ظهر أن المكان ماء دائم، لا ينقطع، فقد خرج عن أن يكون بضاعة للتجارة، وصار حقاً للجميع على الشيوع.

وكان أبيض قد تناقش مع رسول الله ﷺ في الزكاة المفروضة على المسلم. قال أبو داود: كلم رسول الله ﷺ أبيض في الصدقة حين وفد عليه، قال: يا أبا سبأ، لا بد من صدقة. فقال: إنما زرنا القطن يا رسول الله، وقد تبددت^(١) سبأ، ولم يبق منهم إلا قليل بمأرب.

فصالح نبي الله ﷺ على سبعين حلة من بز المعافر، كل سنة عمن بقى من سبأ بمأرب، فلم يزالوا يؤدونها حتى قبض رسول الله ﷺ، وإن العمال انتقضوا عليهم بعد قبض النبي ﷺ فيما صالح أبيض بن حمال في الحل السبعين، فرد ذلك أبو بكر على ما وضعه ﷺ، حتى مات أبو بكر، فلما مات، انتقض ذلك، وصارت على الصدقة^(٢).

(٣) أبيض بن هني بن معاوية أبو هبيرة: قال ابن حجر: أدرك النبي ﷺ، وشهد فتح مصر^(٣).

(٤) أبي بن عمار: قال ابن حجر: بالكسر، مدني سكن مصر، له صحبة، وهو أحد من صلى إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ، روى حديثاً عن رسول الله ﷺ، أنه عليه السلام صلى في بيته، ثم سأله أبي عن مسح الخفين، قال: قلت يا رسول الله أمسح على الخفين؟ قال: نعم. قلت: يومان؟ قال: نعم. قلت: وثلاثة يا رسول الله؟ قال: نعم، وما بدا لك^(٤).

وقد حدد رسول الله ﷺ مدة المسح على الخفين بعد ذلك، وجعلها يوماً ونصف يوم للمقيم، وثلاثة أيام للمسافر.

(١) تبددت سبأ بعد انهيار سد مأرب في عام ١٥٠ قبل الميلاد.

(٢) سنن أبي داود ٣ / ١٦٥. وكنز العمال ١٣ / ٢٦٨.

(٣) تهذيب التهذيب ١ / ٤٨.

(٤) فتوح مصر ٣١٠.

(٥) أحمد بن عجيان، بالجيم، قاله السيوطي عن ابن يونس، وقال ابن حجر: أجمدُ بن عجيان الهمداني، بايع النبي ﷺ، وشهد فتح مصر، وأحد من اختطوا، وسكنوا الجيزة، وخطته معروفة بجيزة مصر. (١)

(٦) أحمد بن قطن الهمداني: قال ابن حجر: شيخ شهد فتح مصر، وكان سيداً فيهم. (٢)

(٧) أسعد بن عطية القضاعي البلوي: قال ابن حجر: ذكره ابن يونس، وقال: بايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر.

(٨) الأكر بن حُمام بن عامر بن صعيب بن هذيل اللخمي: أدرك رسول الله ﷺ، وجاء مع جيش عمرو، وبعد الفتح عاش في مصر، حتى كانت الفتنة، فكان مع علي، وقتل عام ٦٥ للهجرة.

ذكر ابن حجر قصة مقتله عن الكندي، قال: كان أكر علويًا، وكان ذا فضل، وفقه في الدين.. وكان معاوية يتألف قومه به، فيكرمه، ويدفع إليه عطاءه، ويرفع مجلسه.

فلما حاصر مروان بن الحكم - أهل مصر، أطلب عليه الأكر بقومه، وحاربه بكل أمر يكرهه، فألب عليه قوماً من أهل الشام، فادعوا عليه قتل رجل منهم، فدعاه، فأقاموا عليه الشهادة، فأمر بقتله، وقتله.. وتنادى الجند: قتل الأكيدر. فلم يبق أحد إلا لبس سلاحه، وحضروا باب مروان، وهم زيادة على الثمانين ألف إنسان، فأغلق مروان بابه خوفاً. فمضوا إلى كريب بن أبرهة^(٣)، فأعلموه الخبر، فوجدوه في جنازة زوجته بسياسة بنت عبد كلال، فلما فرغ، جاء صحبتهم إلى مروان، فدخل عليه، فقال له مروان: إلى يا أبا رشيد. فقال: بل إلى يا أمير المؤمنين. فقام إليه، فألقى عليه رداءه، وقال: أنا جاركُ له. فأنصرف الجيش عنه، وذهب دم الأكر هدرًا. (٤)

(١) الإصابة ١ / ٣١.

(٢) الإصابة ١ / ٣٣.

(٣) صحابي حضر فتح مصر.

(٤) الإصابة ١ / ٢١٣.

مصر في الإسلام

وروى عن الأكر أنه قال: جلسنا يوماً في المسجد، فقلنا لفتى منا: اذهب إلى رسول الله ﷺ، فسله ما يعدل رتبة الجهاد؟؟. فأتاه، فسأله، فقال: لا شيء. (١)

(٩) امرؤ القيس أبو شرحبيل بن الفاجر بن الطماخ (وقيل الطماخ) الخولاني: قال ابن منده: شهد فتح مصر، وله ذكر في الصحابة. (٢)

(١٠) أوس بن عمرو بن عبد القاري: بعد أن شارك في فتح مصر، عاش فيها، قال القضاعي في الخطط: له صحبة.

(١١) إياس بن أبي البكير بن عبد يالليل بن ثابت الليثي: من كنانة، من السابقين إلى الإسلام، فقد أسلم ورسول الله ﷺ في دار الأرقم، وهاجر إلى المدينة وإخوانه الثلاثة: عاقل (٣) وخالد (٤) وعامر (٥).

قال ابن سعد: خرج عاقل وخالد وعامر وإياس بنو أبي البكير من مكة إلى المدينة للهجرة.. فلم يبق في دورهم أحد، حتى غلقت أبوابهم. (٦)

شهد إياس مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وفي فتح مصر كان ضمن الجيش الذي جاءها، وكان من أهل الراية الذين اختطوا لهم بيوتاً في القسطنطينية.

روى حديث رسول الله ﷺ على منبر جامع عمرو، حتى توفي عام ٣٤ للهجرة.

وإياس زوج الصحابية الجليلة الربيع بنت معوذ قاتل أبي جهل في بدر.. روى كثيراً عن رسول الله ﷺ، وخاصة في وصف وضوئه ﷺ.

(١٢) إياس بن عبد الأسد القاري: حليف بني زهرة، عاش في مصر بعد أن شارك في فتحها، واختط بها.

(١) الإصابة ٢١٣/١.

(٢) السابق ١ / ١٥٨.

(٣) استشهد عاقل يوم بدر في رمضان عام ٢ للهجرة.

(٤) استشهد خالد يوم الرجيع عام ٤ للهجرة.

(٥) استشهد عامر باليمامة عام ١٢ للهجرة.

(٦) الطبقات ٣ / ٣٨٨.

(١٣) بخر بن أمية بن محمد الرعيني: وقيل: ابن ضُبُع، قال ابن الأثير: شهد فتح مصر، واختط بها، وخطته معروفة واسمها: رُعَيْن.

عاش في مصر، وتولى أحد أحفاده مراكب دمياط في عهد عمر بن عبدالعزيز، قاله ابن عبد الحكم، ومعنى ولايته مراكب دمياط: الإشراف على الميناء والصيد في دمياط.

ولبخر حفيد آخر كان شاعراً، افتخر بجده قائلاً:

وجدى الذى عا طى الرسول يمينه وجئت إليه من بعيد رواحله (١)

(١٤) برح بن عسكر، وقيل (عسكل)، وقيل (حسكل) بن وتار القضاعي: عاش في مصر بعد الفتح، ذكر ابن عبد الحكم قصة تبين مدى النظام الذى كان متبعاً في ذلك الوقت المبكر بعد الفتح، والدقة التى كانت في الديوان الإسلامى، قال:.. فأعطى مسلمة بن مخلد أهل الديوان أعطياتهم وأعطيات عيالاتهم وأرزاقهم ونوائبهم ونوائب البلاد من الجسور، وأرزاق الكتبة وخمائن القمح إلى الحجاز، وبعث إلى معاوية بستمائة ألف دينار فضلاً، فلقبهم برح بن حسكل فقال: ما هذا؟ ما بال مالنا يُخرج من بلادنا؟ ردوه. فردّ، فوقف في المسجد، فقال: أخذتم عطاءكم وأرزاقكم وعطاء عيالاتكم ونوائبكم؟ قالوا: نعم.. (٢) فأطلق القافلة إلى الشام.

وهو خبر يدلنا على اهتمام الفرد في المجتمع الإسلامى بهمّ الجماعة من ناحية، كما يدل من ناحية أخرى على أن ما كان يرسله الولاة إلى العاصمة كان دائماً فائضاً عن حاجات الناس، وبعد أن يقرر الجميع أنهم حصلوا على ما يكفيهم، ولا مطلب لهم في زيادة.

(١٥) برتا بن الأسود بن عبد شمس القضاعي: استشهد في فتح الإسكندرية.

قال ابن إياس: برتا بن الأسود صحابي استشهد في الإسكندرية. (٣)

(١) الإصابة ١ / ٢٧١.

(٢) فتوح مصر ١٠٢.

(٣) بدائع الزهور ١ / ١٠٠.

(١٦) بسر بن أبي أرطأة العامري القرشي: بعد فتح مصر اختط بها وعاش فيها، حتى كانت بواخر الفتنة، فأنحاز للخليفة عثمان، ثم كان مع معاوية، وعندما استتب الأمر له، ولي بسراً الحجاز واليمن.

كان بسر شجاعاً، فكان إذا ركب البحر قال: أنت بحر وأنا بسر، علىّ وعليك الطاعة لله، سيروا على بركة الله. (١)

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها ما ذكره أبو داود، قال: كان بسر في البحر، فأتى بسارق، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تقطع الأيدي في السفر. وحديث آخر رواه ابن حبان، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها. (٢)

عاش بسر حتى خلافة عبد الملك بن مروان، قال ابن سعد: كان بسر عثمانياً، وصحب معاوية، وبقي إلى خلافة عبد الملك بن مروان. (٣)

(١٧) بشير بن جابر بن عراب العبسي: قال ابن حجر: وفد على النبي ﷺ، وشهد فتح مصر، ولا تعرف له رواية. (٤)

(١٨) بصرة بن أبي بصرة الغفاري: قال عنه الذهبي: هو وأبوه صحابيان نزلا مصر، روى عن رسول الله ﷺ قوله: لا تُعْمَلُ الْمَطْبِيُّ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المسجد الحرام ومسجدى ومسجد بيت المقدس. (٥)

(١٩) بلال بن حارث بن عاصم بن سعيد بن المزني: أقطعه النبي ﷺ جزءاً من العقيق، وهو ضاحية من ضواحي المدينة الآن، وكان صاحب لواء مزينة يوم فتح مكة، عاش في مكة بعد أن شارك في فتح مصر، وتوفي عام ٦٢ للهجرة.

قال ابن إياس: اسمه بلال بن الحارث بن عقبة بن سعد بن قرة.. عاش ثمانين عاماً، وتوفي عام ٦٠ للهجرة.

(١) الإصابة ١ / ٣١٠.

(٢) السابق.

(٣) الطبقات ٧ / ٤٠٩. وكانت خلافة عبد الملك من عام ٦٥ إلى عام ٨٦ للهجرة.

(٤) الإصابة ١ / ٢٨٩.

(٥) أسد الغابة ١ / ٢٣٧. والمقصود: لا تشد للرحال - كما في رواية أخرى.

مصر في الإسلام

(٢٠) تميم بن أوس بن حارثة الداري: من قبيلة لخم على حدود الشام، كان نصرانياً من فلسطين، أسلم عام ٩ للهجرة، كان من مشاهير الصحابة، روى لرسول الله ﷺ قصة الجساسة^(١) للدجال، غزا مع رسول الله ﷺ في تبوك، وهو أول من أسرج السراج في المسجد.

عاش في مصر بعد مشاركته في فتحها، حتى قتل عثمان رضي الله عنه، فانتقل إلى قرية في فلسطين كان النبي قد أقطعها له هي (عينون)، يقول ابن الأثير: وهي الآن قرية مشهورة عند بيت المقدس.^(٢)

وقصة هذه المنحة النبوية المعجزة، التي تمت قبل دخول الإسلام فلسطين بقرابة خمسة أعوام، ذكرتها كتب التاريخ، قال العلامة الكتاني: آخر مكتوب حفظ التاريخ جلدة المكتوب فيه بعينه له عليه السلام، الكتاب الذي أقطع به تميماً الداري أرضاً بالشام، وهو مكتوب مشهور، معروف في العصور السابقة، تكلم عليه أهل الحديث والتاريخ والفقه وغيرهم وقال: دعا رسول الله ﷺ بقطعة جند من أدم، فكتب كتاباً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب ذكر فيه ما وهب رسول الله ﷺ للداريين^(٣) إذا أعطاه الله الأرض، وهب لهم بيت عينون وحبرون وبيت إبراهيم بمن فيهن أبداً. شهد عباس بن عبدالمطلب وجهم بن قيس وشرحبيل بن حسنة.. وفي رواية: وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم من بعدهم أبد الأبد، فمن آذاهم فيها آذاه الله.^(٤)

وكان تميم قد قال لرسول الله ﷺ عام ٩ للهجرة مُنْصَرَفَهُ من تبوك، قال: لنا جيرة من الروم لهم قرينتان يقال لإحدهما حبري، والأخرى بيت عينون، فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لي. قال: فهما لك. قال: فاكتب لي. فكتب له.^(٥)

(١) الدابة التي رآها في جزيرة البحر، وسميت بذلك لأنها تجس الأخبار للدجال. (النهاية). ولعلها كانت دابة من دواب البحر غير المألوفة، فنسب إليها هذا الخبر غير المألوف.

(٢) أسد الغابة ١ / ٢٥٦.

(٣) وفي رواية لتمييم الداري وإخوته، ورواية تميم وأخوه نعيم وأصحابهما وذريتهم.

(٤) التراتيب الإدارية ١ / ١٤٥.

(٥) ضوء الساري ٥٦.

_____ مصر في الإسلام _____

وذكر الكتاني أن ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار قد رأى الكتاب الشريف عام ٧٤٥ للهجرة، ولكن شهد عليه ابن أبو قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وكتب على بن أبو طالب - هكذا في الوثيقة^(١)

وقال الكتاني أيضاً: إن الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي، وهو من أهل القرن الثاني عشر، قال: إن هذا الإقطاع مستمر بيد ذرية تميم يأكلونه إلى يومنا هذا، وهم مقيمون ببلد الخليل ونواحيها.. ويقال لهم: الدارية، وهذا ببركة النبي ﷺ^(٢)

وعاش تميم في فلسطين حتى توفي عام ٤٠ للهجرة، وقبره ببيت جبرين هكذا قال ابن حجر^(٣)

أما ممتلكات الدارية، فقد قال المقرئزي: مازالت القرى تحت أيديهم حتى استولى الفرنج على القدس والخليل، وقتلوا من بها من المسلمين، ولا يعرف هل عادت لهم أم لا ؟^(٤)

(٢١) تميم بن إياس بن البكير الليثي: جاء مع أبيه إياس مصر فاتحاً، واستشهد في أول الفتح عام ٢٠ للهجرة مع من استشهد.

(٢٢) ثابت بن طريف المرادي: قال ابن الأثير: ثم العرنى، أدرك النبي ﷺ، وخرج أيام أبي بكر إلى الشام للفتح، ثم شهد الفتوح في عهد عمر، ثم دخل مصر مع عمرو ابن العاص.

(٢٣) ثابت بن النعمان بن أمية بن امرئ القيس بن مالك بن الأوس الأنصاري: ذكره بعضهم بكنيته (أبا حبة البدرى)، روى عن رسول الله ﷺ قوله في حديث المعراج: ثم عرج بي حتى ظهرت إلى المستوى أسمع فيه صريف الأقلام.

(١) التراتيب الإدارية ١ / ١٥٤.

(٢) التراتيب الإدارية ١ / ٨٤.

(٣) الإصابة ١ / ٣٩٩.

(٤) ضوء السارى ١٣٢.

(٢٤) ثابت مولى الأحنس بن شريق الثقفي: قال ابن حجر: شهد ثابت بدرًا، وقد شهد فتح مصر. قال ابن الأثير: كان ثابت من المهاجرين، ثم شهد فتح مصر. (١)

(٢٥) ثمامة مولى خارجة بن عراك: قال ابن حجر: ثمامة الروماني مولاهم، له إدراك، شهد مع مولاة خارجة بن عراك فتح مصر صحبة عمرو بن العاص. (٢)

(٢٦) ثوبان بن مجدر (أو جحدر أو بجدد): مولى رسول الله ﷺ، أصله من حمير من اليمن، وقيل من السراة، موضع بين مكة واليمن، أصابه سبي، فاشتراه رسول الله ﷺ، وأعتقه، وقال له: إن شئت أن تلحق بمن أنت منهم، وإن شئت أن تكون منا أهل البيت؟ فثبت على ولاء رسول الله ﷺ، ولم يزل معه في الإقامة والسفر حتى انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فنزل ثوبان في فلسطين، ثم نزل حمص، وذلك بعد أن دخلهما الإسلام.

وفي فتح مصر كان في الجيش الغازي، وعاش فيها، واختط بجوار المسجد الجامع.

قال ابن الأثير: وابنتي ثوبان داراً بالرملة، وابنتي بمصر داراً بعد أن شهد فتحها، وابنتي بحمص داراً، توفي عام ٥٤ للهجرة، قيل: بمصر، وقيل بحمص. (٣)

روى ثوبان عن رسول الله ﷺ أحاديث منها قوله: إن رسول الله ﷺ دعا لأهله، فقلت: أنا من أهل البيت؟ - مرتين -، فقال بعد الثالثة: نعم مالم تقم على باب سدّة، أو تأتي أميراً تسأله.

وروى أبو داود عن ثوبان، قال رسول الله ﷺ: من تكفل أن لا يسأل الناس وأتكفل له الجنة؟ فقال ثوبان: أنا. فكان لا يسأل أحداً شيئاً.

وروى عن رسول الله ﷺ حديثاً قال: إن الله زوّى - أي جمع - لى الأرض، حتى رأيت مشارقها ومغاربها، فأعطاني الكنزين الأحمر والأبيض، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوّى لى منها. (٤)

(١) أسد الغابة ١ / ٢٦٥.

(٢) الإصابة ١ / ٤١٨.

(٣) أسد الغابة ١ / ٢٩٧.

(٤) الإصابة ١ / ٤١٣.

(٢٧) جابر بن أسامة الجهني: يكنى أبا سعاد^(١)، عاش في مصر حتى توفي بها. ذكر عن رسول الله ﷺ، قال: لقيت النبي ﷺ بالسوق في أصحابه، فسألتهم: أين تريدون؟ قالوا: نخط لقومك مسجداً. قال: فرجعت فإذا قومي قيام، فقلت: مالكم؟ فقالوا: خط لنا رسول الله مسجداً، وعرز لنا في القبلة خشبة، فأقامها فيها.^(٢)

لم تكن هذه المساجد بالمعنى المفهوم لدينا من الكلمة، بل كانت عبارة عن مصلى يؤدي فيه الناس بعض الصلوات عند الاقتضاء، أما السجد النبوي بالمدينة فقد كان هو المسجد الجامع، والمقصود هو تحديد اتجاه حلة حيث ينزلون.

(٢٨) جابر بن ياسر بن عويص الرعيني: زاد ابن الأثير: القتباني.
(٢٩) جابر بن ماجه (وقيل ماجد) الصدقي: ممن وفد على النبي ﷺ، وروى عنه، وحضر فتح مصر.

(٣٠) جبارة بن زرارة البلوي: صاحب النبي ﷺ بعد إسلامه، ومبايعته بيعة الرضوان. قال ابن يونس: صاحب النبي ﷺ، وشهد فتح مصر.^(٣)

(٣١) جبلة بن عمرو بن ثعلبة بن ساعدة الساعدي الأنصاري: من فقهاء الصحابة، كان ممن شهد أحداً وما بعدها، وحضر فتوحات مصر وإفريقية، وفي الفتنة وقف من عثمان بن عفان موقفاً معادياً، حتى استشهد.

قال الطبري: كان أول من اجترأ على عثمان بالمنطق السيء.^(٤)
وقيل: إنهم لما أرادوا دفن عثمان، فأنتهوا إلى البقيع، فمنعهم من دفنه جبلة ابن عمرو الساعدي، فانطلقوا به إلى حُش كوكب^(٥)، ثم كان لجبلة دور مع علي، فشهد معه صفين، ثم اعتزل الحياة السياسية، وسكن مصر بعد ذلك.

(١) قال ابن سعد: أبو سعاد صاحب رسول الله ﷺ سكن مصر. (الطبقات ١ / ٤١٨)

(٢) أسد الغابة ١ / ٣٠٢.

(٣) الإصابة ١ / ٤٥٠.

(٤) تاريخ الطبري ٤ / ٣٩٦.

(٥) الإصابة ١ / ٤٥٧. وحُش كوكب: بستان رجل من الأنصار اسمه كوكب، كان عثمان قد اشتراه ليضمه إلى البقيع لتوسيعه.

(٣٢) جذرة (أوجذرة) بن سبرة الثقفي: وقال ابن حجر: العتقي.

(٣٣) جرهد بن خويلد بن بحرة الأسلمي: وقال ابن حجر: جرهد بن خويلد بن بحرة بن عبد باليل.

كان من أهل الصفة، شهد مع رسول الله ﷺ الحديبية، أكل بيده الشمال أمام رسول الله ﷺ، فقال له: كل باليمين. فقال: إنها مصابة. فنفت عليها رسول الله ﷺ فما شكا حتى مات.

وعن الطبراني أن رسول الله ﷺ قال لجرهد: غط فخذك، فإن الفخذ عورة. وكان ﷺ مر عليه في المسجد، وقد انكشف فخذُه. وهو أمر يتعلق باستيفاء الكمال في هيئة المسلم، وخاصة في مسجد رسول الله ﷺ، وإلا فقد ذهب الفقهاء إلى أن الفخذ مما يلي الركبة عورة مخفية.

وبعد مشاركة جرهد في فتح مصر، انتقل إلى المدينة، وعاش فيها، حتى توفي عام ٦١ للهجرة.

أما ابن إياس فقال عنه: شهد فتح مصر، ومات بها عام ٦١ للهجرة.

(٣٤) جعنم الخير بن ساجي بن موهب الصدفي: ممن بايع النبي ﷺ تحت الشجرة، وكساه النبي ﷺ قميصه ونعليه.

(٣٥) جميل بن بصرة بن أبي بصرة الغفاري: أسلم هو وأبوه وجده، وروى الثلاثة عن رسول الله ﷺ، وكانوا في الجيش الفاتح لمصر.

قال ابن سعد: أبو بصرة الغفاري صحب النبي ﷺ، ونزل مصر، ومات بها، ودفن في المقطم في مقبرة أهل مصر، وبصرة صحب النبي ﷺ، وروى عنه، وابنه جميل بن بصرة بن أبي بصرة صحب النبي ﷺ أيضاً مع أبيه وجده. (١)

(٣٦) جميل بن معمر الجُمحي: قال ابن حجر: ابن أسيد الفهري، يكنى أبا معمر.

قال المبرد في الكامل: له صحبة، وكان قاضياً لعمر بن الخطاب، ولا نسب بينه وبين جميل العذري الشاعر المشهور صاحب بئينة.

(١) الطبقات ٧ / ٥٠٠

كان جميل لا يكتُم سرّاً، فهو الذي أخبر قريشاً بإسلام عمر حين أخبره واستنكّمه، قال عبد الله بن عمر: لما أسلم عمر، قال: أيُّ أهل مكة أنقلُ للحديث؟ قالوا: جميل بن معمر. فخرج عمر، وخرجت وراءه وأنا غُلّيمٌ أعقلُ كل ما رأيت، حتى أتاه، فقال: يا جميل أشعرت أني أسلمت؟ فوالله ما ارتجعه الكلام، حتى قام بجر رداءه، وخرج وعمر يتبعه، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ: يا معشر قريش، إن عمر قد صبأ. قال: كذبت، ولكني أسلمت. (١)

وأسلم جميل بعد ذلك، وهاجر، وشهد فتح مكة وحنينا، وكان من أذكى العرب وأحفظهم، حتى قالت مكة: لأبي معمر قلبان وعقلان، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلِيلَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

شهد جميل فتح مصر، وعاش فيها، حتى توفي بها في أيام عمر بن الخطاب، الذي حزن عليه حزناً شديداً، قال ابن حجر: وأظنه قارب المائة، فإنه شاهد حرب الفجار (٢) وهو رجل.

(٣٧) جناب بن مرثد الرعيّني: أسلم حياة الرسول ﷺ، وباع معاذ بن جبل في اليمن حين كان والياً عليها من قبل الرسول ﷺ، وخرج في الجيش الفاتح لمصر مع عمرو بن العاص.

(٣٨) جنادة بن أبي أمية الأزدي الزهراني: شهد فتح مصر، وولى البحر لمعاوية بن أبي سفيان. قال ابن الأثير: ولى البحر من زمن عثمان إلى أيام يزيد، إلا ما كان أيام الفتنة.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها قوله: تذاكرنا الهجرة، فقال بعضنا: انقطعت. وقال بعضنا: لم تنقطع. فأرسلنا (٣) رجلاً منا إلى النبي ﷺ، فقال: لا تنقطع الهجرة ما كان الجهاد.

(١) أسد الغابة ٣ / ٣٤٠.

(٢) حرب الفجار: وقعت قبل البعثة بخمس وعشرين سنة، بين قريش ومعها كنانة وقيس عيلان، وسميت بذلك لأن سببها قتل أحدهم في الشهر الحرام.

(٣) في رواية الإصابة: فانطلقت إلى النبي ﷺ...

مصر في الإسلام

والمقصود هنا : الهجرة بالمعنى العام، وهي هجرة المنهى عنه إلى المأمور به، والجهاد مأمور به، فالتزامه هجرة إلى الله عز وجل، أما الهجرة بالمعنى الخاص (إلى المدينة) فتلك هي التي انقطعت بقول رسول الله ﷺ: لا هجرة بعد الفتح، ولكن إيمان وجهاد، وإذا استغفرتم فأنفروا. ويوضع بإزاء هذا قول رسول الله ﷺ: المهاجر من هجر ما نهى الله عنه.

وهناك حديث آخر رواه الصحابي جنادة، قال: دخلنا مع نفر على النبي ﷺ يوم الجمعة، فقرب إلينا طعاماً، فقال: كلوا. فقلنا: إنا صيام. فقال: أصمتم أمس؟ قلنا: لا. قال: أفصائمون أنتم غداً؟ قلنا: لا. قال: فأفطروا. (١)

وزاد ابن سعد في الرواية، قال: ثم خرج النبي ﷺ إلى الجمعة، فلما جلس على المنبر دعا بإناء فيه ماء، فشرب، والناس ينظرون، ليعلمهم أنه لا يصوم يوم الجمعة. (٢)

(٣٩) الحارث بن تبيع الرعيني: وفد على رسول الله ﷺ، وبأيعه، وفي عهد عمر بن الخطاب رحل في جيش عمرو، وشهد فتح مصر.

(٤٠) الحارث بن حبيب بن خزيمه بن عامر بن لؤي القرشي: شهد فتح مصر، واستشهد في فتوحات إفريقية.

(٤١) حبان بن بُح الصدائي: وفد على النبي ﷺ، وشهد فتح مصر، ذكر ابن كثير قوله عند مجيئه للرسول ﷺ، قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فحضرت صلاة الصبح، فقال لي: يا أبا صُداء أذن. فأذنت، فجاء بلال ليقيم، فقال ﷺ: لا يقيم إلا من أذن. (٣)

وقد روى حبان خبراً آخر ذكره ابن حجر، قال: أسلم قومي -بنو صداء- فأخبرت أن رسول الله ﷺ جهز إليهم جيشاً، فأتيته، فقلت له: إن قومي على الإسلام. (٤)

(١) فتوح مصر ٣٠٦.

(٢) الطبقات ٧ / ٥٠٣.

(٣) أسد الغابة ١ / ٤٣٧.

(٤) الإصابة ٢ / ١٣.

(٤٢) حبيب بن أوس الثقفي: أدرك رسول الله ﷺ، وشهد فتح مصر، قال ابن حجر في تقريب التهذيب: مقبول شهد فتح مصر، وسكنها. (١)

وقال في الإصابة: ذكره ابن يونس فيمن شهد مصر، فدل على أن له إدراكاً، ولم يبق من تقيف في حجة الوداع أحد إلا وقد أسلم وشهدها. (٢)

(٤٣) حذيفة بن عبيد المرادي: قيل كان قاضياً لعمر بن الخطاب، قال ابن حجر: أدرك الجاهلية، وشهد فتح مصر.

(٤٤) حرمة بن سلمى: من بنى برد، له إدراك، ثم خرج مع خالد بن الوليد لفتح العراق عام ١٢ للهجرة، ثم كان في فتح مصر، ويشير ابن حجر إلى كونه صحابياً بقوله: أمره خالد بن الوليد حين دخل العراق... وكانوا لا يؤمرون إلا الصحابة. (٣)

(٤٥) حزام بن عوف البلوي: من بنى جُعل، من بلى، جاء إلى رسول الله ﷺ يبایعه تحت الشجرة في رهط من قومه، قال ابن حجر: فقال لهم ﷺ: لا صخر ولا جُعل، أنتم بنو عبد الله. (٤)

(٤٦) الحكم بن الصلت بن مخزومة بن المطلب بن عبد مناف القرشي: شهد مع رسول الله ﷺ فتح خيبر، وأخذ من فيها، وعند فتح مصر، كان في الجيش الفاتح ضمن رجالة قريش، وبعد فتحها عاش فيها.

روى عن رسول الله ﷺ حديثاً، هو: لا تقدموا بين أيديكم في صلاتكم وعلى جنائزكم سفهاءكم. (٥)

(٤٧) حمزة بن عمرو بن عويمر الأسلمي المدني: قال ابن حجر: صحابي جليل، وهو الذي بشر كعب بن مالك بتوبة الله عليه، وكعب أحد الثلاثة الذين تخلفوا في تبوك، وتاب الله عليهم في قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ

(١) تقريب التهذيب ١ / ١٤٨.

(٢) الإصابة ٢ / ٥١.

(٣) السابق.

(٤) الإصابة ٢ / ٦٠.

(٥) الإصابة ٢ / ١٠٣.

يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ﴿١١٧﴾
[١١٧: ١١٨].

وحمزة هو الذي سأل رسول الله ﷺ عن متابعة الصوم في الإقامة والسفر، قالت السيدة عائشة: إن حمزة بن عمرو الأسلمي سأل رسول الله ﷺ عن سرد الصوم في السفر، وكان يسرد الصوم. فقال ﷺ: إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر. (١)

(٤٨) حيان بن كرز البلوي: قال ابن يونس: شهد فتح مصر، وله صحبة. (٢)
(٤٩) حيويل بن ناشرة بن عبد عامر الكنفي (أو الكنعى): قال ابن حجر: أدرك النبي ﷺ، ولم يره، شهد فتح مصر، وعاش حيويل في مصر، حتى خرج عبد الله بن أبي سرح لفتح السودان عام ٣١ للهجرة، وفي يوم دنقلة أصيبت عين حيويل.

(٥٠) حيوة بن مرثد التميمي: ثم الأندلس، من ولد أندى بن عدى بن نجيب.
(٥١) خارجة بن حذافة بن غاتم العدوي القرشي: أسلم يوم الفتح، وهو من الفرسان، عده عمر بن الخطاب بألف رجل في المدد الذي بعثه لعمر بن العاص، ولشجاعته كان عطاؤه مميّزاً، بعث الخليفة إلى عمرو قائلاً: أنظر مَنْ قَبْلَكَ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَأَتَمَّ لَهُمُ الْعَطَاءَ مَائَتِينَ، وَأَتَمَّهَا لِنَفْسِكَ لِأَمْرَتِكَ، وَأَتَمَّهَا لخارجة بن حذافة لشجاعته. (٣)

بعد أن فتحت مصر اختط خارجة بالفسطاط بيتاً، وولاه عمرو على الشرطة، حتى كان يوم ١٧ من رمضان عام ٤٠ للهجرة، أصيب عمرو بمغص، فاستخلف خارجة على الصلاة.

قال ابن عبد الحكم: كان عمرو قد أصابه في بطنه شيء، فتخلف في منزله، وكان خارجة يَغْشَى الناس، فضربه الحروري، وهو يظن أنه عمرو. (٤)

(١) أسد الغابة ٢ / ٥٥.

(٢) الإصابة ٢ / ١٤٥.

(٣) فتوح مصر ١٤٥.

(٤) فتوح مصر ٢٦٠.

وكان ثلاثة من الخوارج من جيش علي بن أبي طالب قد انفقوا على قتل كل من علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص في يوم واحد هو ١٧ من رمضان، والخوارج الثلاثة هم: عبد الرحمن بن ملجم الحميري قاتل علي في الكوفة، وكان ممن شهد الفتح، وسكن مصر لفترة، والحجاج بن عبد الله التميمي الذي حاول قتل معاوية، ولكنه فشل في قتله في دمشق، والثالث عمرو بن بكر التميمي قاتل خارجة بن حذافة في الفسطاط، الذي شاء الله أن يقتل بدلاً من عمرو، حتى إن القاتل بعد علمه بمن قتل، صرخ، وقال: والله ما أردت إلا عمراً. ويقول عمرو عندما يبلغه هذا القول: ولكن أراد الله خارجة.

وخارجة هو صاحب أول غرفة بنيت علوية في الفسطاط، حيث تشرف على الجيران، وعندما علم الخليفة عمر في المدينة بخبرها كتب إلى عمرو بأمره أن ينصب سريراً عند فتحها، ثم يقيم رجلاً لا جسيماً ولا قصيراً، فإن كشف الجيران سدها، وقد أطاع عمرو، ولم يسد نافذة الحجرة.

روى خارجة بعض أحاديث رسول الله ﷺ منها قوله: خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: إن الله قد أمدكم بصلاة هي خير لكم من حُمُر النعم، الوتر جعله لكم فيما بين صلاة العشاء إلى أن يطلع الفجر.^(١)

(٥٢) خارجة بن عراك الرعيني الزيادي: قال ابن حجر: له إدراك، وكان ممن شهد فتح مصر، وشهد معه ثمانية مولاة.

(٥٣) خالد بن ثابت بن طاعن العجلان الفهمي: شهد فتح مصر، يقول السيوطي: وولى بحر مصر في عام ٥١ للهجرة.

ومعنى أنه ولى بحر مصر: أنه تولى شئون النيل من قياس زيادة ونقصان الماء، وشق الترعة والقنوات وغيرها، فهو بمثابة وزير شئون الري في الوقت الحاضر.

وقد أغراه مسلمة بن مخلد إفريقية عام ٥٤ للهجرة، يقول ابن حجر: وذكرته في هذا القسم - قسم الصحابة - اعتماداً على ما مضى: أنهم ما كانوا يؤمرون في الفتوح إلا الصحابة.^(٢)

(١) فتوح مصر ٢٦٠.

(٢) الإصابة ٢ / ٢٢٨.

- (٥٤) خالد بن العنابس: قيل: شهد بيعة الرضوان، قال ابن يونس: إن له صحبة.
- (٥٥) خرشة بن الحرث (أو الحارث أو الحر) الأزدي: روى عن رسول الله ﷺ أحاديث. وبعد فتح مصر عاش في حمص.
- (٥٦) خيار بن مرثد التجيبي: شهد فتح مصر، وكان رئيساً فيهم، قاله ابن يونس.^(١)
- (٥٧) دحية بن خليفة بن فروة الكلبي: من مشاهير الصحابة، شهد مع رسول الله ﷺ أحداً وما بعدها، وقيل أول مشاهدته الخندق.
- كان يضرب به المثل بحسن الصورة، وكان جبريل عليه السلام ينزل على صورته، قال ﷺ: دحية الكلبي يشبه جبريل. قال ابن عباس: كان دحية إذا قدم المدينة لم يبق معقير^(٢) إلا خرجت تنظر إليه.
- كان دحية أحد رسل رسول الله ﷺ إلى الملوك، وكانت وجهته قيصر الروم، فلقبه في حمص.
- قال ابن الأثير: بعثه رسول الله ﷺ رسولاً عام ٦ للهجرة في الهدنة، فأمن به قيصر، وامتنع عليه بطارفته، فأخبر دحية رسول الله ﷺ بذلك، فقال: ثبت الله ملكه.^(٣)
- روى دحية عن رسول الله ﷺ، وقد تهادى هو والنبي ﷺ. روى الترمذي أن دحية أهدى إلى النبي ﷺ خفين، فلبسهما. وروى أبو داود أن دحية قال: أهدى إلى النبي ﷺ قباطي، فأعطاني منها قبطية.^(٤)
- (٥٨) ديلم بن هوشع (أو فيروز) الجيشاني الحميري الرعيني: كان أول وافد على رسول الله ﷺ من قبل معاذ بن جبل من اليمن، وكان لديلم زوجتان عند إسلامه، فقال للنبي ﷺ: أسلمت وعندى أختان. فقال له النبي ﷺ: طلق إحداهما.

(١) الإصابة ٢ / ٣٦٦.

(٢) المعقير: المعصر: العاتق: وهي البنت التي دنا حيضها.

(٣) أسد الغابة ٢ / ١٥٨.

(٤) الإصابة ٢ / ٣٨٦. والقبطية: ثوب رقيق أبيض من صناعة مصر.

وعندما قام الأسود العنسي المنتبئ في اليمن، كان ديلم مع من حاربه، ووقف ضده، حتى انتصر عليه وقتله، وحمل رأسه إلى المدينة المنورة، لكنه وجد رسول الله ﷺ قد انتقل إلى الرفيق الأعلى.

وخرج بعد ذلك فاتحاً، ولما فتحت مصر اختط بها، وعاش فيها.

روى ديلم أحاديث عن رسول الله ﷺ خاصة بالأشربة، منها قوله: أتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله إنا بأرض باردة، شديدة البرودة، ونصنع شراباً من القمح، أفيجل يا نبي الله ؟. فقال: أليس يسكر ؟. قال ديلم: بلى. قال: فإنه حرام. ثم راجعه الثانية، فقال مثلها. قال ديلم: ثم إنني أعدت عليه، فقلت: رأيت إن أبوا أن يدعوها يا نبي الله، وقد غلبت عليهم ؟. قال: من غلبت عليه فاقتلوه. (١)

وسأله مرة أخرى، قال: قلنا يا رسول الله إن لنا أعناباً، فماذا نصنع بها ؟. قال: زبيوها - أي: اصنعوها زبيباً - قالوا: وما نصنع بالزبيب ؟. قال: انتبذوه على غدائكم، واشربوه على عشائكم، وانتبذوه في الشنان لا في الأسقية. (٢) وفي رواية ابن الأثير: ولا تنبذوه في القلل، فإنه إن تأخر عصيره، صار خلأ. (٣)

(٥٩) ربيعة بن زرعة الحضرمي: قال ابن يونس: من أصحاب رسول الله ﷺ، وشهد فتح مصر. (٤)

(٦٠) ربيعة بن شرحبيل بن حسنة: استعمله عمرو بن العاص في بعض الأعمال.

قال المقرئ: ربيعة بن شرحبيل، وعمرو بن علقمة القرشي أقاما قبله جامع الفسطاط. (٥)

وقال ابن عبد الحكم: استعمله في المكس، أي: جمع الضرائب من زكاة وجزية وخراج.

(١) فتوح مصر ٣٠٣.

(٢) الإصابة ٢ / ٣٩٣. والشنان: جمع شن، وهو الجلد.

(٣) أسد الغابة ٢ / ١٦٣. والقللة: الجرة العظيمة.

(٤) الإصابة ٢ / ٤٦٦.

(٥) خطط المقرئ ٣ / ١٨٥.

قال ابن الأثير: اختط بمصر وكان والياً على المكيين، وكان ربيعة قد شهد النبي ﷺ وهو غلام. (١)

(٦١) ربيعة بن عباد الديلمي: وقال ابن حجر: الدثلي، من بني الدليل من كنانة، شاهد النبي ﷺ في الجاهلية، وبعد الفتح تذكره عليه السلام، قال: رأيت أبا لهب بسوق عكاظ وهو وراء النبي ﷺ في الجاهلية، وهو يقول: إن هذا قد غوى، فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم، ورسول الله ﷺ يفر منه، وهو على أثره، ونحن نتبعه ونحن غلمان، كأني أنظر إليه، أحول، ذو غديرتين، أبيض الناس وأجملهم. قلت: من هذا؟ قالوا: محمد بن عبد الله. قلت: ومن هذا الذي يرميه؟ قالوا: عمه أبو لهب. (٢)

وفي رواية ابن حجر: قال ربيعة: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي مجاز يقول: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا. وقال بعد فتح مكة: دخلنا بعد فتح مكة بأيام ننظر ونرتاد، وأنا مع أبي، فنظرت رسول الله ﷺ، فساعة رأيته عرفته، وذكرت رؤيتي إياه بذي مجاز، فسمعت يومئذ يقول: لا حلف في الإسلام. (٣)

عمر ربيعة طويلاً، وبعد مشاركته في فتح مصر والمغرب عاش في المدينة، وتوفي في خلافة الوليد بن عبد الملك.

(٦٢) رويغ بن ثابت بن السكن الأنصاري: وهو من بني مالك بن النجار، شهد مع رسول الله ﷺ خيبر، وخرج في الفتوحات إلى الشام، ثم شهد فتح مصر، واختط بها، وعاش فيها، وشارك في فتح إفريقية، ولاء معاوية بن أبي سفيان عام ٤٦ للهجرة طرابلس، فغزا منها إفريقية عام ٤٧ للهجرة، وفتح قرية (جربة).

روى ابن إسحق، قال: قال حنش الصنعائي: غزونا مع رويغ بن ثابت المغرب، فافتتح قرية يقال لها جربة، فقام خطيباً، فقال: لا أقول فيكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ، يقول فينا يوم خيبر: لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماؤه زرع غيره - يعني إتيان الحبالى من الفىء، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله

(١) أسد الغابة ١ / ١٥٢.

(٢) أسد الغابة ٢ / ١٥٢.

(٣) الإصالة ٢ / ٤٦٩.

واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي ثيباً حتى يستبرئها، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنماً حتى يقسم، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين، حتى إذا أعجفها ردها فيه، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه رده. (١)

وقد روى رويغ عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: من صلى على محمد، وقال: اللهم أعطه المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي. (٢)

وعاش رويغ في برقة أميراً عليها، حتى توفي عام ٥٦ للهجرة.

(٦٣) الزبير بن العوام القرشي: من بنى أسد بن عبد العزى، حوارى رسول الله ﷺ، قال: الزبير ابن عمى - صفية - وحوارى من أمتى. (٣)

وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، أسلم وهو ابن اثنتى عشرة سنة، وكان عمه يعلقه فى حصير، ويدخن عليه، ليرجع عن الإسلام، فيقول: لا أكفر أبداً.

ثم هاجر الهجرتين إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ: بدرأ وأحداً والخندق وخيبراً والفتح وحنينا والطائف، وكان ﷺ يقول يوم بدر: إن الملائكة نزلت على سيما الزبير. وفى أحد ثبت مع رسول الله ﷺ، وبايعه على الموت. وفى فتح مكة كان معه إحدى رايات المهاجرين الثلاث.

قتل غيلة عام ٣٦ للهجرة فى جمادى الأولى، قرب البصرة بعد يوم الجمل، وعندما جىء لعلى بن أبى طالب بسيفه، قال: إن هذا سيف طالما فرج الكرب عن رسول الله ﷺ، بشر قاتل ابن صفية بالنار. (٤)

وترك من الولد أحد عشر ذكراً وتسع إناث، أكبر أولاده عبد الله بن أسماء بنت أبى بكر، وكان الزبير غنياً إلا أنه لم يترك ديناراً أو درهماً لكثرة عطائه،

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٣٣٢. وأعجفها: أضعفها، وأخلقه: صيرته قديماً بالياً من الاستعمال.

(٢) فتوح مصر ٢٨٠.

(٣) رواه جابر فى كنز العمال ١١ / ٨٦٢.

(٤) أسد الغابة ٢ / ٢٥٢.

وإنما ترك أرضاً بالغابة (من أطراف المدينة)، وداراً في الكوفة، وداراً في الإسكندرية، وداراً بالفسطاط، وكان مديناً، فحسب عبد الله دينه فكان ألفي ألف ومائتي ألف، فباع عبد الله الأرض، وسدد الدين، ثم قسم ما بقي على ورثته.

لم يرو عن رسول الله ﷺ، سأل ابنه يوماً: مالي لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان؟ قال: أما إنني لم أفارقه منذ أسلمت، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من كذب على فليتبوأ مقعداً من النار. (١)

وخرج عمرو بن العاص لفتح مصر، وأمه الخليفة عمر بجيش قوامه أربعة آلاف رجل، عليهم أربعة رجال، أحدهم الزبير بن العوام.

قال ابن عبد الحكم: ثم قدم الزبير، فلتقاه عمرو، ثم أقبلا يسيران، ثم مالبت الزبير أن ركب، ثم طاف بالخندق (٢)، ثم فرق الرجال حول الخندق. (٣)

وكان للزبير دور هائل في سرعة فتح الحصن بعد حصار دام سبعة أشهر، قال يوماً: إنني أهب نفسي لله، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلماً إلى جانب سور الحصن، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيئوا جميعاً.

قال ابن عبد الحكم: فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، وتحامل الناس على السلم، حتى نهاهم عمرو خوفاً من أن ينكسر، وبعد أن كبر الزبير وأجابه المسلمون من خارج، لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً، فهربوا، فعمد الزبير ومن معه إلى باب الحصن، ففتحوه، واقتحم المسلمون الحصن. (٤)

وأخذ الزبير السلم تذكراً لهذا اليوم الأغر، وعندما بنى بيته في الفسطاط، وضعه فيه، وتناقلته الأجيال جيلاً بعد جيل، حتى شب حريق في الفسطاط، فأتى على المنزل بما فيه.

وقد تتبع ابن عبد الحكم مسيرة هذا السلم، قال: اختط الزبير داره بسوق وردان في الفسطاط، وكان فيها السلم الذي نصبه، وصعد عليه الحصن، وكان ينزل

(١) الطبقات ٣ / ١٠٧.

(٢) الخندق حفره عمرو بن العاص شمالي وشرقي حصن بابليون.

(٣) فتوح مصر ٦٢.

(٤) فتوح مصر ٦٣.

فيها عبد الله بن الزبير إذا قدم مصر، وأخذها عبد الملك بن مروان، ثم ردها عليهم هشام بن عبد الملك، ثم أخذها منهم يزيد بن الوليد، فلم تزل - الدار - في أيديهم، حتى كانت ولاية أبي جعفر المنصور، فكلمه فيها هشام بن عروة، فأمر بردها.^(١)

(٦٤) زبيد بن عبد الخولاني: قال ابن حجر: له إدراك، وشهد فتح مصر، ثم شهد صفين في جيش معاوية، وكان معه الراية، وفي اليوم الأخير عندما سمع بمقتل عمار بن ياسر تحول إلى عسكر على بن أبي طالب.

(٦٥) زهير بن قيس البلوي: شهد فتح مصر، وعاش فيها حتى ولاية عبد العزيز ابن مروان، الذي ندبه إلى برقة من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان.

وخاطبه عبد العزيز مرة بشيء يكرهه^(٢)، فغضب، قال السيوطي:.. فأجابه زهير: تقول لرجل جمع ما أنزل الله على نبيه قبل أن يجتمع أبواك هذا؟؟ ونهض إلى برقة، فلقى الروم في عدد قليل، فقاتل حتى قتل شهيداً، وذلك عام ٧٦ للهجرة.^(٣)

وكان زهير عندما تولى برقة سار إلى القيروان لإنقاذها، بعد مقتل عقبة بن نافع ومن معه، وزحف في قتال عنيف حتى انتصر على كسيلة وعصابته، واسترجع المسلمون عاصمتهم، ثم رجع ناحية الشرق. قال السيوطي: وفي برقة قابل عسكر الروم، فقاتلهم حتى قتل.^(٤)

(٦٦) زياد بن الحارث الصدائي: ذكره ابن عبد الحكم: الصدائي، وصداء حي من أحياء اليمن، وكان زياد قد جاء مسلماً، وبائع رسول الله ﷺ، وسمع أن النبي ﷺ جهز جيشاً إلى قومه (صداء)، فقال: يا رسول الله أرددكم، وأنا لك

(١) السابق ١١٤. وأبو جعفر هو: ثاني خلفاء بني العباس. وهشام بن عروة بن الزبير.

(٢) قال ابن عبد الحكم: وكان عبد العزيز عاتياً على زهير بن قيس لأنه قاتله حين وجهه أبوه مروان بن الحكم من ناحية أيلة من قبل أن يدخل مصر، فقال له: ما علمتك يا زهير إلا جلفاً جافياً. فقال له زهير: ما كنت أرى يا ابن ليلى أن رجلاً جمع ما أنزل الله على محمد ﷺ من قبل أن يجتمع أبواك جلفاً جافاً.. أنا منطلق، فلا ردني الله إليك. فخرج حتى إذا كان بدرنة من طبرقة.. ولقى الروم، وهو في سبعين رجلاً.. فلقاهم فاستشهد زهير وأصحابه جميعاً، فقبورهم معروفة هناك إلى اليوم. (فتوح مصر ٢٠٢)

(٣) در السحابة ٩٢.

(٤) السابق.

بإسلامهم، فرد الجيش، وكتب إليهم، فجاء وفداهم بإسلامهم، فقال: إنك مطاع في قومك يا أخا صداء. قال: بل الله هداهم.

(٦٧) زياد بن قائد اللخمي: من بنى سعد بن زر بن غنم، قال ابن حجر: له إدراك، وشهد فتح مصر، وكان مسناً.^(١)

عاش زياد إلى خلافة مروان بن الحكم، فقد رثى الأكر بن حمام الذي قتل في ثورة مروان في جمادى الآخرة عام ٦٥ للهجرة.

(٦٨) زيادة بن جهور اللخمي: قال ابن حجر: له إدراك، وشهد فتح مصر، وقد عاش زيادة في فلسطين بعد الفتح.^(٢)

(٦٩) السائب بن خالد بن سويد الخزرجي الأنصاري: عرف بكنيته (أبو سهلة)، وبعد أن شارك في فتح مصر، رجع إلى المدينة، وعاش فيها، ولكنه جاء مصر مرة أخرى لمقابلة عقبة بن عامر الجهني، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يذكر في السُّتْرِ شيئاً؟ فقال عقبة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من ستر مسلماً ستره الله. فقال: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم. فراح، ولم يقدم من المدينة إلا لذلك.

وفي رواية: أنه قدم على مسلمة بن مخلد وهو الأمير، وقال له: أرسل إلى عقبة بن عامر، فذهب إليه في قرية، فقال له: أتذكر مجلساً كنت أنا وأنت فيه مع رسول الله ﷺ، ليس معنا أحد غيرنا؟ قال: نعم. قال: كيف سمعته؟ قال: سمعته يقول: من اطلع على أخيه، على عورة، ثم سترها، جعلها الله له يوم القيامة حجاباً من النار...

وفي رواية: كأنما أحيا موءودة من قبرها. قال: كنت أعرف ذلك، ولكني أوهمت الحديث، فكرهت أن أحدث به على ما كان. ثم ركب على صدر راحلته، ثم رجع.^(٣)

(١) الإصابة ٢ / ٦٤٣.

(٢) الإصابة ٢ / ٦٣٠.

(٣) أسد الغابة ٢ / ٢٥٤.

مصر في الإسلام

وقد روى السائب أحاديث عن رسول الله ﷺ منها قوله: أتاني جبريل عليه السلام، فأمرني أن أمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال والتلبية. وقوله ﷺ: من أخاف أهل المدينة، أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. (١)

وقد عمر السائب، ومات عام ٧١ للهجرة، وقيل: عام ٩١ للهجرة. (٧٠) السائب بن هشام بن عمرو العامري القرشي: قال ابن حجر: يقال: إنه رأى النبي ﷺ، وشهد فتح مصر، ثم أقام في مصر، فولاه عمرو بن العاص الشرطة، بعد مقتل خارجة بن حذافة. (٢)

ثم ولاه مسلمة بن مخلد القضاء، وجمع له الشرطة، وكان أبوه هشام أحد من قاموا في نقض الصحيفة التي قاطعت فيها قریش رسول الله ﷺ وبنى هاشم، ثم أسلم بعد ذلك.

(٧١) سُخْرُور بن مالك الحضرمي: بعد أن شارك في فتح مصر، سكنها، وعاش فيها، حتى سار مروان بن الحكم عام ٦٥ للهجرة إلى مصر، وأجمع أكثر المصريين على منعه، وكان على رأسهم سُخْرُور الذي حضهم على حرب مروان، والطاعة لعبد الله بن الزبير، ثم صالحوه على دخول مصر.

قال ابن حجر: لما سار مروان إلى مصر، أجمع أهل مصر على منعه، إلا طائفة من أشrafهم، فقام في كل قبيلة خطيب يحضونهم على الطاعة لابن الزبير، وقام سُخْرُور بن مالك خطيباً في حضرموت، وكان قد رأى النبي ﷺ، وبإيعه، فخطبهم، فقال: ألا إنه من نكث صفقة يمينه طائعاً فقد خرج من الإسلام.

فلما صالح أهل مصر مروان على الدخول، ودخلها، قال سُخْرُور: اللهم لا أراه ولا يراني، فقد طال عمري، فأقبضني إليك، فتوفي بعد دخول مروان مصر بتسع ليال. (٣) في جمادى الأولى عام ٦٥ للهجرة.

(١) الإصابة ٣ / ٢١.

(٢) حسن المحاضرة ١ / ٩٢.

(٣) الإصابة ٢ / ٣٦.

(٧٢) سُرَّق بن أسد (أو أسيد) الجهني الأكصاري الدؤلي: كان اسمه الحباب، وسبب تسميته (سرق) رواه الحاكم في المستدرک، قال: عن عبد الرحمن بن السلمي، قال: كنت بمصر^(١)، فقال لي رجل: ألا أدلك على رجل من أصحاب النبي ﷺ؟ قلت: بلى، فأشار إلى رجل، فجئته، فقلت: من أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا سرق. فقلت: سبحان الله، ينبغي لك ألا تسمى بهذا الاسم، وأنت رجل من أصحاب رسول الله. قال: إن رسول الله ﷺ سماني سرقاً، فلم أدع ذلك أبداً. فقلت: ولم سماك سرقاً؟ قال: قدم رجل من البادية ببعيرين، فابتعثهما منه، وقلت له: انطلق معي حتى أعطيك حقهما، فدخلت بيتي، ثم خرجت من خلف بيتي، وقضيت بثمن البعيرين حاجة لي، وتغيبت حتى ظننت أن الأعرابي قد خرج، وإذا بالأعرابي مقيم، فأخذني إلى رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر، فقال النبي ﷺ: ما حملك على ما صنعت؟، فقلت: قضيت بثمنها حاجة يا رسول الله. قال: فاقضه. قلت: ليس عندي. قال: أنت سرق، اذهب به يا أعرابي، فبعه حتى تستوفي حقك. فجعل الناس يسومونه^(٢) بشيء، فيلتفت إليهم فيقول: ما تريدون؟ قالوا: وماذا نريد؟ نريد أن نفتديه منك. قال: فوالله ما منكم أحد أحوج إليه مني، اذهب فقد أعتقتك^(٣).

قال ابن يونس: سرق له صحبة، وشهد فتح مصر، واختط بها^(٤).

(٧٣) سعد بن أبي وقاص: اسم أبيه مالك بن أهيب بن عبد مناف الزهري القرشي: سابع المسلمين، وقيل: رابع من أسلم، قال: والله إني لرابع في الإسلام، ولقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه يوم أحد، فقال: ارم سعد فذاك أبي وأمي، اللهم سدد سهمه، وأجب دعوته^(٥).

(١) في رواية ثانية: كنت بالإسكندرية.

(٢) يسومونه: يفاوضونه في بيعه، ويغالون فيه.

(٣) در السحابة عن المستدرک ٩٤.

(٤) الإصابة ٣ / ٤٤.

(٥) كنز العمال ١١ / ٦٩٠.

وسعد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وآخرهم موتاً، توفي عام ٥٥ للهجرة، وهو أحد الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليكون الخليفة منهم من بعده، وسموا أهل الشورى، وهو بطل القادسية، وفاتح مدائن كسرى، كان قد شارك في فتح مصر، وانتقل بعد ذلك إلى المدينة، حتى استشهد عثمان بن عفان، فاعتزل سعد الفتنة، عندما رأى تفرق أصحاب رسول الله ﷺ واختلافهم، واشترى أرضاً بوراً خارج المدينة بالعقيق، واستصلحها، وعاش فيها مع أهله، حتى توفي، وله بضع وسبعون عاماً.

قال ابنه: لما حضرته الوفاة دعا بخلق جبة صوف، فقال: كفنوني فيها، فإنني كنت لقيت المشركين فيها يوم بدر وهي عليّ، وإنما كنت أخبئها لهذا.^(١)

ولنا رد على من لام سعداً على اعتزاله، وهو أن ماضى سعد، وما سجله في حركة الفتوحات من بطولة جدير بأن يقدمه للمسلمين على أنه عامل من عوامل حل المشكلة التي نجمت عن الفتنة، ولكن هؤلاء لم يكونوا طلاب دنيا، بل استخدموا الدنيا من أجل الآخرة، ولذلك اعتزل سعد الفتنة حين كانت المواقب تتزاحم على طريقها، ورغب فيما عند الله، وما عند الله خير للأبرار.

(٧٤) سعد بن مالك بن سنان الكندي: قال ابن حجر: ابن مالك بن الأقيصر بن الدئل الأزدي، وفد على النبي ﷺ، وعقد له راية على قومه سوداء، فيها هلال أبيض، شهد فتح مصر، وله بها عقب.^(٢)

(٧٥) سفيان بن هاتئ بن جبير الجيثاني: حليف المعافر، روى عن رسول الله ﷺ، وبعد فتح مصر سكن الإسكندرية، ومات فيها زمن عبد العزيز ابن مروان.^(٣)

قال ابن حجر: شهد فتح مصر، وله رواية عن علي، وكان قد وفد عليه، وله صحبة. قال ابن يونس: مات في الإسكندرية.

(١) أسد الغابة ٢ / ٣٦٩.

(٢) الإصابة ٣ / ٧٣.

(٣) تولى مصر من عام ٦٥ إلى عام ٨٦ للهجرة.

(٧٦) سفيان بن وهب الخولاني - أو أيمن - : بعد أن وفد على النبي ﷺ حضر حجة الوداع، وخرج بعد ذلك في الجيش الفاتح لمصر، ثم شهد فتح إفريقية. (١)
تولى إمرة المغرب، وسكن بها إلى أن مات عام ٨٢ للهجرة.

روى سفيان عن رسول الله ﷺ أحاديث منها قوله ﷺ: راحة أو غدوة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، وإن المؤمن، عرضه وماله ونفسه حرام كما حرم الله هذا اليوم.

وروى ابن عبد الحكم حديثاً آخر عن سفيان، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تأتي المائة وعلى ظهرها أحد باق. فحمل سفيان إلى عبد العزيز بن مروان وهو شيخ كبير، فسأله عبد العزيز عن الحديث، فحدثه، فقال عبد العزيز: فلعله، يعني لا يبقى أحد ممن كان معه إلى رأس المائة. (٢)

(٧٧) سلمة بن قيصر الحضرمي. روى عنه حديث "من صام ابتغاء وجه الله باعده الله من جهنم كبعد غراب طار وهو فرخ حتى مات هراماً" (رواه النسائي) (٣)

(٧٨) شبيب بن سعد بن مالك البلوي: قال ابن يونس: له صحبة، وشهد فتح مصر. (٤)

وقيل: شهد بيعة العقبة، وفتح مصر.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها قوله ﷺ: إن العبد ليُخرج إليه يوم القيامة كتاب فيه حسناته. (٥)

(٧٩) شرحبيل بن عبد الله بن المطاع الكندي: اشتهر بشرحبيل بن حسنة، وهي أمه، هاجر إلى الحبشة.

(١) الإصابة ٣ / ٢٦٠.

(٢) فتوح مصر ٣٠٧.

(٣) أسد الغابة ٢ / ٤٣٣.

(٤) الإصابة ٣ / ٣١١.

(٥) أسد الغابة ١ / ٥١٠.

مصر في الإسلام

وكان أول كاتب لرسول الله ﷺ. قال الشيخ الكتاني: كان شرحبيل بن حسنة أول كاتب لرسول الله ﷺ يكتب التوقيعات للملوك. (١)

ولاه أبو بكر قيادة أحد الجيوش الخارجة للشام، وفتح طبرية، ثم ولاه عمر ابن الخطاب على ربع من أرباع الشام.

ومن الأخبار المؤكدة أن شرحبيل بن حسنة مات في طاعون عمواس مع أبي عبيدة بن الجراح عام ١٨ للهجرة، ولم يشاهد فتح مصر، وربما وهم السيوطي في دخوله مصر فاتحاً، والأصوب - في رأينا - أن الذي حضر فتح مصر ولدا شرحبيل، وليس شرحبيل نفسه. والله أعلم.

(٨٠) شريح بن أبرهة اليافعي: قال ابن منده: له صحبة، وشهد فتح مصر. (٢)

وروى ابن يونس له حديثاً عن رسول الله ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ كبر في أيام التشريق، وكان يقول: لبيك اللهم لبيك. (٣)

(٨١) شريك بن أبي الأعقل: قال ابن حجر: الأغفل، التجيبي، الشاعر المخضرم، وفد على النبي ﷺ، وشهد فتح مصر، قاله ابن يونس.

(٨٢) شريك بن سمي الغطيفي المرادي: كان ممن وفدوا على النبي ﷺ، وخرج مع الجيش الفاتح، فكان على مقدمة عمرو بن العاص في فتح مصر.

وقد روى ابن عبد الحكم حادثة تبين مدى التزام المسلمين الفاتحين بالتعاليم التي تمنعهم من الزراعة أو المزارعة، قال: إن عمر بن الخطاب أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد يتقدمون إلى الرعية أن عطاءهم قائم، وأن رزق عيالهم سائل، فلا يزرعون ولا يزارعون.

وكان شريك بن سمي الغطيفي أتى إلى عمرو بن العاص، فقال: إنكم لا تعطونا ما يحسبنا، أفأذن لي بالزرع؟ فقال عمرو: ما أقدر على ذلك.

(١) التراتيب الإدارية ١ / ١٢٤.

(٢) أسد الغابة ٣ / ٣٣٣.

(٣) أسد الغابة ١ / ٥١٨.

فزرع شريك من غير إذن عمرو، فلما بلغ عمراً كتب إلى عمر بن الخطاب يخبره أن شريك بن سمي الغطيفي حرث بأرض مصر، فكتب إليه عمر ابن الخطاب أن ابعث إليّ به، فلما انتهى كتاب عمر إلى عمرو أقرأه شريكاً، فقال شريك: قُتلتني يا عمرو. قال: عمرو: ما أنا قُتلُك، أنت صنعتَ هذا بنفسك. قال: إذ كان هذا من رأيك، فأذن لي بالخروج إليه من غير كتاب، ولك عهد الله أن أجعل يدي في يده. فأذن له بالخروج.

فلما وقف على عمر، قال: تؤمنني يا أمير المؤمنين. قال: ومن أي الأجناد أنت؟ قال: من جند مصر. قال: فلعلك شريك بن سمي الغطيفي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: لأجعلنك نكالا لمن خلفك. قال: أوتقبل مني ما قبل الله من العباد. قال: وتفضل؟ قال: نعم.

فكتب إلى عمرو بن العاص: إن شريك بن سمي جاءني نائبا، فقبلت منه. (١)

وهذا الخبر عن شريك له دلالات عدة :

فهو أولاً: كاشف عن إحاطة القيادة بأحوال الجند، والتزام الجند بتوجيهات القيادة على بعد ما بين مصر والمدينة.

وهو ثانياً: يدل على ما التزمت به حركة الفتوحات الإسلامية من رعاية لحقوق الشعوب المفتوحة، حتى تنفرغ لإنتاج أقواتها، وهي تقدم ما التزمت به من خراج وجزية. ويتفرغ الجند لما خرجوا من أجله وهو الجهاد، والإضاعة الفتوحات.

وهو ثالثاً: يقدم صورة رائعة للعلاقات بين الجند وقيادتهم التي تحاسبهم بهذا الأسلوب الحازم، ولا تغلو في معاقبتهم، فتقبل منهم المعذرة، وتستبقيهم للاستمرار فيما تحملوا من أمانة الجهاد، ولله در عمر، ولله در عمرو، ولله در شريك.

(١) فتوح مصر ١٦٢.

مصر في الإسلام

وشريك هذا هو الذي سميت باسمه معركة (كوم شريك) قرب الإسكندرية، وقد عاش شريك في مصر حتى كان عام ٤٣ للهجرة، وهي السنة التي توفي فيها عمرو بن العاص، فخرج لغزو المغرب.

(٨٣) صُحَار بن صخر العبدى: قال ابن ربيع الجيزى: من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر، وقد وفد وقومه على النبي ﷺ عام الفتح.

قال ابن حجر: روى حديثين أو ثلاثة عن رسول الله ﷺ، كان صحار ممن طالبوا بدم عثمان بن عفان^(١).

وبعد استقرار الأحوال كان في حاشية معاوية، واشتهر صحار بالبلاغة والفصاحة والخطابة، قال له معاوية يوماً: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز. قال: وما الإيجاز؟ قال: لا تبطئ ولا تخطئ^(٢).

(٨٤) ضمرة بن الحصين بن ثعلبة البلوى: كان ممن بايع تحت الشجرة، وسكن مصر بعد مشاركته في فتحها.

(٨٥) عائذ بن ثعلبة بن وبرة البلوى: بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان تحت الشجرة، وشهد فتح مصر، واختط بها، ثم خرج في معركة ضد الروم عام ٥٣ للهجرة، عند بحيرة البرلس، فاستشهد هو ووردان مولى عمرو بن العاص، وأبو رقية اللخمى، وكان مسلمة بن مخلد قد خرج لمواجهة الروم الذين جاءوا للانتقام من المسلمين الذين فتحوا جزيرة رودس العام السابق.

(٨٦) عامر بن الحارث بن ثوبان: قال ابن حجر: له صحبة، وشهد فتح مصر.

(٨٧) عامر بن عبد الله بن جهيرة: قال ابن حجر: ابن جهم الخولانى، من أصحاب رسول الله ﷺ، وشهد فتح مصر، قاله ابن يونس.

(٨٨) عامر بن عمرو بن حذافة بن عبد الله بن المهزم التجيبى: قال ابن منده وابن يونس: له صحبة، وشهد فتح مصر^(٣).

(١) الإصابة ٤١١/٣.

(٢) السابق.

(٣) الإصابة ٤١١ / ٣.

. وأحد هؤلاء الثلاثة ^(١)، أول من دفن في سفح المقطم من صحابة رسول الله ﷺ - فقد ورد في الأثر: إن أول من قبر بالمقطم صحابي اسمه عامر.

(٨٩) عبادة بن الصامت بن قيس بن أكرم الخزرجي الأنصاري: ولد قبل الهجرة بحوالي ٣٨ عاماً، كان من سادات قومه، ومن أطولهم ^(٢)، شهد العقبين، اختاره رسول الله ﷺ ضمن الاثني عشر نقيباً ليكونوا رؤساء على قومهم، شهد مع رسول الله ﷺ جميع المشاهد.

وكان ممن جمع القرآن الكريم ^(٣) حفظاً على عهد رسول الله ﷺ، قال عنه قتادة: كان عبادة بديراً عقيباً أحد النقباء، وكان بايع رسول الله ﷺ على ألا يخاف في الله لومة لائم.

روى عبادة عن رسول الله ﷺ أحاديث منها قول عبادة: إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

وفي رواية: كنت فيمن حضر بيعة العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب، على ألا نشرك بالله... وقال: فإن وفيتم فلکم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً، فأمركم إلى الله، إن شاء غفر، وإن شاء عذب. ^(٤)

وحديث آخر رواه عبادة، قال: أوصانا رسول الله ﷺ بسبع خلال، قال: لا تشركوا بالله شيئاً، وإن قُطِعتم أو أُخْرِقتم أو قُتِلْتُمْ، ولا تتركوا الصلاة المكتوبة متعمدين، فمن تركها متعمداً فقد خرج من الملة، ولا تركبوا المعصية، فإنها سخط

(١) الثلاثة المسمون بعامر في الترجمات المتتابة لهم.

(٢) جاء في التراثيب الإدارية: أدرك الإسلام عشرة، طول كل رجل منهم عشرة أشبار (أكثر من مترين): عبادة بن الصامت، وسعد بن معاذ، وقيس بن سعد بن معاذ، وجريير بن عبد الله البجلي، وعدى بن حاتم الطائي، وعمرو بن معدى كرب الزبيدي، والأشعث بن قيس، ولييد بن ربيعة، وعامر بن الطفيل، وأبو زيد الطائي. (٣٩١/٢)

(٣) جمع القرآن خمسة من الأنصار هم: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو أيوب، وأبو الدرداء.

(٤) كنز العمال ١٣ / ٥٥٦.

مصر في الإسلام

الله، ولا تشربوا الخمر، فإن شربها رأس الخطايا، ولا تفروا من القتل والموت، وإن كنتم فيه، ولا تعصين والدك وإن أمراك أن تخرج من الدنيا كلها فإخرج، ولا تضع عصاك على أهلك، وأنصفهم من نفسك.^(١)

ومن الأحاديث التي رواها عبادة أيضاً قوله ﷺ: ما من نفس تموت لها عند الله خير تحب أن ترجع إليكم إلا الشهيد، فإنه يحب أن يرجع فيقتل مرة أخرى.

وقال عبادة أيضاً: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله، وتصديق وجهاد في سبيله. قال: أريد أهون من ذلك. قال: السماحة والصبر. قال: أريد أهون من ذلك. قال: لا تتهم الله في شيء قضى لك به.^(٢)

وقد روى عبادة حادثة، قال: كنا في المسجد نتقرأ القرآن، معنا أبو بكر، ونحن أميون يقرأ بعضنا على بعض، فخرج عبد الله بن أبي بن سلول، تتبعه نمرقة وزربية^(٣)، وضعتا له فائقاً، فقال: يا أبا بكر ألا تقول لمحمد يأتينا بآية كما أرسل الأولون، جاء صالح بالناقة، وجاء موسى بالألواح، وجاء داود بالزبور، وجاء عيسى بالمائدة، وعبد الله رجل فصيح صبيح. فبكى أبو بكر، فخرج رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: قوموا بنا نستغيث نبي الله من هذا المنافق. فقال ﷺ: إنه لا يقام لي، إنما يقام لله، إن جبريل أتاني، فقال: اخرج حدث بنعمة الله التي أنعم عليك، وبفضيلته التي فضلك بها، فبشرني بعشر لم يؤتها نبي قبلي: إن الله بعثني إلى الناس جميعاً، وأمرني أن أنذر الجن، وإن الله لقاني كلامه وأنا أمي، قد أوتي داود الزبور وموسى الألواح وعيسى الإنجيل، وأنه غفر لي ذنبي ما تقدم منه وما تأخر، وإن الله أعطاني الكوثر، وإن الله أمدني بالملائكة وآتاني النصر، وجعل بين يدي الرعب، وجعل حوضي أعظم الحياض، ورفع ذكرى في التأذين، وبعثني يوم القيامة مقاماً محموداً، والناس مهطعين مقبحين.

(١) فتوح مصر ٢٧٢.

(٢) فتوح مصر ٢٧٢.

(٣) النمرقة: الوسادة، والزربية: وسادة كبيرة للجلوس عليها.

رءوسهم، وبيعتني يوم القيامة في أول زمرة فأدخل الجنة في سبعين ألفاً من أمتي لا يحاسبون، ورفعني يوم القيامة ليس فوقى إلا الملائكة الذين يحملون العرش، وأنا في السلطان والملك، وطيب لي الغنيمة ولأمتي، ولم تكن لأحد قبلنا.^(١)

وقد خرج عبادة أول ما خرج إلى الشام، وكان يزيد بن أبي سفيان بعث إلى عمر بن الخطاب لاحتياج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن، ويفقههم في الدين، فبعث معاذاً وعبادة وأبا الدرداء، وأقام عبادة في فلسطين، التي تولى فيها القضاء بعد ذلك.

وخرج عام ٢١ للهجرة في المدد الذي ذهب إلى مصر، وهو أحد أربعة اعتبر الخليفة عمر كلا منهم بمقام ألف رجل، وفي حصار بابليون ظهر دور عبادة الرائع في الحوار الذي دار بينه وبين المقوقس، وقد أوردنا هذا الحوار في فصل (فتح مصر).

وكان عبادة أحد اثنين أقاما محراب جامع القسطنطين، وبعد الفتح اختط له دارين مع بقية المسلمين بجوار الجامع، وعاش في إحداها مدة، ثم انتقل إلى فلسطين التي توفي في إحدى مدنها (الرملة) عام ٣٤ للهجرة عن ٧٢ عاماً.

(٩٠) عبد الله بن أسيد الخولاني: قال ابن حجر: من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر صحبة عمرو^(٢)، ولم يذكره السيوطي.

(٩١) عبد الله بن أنيس الجهني^(٣) القضاعي السلمي: حليف بني سلمة من الأنصار، شهد العقبة مع السبعين أنصارياً، وكان أحد الذين كسروا أصنام بني سلمة.

شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقد بشره بالجنة، فقد قال له بعد أن أعطاه ميخصرة^(٤): خذ هذه، فتخصر بها يوم القيامة، فإن المتخصرين يومئذ قليل. قال عبد الله: من ماذا يا رسول الله؟ قال: آية بيني وبينك يوم القيامة.

(١) فتوح مصر ٢٧٢.

(٢) الإصابة ٥ / ٨١.

(٣) نسبة إلى جهينة.

(٤) العصا القصيرة، توضع في الوسط.

مصر في الإسلام

وفى رواية: تخلص بهذه حتى تلقاني يوم القيامة، وأقل الناس المتخلصون.^(١)

وخرج عبد الله في فتوحات الشام ومصر، وبعد الفتح عاش في مصر راوياً لحديث رسول الله ﷺ، وقيل إن جابر بن عبد الله جاءه من المدينة مستفسراً عن حديث لرسول الله ﷺ.

توفي عبد الله في خلافة معاوية عام ٥٤ للهجرة، وقيل عام ٧٤ للهجرة، والله أعلم.

روى عبد الله أحاديث عن رسول الله ﷺ منها قوله ﷺ: أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، والذي نفسى في يده لا يحلف أحد ولو على جناح بعوضة إلا كانت نكته^(٢) في قلبه إلى يوم القيامة.^(٣)

(٩٢) عبد الله بن الحارث بن حزم^(٤) بن عبد الله بن معدى كرب الزبيدي^(٥): كان من أهل الصفة، أى: الفقراء المهاجرين، ومن الفرسان المعدودين.

جاء مصر في جيش الفتح، وكان كبيراً فى السن حتى إن سائلاً سأله: ما أعملك إلى مصر، وليس فيك مضرب بسيف، ولا مطعن برمح، ولا مرمى بسهم؟ قال: جئت أكون فى صفوف المسلمين لعل سهم غرب يأتينى فيقتلنى.^(٦)

وبعد الفتح خط عبد الله له داراً مع بقية الفاتحين حول الجامع فى الفسطاط، وبعد مدة فكر فى الحياة وسط القرى، فأقطعهم عمرو أرضاً فى قرية فى بطن الوادى بين فرعى النيل بالغربية، بنى عليها داراً ومسجداً.

وقد عمّر عبد الله وجاوز المائة، ومات عام ٨٨ للهجرة، وقد اختلف فى مكان دفنه، فقال بعضهم: فى سفح المقطم بجوار عقبة بن عامر، وأكد آخرون دفنه فى مكان إقامته بالغربية.

(١) كنز العمال ١١ / ٧٣٤.

(٢) نكته: الأثر كالنقطة.

(٣) أسد الغابة ٣ / ١٨٠.

(٤) وقيل: جزء.

(٥) زبيد: من مذبح من اليمن.

(٦) فتوح مصر ٣٠٠.

وكان عبد الله آخر صحابة رسول الله ﷺ موتاً في مصر.

تقول د. سعاد ماهر: وسفط تراب التي أقطعها عمرو بن العاص شيخنا عبد الله بن الحارث هي من القرى المصرية القديمة.. وهي قرية من مديرية الغربية بقسم محلة منوف من الشمال الشرقي لمحلة روح، وذكر ياقوت قرية باسم سفط تراب بأسفل مصر.. وذكر الزبيدي صاحب تاج العروس سفط تراب السمنودية، وهي سفط القدور، وهي المعروفة بسفط عبد الله.. وبها توفي عبد الله بن جزء الزبيدي، آخر من مات من الصحابة في مصر، وقبره ظاهر يزار، وقد زاره صاحب تاج العروس في رحلته إلى الوجه البحري عام ١١٨٧ للهجرة.^(١)

وقد وصفت د. سعاد ماهر قبر الصحابي عبد الله ومسجده، وقالت: دفن عبد الله بن جزء الزبيدي في داره التي كان يسكنها بصفط تراب، وقد تحولت داره إلى مزار لوجود قبره به، وظل الحال على ذلك حتى القرن الخامس الهجري حين أقام خلفاء الدول الفاطمية على القبر قبة، وبنوا بجانبها مسجداً صغيراً، وقد أعيد بناء المسجد عدة مرات.^(٢)

روى عبد الله عن رسول الله ﷺ قرابة عشرين حديثاً، منها سبب تسميته عبد الله، قال: توفي رجل ممن قدم على رسول الله ﷺ غريب، فقال ﷺ وهو عند القبر: ما اسمك؟ فقلت: العاص. وقال لابن عمرو: ما اسمك؟ فقلت: العاص. وقال للعاص بن العاص: ما اسمك؟ قال: العاص. فقال ﷺ: أنتم عبد الله، انزلوا. قال: فوارينا صاحبنا، ثم خرجنا من القبر، وقد بدلت أسماؤنا.^(٣)

وقال عن رسول الله ﷺ قوله: ويل للأعقاب ويطون الأقدام من النار. يعني: إسباغ الماء عند الوضوء على الأرجل.

وقال ﷺ أيضاً: إن الله أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(١) مساجد مصر وأضرحتها ١ / ٤١.

(٢) السابق ١ / ٤٤.

(٣) فتوح مصر ٣٠٢.

مصر في الإسلام

(٩٧) عبد الله بن عمر بن الخطاب: الفقيه القدوة، شقيق أم المؤمنين حفصة، أسلم، وهاجر مع أبيه وهو ابن عشر سنين، يقال: إنه شارك في أحد، أما في بدر فكان صغيراً.

وعن ابن سعد: قال عبد الله: عرضت على رسول الله ﷺ يوم بدر، وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، فردني، وعرضت عليه يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فردني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة، فقبلني. (١) فهو إذن لم يشارك في أحد، ولعله حضر الموقعة دون قتال.

قال عنه الذهبي: وقد عين للخلافة يوم الحكمين - التحكيم - مع وجود عليّ والكبار. (٢)

شارك عبد الله في فتح مصر، وبعد الفتح، اختط داراً بالفسطاط سماها: دار البركة.

قال ابن عبد الحكم:.. واختط فيها دار البركة: بركة الرقيق، قال عبد الله: فوهبتها لمعاوية رجاء أن يثبني منها، فلم يثبني منها حتى مات، فهو في حل. (٣)

كان عبد الله شاباً متميزاً حياة رسول الله ﷺ، وبعد وفاته كان كثير الاتباع لأنار النبي ﷺ، حتى إنه ينزل منازلهم، ويصلي في كل مكان صلى فيه، وكل شجرة جلس تحتها رسول الله ﷺ يتعهدا ابن عمر بالماء كيلا تيبس.

وكان من شدة حبه لرسول الله ﷺ لا يذكره إلا بكى، وعاش بعده يأتي ويحدث بما تعلمه ستين سنة، ولكنه لم يكن يتردد في أن يقول: لا أعرف، أو لا أدري، إذا سئل عن شيء لا يعرفه، قال ابن حجر: ثم يقول: أتريدون أن تجعلوا ظهورنا جسوراً في جهنم؟ تقولون أفئتنا بهذا ابن عمر؟. (٤)

روى كثيراً من الأحاديث عن رسول الله ﷺ، منها قوله: أخذ رسول الله ﷺ يوماً ببعض جسدي، وقال: يا عبد الله كن في الدنيا كأنك غريب، أو كأنك عابر

(١) الطبقات الكبرى ٤ / ١٤٣..

(٢) العبر ١ / ٨٣. والتحكيم كان عام ٣٧ للهجرة.

(٣) فتوح مصر ٩٢.

(٤) الإصابة ٤ / ١٨٦.

سبيل، وعد نفسك في أصحاب القبور، يا عبد الله بن عمر فإنه ليس ثمت دينار ولا درهم، إنما هي حسنات وسيئات جزاء بجزاء، وقصاص بقصاص.^(١)

وقد التزم ابن عمر بتوجيهات رسول الله ﷺ حتى آخر حياته، قال ابن حجر: كان نفر من الصحابة يرون أنه ليس أحد فيهم على الحالة التي فارق عليها النبي ﷺ إلا ابن عمر، وقال أحدهم: ما منا أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها غير ابن عمر، وقال عنه أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف: مات ابن عمر وهو مثل عمر في الفضل، وكان عمر في زمان له فيه نظراء، وكان ابن عمر في زمان ليس له فيه نظير.

عاش عبد الله في مكة مجاوراً حتى توفي أيام الحج عام ٧٣ للهجرة، عن عمر يناهز ٨٣ عاماً، بعد مقتل عبد الله بن الزبير بثلاثة أشهر.

وكان لابن عمر موقف من الفتنة، فلم يعارض أو يصد أميراً، أو يقف ضده، وإنما كان يصلي وراء كل أمير، ويؤدي له زكاته، مادامت قد اجتمعت العامة على مبايعته.

قال ابن سعد: قال عبد الله بن عمر: لا أقاتل في الفتنة، وأصلي وراء من غلب.^(٢)

وروى أنس عن ابن عمر قوله: لو اجتمعت على أمة محمد إلا رجلين ما قاتلتها.

وعندما عرضوا عليه الخلافة بعد مقتل عثمان، قال قولة حكيمة: ما أحب أنها- أي الخلافة- أتتني ورجل يقول: لا، وآخر يقول: بلى.

(٩٨) عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي: كان اسمه العاص^(٣)، فغيره رسول الله ﷺ، أسلم قبل أبيه، وهاجر مع رسول الله ﷺ.

كان عالماً فاضلاً قارئاً للقرآن والكتب المتقدمة، حافظاً لحديث رسول

(١) أسد الغابة ٣ / ٣٤٤.

(٢) الطبقات ٤ / ١٤٣.

(٣) أنظر عبد الله بن الحارث.

مصر في الإسلام

الله ﷺ^(١)، روى عنه أكثر من سبعمائة حديث، وكان قد استأذن رسول الله ﷺ في أن يكتب عنه، فأذن له، فقال له: يا رسول الله، أكتب ما أسمع في الرضا والغضب؟ قال: نعم، فإنني لا أقول إلا حقاً.

وكان عبد الله يسمى الصحيفة التي كتب فيها الحديث: الصادقة.

خرج عبد الله مع أبيه في الجيش المتجه إلى الشام، وكان على الراية يوم اليرموك، وشهد معه فتح مصر، ولشجاعته ومهارته كان يضرب بسيفين، وكان أحد شهود الصلح مع المقوقس، وبعد الفتح خط بيته بجوار بيت أبيه قبالة المسجد، وهو نفس المكان الذي دفن فيه عام ٦٥ للهجرة، في فتنة مروان بن الحكم على أغلب الروايات، ولكن رواية ابن سعد تقول: ثم رجع إلى مصر، فلم يزل بها حتى مات، ودفن في داره^(٢) عام ٧٧ للهجرة، في خلافة عبد الملك بن مروان.

تولى عبد الله وزارة أبيه طيلة ولايته لمصر، وعندما عزله عثمان بن عفان، خرج مع أبيه إلى فلسطين، ولما فكر عمرو في الذهاب إلى معاوية في الشام، أخذ عبد الله يثنيه، ولكنه أصر على الذهاب، وبرفته ولداه عبد الله ومحمد، حتى كانت صفين، فشارك فيها مع أبيه.

روى ابن الأثير حادثة تبين رأى عبد الله في صفين: قال إسماعيل بن رجاء: كنت في المسجد النبوي في حلقة فيها أبو سعيد الخدري وعبد الله بن عمرو، فمر بنا حسين بن علي^(٣)، فسلم، فرد القوم السلام، فسكت عبد الله حتى فرغوا، ورفع صوته، وقال: عليك السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أقبل على القوم، فقال: ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟ قالوا: بلى. قال: هو هذا

(١) قال أبوهريرة: ما أجد من أصحاب النبي ﷺ أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبد الله، فإنه كان يكتب.

(٢) تقول د. سعاد ماهر:.... ظل القبر مجهول الاسم والمعالم حتى كان العصر العثماني، وأعاد الأمير مراد بناء الجامع، فلعله أراد إحياء وجود مقبرة عبد الله داخل المسجد، فبنى المقصورة، وأقام عليها القبة، وإن كنت أرى أن المكان الذي اختير للضريح ليس هو مكان منزل عبد الله الذي يقع إلى الغرب قليلاً من الضريح الحالي. (مساجد مصر وأضرحتها ٧٦/١)

(٣) قتل الحسين بن علي في معركة كربلاء عام ٦٢ للهجرة.

الماشى، ما كلمنى كلمة منذ ليالى صفين^(١)، ولأن يرضى عنى أحب إلى من حمر النعم. قال أبو سعيد: ألا تعتذر له ؟ قال: بلى..

فلما دخل أبو سعيد، قال: يا ابن رسول الله إنك لما مررت أمس.. وذكر القصة- قال حسين: ما حملك على أن قاتلتى وأبى يوم صفين، فوالله لأبى خير منى. قال: أجل، ولكن عمراً شكاني إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن عبد الله يا رسول الله يقوم الليل ويصوم النهار. فقال ﷺ لى: يا عبد الله، صل ونم وصم وأفطر وأطع عمراً. قال: فلما كان يوم صفين، أقسم على فخرجت، أما والله ما اخترطت سيفاً ولا طعنت رمحاً ولا رميت بسهم^(٢).

وقال ابن سعد: فلما خرج أبوه إلى معاوية خرج معه، فشهد صفين، ثم ندم بعد ذلك، وقال: مالى ولصفين ؟ مالى ولقتال المسلمين ؟

وقال الذهبي: كان عبد الله بن عمرو ديناً صالحاً كثير العلم، كبير القدر، يلوم أباه على القيام فى الفتنة، ويطيعه للأبوة^(٣).

(٩٩) عبد الله بن عثمة المزني: قال ابن الأثير شهد فتح مصر، وشهد فتح الإسكندرية الثانى^(٤).

(١٠٠) عبد الله بن قيس العتقى: قال ابن الأثير: توفى عام ٤٩ للهجرة.

(١٠١) عبد الله بن هشام بن عثمان بن عمرو التيمي القرشى: قال عنه ابن الأثير: أمه زينب بنت حميد بن عبد العزى بن قصي، ذهبت بابنها عبد الله إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله بايعه. فقال ﷺ: وهو صغير. فمسح على رأسه، ودعا له بالبركة.

وكان يضحى بالشاة الواحدة على جميع أهله، وكان مولده عام ٤ للهجرة^(٥). قال ابن حجر تعليقاً على دعاء النبي له بالبركة: فكان يشتري الطعام، فيلقاه

(١) صفين: موضع بين الشام والعراق، وقعت بها معركة بين على ومعاوية عام ٣٧ للهجرة.

(٢) أسد الغابة ٣ / ٣٥١.

(٣) العبر ١ / ١٧٢.

(٤) أسد الغابة ٣ / ٣٥٨. وكان فتح الإسكندرية الثانى عام ٢٥ للهجرة.

(٥) أسد الغابة ٣ / ٤١٠.

ابن عمر وابن الزبير، فيقولان له: أشركنا، فإن النبي ﷺ دعا لك بالبركة. (١)

عاش عبد الله إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان.

(١٠٢) عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة: وهو شقيق ربيعة، دخل هو وأخوه مصر في الجيش الفاتح، وقال بعضهم وأبوه شرحبيل أيضاً، ولكنه خطأ لأن شرحبيل بن حسنة مات في طاعون عمواس عام ١٨ للهجرة.

(١٠٣) عبد الرحمن بن عديس بن عمرو البلوي: كان ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة.

روى عن رسول الله ﷺ قوله: سيخرج من أمي أناس يفرقون بين الدين كما يفرق السهم من الرمية، يقتلون جبل الخليل ولبنان. (٢)

بعد فتح مصر ابتنى داراً في الفسطاط سماها الدار البيضاء، وعاش فيها حتى آخر عهد عثمان رضي الله عنه، فخرج أمير الجيش الذي خرج من مصر إلى المدينة.

يقول ابن سعد: وكان فيمن رحل إلى عثمان حين حصر حتى قتل، وكان رأساً فيهم. (٣)

وبعد مقتل عثمان بن عفان، أخذ معاوية بغض المتهمين بقتله، وسجنهم بفسطين، ولكنهم هربوا. وقبل سجنه كان أول من بايع علي بن أبي طالب وقال: خذها إليك وأعلمنا أبا الحسن أن نمرؤ للأموال إمرؤنا الواسع. (٤)

يقول ابن الأثير: فأتبعوا حتى أخرجوا، فأهرك فارين منهم البقي (عديس) فقال له: ويحك، اتق الله في دمي، فإني من أصحاب الشجرة. فقال: والشجرة بها الخليل كثير، وقاتلوا عام ٣٦ للهجرة. (٥) وفي رواية: الشجرة بها الجليل كثير. (٦)

(١٠٤) عبد الرحمن الأكبر بن عمر بن الخطاب: شقيق عبد الله وحفصة، فأمهم

(١) الإصابة ٤ / ٢٥٥.

(٢) الإصابة ٣ / ٣٣٤.

(٣) الطبقات ٧ / ٥٠٩.

(٤) الأوائل ٢٠٠، والرئس هو ما يرم به على ألف الدابة ويقصد به سرعة الاستجابة والتلبية.

(٥) أسد الغابة ٣ / ٣٧٤.

مصر في الإسلام

زينب بنت مظعون، كناه رسول الله ﷺ (أبا عيسى)، وأراد عمر بن الخطاب أن يغير كنيته، فقال: يا أمير المؤمنين والله إن رسول الله ﷺ كنانى بها.

دخل عبد الرحمن في جيش عمرو فاتحاً، وعاش في مصر بعد الفتح، وتذكر الروايات أنه تعاطى الخمر، فحده^(١) عمرو بن العاص.

قال ابن حجر: هو الذى ضربه عمرو بن العاص فى مصر، ثم حمله إلى المدينة، فضربه أبوه عمر أدب الوالد، ثم مرض، فمات بعد شهر^(٢).

وإن كان ابن حجر نفسه فى مكان آخر يؤكد أن الذى حد ليس عبد الرحمن هذا، يقول:.. كان لعمر ثلاثة كلهم عبد الرحمن، هذا أكبرهم لا تحفظ له رواية، والثانى يكنى أبا شحمة، وهو الذى ضربه أبوه الحد فى الخمر لما شرب بمصر^(٣).

(١٠٥) عبد العزيز بن سخرية الغافقى: قال ابن الأثير: ابن سخر، كان اسمه عبد العزى، فسماه رسول الله ﷺ: عبد العزيز، وذلك عندما وفد عليه مع قومه، شهد فتح مصر.

(١٠٦) عبيد بن عمر المعافى: يقال: إنه أول من قرأ القرآن الكريم فى مصر.

(١٠٧) عتبة بن عمر بن صالح الرعينى: قال ابن الأثير: الذبحانى^(٤). وقال ابن حجر: عبيد بن عمر بن الرعينى، شهد فتح مصر، وله ذكر فى الصحابة^(٥).

(١٠٨) عنيسة بن عمرو الرعينى.

(١٠٩) عبيد (وقيل عتبة) بن النضر السكلى: قال عنه ابن حجر: صحابى نزل مصر وشهد الفتح^(٦).

له رواية فى سنن ابن ماجه، وهى قوله: سئل النبى ﷺ: يا رسول الله، أى

(١) حد الخمر ثمانون جلدة.

(٢) الإصابة ٥ / ٤٤.

(٣) السابق ٤ / ٣٤٠.

(٤) وقيل: الذبحان.

(٥) الإصابة ٤ / ٤١٥.

(٦) السابق ٥ / ١٦٣.

الأجلين قضى موسى عليه السلام ؟ قال: أوفاهما وأبرهما.

قال عنه ابن سعد: مات عام ٨٤ للهجرة. (١)

(١١٠) عثمان بن قيس بن أبي العاص السهمي: قال عنه ابن حجر: كان عابداً مجتهداً غزير الدمعة، دخل مصر في جيش الفتح مع أبيه قيس أول قاض في مصر الإسلامية، وبعد وفاة أبيه استعمله عمرو في القضاء، فكان ثاني قاض بعد الفتح.

قال ابن حجر: ولي قضاء مصر في آخر سنة من خلافة عمر بن الخطاب، واستمر على ذلك طول خلافة عثمان إلى أن صرف في عام ٤٢ للهجرة، في خلافة معاوية، وكان إذا حكم بين الناس يبكي ويقول: ويللن جار في حكمه. (٢)

وكان عثمان جواداً كريماً كأبيه، بنى أول دار ضيافة في الفسطاط، فقد كانت مركز استقبال المجاهدين القادمين من الجزيرة العربية، فهيأ لهم هذه الدار في عاصمة الولاية، وقام بأعبائها.

(١١١) عدى أبو زرارة بن عميرة الكندي: وقيل: الحضرمي، صحابي معروف، روى عن رسول الله ﷺ، انتقل بعد فتح مصر إلى الكوفة، وعاش بها حتى توفي عام ٤٠ للهجرة.

وقيل مات بالرها، وسبب تركه الكوفة قاله ابن الأثير: إنه لما ورد أمير المؤمنين عليّ رأى - عدى - من أهل الكوفة قولاً في عثمان، فقال في قومه: لا نقيم في بلد يشتم فيه عثمان، وخرجوا إلى معاوية. يقول ابن الأثير: وكان معاوية إذا قدم عليه أحد من أهل العراق، أنزلهم الجزيرة مخافة أن يفسدوا أهل الشام.. فأنزلهم الرها، وأقطعهم بها قطائع. (٣)

ومن مرويات عدى قوله في قصة إسلامه: كان بأرضنا حبر من اليهود، يقال له: ابن شهلاء، فقال لي: إني أجد في كتاب الله أن أصحاب الفردوس قوم يعبدون ربهم على وجوههم، والله ما أعلم هذه الصفة إلا فينا معشر اليهود، وأجد

(١) الطبقات ٧ / ٤١٣.

(٢) الإصابة ٤ / ٤٦٠.

(٣) أسد الغابة ٤ / ١٦.

نبيهم يخرج من اليمن، فلا أرى أن يخرج إلا منا، فوالله ما لبثنا حتى بلغنا أن رجلاً من بني هاشم قد تتباً، فذكرت حديث ابن شهلاء، فخرجت إليه، فإذا هو ومن معه يسجدون على وجوههم. (١)

وأورد ابن الأثير روايتين عن عدي، قوله: قال رسول الله ﷺ: أمروا النساء في أنفسهن - أي في الزواج -، الثيب تعرب عن نفسها، والبكر رضاؤها صمتها.

وقال: أتى رجلان يختصمان إلى النبي ﷺ في أرض، فقال أحدهما: هي لى. وقال الآخر: هي لى وغصبتها. فقال ﷺ: فيها اليمين للذى بيده الأرض، فلما أوقفوه ليحلف قال له النبي ﷺ: أما إنه من حلف على مال امرئ مسلم لقي الله عز وجل، وهو عليه غضبان. قال: فمن تركها له ؟ قال: له الجنة. (٢)

(١١٢) العرس بن عميرة الكندي: أخو عدي، شارك مع أخيه في فتح مصر، وروى أيضاً عن رسول الله ﷺ أحاديث منها قوله ﷺ: من كذب على متعمداً، فليتبوأ مقعده في النار.

(١١٣) عسجری بن مائع السكسكى: قال ابن الأثير: عجرى. أما ابن حجر فقال: عداده في المعافر، والصواب عسجری. (٣)

وقال ابن الأثير في أسد الغابة: عجرى.. من أصحاب رسول الله ﷺ، شهد فتح مصر، لا تعرف له رواية. (٤)

(١١٤) عقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف القرشي: كان من مسلمي الفتح، جاء إلى مصر مع عمرو بن العاص فاتحاً، وعاش فيها بعد ذلك، كان صديقاً لعبد الرحمن بن عمر، وشرب معه الخمر، فأقام عليهما عمرو حد الخمر، مات في مصر في خلافة عبد الله بن الزبير، قاله ابن حجر.

(١١٥) عقبة بن عامر بن عيس بن مالك الجهني: قال ابن عبد الحكم: كان عقبة

(١) الإصابة ٤ / ٤٧٧.

(٢) أسد الغابة ٤ / ١٥.

(٣) الإصابة ٥ / ٢٧٤.

(٤) أسد الغابة ٣ / ٦٠٢.

رسول عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص حين كتب إليه يأمره أن يرجع إن لم يكن قد دخل مصر. (١)

ثم شارك في فتحها، وعاش فيها، واختط بها، حتى تولى إمارتها عام ٤٤ للهجرة، ثم عزل وتولى بعده مسلمة بن مخلد عام ٤٧ للهجرة، وعاش في مصر راوية لحديث رسول الله ﷺ، ومعلماً للناس، حتى توفي عام ٥٨ للهجرة.

وقد روى أحاديث بلغت ٥٥ حديثاً، وقد أوردنا بعضاً منها في فصل (ولاية مصر).

(١١٦) عقبة بن كريم الخزرجي الأنصاري: وفي الإصابة: بن كديم بن عدى بن مالك بن النجار، قال عنه الذهبي: شهد أحداً وما بعدها.

وقال ابن حجر شهد المشاهد بعد أحد، وشهد فتح مصر، وعقبه بها. (٢)

(١١٧) عقبة بن نافع الفهري: من كنانة من قريش، ولد على عهد النبي ﷺ في السنة الأولى للهجرة، وهو ابن خالة عمرو بن العاص، وإن كان مصعب الزبيري صاحب كتاب (نسب قريش) أورد عقبة ضمن إخوة عمرو بن العاص من الأم، قال: وإخوة عمرو هم: عمرو بن أثانة العدوي، وأرنب بن عفيف بن العاص، وعقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري. (٣)

دخل عقبة في جيش عمرو الفاتح لمصر، وفي ولاية عمرو الثانية وجه عقبة قائداً فاتحاً عام ٤٢ للهجرة إلى إفريقية، ففتح كثيراً من تخوم السودان وكورها، قاله الذهبي. (٤) والمقصود بالسودان: حدود مصر جنوباً حتى أواسط إفريقية.

وفي عام ٤٦ للهجرة، توجه إلى بلاد المغرب، ففتح سرت وودان وفزان وغيرها.

حتى كان عام ٥١ للهجرة، فولاه معاوية إفريقية استقلالاً، ثم وجهه بجيش إلى غرب إفريقية، فتوغل فيها، حتى أتى وادي القيروان، فأعجبه، واختط فيه مدينة

(١) فتوح مصر ٩٤.

(٢) الإصابة ٤ / ٥٢٥.

(٣) نسب قريش ٤٠٩.

(٤) العبر ١ / ٥١.

القيروان، وبنى فيها مسجداً، مازال موجوداً إلى الآن.

وقد فصل ياقوت كيف بنى عقبة القيروان، ووصفها، قال: القيروان مدينة عظيمة بإفريقية، وليس بالغرب مدينة أجل منها، مصرت في الإسلام، في أيام معاوية رضي الله عنه..

وكان معاوية قد ولي عقبة بن نافع بن كنانة إفريقية، وكان مقيماً بنواحي برقة، منذ ولاية عمرو بن العاص، فجمع إليه من أسلم من البربر، وضمهم إلى الجيش الوارد من قبل معاوية، وسار في إفريقية، ونازل مدنها، فافتتحها عنوة، ووضع السيف في أهلها، وأسلم على يديه خلق من البربر، وفشا فيهم دين الله، حتى اتصل ببلاد السودان.

واختار موضع القيروان، وقال: إنما اخترت هذا الموضع لبعده عن البحر، لئلا تطرقها مراكب الروم، فتهلكها، وهي في وسط البلاد، ثم أمر أصحابه بالبناء، فقالوا: هذه غياض كثيرة السباع والهوام، فنخاف على أنفسنا هنا، وكان عقبة مستجاب الدعوة، فجمع من كان في عسكره من الصحابة، وكانوا ثمانية عشر، ونادى: أيتها الحشرات والسباع، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، فارحلوا عنا، فإننا نازلون، فمَن وجدناه بعد قتلناه.

فنظر الناس يومئذ إلى أمر هائل، كان السبع يحمل أشباله، والذئب يحمل أجراؤه، والحية تحمل أولادها، وهم خارجون أسراباً أسراباً، فحمل ذلك كثيراً من البربر على الدخول في الإسلام.

ثم اختط دار الإمارة، واختط الناس حوله، وأقاموا بعد ذلك أربعين سنة لا يرون فيها حية ولا عقرباً.^(١)

ولا يستطيع العقل أن يتصور منظر هذا الخروج، بل ليس في وسع قوة في الأرض أن تؤلف هذا الموكب من عناصره، بل إن الخيال يبدو عاجزاً عن وضع (سيناريو) للمشهد الهائل الذي شاركت فيه كل الكائنات على هذه الأرض، كما أنه عاجز عن تصور القوة التي حشدت تلك المخلوقات المهاجرة، لتؤلف زحفاً واحداً، أشبه شيء بما تشير إليه الآية الكريمة في وصف يوم الحشر: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ

(١) معجم البلدان ٤ / ٤٢١.

الأجداث سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿[المعارج: ٤٣]

وإذا كان نداء عقبة للحشرات والوحوش أمرا لها بمغادرة المنطقة، فلا تملك إلا أن تلبى نداءه، فما السر الذي كانت تتطوى عليه كلمات ذلكم الصحابي؟ وكيف استقبلت تلك الأمم حروف الكلمات ومضمونها؟.. إن أمرا من هذا القبيل مما يحير العقول ويذهلها!! ولا تفسير له إلا بأنه كرامة شرف الله بها عقبة الصحابي المؤمن الصادق!! في موقف تسامت نورانيته، كما جاء في الحديث القدسي: (عبدى، أعبدنى أجعلك عبدا ربانيا تقول للشئ كن فيكون)، وما أكثر هؤلاء الربانيين بين أصحاب محمد ﷺ، وهم في نظرنا -كانوا- مفاتيح النصر على الأعداء، وليس ما حققوه من انتصارات في مختلف بقاع الأرض حتى نشروا دين الله، وأخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور ليس ذلك إلا ضربا من ضروب (المعجزة) الحضارية على المستوى الدعوى والعالمى، وهو أيضا ضرب من ضروب (الكرامة) على مستوى نورانية الصحابة الربانيين.

وقد عاش عقبة فاتحاً لمدن وحصون المغرب، حتى بلغ البحر المحيط (الأطلسي).

يقول د. حسن عبد الوهاب: ووصل عقبة إلى المغرب الأقصى، ولم يصدّه عن تقدمه إلا المحيط الأطلنطي، فلما انتهى إلى البحر أقحم فرسه فيه، ورفع يديه إلى السماء ثم قال بأعلى صوته: اللهم اشهد أنى قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر، لمضيت في البلاد أقاتل من كفر حتى لا يُعْبَدَ أحدٌ من دونك. ثم قفل راجعاً.^(١)

وكان يزيد بن معاوية قد ولاه إمرة المغرب، وخرج مرة للغزو، وعند عودته تقدمته عساكره إلى القيروان، وبقي في عدد قليل، فطمع به الفرنج، وأطبقوا عليه، فقاتلهم قتال الأبطال، ولكنهم قتلوه ومن معه، ودفن بأرض الزاب^(٢) عام ٦٤ للهجرة.

(١) تاريخ تونس ٥٧.

(٢) يقول حسن حسنى عبد الوهاب في كتابه (تاريخ تونس. صفحة ٥٨): ويعرف هذا المكان اليوم باسم (سيدي عقبة) وهو بلد في وسط واحة صغيرة، غاية في الجمال، بالقرب من بسكرة، في الجنوب من ولاية قسنطينة.

ونستطيع أن نحيط بفلسفة هذا الجيل العظيم ودستور حياته إذا ما قرأنا وصية عقبة لأولاده، وهو خارج للغزو في المرة الأخيرة، وكأنما استشعر أنها ستكون خاتمة المطاف، فأوصاهم تلك الوصية التي جمعت فأوعت، جمعت مبادئ السلوك وأسباب المجد والغنى، وأصول الأمن النفسى الذى استمتع به هذا الجيل، ثم ورثه لبنيه من بعده، قال عقبة: يا بَنِيَّ إِنِّي بَعَثْتُ نَفْسِي مِنَ اللَّهِ، وَلَا أُدْرِي مَا يَقْضَى عَلَىَّ فِي سَفَرِي، يَا بَنِيَّ أَوْصِيكُمْ بِثَلَاثَ خِصَالٍ فَاحْفَظُوهَا وَلَا تُضَيِّعُوهَا: اْمَلُّوا صُدُورَكُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى اللَّهِ، وَخُذُوا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا تَهْتَدِي بِهِ أَلْسِنَتَكُمْ، وَيَدْلِكُمْ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَأَوْصِيكُمْ أَلَّا تَدَايِنُوا وَلَوْ بَعْتُمْ الْعِبَاءَ، فَإِنَّ الدِّينَ ذَلْ بِالنَّهَارِ، وَهُمْ بِاللَّيْلِ، فَدَعُوهُ تَسْلِمَ لَكُمْ أَقْدَارَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ، وَلَا تَقْبَلُوا الْعِلْمَ مِنَ الْمَغْرُورِينَ، فَيُفَرِّقُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَلَا تَأْخُذُوا دِينًا إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْوَرَعِ فَإِنَّهُ أَسْلَمَ لَكُمْ، وَمَنْ احْتَاطَ سَلَمَ وَنَجَا.^(١)

(١١٨) عكرمة بن عبيد الخولاني: قال ابن حجر: ذكر في الصحابة لكن لا تعرف له رواية.^(٢)

(١١٩) علقمة بن جنادة بن قيس الأزدي: بعد فتح مصر ولاه معاوية إحدى الغزوات البحرية، قال ابن حجر: له صحبة، وشهد فتح مصر، توفي عام ٥٩ للهجرة.^(٣)

(١٢٠) علقمة بن رمثة البلوي: كان مع من بايع رسول الله ﷺ تحت شجرة الرضوان، روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها قوله: بعث النبي ﷺ عمرو بن العاص إلى البحرين، ثم خرج في سرية، وخرجنا معه، فنعس ﷺ ثم استيقظ، فقال: رحم الله عمراً، فتذاكرنا كل إنسان اسمه عمرو، ثم نعس ثانية، فاستيقظ، فقال: رحم الله عمراً. ثم نعس الثالثة، فاستيقظ، فقال: رحم الله عمراً. فقلنا: من عمرو يا رسول الله ؟ قال: عمرو بن العاص. قالوا: وما باله ؟.

(١) الإصابة ٥ / ٦٥، وتاريخ تونس ٥٩. وقد زاد ابن حجر قوله: ولا تأخذوا الحديث عن رسول الله ﷺ إلا من ثقة.

(٢) الإصابة ٤ / ٥٤٠.

(٣) الإصابة ٤ / ٥٤٩.

قال: ذكرت أنى كنت إذا ندبت الناس للصدقة جاء من الصدقة فأجزل، فأقول له: من أين لك هذا يا عمرو ؟. فيقول: هو من عند الله. وصدق عمرو، إن لعمرو عند الله خيراً كثيراً.^(١)

وقد صاحب علقمة عمراً طوال حياته، وخاصة بعد الفتنة، وكان يقول: أتبع هذا الذى قال رسول الله ﷺ فيه ما قال، ولم أفارقه.^(٢)

(١٢١) علقمة بن يزيد المرادى الغطيفى: وفد على النبى ﷺ، ثم رجع إلى اليمن، ولما عاد إلى المدينة خرج فى الجيش الذى فتح مصر، وعاش فيها حتى ولاه عتبة بن أبى سفيان - أمير مصر - الإسكندرية، وذلك فى خلافة معاوية.

(١٢٢) عمرو بن شفو اليافعى: هكذا أورده السيوطى، أما ابن حجر وابن الأثير، فقالا: ابن سعواء، عن ابن يونس: شهد عمرو فتح مصر، وذكر فى الصحابة.^(٣)

(١٢٣) عمرو بن العاص: (أنظر فصل ولاية مصر).

(١٢٤) عمرو بن مرة بن عبس الجهنى: أسلم قديماً، وقال للنبى ﷺ: آمنت بكل ما جئت به من حلال وحرام، وإن أرغمت ذلك كثيراً من الأقوام.

وأخرج الطبرانى أن عمرو بن مرة أتى النبى ﷺ، فقال: ممن أنت ؟. قال: من قضاة. فقال ﷺ: أنت من اليد الطليقة، واللقمة الهنيئة، من حمير.^(٤)

قال عنه ابن سعد: كان فى عهد النبى ﷺ شيخاً كبيراً، وشهد معه كل المشاهد.^(٥)

شهد عمرو المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ثم شهد فتح مصر، وبعد الفتح سكن الشام.

(١) فتوح مصر ٣٠٢.

(٢) الإصابة ٤ / ٥٥١.

(٣) الإصابة ٤ / ٦٣٧.

(٤) الإصابة ٤ / ٦٨٢.

(٥) الطبقات ٤ / ٦٨.

وكان عمرو صريحاً في قول الحق، غير هيباب من إظهار رأيه مادام هو الصواب.

يروى ابن الأثير كيف كان يعظ معاوية الخليفة، قال: قال عمرو لمعاوية: يا معاوية إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من إمام - أو وال - يخلق بابيه دون ذوى الحاجة والخلة^(١) والمسكنة إلا أغلق الله عز وجل أبواب السماء دون حاجته وخلته ومسكنته. فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس.^(٢)

(١٢٥) عمير بن وهب الجمحي القرشي: كان من أبطال قريش وصناديدهم، جاء إلى المدينة بعد هزيمة قريش في بدر، وكان ناوياً على الغدر برسول الله ﷺ، والقصة بالتفصيل في أسد الغابة، ولما تأكد عمير أن رسول الله ﷺ على حق أسلم، وعاد إلى مكة يدعوهم للإسلام، ثم كان في جيش عمرو الفاتح لمصر.

(١٢٦) عنبة بن عدى: من بنى جُعل، من بنى صخر، ممن بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال ابن حجر: شهد عنبة الحديبية، وقال له ﷺ ولرھط من قومه: انتسبوا إليه، لا إلى جُعل، ولا إلى صخر، أنتم عبيد الله.^(٣)

وبعد غزو مصر عاد إلى الحجاز، وإن كان ابن ربيع الجيزي ذكره فيمن سكن مصر من الصحابة.

(١٢٧) عيسى بن ثعلبة بن هلال بن عيسى البلوي: وقال السيوطي: الجهني، بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. وقال ابن يونس: من أصحاب رسول الله ﷺ، وشهد فتح مصر.^(٤)

(١٢٨) عوف بن مالك بن نجوة: قال عنه ابن منده: له ذكر في الصحابة، وشهد فتح مصر، ولا تعرف له رواية.^(٥)

(١) الخلة: الفقر.

(٢) أسد الغابة ٤ / ٢٧٠.

(٣) الإصابة ٤ / ٧٣٤.

(٤) الإصابة ٤ / ٧٣٣.

(٥) ٥ / ١٦٦.

(١٢٩) عياض بن سعيد الأزدي: قال ابن حجر: ابن سعيد بن جبير بن عوف الأزدي. قال عنه ابن ربيع الجيزي: فيمن سكن مصر من الصحابة.

(١٣٠) غرفة بن الحارث الكندي اليمنى: كان من أهل الصفة، وشهد حجة الوداع، خرج مع عكرمة بن أبي جهل لمحاربة المرتدين في اليمامة، ثم خرج للشام فمصر.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، عاش في مصر بعد أن شارك في فتحها، وكان من أشرف أهلها.

روى ابن الأثير عنه رواية وهو في مصر، قال: سمع غرفة نصرانياً يشتتم النبي ﷺ - بمصر - فضرب النصراني فوق أنفه، فرفع إلى عمرو بن العاص، فقال له: إنا قد أعطيناهم العهد. قال غرفة: معاذ الله أن نعطيهم العهد على أن يظهروا شتم النبي ﷺ، وإنما أعطيناهم العهد على أن نخلى بينهم وبين كنائسهم، يقولون فيها ما بدا لهم، وأن لا نحملهم ما لا يطيقون، وإن أرادهم عدو قاتلنا دونهم، على أن نخلى بينهم وبين أحكامهم، إلا أن يأتونا راضين بأحكامنا، فنحكم بينهم، وإن اغتتوا عنا لن نتعرض لهم. قال عمرو: صدقت. (١)

(١٣١) فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس الأكصاري الأوسي: أسلم قديماً، وشهد مع رسول الله ﷺ أحداً، وما بعدها، وباع تحت الشجرة، وشارك في فتح مصر والشام، وولاه معاوية بن أبي سفيان قضاء دمشق بعد وفاة أبي الدرداء، توفي في دمشق عام ٥٣ للهجرة، وكان معاوية ممن حمل سريره، وكان يقول لابنه عبد الله بن معاوية: أعنى يا بني، فإنك لا تحمل بعده مثله.

التزم فضالة بسنة رسول الله ﷺ في كثير من أحواله، فقد قنع بعيش الكفاف، روى عن رسول الله ﷺ أكثر من عشرين حديثاً، منها قوله عليه السلام: يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير. (٢)

ومنها قوله ﷺ في حجة الوداع: ألا أخبركم بالمؤمن؟ من آمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى

(١) أسد الغابة ٤ / ٣٣٨.

(٢) فتوح مصر ٢٧٧.

الله عنه من الخطايا والذنوب.

وقال فضالة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: المجاهد من جهد نفسه، طوبى لمن هُدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع.

ورئى فضالة وهو يسوى قبور المسلمين في بلاد الروم، وقال: قال رسول الله ﷺ: سوا قبوركم بالأرض. (١)

(١٣٢) قتادة بن قيس بن حبش الصدفي: قال ابن حجر: شهد فتح مصر، وله بها خطة، وبه تعرف بركة الحبش (عين الصيرة اليوم).

(١٣٣) قدامة بن مالك بن خارقة بن مرة السلهمي: قال ابن الأثير: وفد على النبي ﷺ، وشهد فتح مصر هو وابنه سعد.

(١٣٤) قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري: من زهاد الصحابة، ومن دهاة العرب، وذوى الرأي والمكيدة في الحرب، اشتهر بطوله (٢)، وهو أحد الأجواد المشهورين، كانت له صحيفة يدور بها حيث دار، وينادى له مناد: هلموا إلى اللحم والثريد، وكان أبوه وجده يعلان فعله.

بعثه النبي ﷺ أميراً على سرية، يقول جابر بن عبد الله: فجهدوا، فنحر لهم قيس تسع ركائب.. فلما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا له شأن قيس، فقال: إن الجود من شيمة أهل ذلك البيت. (٣)

وكان قيس دائم الدعاء: اللهم ارزقني مالاً، فإنه لا يصلح الفعال إلا بالمال. (٤)

وقد روى قيس أحاديث عن رسول الله ﷺ منها قوله ﷺ: إن ربي حرم على الخمر والميسر والكوبة (٥) والقنين (٦)، وكل مسكر حرام.

(١) فتوح مصر ٢٧٧.

(٢) قال السيوطي: أدرك الإسلام عشرة، طول كل منهم عشرة أشبار، منهم قيس بن عبادة. (در السحابة ١٠٣)

(٣) فتوح مصر ٢٧٤.

(٤) الإصابة ٥ / ٤٧٣.

(٥) الكوبة: النرد.

(٦) القنين: كأس الخمر.

وفي رواية: وإياكم والغبراء، فإنها تلت خمر العالم.^(١)

وقوله ﷺ: من كذب على كذبة متعمداً فليتبوأ بيتاً من النار، ألا ومن شرب الخمر أتى عطشان يوم القيامة.^(٢)

تولى قيس إمارة مصر من قبل علي بن أبي طالب، ثم عزل، وشهد معه صفين، ثم كان مع الحسن بن علي، حتى صالح معاوية بن أبي سفيان عام الجماعة (عام ٤١ للهجرة)، فأقام في المدينة حتى توفي بها عام ٦٠ للهجرة. ولذلك تفصيل في فصل أمراء مصر.

(١٣٥) قيس بن أبي العاص بن عدي السهمي القرشي: كان في فتح مصر طليعة لعمر بن العاص، وبعد الفتح ولاء عمرو القضاء^(٣)، واختط لها داراً بجوار المسجد، كان هو وابنه عثمان من الأجواد الكرام، وصى عمر بن الخطاب عمرو بن العاص قائلاً: أنظر من قبلك ممن بايع تحت الشجرة، فافرض له مائتي دينار، وأتمها لنفسك لإمرتك، ولخارجة بن حذافة لشجاعته، ولقيس بن أبي العاص لضيافته.^(٤)

(١٣٦) قيسية بن كلثوم بن جياشة الكندي التجيبي: كان شريفاً مطاعاً في قومه، وفد على النبي ﷺ، وكان في فتح مصر على طليعة عمرو بن العاص.

وقيسية هو الذي وضع يده على الأرض المجاورة لحصن بابليون قبل فتح الإسكندرية، وعندما اختار عمرو وأصحابه موضع مدينة الفسطاط، قدم قيسية المكان الذي نزل فيه ليكون مسجد أول عاصمة إسلامية في مصر.

وقد مدح الشعراء أولاد قيسية ذاكرين هذه المكرمة، قال أبو مصعب في عبد الرحمن بن قيسية:

(١) فتوح مصر ٢٧٤. والغبراء: شراب مسكر يتخذ من الذرة.

(٢) فتوح مصر ٢٧٣.

(٣) قال الشيخ الخضري: عين عمرو أول قاض في مصر هو قيس بن أبي العاص السهمي، فهو أول من قضى بها في الإسلام. (تاريخ الأمم ٩ / ٢)

(٤) أسد الغابة ٣ / ٥٩٧. وفي الإصابة: مائة دينار.

مصر في الإسلام

وأبوك سلم داره وأباحه لجباه قوم ركع وسجود
وشاعر آخر اسمه أبو ثبان ممن حضر الفتح، يقول في قصيدة أخرى، منها:
وبابلون قد سعدنا بفتحها وحزنا لعمرك الله فيثاً ومغنا
وقيسية الخير بن كلثوم داره أباح حماها للصلاة وسلماً^(١)

(١٣٧) كريب بن أبرهة بن الصباح العامري: قال بصحبته بعض الرواة، كان في جيش عمرو في فتح مصر والإسكندرية، ثم كان ممن اختطوا بالجيزة، يقول ابن يونس: ... ولم يزل قصره بها إلى ما بعد الثلاثمائة.^(٢)

وعندما تولى عبد العزيز بن مروان^(٣) مصر، جعل كريياً على رباط الإسكندرية، تكريماً له لموقفه من مبايعة أبيه مروان بن الحكم، وعاش كريب في الإسكندرية، حتى توفي، ودفن بها عام ٧٨ للهجرة.

(١٣٨) كعب بن عدى بن حنظلة التتوخي: نصراني من أهل الحيرة، قدم على النبي ﷺ، وسمع صلاته وقراءته، وقالت أغلب الروايات: إنه أسلم زمن الرسول عليه السلام، وبعضها يقول بإسلامه بعد وفاته.

قال كعب: أقبلت في وفد الحيرة على رسول الله ﷺ، فعرض علينا الإسلام، فأسلمنا، ثم انصرفنا إلى الحيرة، فلم نلبث أن جاءتنا وفاة رسول الله ﷺ، فارتاب أصحابي، وقالوا: لو كان نبياً لم يمت، فقلت: فقد مات الأنبياء قبله، فثبت على الإسلام.

ثم ذكر كعب كيف أكد له الراهب الذي عرج عليه صدق نبوءة محمد، حتى قال: فاشتدت بصيرتي في إيماني.

وهناك رواية لكعب يذكر فيها أنه لم يسلم حقاً إلا حياة أبي بكر، يقول: كان أبي أسقف الحيرة، فلما بعث محمد قال: هل لكم أن يذهب نفر منكم إلى هذا الرجل، فتسمعوا منه؟ لا يموت غداً، فتقولوا: لو أنا سمعنا من قوله، وقد كان على حق؟

(١) الخطط ٣ / ١٨٨.

(٢) الإصابة ٥ / ٦٤٢.

(٣) تولى من عام ٦٥ إلى عام ٨٦ للهجرة.

مصر في الإسلام

فاختاروا أربعة... فكنا نجلس إليه إذا صلى الصبح، فنسمع كلامه والقرآن، لا ينكرنا أحد، فلم نلبث يسيراً حتى مات ﷺ، فقال الأربعة: لو كان أمره حقاً، لم يمت، فذهبوا، ومكثت أنا لا مسلماً ولا نصرانياً، فلما بعث أبو بكر جيشاً إلى اليمامة، ذهبت معهم، فلما فرغوا، مررت براهب.. فوقع في قلبي الإيمان فأمنت. (١)

قال ابن يونس: شهد فتح مصر، واختط بها، وكان ولده بمصر يأخذون العطاء في بني عدى بن كعب، حتى نقلهم أمير مصر في زمن يزيد بن عبد الملك إلى ديوان قضاة.. وله بمصر حديث. (٢)

ولم يرد لنا خروجه من مصر بعد أن دخلها فاتحاً، فهو إذن من الصحابة الذين ماتوا في مصر.

(١٣٩) كعب بن يسار بن ضبة العبسي: كان قاضياً في الجاهلية، وعندما دخل مصر مع الجيش الفاتح، جعله عمرو بن العاص على القضاء قبل قيس بن أبي العاص السهمي، وبُني هذا الخبر على رواية لحفيد كعب، قال فيها: قضى جدى بمصر والياً للقضاء شهرين، حتى أعفاه عمر بن الخطاب. (٣)

وهناك رواية للسيوطي يقول فيها: كتب عمر إلى عمرو بن العاص أن يستقضى كعب بن يسار، فقال كعب: لا والله لا ينجيني الله من ذلك في الجاهلية، ثم أعود إليه. وأبى أن يقبل، فتركه عمرو، وولى قيس بن أبي العاص. (٤)

وبعد مشاركة كعب في الفتح، اختط له داراً بجوار المسجد.

يقول ابن عبد الحكم: وكان يقال لزقاق القناديل زقاق الأشراف، لأن عمراً كان على طرفه مما يلي المسجد الجامع، وكعب بن ضبة على طرفه الآخر مما يلي سوق البربر. (٥)

(١) الإصابة ٥ / ٦٠١.

(٢) الإصابة ٥ / ٦٠٢.

(٣) الإصابة ٥ / ٦١٤.

(٤) در السحابة ١٠٤.

(٥) فتوح مصر ١١١.

(١٤٠) لاحتب بن مالك بن سعد الله البلوى: ممن بايع تحت الشجرة، وروى أحاديث عن رسول الله ﷺ.

(١٤١) لبيد بن عقبة التجيبي.

(١٤٢) لصيب بن جيثم بن حرمة - هكذا في حسن المحاضرة -: قال ابن حجر: خيثم. وقال ابن الأثير: جُثم. قال ابن يونس: شهد فتح مصر، له ذكر في الصحابة. (١)

(١٤٣) لقيط بن عدي اللخمي: قال عنه الذهبي: من الصحابة المعدودين بمصر (٢)، كان على كمين جيش عمرو بن العاص وقت فتح مصر. وقال ابن يونس: له ذكر في الصحابة. (٣)

(١٤٤) ليشرح بن لحي الرعياني: زاد ابن حجر: بن لحي بن مخمر، شهد فتح مصر، وله ذكر في الصحابة.

(١٤٥) مالك بن زاهر بن الربيع (وقيل: ابن زهر): قال ابن حجر: عن ابن حبان: لمالك صحبة. وقال البخاري: أدرك النبي ﷺ.

(١٤٦) مالك بن أبي سلسلة الأزدي الطائي: أحد الأبطال المشهورين في فتح مصر، كان أول الناس صعوداً على حصن بابلليون، عندما وضع الزبير السلم. قال عنه ابن حجر: له إدراك.

(١٤٧) مالك بن عتاهية بن حرب بن أشرس الكندي التجيبي: ذكره ابن عبد الحكم فيمن كان في فتح مصر، وروى أحاديث عن رسول الله ﷺ، وقد عاش في مصر بعد فتحها.

(١٤٨) مالك بن قدامة بن خارجة بن سلهم: قال ابن يونس: له إدراك، وشهد فتح مصر هو وأبوه قدامة، وسكن هو وأبوه (دلاص) (٤) من صعيد مصر.

(١) الإصابة ٥ / ٦٨٣.

(٢) سير أعلام النبلاء

(٣) الإصابة ٥ / ٧٢٦.

(٤) دلاص: من أعمال البهنسا، كورة بصعيد مصر على غربى النيل. (معجم البلدان ٢ / ٤٥٩)، وهى الآن في محافظة المنيا.

(١٤٩) مالك بن هبيرة بن خالد بن ثعلبة بن عقبة السكوني الكندي: بعد مشاركته في فتح مصر، عاش في الشام، وولاه معاوية (حمص) عام ٥٢ للهجرة، وعاش فيها حتى مات زمن مروان بن الحكم عام ٦٥ للهجرة، ودفن بجوار خالد بن الوليد، روى عن رسول الله ﷺ أحاديث.

(١٥٠) مبرح بن شهاب بن الحارث بن شرحبيل اليافعي الرعيني: قال ابن يونس: وفد على النبي ﷺ في أربعة نفر، ثم شهد فتح مصر. (١)

وفي الفتح جعله عمر بن العاص على الميسرة، استقر بالجيزة، واختلط بها هو وأخوه برح بن شهاب، وعاشا فيها حتى توفيا، يقول السيوطي: وخطته بالجيزة معروفة.

(١٥١) محمد بن بشير الأنصاري: روى عن رسول الله ﷺ أحاديث منها قوله ﷺ: إذا أراد الله بعبد هواناً، أنفق ماله في البنين. (٢) وربما كان أحد أبناء الزبير بن العوام.

(١٥٢) محمد بن جابر بن عراب بن عيس العكي: قال ابن الأثير: ابن غراب، ممن وفد على النبي ﷺ.

(١٥٣) محمد بن الزبير: هكذا ذكر جورجى زيدان. (٣) وربما كان أحد أبناء الزبير بن العوام.

(١٥٤) محمد بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي: أسلم مع أبيه، وخرج معه في الفتوح، ثم كان مع أخيه عبد الله في فتح مصر، وعاش فيها حتى عزل أبوه عن ولاية مصر عام ٢٥ للهجرة، فسكن مع عمرو فلسطين، حتى بويع لعلي بن أبي طالب، وطلب معاوية من عمرو اللحاق به في الشام، فاستشار عمرو ولديه عبد الله ومحمداً، وكان رأى عبد الله أن يبقى حتى يرى ما يستقر عليه الأمر، أما محمد فقد قال: أنت فارس أبيات العرب، فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر، وليس لك فيه ذكر. فقال عمرو قولته

(١) الإصابة ٦ / ٧.

(٢) الإصابة ٥ / ٧٦٢.

(٣) تاريخ مصر الحديث ١ / ١١٦.

المشهور: يا عبد الله لقد أشرت علىّ بما هو خير لآخرتي، وأنت يا محمد أشرت علىّ بما هو أنبه لي في دنياي.^(١)

وشد عمرو الرحال مع ولديه إلى معاوية، وشاركوا في صفين، ثم عادوا إلى مصر.

وقد روى محمد حديثاً عن رسول الله ﷺ.

ومحمد بن عمرو هو صاحب حكاية المصري المضروب، عن أنس أن رجلاً من أهل مصر أتى المدينة، فقال: يا أمير المؤمنين أعوذ بك من الظلم. قال: قد عدت معاذاً. قال: سابقت ابن عمرو بن العاص، فسبقتة، فجعل يضربني بالسوط، ويقول: أنا ابن الأكرمين.

فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم، ويقدم ابنه معه، فقال عمر: أين المصري؟، خذ السوط فاضرب. فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين. قال أنس: فضرب، فوالله لقد ضربه، ونحن نحب ضربه، فما أفلح عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه، ثم قال عمر للمصري: ضع على صلعة^(٢) عمرو. فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي يضربني، وقد اشتفيت منه. فقال عمر لعمرو: مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟. قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني.^(٣)

(١٥٥) محمد^(٤) بن مسلمة بن خالد بن عدى الأوسى الأنصاري: من فضلاء الصحابة، أسلم على يد مصعب بن عمير قبل الهجرة، وبعد الهجرة، شهد مع رسول الله ﷺ جميع المشاهد إلا تبوك، لأن النبي ﷺ استخلفه على المدينة.

خرج مع عمرو في فتح مصر، وكان ممن صعد حصن بابلين مع الزبير ابن العوام، وبعد الفتح عاد إلى المدينة، ثم رجع إلى مصر من قبل عمر بن

(١) الإصابة ٦ / ٢٨.

(٢) صلعة: رأس.

(٣) فتوح مصر ١٦٨.

(٤) ولد قبل البعثة بحوالي ٢٢ سنة، وهو أحد من سموا محمداً في الجاهلية. وقد عدهم صاحب (المحبر) ص ١٣٠ سبعة أشخاص عدا رسول الله ﷺ.

الخطاب ليحاسب عمرأ، ويقتسم ماله.

يقول الشيخ الخضري: وكان هناك عامل مخصوص يقتص آثار العمال، فيرسله عمر إلى كل شكوى، يحققها في البلد الذي حصلت فيه، وكان ذلك العمل موجهاً إلى محمد بن مسلمة، الذي كان يثق به عمر ثقة تامة، وكان أهلاً لتلك الثقة، ولم يكن من دأب محمد بن مسلمة أن يحقق تحقيقاً سرياً، وإنما كان يسأل من يريد سؤاله علناً، وعلى ملاء من الأشهاد.^(١)

ودخل محمد مصر، واتجه إلى الوالي عمرو لمحاسبته. قال ابن عبد الحكم: أهدى له عمرو بن العاص هدية، فردها عليه، فغضب عمرو، وقال: يا محمد، لم رددت إليّ هديتي، وقد أهديت إلى النبي ﷺ مقدمي من غزوة ذات السلاسل، فقبل؟ فقال له محمد: إن رسول الله ﷺ كان يقبل بالوحي ما شاء، ويمتنع ما شاء، ولو كانت هدية الأخ لأخيه، قبلتها، ولكنها هدية إمام، شرّ خلفها.

فقال عمرو: قبح الله يوماً صرت فيه لعمر بن الخطاب والياً، فلقد رأيت العاص بن وائل يلبس الديباج المزور بالذهب، وإن الخطاب بن نفيل ليحمل الحطب على حماره بمكة. فقال له محمد بن مسلمة: أبوك العاص وأبوه الخطاب في النار، ولكن عمر خير منك، ولولا اليوم الذي أصبحت فيه تذم لألفيت معتقلاً عنزاً يسرك غزرها، ويسوؤك بكؤها. فقال عمرو: فلتة المغضب، وهي عندك أمانة. ثم أحضر ماله، فقاسمه إياه، ثم رجع.^(٢)

وبعث عمر بن الخطاب محمد بن مسلمة كذلك إلى الكوفة، ليحاسب سعد ابن أبي وقاص، عندما سمع ببنائه قصراً، وجعل عليه باباً، فأمر محمداً أن يحرق هذا الباب، ففعل. وقد كان أمير المؤمنين عمر يكره أن يكون للولاة أبواب تحجبهم عن الرعية.

ومحمد ممن اعتزلوا الفتنة، قال: أعطاني رسول الله ﷺ سيفاً، فقال: قاتل به المشركين ما قاتلوا، فإذا رأيت أمتي يضرب بعضهم بعضاً فأت به (أحداً) فاضرب به حتى ينكسر، ثم اجلس في بيتك حتى تأتئك يد خاطئة أو منية قاضية، ففعل.^(٣)

(١) تاريخ الأمم ٢ / ٦.

(٢) فتوح مصر ١٤٦. والغزر: اللبن أو كثرته، والبكاء: قلة اللبن.

(٣) الإصابة ٦ / ٣٤.

ولم يشهد الجمل ولا صفين، وإنما عاش في المدينة، حتى توفي بالربذة عام ٤٣ للهجرة في صفر، قبل عمرو بن العاص بقليل.

(١٥٦) محمية بن جزء بن عبد يغوث الزبيدي: من مهاجري الحبشة، وحليف بني جمح، وهو ابن عم الصحابي عبد الله بن الحارث أحد شهود فتح مصر، قيل: إنه شهد بدرًا مع النبي ﷺ، ولكن ابن سعد يقول: شهد المريسيع في بني المصطلق، واستعمله رسول الله ﷺ على الخمس وسُهمان المسلمين، ثم استعمله على الأخماس بعد ذلك. (١)

عاش في مصر بعد أن شارك في فتحها، وقد تزوج عبد الله بن عمرو بن العاص من أم محمد بنت محمية بن جزء، وولدت له محمدًا، ذكره صاحب نسب قریش.

(١٥٧) المستورد بن سلامة بن عمرو الفهري: صحابي شهد فتح مصر، واختلط بالفسطاط، ثم انتقل إلى الإسكندرية، وعاش فيها حتى مات عام ٤٥ للهجرة.

(١٥٨) المستورد بن شداد القرشي الفهري: شارك في فتح الكوفة، وعاش فيها، ثم جاء مصر في جيش عمرو بن العاص، واختلط بها.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، ذكر ابن عبد الحكم منها ستة أحاديث، روى المستورد قول رسول الله ﷺ: ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فليُنظر بم يرجع. (٢)

وقوله ﷺ: من مات مشركًا، فلا تسلم عنه، ومن مات وقد قتل مؤمنًا، فلا تسلم عنه، ومن مات وهو عاصٍ، فلا تسلم عنه.

وقوله أيضًا: من ولي لنا عملاً، ولم يكن له خادم فليكتسب خادماً، ومن لم يكن له مسكن، فليكتسب مسكناً، ومن لم يكن له دابة، فليكتسب دابة، فمن أصاب سوى ذلك، فإنه غالٍ سارق.

وقال المستورد: رأيت رسول الله ﷺ يدلك بخنصره ما بين أصابع رجله،

(١) الطبقات ٧ / ٤٩٧.

(٢) الإصابة ٦ / ٩٠.

وهو يتوضأ بالجحفة. (١)

وقد عاش المستورد في مصر حتى توفي بها في خلافة معاوية.

(١٥٩) مسلمة بن مخلد: (أنظر فصل ولاية مصر).

(١٦٠) مطعم بن عبدة البلوي: ممن دخل مصر فاتحاً، روى عن رسول الله ﷺ قوله: عهد إلى رسول الله ﷺ أن أسمع وأطيع، وإن كان على أسود مجدع الأطراف. (٢) روى ذلك أيام الفتنة.

(١٦١) معاذ بن أنس الجهني: بعد مشاركته في فتح مصر، روى عنه المصريون أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، وصلت إلى الخمسين حديثاً، منها: ما ذكره ابن عبد الحكم:

قال رسول الله ﷺ: من قرأ قل هو الله أحد، إحدى عشرة مرة حتى يختمها، بنى الله له بيتاً في الجنة، فقال عمر بن الخطاب: إذا نستكثر يا رسول الله ؟ قال: الله أكثر وأطيب.

قال ﷺ: أفضل الفضائل أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتصفح عن ظلمك.

قال ﷺ: من ثبت في مصلاه حين ينصرف من الصبح حتى يسبح ركعتي الضحى لا يقول إلا خيراً، غفرت له خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر.

قال ﷺ: من كان صائماً، وعاد مريضاً، وشهد جنازة، غفر له، إلا أن يحدث من بعد.

قال ﷺ: من كظم غيظه، وهو يقدر على أن ينتصر، دعاه الله على رءوس الأشهاد حتى يخيره في حلل الإيمان.

قال ﷺ: من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه. ومن لبس ثوباً، فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه.

(١) فتوح مصر ٧ / ٤٩٧.

(٢) الإصابة ٦ / ١٣١.

مصر في الإسلام

قال ﷺ: من بنى بنياناً في غير ظلم ولا اعتداء، أو غرس غرساً في غير ظلم ولا اعتداء، كان له أجراً جانياً ما انتفع به أحد من خلق الله.

عن معاذ بن أنس، قال: سأل معاذ بن جبل رسول الله عن أفضل الإيمان ؟. قال: أن تحب لله، وتبغض لله، وتعمل لسانك في ذكر الله. قال: وماذا يا رسول الله ؟. قال: أن تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك، وأن تقول خيراً أو تصمت. (١)

(١٦٢) معاوية بن خديج السكوني التجيبي الكندي: سماه الذهبي: قائد الكتاب بشجاعة.

ذكره ابن سعد فيمن تولى مصر من الصحابة، وقصة هذه الولاية: أنه كان مع معاوية، وشهد معه صفين، وأخذ له البيعة من أهل مصر، بعد قتل محمد بن أبي بكر، وجاء عمرو بن العاص، وتسلمها، ثم غزا المغرب وصقلية.

قال الزريكي: بقيت في مصر ذريته إلى القرن الثامن للهجرة، وله في إفريقية آثار منها آبار في القيروان، تعرف بآبار خديج، وفي فتح مصر كان هو البشير لعمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية، ثم خرج مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح لغزو النوبة والسودان، فذهبت إحدى عينيه بها، وذلك عام ٢٦ للهجرة، وخرج بعد ذلك في غزو المغرب ثلاث مرات: الأولى عام ٣٤ للهجرة، والثانية في عام ٤٩ للهجرة، والثالثة عام ٥٠ للهجرة، ثم عاد إلى مصر، وعاش فيها، حتى توفي عام ٥٢ للهجرة.

روى ابن الأثير حواراً دار بين السيدة عائشة رضي الله عنها وبين بعض جنود معاوية بن خديج، قالوا: دخلنا على عائشة فسألتنا: كيف كان أميركم في غزائكم ؟. فقالوا: ما نقمنا عليه شيئاً، وأثثوا عليه خيراً، قالوا: إن هلك بعير أخلف بعيراً، وإن هلك فرس أخلف فرساً، وإن أبق خادم أخلف خادماً. فقالت: استغفر الله، إن كنت لأبغضه من أنه قتل أخي (٢)، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم

(١) فتوح مصر ٢٩٧.

(٢) تقصد محمد بن أبي بكر، الذي كان والياً على مصر من قبل علي بن أبي طالب.

من رفق بأمّتي فافرق به، ومن شق على أمّتي، فاشقق عليه. (١)

وقد روى معاوية أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها: قال ﷺ: روحه في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها. (٢)

(١٦٣) معيقب بن أبي فاطمة الدوسي: حليف بني أمية، هاجر الهجرتين، وشهد بدرًا، وما بعدها، كان على خاتم النبي ﷺ، ثم استعمله أبو بكر وعمر على بيت المال، وشهد فتح مصر، ولما عاد استعمله عثمان على الخاتم، وهو نفس خاتم رسول الله ﷺ الذي تختم به أبو بكر وعمر وعثمان، ثم سقط منه في بئر أريس، ولم يعثر عليه.

قال ابن سعد: توفي معيقب في خلافة عثمان. (٣)

(١٦٤) المقداد بن عمرو بن ثعلبة الكندي: تنبأه الأسود بن عبد يغوث، فكان يقال: المقداد بن الأسود، حتى نزل قوله تعالى: (أدعوهم لأبائهم) فدعى المقداد ابن عمرو.

أسلم قديماً، وتزوج ابنة عم الرسول ﷺ: ضباعة بنت الزبير، وسبب هذه الزيجة أنه طلب الزواج من ابنة عبد الرحمن بن عوف، فغضب عبد الرحمن وأغلظ له، فشكا ذلك للنبي ﷺ، فقال: أنا أزوجك، وزوجه ضباعة. (٤)

شهد المقداد بدرًا، وكان الفارس الوحيد بها، ثم شهد بقية المشاهد مع رسول الله ﷺ، استعمله رسول الله ﷺ على سرية، ولما رجع، قال له ﷺ: كيف رأيت الإمارة أبا معبد؟ قال: خرجت يا رسول الله، وما أرى فضلاً لي على أحد من القوم، فما رجعت إلا وكأنهم عبيد لي. قال: كذلك الإمارة يا أبا معبد، إلا من وقاه الله شرها. قال: والذي بعثك بالحق، لا أعمل على عمل أبداً. (٥)

روى عن رسول الله ﷺ أحاديث عن مواقف مشرفة منها ما رواه أبو أيوب

(١) أسد الغابة ٥ / ٢٠٧.

(٢) فتوح مصر ٣٠٨.

(٣) الطبقات ٤ / ٨٨.

(٤) الإصابة ٦ / ٢٠٣.

(٥) فتوح مصر ١٠١.

الأنصاري- قبل بدر، قال: قال لنا رسول الله ﷺ، ونحن بالمدينة- بعد أن أخبر بعير أبي سفيان مقبلة-: هل لكم أن نخرج، فنلتقى هذه العير لعل الله يغنمناها؟ قلنا: نعم.

فخرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين، قال لنا: ما ترون في القوم؟ فإنهم قد أخبروا بخروجكم؟ قلنا: لا، والله يا رسول الله ما لنا بطاقة بقتال العدو، ولكننا أردنا العير. قال: ما ترون في قتال العدو؟ قلنا: لا طاقة لنا بقتالهم. وهنا وقف المقداد بن عمرو، فقال: يا رسول الله امض لما أمرت به فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق نبياً لو سرت بنا إلى برك الغماد^(١)، لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه. فقال له ﷺ خيراً، ودعا له.

وتقول رواية ابن عبد الحكم: فقال أبو أيوب: فتمنينا معشر الأنصار لو أننا قلنا كما قال المقداد، أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم.^(٢)

وشارك المقداد في فتح الشام ومصر والمغرب، ثم عاد إلى مصر، قال ابن عبد الحكم: غزا عبد الله بن سعد المغرب مع المقداد بإفريقية، فلما رجعوا، قال عبد الله للمقداد في دار بناها: كيف ترى بنيان هذه الدار؟ فقال له: إن كان من مال الله فقد أسرفت، وإن كان من مالك فقد أفسدت. فقال عبد الله بن سعد: لولا أن يقول قائل أفسد مرتين، لهدمتها.^(٣)

وترك المقداد مصر، وعاش في المدينة حتى توفي عام ٣٣ للهجرة، عن سبعين عاماً، وصلى عليه الخليفة عثمان بن عفان، وكان رضى الله عنه قد أوصى للحسن والحسين بستة وثلاثين ألفاً، ولأمهات المؤمنين لكل واحدة بسبعة آلاف درهم.^(٤)

(١) برك الغماد: موضع وراء مكة بخمس ليال، قبل اليمن. (معجم البلدان).

(٢) فتوح مصر ٢٦٨.

(٣) فتوح مصر ١١٠.

(٤) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٨٩.

(١٦٥) المهاجر مولى أم سلمة: عاش في كنف رسول الله ﷺ قرابة عشر سنين، قال: خدمت رسول الله ﷺ سنين - عشر سنين أو خمس سنين - فلم يقل لشيء صنعت له لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته لم تركته ؟.

وعندما خرج عمرو بن العاص لفتح مصر، كان معه المهاجر، وبعد الفتح لم يترك مصر، وإنما اختط بالفسطاط، وبعد أن عاش بها مدة، رحل إلى صعيد مصر، وعاش في بلد تسمى (طحا)^(١) حتى مات.

(١٦٦) نبيه بن صواب (وقيل صواب) المهري (وقيل الجهني): وفد على النبي ﷺ، وشهد فتح مصر، وكان أحد مؤسسي الجامع العتيق، ورابع أربعة أقاموا قبلته.

(١٦٧) مقسم بن بجرة بن حارثة الكندي التجيبي: قال ابن يونس: أسلم في حياة رسول الله ﷺ، وبايع معاذ بن جبل في اليمن، وشهد فتح مصر، وكان قاتل أهل الردة.^(٢)

(١٦٨) النضر بن بشير بن عمرو المزني: قال ابن حجر: له إدراك، وشهد فتح مصر، واختط بها، ثم ولي ابنه القضاء بها عام ٧٢ للهجرة، ومات النضر بمصر عام ٨٩ للهجرة.

(١٦٩) النعمان بن جزء بن النعمان بن قيس بن سعد العطيقي: قال ابن يونس: وفد على النبي ﷺ، وشهد فتح مصر.. وله أخ يقال له هاني شهد فتح مصر، ولهما جميعاً صحبة.^(٣)

(١٧٠) هاني بن جزء بن النعمان المرادي: وفد على النبي ﷺ، وشهد فتح مصر مع أخيه النعمان.

(١٧١) هبيب بن مغفل الغفاري: بعد فتح مصر اختط بها وعاش فيها، حتى كانت الفتنة، فاعتزل الناس في واد بين مريوط والفيوم، يقال له: وادي هبيب.

(١) طحا: كورة بمصر شمالي الصعيد، غربي النيل. (معجم البلدان)

(٢) الإصابة ٦ / ٢٠٥.

(٣) أسد الغابة ٥ / ٤٧٨.

روى عنه أحمد: أنه رأى رجلاً يجر إزاره، فنظر إليه هبيب، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من وطئته - أى الإزار - من الخيلاء، وطئته في النار. (١)

(١٧٢) هوذة بن عرفة الحميري: وفد على رسول الله ﷺ مع قومه من حمير، وشهد فتح مصر. (٢)

(١٧٣) يحيى بن يعمر الرعيني: قال ابن حجر: شهد فتح مصر، وكان رأساً في الطلب بدم عثمان، ذكر فيمن أدرك النبي ﷺ، ولم يشاهده. (٣)

(١٧٤) يريم بن عامر بن سعد بن ذهل الرعيني: قال ابن يونس: له إدراك (٤)، وشهد فتح مصر هو وأخوه عقبة. (٥)

(١٧٥) يزيد بن أحمد المرادي: ذكره ابن حجر فيمن شهد فتح مصر من الصحابة. (٦)

(١٧٦) يزيد بن أنيس بن عبد الله بن عبد الرحمن الفهري: شهد حنيناً مع رسول الله ﷺ، حضر فتح مصر، ثم بنى بها داراً سماها بدار السلسلة، ونزل الشام، واستشهد فيها.

روى عن رسول الله ﷺ أحاديث منها قوله: كنت مع النبي ﷺ في غزوة حنين، فسرنا في يوم قاتظ شديد الحر، فنزلنا تحت ظلال الشجر، فلما زالت الشمس، ركبت فرسى، وأتيت رسول الله ﷺ، وهو في فسطاط له، فقلت له: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، قد حان وقت الرواح. ويقصد بالرواح: الصلاة. فقال: أخبر بلالاً. (٧)

(١) أسد الغابة ٥ / ٣٨٦.

(٢) الإصابة ٦ / ٦٩٦.

(٣) السابق.

(٤) له إدراك: أى أدرك حياة الرسول ﷺ، ولم يلتق به.

(٥) الإصابة ٦ / ٦٩٧.

(٦) الإصابة ٦ / ٦٤٨.

(٧) أسد الغابة ٥ / ٤٧٨.

(١٧٧) يزيد بن ملجم المرادي: أخو عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب. قال ابن يونس: له إدراك، وشهد فتح مصر. (١)

(١٧٨) أبو أيوب الأنصاري، خالد بن زيد بن كليب النجاري الخزرجي الأنصاري: شهد العقبة وبدراً وأحداً وكل المشاهد مع رسول الله ﷺ، وكان بيته أول منزل لرسول الله ﷺ في المدينة حتى بنى الحجرات والمسجد، وكان النبي ﷺ قد أقام في بني عمرو بن عوف خمس ليال قبل أن يخرج إلى المدينة، فكان كل قوم يدعونه لينزل عندهم، فيقول لهم: اتركوها- أي: الناقة- فهي مأمورة، حتى بركت على باب أبي أيوب، وهناك أمر رسول الله ﷺ ببناء المسجد.

وقد لفت نظرنا طرفة ذكرها الرحالة بيرتون في كتابه عن رحلته إلى مصر والحجاز، ذكر فيها بعض تفاصيل عن تاريخ المدينة المنورة، منها حديثه عن تبّع اليمنى الذي دان باليهودية، وكان أول من كسا الكعبة، قال بيرتون: وبعد أن شيد داراً للنبي المرتقب، عاد لحاضرة بلاده في اليمن، وأبطل الوثنية، واستخدم طريقة التعذيب بالنار للتأكد من صدق التحول عن الوثنية... وكتب وهو على فراش الموت ما يلي: أشهد بصدق أحمد الصادق، أشهد أنه رسول الله خالق الأرواح، وإذا امتد بي الأجل لأشهد أيامه لكنت له وزيراً وابن عم.

وبعد أن ختم الورقة بخاتمه قدمها لرئيس الأحرار اليهود لتكون وديعة عنده مع وصية مهيبة بأن يسلم الخطاب- إذا أتحت الفرصة، للنبي العظيم، وإذا بعد يوم ظهوره ﷺ، فلا بد أن تتوارث الأجيال هذه الرسالة، حتى يتم تسليمها له.

أما المنزل الذي شيده تبع في المدينة ليكون مقراً للرسول الخاتم، فقد سلمه للجد الذي كان أبو أيوب الأنصاري أحد أفراد سلالته، وكان أبو أيوب هو أول شخص يمر الرسول ﷺ ببيته، بعد أن أنهى رحلة الهجرة.

وكان أبو أيوب يحتفظ بخطاب تبع، وهكذا وصل الخطاب الذي كتبه تبع إلى الرسول ﷺ بعد ثلاثة قرون أو أربعة. (٢)

(١) الإصابة ٦ / ٧٠٦.

(٢) رحلة بيرتون ٢ / ٦٩.

مصر في الإسلام

وقد التزم أبو أيوب بقوله تعالى (انفروا خفافاً وثقالاً) طوال حياته، فكان مع النبي ﷺ، ثم انتقل إلى الشام ومصر، وشارك في فتحهما.

ولما تولى علي بن أبي طالب الخلافة، كان معه في الجمل وصفين والنهروان، ثم خرج في جيوش معاوية بن أبي سفيان لفتوحات الروم براً وبحراً، حتى إنه جاء مصر مرة عام ٤٦ للهجرة عن طريق البحر.

وفي عام ٥٠ للهجرة خرج في جيش بقيادة يزيد بن معاوية، وتوغلوا إلى الشمال من أرض الروم، ومرض أبو أيوب وعاده يزيد، وقال له: ما حاجتك؟ قال: حاجتي إذا أنا مت، فاركب، ثم سُنْغ^(١) في أرض العدو ما وجدت مساغاً، فادفني، ثم ارجع. فلما مات حملة يزيد حتى اقترب من أسوار القسطنطينية، ودفنه هناك بجوار السور، بعد أن صلى عليه.

قال ابن الأثير: إن الروم قالت للمسلمين في صبيحة دفنهم لأبي أيوب: لقد كان لكم الليلة شأن؟ قالوا: هذا رجل من أكابر صحابة نبينا، وأقدمهم إسلاماً، وقد دفناه حيث رأيتم، والله لئن نبش لا ضربت لكم بناقوس في أرض الغرب، ما كانت لنا مملكة.^(٢)

وزاد الذهبي: وكانت الروم إذا أقحطوا، كشفوا عن قبره، فأمطروا.^(٣)

ولقد أصبح مثوى أبي أيوب بعد الفتح الإسلامي للقسطنطينية معلماً كبيراً من معالم الإسلام، فهو بالنسبة لخلفاء بني عثمان اللواء الذي يرفعونه فوق رؤوسهم، ويلبسون تيجانهم في ظله، ويبداون خلافتهم في ساحته، ويأخذون العهد بنصرة الإسلام بمشهد منه، لأنه رمز الجهاد الإسلامي، والتضحية في سبيل المبدأ والعقيدة، والبداية الصحيحة للفتح الإسلامي الذي حققتها الدولة العثمانية بعد وفاة أبي أيوب بتسعة قرون تقريباً، وحتى بعد قيام الجمهورية في تركيا، مازال قبر أبي أيوب مزاراً ومشهداً ومفخرة لكل الترك، رغم سيطرة العلمانية، الأتاتركية.

(١) سُنْغ: أدخل.

(٢) أسد الغابة ٦ / ٢٥.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢ / ٤١٢.

وقد روى أبو أيوب أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، قال بعض الرواة: إنها بلغت مائة وخمسة وخمسين حديثاً، وكان رضى الله عنه لا يرويه إلا مطبقاً للناس ما أخذه من مدرسة رسول الله ﷺ، وسنذكر بعضاً من هذه التعاليم.

روى أثناء حرب الروم قرب القسطنطينية عن أبي عمران التجيبى، قال: صلى عقبة بن عامر صلاة المغرب، فأخربنا، ومعنا أبو أيوب الأنصارى، فقال له أبو أيوب: أتؤخر صلاة المغرب هذا التأخير، وأنت من أصحاب رسول الله ﷺ، فإراك من لم يصحبه، فيظن أنه وقتها؟. فسأل عمران أبا أيوب: فمتى وقتها؟. فقال: كنا نصليها حين تجب الشمس، نبادر بها طلوع النجوم.^(١)

وروى أنه كان في حرب ضد الروم، وخرج صف عظيم من الروم، وصف المسلمون صفاً عظيماً، فحمل رجل من المسلمين على الروم، ثم خرج إلينا - يقول الراوى - وصاح الناس: سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة. فقام أبو أيوب، فقال: أيها الناس، إنكم لتأولون هذه الآية على هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنه لما أعز الله دينه، وكثر ناصريه، قلنا فيما بيننا بعضنا لبعض سراً من دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، فلو أننا أقمنا فيها، فأصلحنا ما ضاع منها؟، فأنزل الله عز وجل في كتابه يرد علينا ما هممنا به: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فكانت التهلكة أن نقيم في الأموال ونصلحها، فأمرنا بالغزو.^(٢)

روى أبو أيوب بعض مواقف في حياته ﷺ تبين مدى تجاوب الوحي مع المؤمنين، وتجاوبهم معه، يقول أبو أيوب: - في بدر - أمرنا ﷺ أن نتعاضد، ففعلنا، فإذا نحن ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فأخبرنا رسول الله ﷺ بعدتنا، فسر بذلك، وحمد الله، وقال: عدة أصحاب طالوت.

ثم اجتمعنا مع القوم، فاصطففنا، فبدت منا بادرة، فقال ابن رواحة: يا رسول الله، إني أريد أن أشير عليك. ورسول الله أفضل مما يشار عليه، إن الله أجل من أن يشك في وعده، فقال: يا ابن رواحة، لا تشك في وعد الله، إن الله لا يخلف الميعاد. وأخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب، فرمى بها وجوه القوم، فانهزموا،

(١) فتوح مصر ٢٦٩. وتجب الشمس: تختفى.

(٢) فتوح مصر ٢٧٠.

فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، فقتلنا وأسرنا، فقال عمر بن الخطاب: لا يكون أسرى، إنما نحن داعون. فقلنا معشر الأنصار: إنما حمل عمر حسداً لنا. فنام ﷺ ثم استيقظ، فقال: ادع لي عمر. فدعى، فقال: إن الله قد أنزل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].^(١)

وقبل أن نختم ترجمتنا لأبي أيوب نذكر أن القرآن الكريم وافقه فيما قاله بمناسبة شيوع قالة الإفك عن السيدة عائشة رضي الله عنها، فقد ذكر ابن حجر ما دار بين أبي أيوب وزوجه، قال: كانت أم أيوب الأنصارية قالت لأبي أيوب: أما سمعت ما يتحدث به الناس؟. وحدثته بقول الإفك، فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانه، هذا بهتان عظيم. ونزل قوله تعالى في [سورة النور: ١٦]: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾.^(٢)

لقد عاش أبو أيوب فارساً غازياً، تصحبه أخلاق الفرسان من أول يوم دخل فيه الإسلام، حتى توفاه الله، ودفن تحت أسوار القسطنطينية عام ٥٠ للهجرة.

(١٧٩) أبو بردة الظفري الأوسى الأنصاري: اسمه كعب بن مالك بن الأوس، قال ابن سعد: شهد العقبة مع السبعين، وشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وكان معه راية بني حارثة يوم فتح مكة، توفي في خلافة معاوية بن أبي سفيان.^(٣)

كان يركب على راحلته ومصحف معلق مقدم الراحلة، وفي فتح مصر كان عمرو بن العاص يقدمه مع بقية الصحابة الأجلاء.

قال ابن الأثير: وفي عين شمس نادى عمرو بأصحاب النبي ﷺ، فأجابوه، فقال: تقدموا، فيكم ينصر الله المسلمين. فتقدموا، وفيهم أبو بردة وأبو برزة، وتبعهم الناس.^(٤)

(١) فتوح مصر ٢٦٩.

(٢) فتح الباري ١٨ / ٧٦.

(٣) الطبقات ٣ / ٤٥٢.

(٤) الكامل ٢ / ٢٠٦.

(١٨٠) أبو بصرة الغفاري: اسمه جميل، أو حُمَيْل، قال الأصبهاني: أبو بصرة الغفاري المحدث، واسمه حُمَيْل بن وقاص، هو أبو عزة التي كان ينسب إليها كثير.

روى عن رسول الله ﷺ أحاديث بلغت عشرة منها:

قال لنا رسول الله ﷺ - قبل فتح خيبر -: إنا راكبون غداً إن شاء الله إلى يهود، فإذا سلموا عليكم، فقولوا: وعليكم. (١)

وفي صلاة العصر قال أبو بصرة: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة العصر، فلما قضى صلاته، قال: هذه الصلاة عرضت على من كان قبلكم، فتوانوا فيها وتركوها، فمن صلاها منكم ضوعف له من أجرها ضعفين، ولا صلاة بعدها حتى يرى الشاهد.

وقال ﷺ أيضاً: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد مكة، ومسجدى هذا، ومسجد بيت المقدس.

ومنها أيضاً قوله عليه السلام: إن الله زادكم صلاة، فصلوها بين العشاء إلى صلاة الصبح: الوتر الوتر. (٢)

ومن طرائف حياة أبي بصرة ما قاله ابن سعد:.. صاحب النبي ﷺ كل من أبي بصرة وابنه بصرة وحفيده جميل، وعاش ثلاثتهم في مصر (٣)، وبعد أن شارك أبو بصرة في فتح مصر، اختط بها، وعاش فيها، حتى توفي، ودفن في سفح المقطم. (٤)

(١٨١) أبو ثور الفهمي: وقال السيوطي: أبونور. قال ابن الأثير: لا يعرف اسمه، ولكن له صحبة.

(١٨٢) أبو جمعة حبيب بن سباع الأنصاري الكناني: وقيل اسمه جنيد، وقيل جُنْد، شهد فتح مصر، واختط بها، ثم نزل الشام، وعاد إلى مصر.

(١) فتوح مصر ٢٨٤.

(٢) فتوح مصر ٢٨٤.

(٣) الطبقات ٧ / ٥٠٠.

(٤) جاء في بعض الروايات أن أبو بصرة هو جد عزة التي شُيِب بها كثير. وليس أباه.

قال ابن ربيع الجيزي: من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر. (١)

وقال ابن حجر: كان بالشام، ثم تحول إلى مصر.

وكان أبو جمعة قد صحب الرسول ﷺ بعد الأحزاب، وروى عنه قال: تغديت مع رسول الله ﷺ ومعه أبو عبيدة بن الجراح، فقال له: يا رسول الله هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك؟ قال: نعم قوم يجيئون من بعدى، يؤمنون بى ولم يرونى. (٢)

وروى كل من ابن عبد الحكم وابن حجر حديثاً رواه أبو جمعة، قال: أتى بثوب من معافر، فقال أبو سفيان: لعن الله هذا الثوب، ولعن من عمله. فقال ﷺ: لا تلعنهم، فإنهم منى، وأنا منهم.

وقال ﷺ أيضاً عنه: من غلّ إبلاً طوق حملها كما طوق أخفافها.

وقد ذكر أبو جمعة يوم أسلم، قال: قاتلت رسول الله أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً.. وفيما أنزلت: ﴿ولولا رجال مؤمنون...﴾ [الفتح: ٢٥].

ويعلق ابن حجر على قولهم (الأنصارى) لا يصح لأن الأنصار لم يبق منهم من يقاتل المسلمين مع قریش. (٣) ونقول: ربما كان أنصارياً بالحلف.

(١٨٣) أبو الدرداء عويمر بن عامر الأنصارى الخزرجى: تأخر إسلامه قليلاً، فشهد مع رسول الله ﷺ ما بعد أحد.

كان فقيهاً، عاقلاً، حكيماً، شجاعاً، قال ﷺ عنه: عويمر حكيم أمتى، وقال: نعم الفارس عويمر.

وقال عنه ابن سعد: جمع القرآن في زمان رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبى بن كعب، وأبو أيوب، وأبو الدرداء. (٤)

(١) الإصابة ٧ / ٦٦.

(٢) فتوح مصر ٢٨٤.

(٣) الإصابة ٧ / ٦٧.

(٤) شارك ثلاثة منهم في فتح مصر.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ أوصلها صاحب الأعلام إلى تسعة وتسعين حديثاً ومائة حديث.

قال أبو الدرداء يشجع الناس على قراءة شيء من القرآن كل يوم: أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن كل ليلة؟ قالوا: نحن أعجز من ذلك وأضعف. قال: فإن الله عز وجل جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل (قل هو الله أحد) جزءاً من أجزاء القرآن. (١)

وقد عاش أبو الدرداء في الشام بعد أن شارك في فتح مصر، وقد ولاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب القضاء على دمشق، فكان أول قاض لها، وذلك عام ٢٣ للهجرة، ولم يقتصر عمله في دمشق على القضاء فحسب، بل شارك في الأعمال الحربية، فقد خرج عام ٢٨ للهجرة في حملة فتح قبرص، وخرج معه عدد كبير من الصحابة منهم أبو أيوب وأبو ذر وعبادة بن الصامت.

وقد عاش أبو الدرداء في دمشق بعد ذلك حتى توفي عام ٣٢ للهجرة، ودفن بها في خلافة عثمان بن عفان.

وفي الإسكندرية ضريح ومسجد باسم أبي الدرداء، وتقول د. سعاد ماهر: وبرغم أن مرجعاً لم يذكر أن أبا الدرداء قد دفن في مصر، إلا أن أهل الإسكندرية يعتقدون اعتقاداً لا يقبل المناقشة أنه مدفون داخل ضريحه، ويبررون ذلك بكثرة الكرامات التي تحدث لهم.. ومهما يكن من أمر الكرامة، فإننا نقطع بأن الصحابي أبا الدرداء غير مدفون بالإسكندرية، وليس ما يمنع أن يكون ضريحه من أضرحة الرؤيا، وهي كثيرة منتشرة في مصر، وفي كل أنحاء العالم الإسلامي. (٢)

ومع أن أبا الدرداء كان شديد الصلاح والتقوى والإيمان والحكمة، فإنه ساعة وفاته كان خائفاً فزعاً باكياً، حتى سأله أم الدرداء: ألم نخبرنا بأنك تحب الموت؟ قال: بلى، وعزة ربي، ولكن نفسي لما استيقنت الموت كرهته. ثم بكى، وقال: لقنوني لا إله إلا الله. فلم يزل يرددّها حتى مات.

(١) أسد الغابة ٦ / ٩٧.

(٢) مساجد مصر وأولياؤها ١ / ٣٣.

ولم ينس وهو يعاني سكرات الموت، وفي اللحظات الأخيرة أن يعظ ابنه بلالاً، ويقول له: اعمل لمثل مصرع أبيك، واذكر مصرعك وساعتك.^(١)

(١٨٤) أبو ذرة البلوي: ذكره ابن حجر وابن الأثير عن ابن يونس فيمن لهم صحبة، وشهدوا فتح مصر، ولما اختط في القسطنطينية كتب عليه: هذه دار أبي ذرة البلوي صاحب رسول الله ﷺ. ^(٢) قاله ابن حجر.

(١٨٥) أبو ذر الغفاري (جندب بن جنادة): من كبار الصحابة وفضلائهم، قال عنه ابن حجر: الزاهد المشهور الصادق للهجة، أسلم قديماً ثم انصرف إلى أهله في اليمن حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فهاجر أبو ذر إليه، وذلك بعد بدر وأحد والخندق.

وكان أبو ذر لا يعبد الأصنام في الجاهلية، ويقول لا إله إلا الله، حتى إذا سمع بالنبي ﷺ، أسرع إليه وأعلن إسلامه، وعاش حياته كلها ملتزماً بقول رسول الله ﷺ له: اسمع وأطع ولو لعبد حبشي.

واختلف مرة مع الخليفة عثمان بن عفان، وارتفعت أصواتهما، ثم انصرف مبتسماً، فقال له الناس: مالك وأمير المؤمنين؟ قال: سامع مطيع، ولو أمرني أن أتى صنعاء أو عدن ثم استطعت أن أفعل لفعلت، فأمره عثمان بترك المدينة إلى الربرة على طريق مكة.^(٣)

وربما أكثر النبي ﷺ من تنبيه أبي ذر إلى السمع والطاعة للسلطان، لما لاحظ البناء النفسي له، وهو بناء قلق متمرّد، فكان ﷺ يَرُوضُ نفسيته، ويحاول أن يخلصها من روح التمرد، وقد التزم أبو ذر بذلك حتى آخر حياته.

وكان ﷺ محباً له، معجباً به، قال فيه يوماً: ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبي ذر، وفكر أبو ذر مرة في الإمارة، فقال: يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال أبو ذر: فضرب رسول الله ﷺ على منكبي، ثم قال: يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من

(١) أسد الغابة ٤ / ٣١٩.

(٢) الإصابة ٧ / ١٢١.

(٣) الطبقات ٤ / ٢٢٧.

أخذها بحقها، وأدى الذى عليه فيها.^(١)

لم يكن رسول الله ﷺ يقصد بكلمة (ضعيف) أنه ضعيف البنية، لأن أبا ذر كان طويلاً جسيماً، وإنما قصد بالضعف - فيما نحسب - عدم درايته بفنون السياسة، ونظم الحكم والإدارة.

وقد شارك أبو ذر في فتح مصر، واختط بها، وكانت داره بزقاق القناديل، قرب دار عمرو بن العاص، وسموها دار العُمد.

وعاش في الفسطاط حتى رأى مشهداً، فتذكر قوله لرسول الله ﷺ، فتركها إلى الشام، والمشهد الذى رآه هو اختلاف ابنى شرحبيل بن حسنة: عبد الرحمن وربيعه في جدار لهما، والحديث الذى تراءى له ساعتها قوله ﷺ: ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً، فإذا رأيتم أخوين يقتتلان في موضع لبنة، فاخرج.

وإن كان الليث بن سعد قد فسر هذا الحديث تفسيراً آخر غير ما رآه أبو ذر، وقال: لا أرى النبي ﷺ قال له ذلك إلا للذى كان من أمر أهل مصر في عثمان^(٢)، والله أعلم.

وعاش أبو ذر في الشام حتى اختلف مع واليها معاوية بن أبى سفيان، فخرج إلى المدينة، ومنها إلى الربذة^(٣)، وعاش فيها عيشة الكفاف حتى كان شهر ذى الحجة من عام ٣٢ للهجرة، وحضره الموت، وليس معه إلا امرأته و غلام.

ووصف ابن سعد هذا المشهد، فقال: ورأى امرأته تبكى، فقال: ما يبكيك؟ قالت: أبكى أنه لا يد لي بتغيبك، وليس عندي ثوب يسعك كفنًا. فقال: اغسلاني وكفناني وضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمر بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه.

فلما مات فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق، وأقبل عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق عُمَراً، فلم يرعهم إلا الجنازة على ظهر الطريق

(١) فتوح مصر ٢٨٦.

(٢) فتوح مصر ١٠٩.

(٣) من ضواحي المدينة.

قد كادت الإبل تطؤها، فقام إليه الغلام، فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه. فاستهل عبد الله يبكي، ويقول: صدق رسول الله ﷺ قال: تمشي وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك. ثم نزل هو وأصحابه وواروه. (١)

وزاد ابن حجر: ولما صلى عليه عبد الله بن مسعود، قدم المدينة، فمات بعده بقليل. (٢)

وقال الذهبي: ترك أبو ذر بنتاً له ضمها عثمان لعياله. (٣)

روى أبو ذر أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، بلغت عدتها في البخاري ومسلم وحدهما ٢٨١ حديثاً.

(١٨٦) أبو رافع القبطي (اسمه أسلم، وقيل إبراهيم، وقيل هرمز، وقيل يسار، وقيل سنان، وقيل صالح، وقيل قزمان) : كان مولى للعباس بن عبد المطلب، ووهبه للنبي ﷺ، فأعتقه وزوجه سلمى مولاته، أسلم قبل غزوة بدر ولم يشهدا، وشهد أحداً، وكان سبب عتقه أنه بشر النبي ﷺ بإسلام عمه العباس.

ولا يُعرف سر تسميته بالقبطي، فربما كان من مصر، ثم بيع في الحجاز، أو أن له صلة بشيء صنع في مصر، وإن كان الذهبي يؤكد أنه من قبط مصر.

وقد عاش أبو رافع في المدينة بعد مشاركته فتح مصر، وكان قد اختط بها بجوار عقبة بن نافع ومسلمة بن مخلد. (٤)

قال الذهبي: مات في خلافة عليّ، وقيل في عام ٤٠ للهجرة في الكوفة، روى أحاديث عدة عن رسول الله ﷺ.

(١٨٧) أبو الربداء البلوي (وقيل ابن الرمداء) : يقول ابن الأثير: أهل الحديث يقولونه بالميم، وأهل مصر يقولونه بالباء. (٥)

(١) الطبقات ٤ / ٢٣٥.

(٢) الإصابة ٧ / ١٣٠.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢ / ٩٣.

(٤) السابق ٢ / ١٦.

(٥) أسد الغابة ٦ / ١١٢.

_____ مصر في الإسلام _____

وسبب هذه التسمية ذكره ابن حجر، قال: إن أبا الرمداء مولى امرأة من بلى، يقال لها الرمداء بنت عمرو.

وقد لقي أبو الرمداء النبي ﷺ، قال ابن حجر: ذكر أن النبي ﷺ مر به وهو يرعى غنم مولاته، وله فيها شاتان، فاستسقاها، فحلب له شاتيه، ثم راح وقد حفلنا حلباً، فذكر ذلك لمولاته، فقالت: أنت حر. فاكتى بأبى الربداء.^(١)

قال ابن يونس: شهد فتح مصر، وكان ولده بمصر.^(٢)

روى أبو الربداء أحاديث عن رسول الله ﷺ منها أن رجلاً منهم - من بلى - شرب خمرأ، فأتوا به النبي ﷺ فضربه^(٣)، ثم شرب الثانية فضربه، ثم شرب الثالثة فأتوا به إليه، فما أدري أفي الثالثة أو الرابعة أمر به، فحمل على العجل، فوضع عليها، فضرب عنقه.^(٤)

(١٨٨) أبو ريحانة شمعون (أو سمعون) الأزدي (وقيل الدوسي): روى عن صحبته رسول الله ﷺ أنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فشكوت إليه ثقلت القرآن ومشقته عليّ، فقال: لا تحمل عليك ما لا تطيق، وعليك بالسجود.^(٥)

وكان يكثر السجود حتى قيل: إنه رجع من غزوة، فتعشى، ثم توضأ، وقام

إلى سجوده، فقرأ سورة، فلم يزل في مكانه حتى أذن المؤذن. يقول ابن حجر: فقالت له امرأته: يا أبا ريحانة، غزوت فتعبت، ثم قدمت، أفما كان لنا فيك نصيب؟ قال: بلى والله لو ذكرت لك كان لك حق عليّ. قالت: فما الذي شغلك؟ قال: التفكير فيما وصف الله في جنته ولذاتها حتى سمعت المؤذن.^(٦)

وقد عاش أبو ريحانة في بيت المقدس وعسقلان بعد أن شارك في فتح مصر.

(١) الإصابة ٣ / ٣٦١.

(٢) السابق.

(٣) حد الخمر أربعون جلدة.

(٤) الإصابة ٦ / ٦٤٠. والعجل: هي الأنطاع، أي: بساط الأديم يقام عليه الحد.

(٥) يقصد بالسجود: الصلاة.

(٦) الإصابة ٣ / ٣٦١.

(١٨٩) أبو زمعة البلوي عبید بن أرقم (أو آدم): بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة بيعة الرضوان، كان في فتح مصر، واختط بها، وعاش فيها، حتى خرج معاوية بن خديج لغزو إفريقية عام ٣٤ للهجرة، فخرج معه، وعندما أحس بالموت طلب ممن حوله أن يسووا قبره بالأرض، فدفن بالقرب من القيروان، في موضع معروف اليوم بالبلوية. روى عن رسول الله ﷺ.

(١٩٠) أبو الزهراء البلوي (وقيل الزعراء): قال ابن يونس: الصحابي أبو الزعراء شهد فتح مصر. (١)

(١٩١) أبو صرمة مالك بن قيس الأنصاري: شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، كان شاعراً حسناً، وروى عن رسول الله ﷺ أحاديث منها قوله ﷺ: من ضارّ، ضارّ الله به، ومن شاقّ، شاقّ الله عليه.

وقوله في إباحة رسول الله ﷺ منع الحمل: قال أبو صرمة: أصبنا سبائاً في غزوة بنى المصطلق، وكان منا من يريد أن يتخذ أهلاً، ومنا من يريد أن يستمتع ويبيع، فتراجعنا في العزل، فذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: لا عليكم أن تعزلوا، فإن الله عز وجل قدر ما هو خالق إلى يوم القيامة. (٢)

(١٩٢) أبو فاطمة عبد الله الضمري الأزدي (وقيل الليثي): اختط بمصر، وعاش فيها، وخرج مع عبد الله بن أبي سرح في غزوة ذات الصواري عام ٣٥ للهجرة.

وروى أحاديث عن رسول الله ﷺ منها: قال لي رسول الله ﷺ: يا أبا فاطمة أكثر من السجود، فإنه ليس مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه بها خطيئة. (٣)

وزاد ابن الأثير في رواية أبي فاطمة، قال: قلت: يا رسول الله، حدثني بعمل أستقيم عليه وأعمله. قال: عليك بالجهاد في سبيل الله، فإنه لا مثيل له. قال: قلت: يا رسول الله حدثني عن عمل أستقيم عليه وأعمله. قال: عليك بالسجود، فإنك

(١) أسد الغابة ٦ / ١٢٢.

(٢) أسد الغابة ٦ / ١٧٢.

(٣) فتوح مصر ٣٠٩.

لا تسجد لله سجدة، إلا رفعك بها درجة، وحط عنك بها خطيئة. (١)

وزاد ابن سعد: أكثر بعدى من السجود. (٢)

وكان أبو فاطمة كثير السجود حتى اسودت جبهته وركبته، وروى ابن حجر، قال: عن أبي فاطمة، قال ﷺ: عليك بالصوم، فإنه لا مثل له. (٣)

(١٩٣) أبو فاطمة كعب بن عاصم الأشعري (وقيل اسمه عبید الله، وقيل الحارث الأزدي): توفي في خلافة عمر، وربما كان هو السابق.

(١٩٤) أبو مسلم الغافقي: حضر فتح مصر، وبناء المسجد، ثم صار مؤذن عمرو ابن العاص، كان يبخر المسجد، ثم كان على شرطة عمرو، قاله ابن حجر وابن الأثير.

روى حديثاً عن رسول الله ﷺ قال: جاء رجل لرسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة؟ قال: أحية والدتك؟، فبرها فتكون قريباً منها. فقال: ليس لي والدة. قال: فأطعم الطعام، وأطب الكلام. (٤)

(١٩٥) أبو مكنف الخولاني: وفد على النبي ﷺ في وفد بني خولان، وكتب له كتاباً إلى معاذ بن جبل في اليمن، شارك في فتح مصر، وبعد الفتح عاش في الإسكندرية.

روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها قوله ﷺ: من افترى على كذباً، فليتبوأ بيئاً أو مقعداً من النار.

ومنها قوله: أكل رسول الله ﷺ طعاماً، ثم قال: استر على حتى اغتسل. فقلت: أكنت جنباً يا رسول الله؟ قال: نعم. فأخبرت بذلك عمر بن الخطاب، فجرني إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن هذا يزعم أنك أكلت وأنت جنب؟ فقال: نعم إذا توضأت أكلت وشربت ولا أقرأ ولا أصلي حتى أغتسل. (٥) وروى أيضاً: ليس

(١) أسد الغابة ٦ / ٢٤٤.

(٢) لطبقات ٧ / ٢٢٠.

(٣) الإصابة ٧ / ٣١٩.

(٤) أسد الغابة ٦ / ٣٢٠.

(٥) فتوح مصر ٣٠.

من البر الصيام في السفر. (١)

(١٩٦) أبو موسى مالك بن عباد الغافقي (وقيل اسمه عبد الله بن مالك): من حلفاء بني عبد الدار، بعد مشاركته في فتح مصر، ابتنى بيتاً ومسجداً سمي باسمه، عاش وتوفي بمصر عام ٥٨ للهجرة. قال عنه ابن عباس: خادم رسول الله ﷺ.



وبعد فهذه رحلتنا معك أيها القارئ الكريم، قدمنا من خلالها صورة شبه كاملة لوقائع الفتح الإسلامي لمصر: معاركه ومعالمه وولاته، وأبطاله، وكان ذلك بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً كاملة على دخول نور الإسلام إلى مصر، وتحقيق نبوءة النبي ﷺ حين أعلم أصحابه في المدينة: (ستفتح عليكم مصر)، وكان ﷺ في تلك اللحظة يرى صورة مصر في كتاب الغيب قلعة حصينة للإسلام، وأمة عظيمة في رباط من أجل دعوته إلى يوم القيامة، والحمد لله الذي جعلنا مسلمين من أمة مسلمة.

المراجع

- ١- أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، الأسحاقي المنوفى، المطبعة العثمانية سنة ١٣٠٤هـ، مصر.
- ٢- أحكام أهل الذمة، د. سيدة إسماعيل الكاشف، بحث ندوة المواردى، جامعة عين شمس.
- ٣- إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
- ٤- أسد الغابة، ابن الأثير الجزرى، دار الشعب، مصر.
- ٥- الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد على، مطبعة دار الكتب مصر.
- ٦- الإسلام الفاتح، د. حسين مؤنس، الزهراء للإعلام العربى، مصر.
- ٧- الإصابة فى تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلانى، نهضة مصر، مصر.
- ٨- أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، الزهراء للإعلام العربى، مصر.
- ٩- الأعلام، الزركلى، دار العلم للملايين، لبنان.
- ١٠- الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، وزارة الثقافة والإرشاد، مصر.
- ١١- إفحام اليهود، السموأل المغربى، دار الهداية، مصر.
- ١٢- الأقباط فى وطن متغير، د. غالى شكرى، دار الشروق، مصر.
- ١٣- أهم مساجد مصر، مجموعة علماء، مصلحة المساحة المصرية، سنة ١٩٤٨هـ.
- ١٤- الأوائل، أبو هلال العسكري، دار البشير، مصر.
- ١٥- أيام العرب، محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى البجاوى، عيسى البابى، مصر.
- ١٦- البداية والنهاية، ابن كثير، المعارف - بيروت.

١٧- بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ابن إياس الحنفى، الهيئة العامة للكتاب، مصر

١٨- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، المقرئى، عالم الكتب، القاهرة.

١٩ - البيان والتبيين، الجاحظ تحقيق عبدالسلام هارون، لجنة التأليف والترجمة، مصر.

٢٠- التاريخ الإسلامى، د. إبراهيم الشريقى، رابطة العالم الإسلامى مكة المكرمة.

٢١- تاريخ الإسلام السياسى والدينى، د. حسن إبراهيم، مكتبة نهضة مصر، مصر.

٢٢- تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبرى، دار المعارف، مصر.

٢٣- تاريخ اللغة العربية، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، مصر.

٢٤- التاريخ السياسى للدولة العربية، د. عبدالمنعم ماجد، مكتبة الأنجلو، مصر.

٢٥- تاريخ الأمم الإسلامية، الشيخ الخضرى، مطبعة الاستقامة، مصر.

٢٦- تاريخ الخلفاء، الإمام السيوطى، تحقيق د. رحاب خضر عكاوى، مؤسسة عز الدين، لبنان.

٢٧- تاريخ سيناء، نعوم بك شقير، مطبعة سانت كاترين، مصر.

٢٨- تاريخ تونس، حسن حسنى عبدالوهاب، الدار التونسية للنشر، تونس.

٢٩- تاريخ مصر من أقدم العصور، جيمس هنرى بروسند، ترجمة د. حسن كمال، مكتبة مدبولى، مصر.

٣٠- تاريخ مصر الحديث، جورجى زيدان، دار الهلال، مصر.

٣١- تاريخ عمرو بن العاص، د. حسن إبراهيم، مطبعة المعارف
سنة ١٩٢٦، مصر.

٣٢- تحفة الأشراف، الإمام المزي، بهبواندي، بونباي، الهند.

٣٣- تاريخ البصروي، علاء الدين البصروي الشافعي، دار المأمون، دمشق.

٣٤- تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين، عبدالله الشرفاوي،
المطبعة العثمانية، مصر، سنة ١٣٠٤هـ.

٣٥- التراتيب الإدارية، عبدالحى الكتانى، دار البيان العربى، بيروت.

٣٦- تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلانى، المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

٣٧- تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلانى، دار صادر، لبنان..

٣٨- الجغرافيا التاريخية الإسلامية، محمد أحمد حسونة بك، مطبعة لجنة البيان
العربى، مصر.

٣٩- حسن المحاضرة، جلال الدين السيوطى، وزارة الثقافة، مصر.

٤٠- حضارة العرب، جستاف ليبون، ترجمة عادل زعيتر، عيسى البابى الحلبي،
مصر.

٤١- الحضارة الإسلامية، سامى الياقى، العالم العربى، مصر.

٤٢- حوليات الإسلام، أحمد عطية الله، دار التراث، مصر.

٤٣- حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوى، دار التراث الاسلامى، بيروت.

٤٤- الخراج والنظم المالية، د. ضياء الدين الرئيس، مكتبة الأنجلو، مصر.

٤٥- الخطط التوفيقية، على باشا مبارك، مركز تحقيق التراث، مصر.

٤٦- الخطط والآثار، المقرئزى، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.

مصر في الإسلام

٤٧- دول العرب وعظماء الإسلام، أحمد شوقي، مطبعة مصر، سنة ١٩٣٣م، مصر.

٤٨- الديارات، أبو الحسن علي بن علي الشابشتي، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المثني، بغداد.

٤٩- الدين والنبوة في مصر قبل الإسلام، د. عبدالصبور شاهين وإصلاح الرفاعي، الزهراء للاعلام العربي، مصر.

٥٠- دير طور سيناء، أفا نجلوس بايا يواند، إصدار طور سيناء، مصر.

٥١- ديوان حافظ إبراهيم، الشاعر حافظ إبراهيم، محمد أمين دمج، بيروت.

٥٢- ديوان مجد الإسلام، أحمد محرم، مطبعة المدني، مصر

٥٣- الذخائر والتحف، الرشيد بن الزبير تحقيق محمد حميدالله، دائرة المطبوعات، الكويت.

٥٤- رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ترجمة د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة العامة للكتاب، مصر.

٥٥- رحلاتي إلى الديار الإسلامية، محمد محمود الصواف، دار القرآن الكريم، لبنان.

٥٦- رسائل الخلفاء الراشدين، د. محمد سليمان فرج، رسالة دكتوراه، الأزهر.

٥٧- الروض الأنف، أبو القاسم السهيلي، مطبعة عباس شقرون، مصر.

٥٨- سنن أبي داود، أبوداود السجستاني، دار الفكر، بيروت.

٥٩- سيرة ابن هشام، أبو محمد بن هشام، المكتبة المصرية التجارية، سنة ١٩٣٧م.

٦٠- السير والمغازي، ابن اسحق، تحقيق زهير زكار، دار الفكر - لبنان.

- ٦١- سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، سوريا.
- ٦٢- الشوقيات، أحمد شوقي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
- ٦٣- شذرات الذهب، ابن عماد الحنبلي، دار الفكر، لبنان.
- ٦٤- شرح حماسة أبي تمام للأعلم الشنتمري، تحقيق د. علي المفضل حمودان، دار الفكر المعاصر، لبنان.
- ٦٥- شمس العرب تسطع على الغرب، زيجريد هونكه، ترجمة فاروق ببيضون وكمال الدسوقي، دار الآفاق، لبنان.
- ٦٦- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القلقشندي، وزارة الثقافة، مصر.
- ٦٧- ضوء الساري في معرفة خبرتيم الداري، المقريزي تحقيق د. محمد عاشور، دار الاعتصام، مصر.
- ٦٨- الطبقات، ابن سعد، دار صادر، لبنان.
- ٦٩- عالم الإسلام، د. حسين مؤنس، الزهراء للاعلام العربي، مصر.
- ٧٠- العبر في خبر من ذهب، الحافظ الذهبي، المطبوعات والنشر، الكويت.
- ٧١- العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، لبنان.
- ٧٢- عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبدالرحمن الجبرتي، لجنة البيان العربي، مصر.
- ٧٣- عمرو بن العاص، عباس محمود العقاد، كتاب اليوم، مصر.
- ٧٤- عمرو بن العاص بن يدي التاريخ، عبدالخالق أبو رابية، الزهراء للاعلام العربي، مصر.
- ٧٥- عمرو بن العاص، عبدالسلام العشري، وزارة التعليم، مصر.

مصر في الإسلام

- ٧٦- عمرو بن العاص، محمد صبيح عبدالقادر، كتاب الشهر، مصر.
- ٧٧- عصر ما قبل الإسلام، محمد مبروك نافع، مكتبة النهضة المصرية، مصر.
- ٧٨- العقد الثمين، تقي الدين الفاسي المكي، مؤسسة الرسالة، لبنان.
- ٧٩- العقد الفريد، ابن عبدربه الأندلسي، دار الكتاب العربي، لبنان.
- ٨٠- العهد القديم والعهد الجديد، الجمعية الأمريكية سنة ١٨١٦، نيويورك، ترجم في لبنان.
- ٨١- عيون الأثر، ابن سيد الناس، دار الجيل، لبنان.
- ٨٢- فتح العرب لمصر، د. بتلر ترجمة محمد فريد أبوحديد، مطبعة دار الكتب، مصر.
- ٨٣- فتوح البلدان، البلاذري، دار ومكتبة الهلال، لبنان.
- ٨٤- فتوح مصر وأخبارها، ابن عبدالحكم، مكتبة المثنى بغداد.
- ٨٥- الفخرى في الآداب السلطانية، محمد بن علي بن طباطبا، مكتبة عز للتوريدات مصر.
- ٨٦- فوات الوفيات، محمد بن رشاد الكتبي، دار صادر، لبنان.
- ٨٧- في النظام المالي الإسلامي، د. محمد أحمد سراج، دار العروبة، الكويت.
- ٨٨- الفصل في الملل والنحل، ابن حزم، مطبعة صبيح، مصر.
- ٨٩- القاهرة، د. جمال حمدان، دار الهلال، مصر.
- ٩٠- قصة الحضارة، وول ديورانت وزوجته ترجمة محمد بدران، الإدارة التعاونية الثقافية، الرباط.
- ٩١- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار الكتب العلمية، لبنان.

- ٩٢- الكامل في اللغة والأدب، المبرد، مطبعة الاستقامة، مصر.
- ٩٣- الكنائس القبطية بالقاهرة، د. رؤوف حبيب، مكتبة المحبة، مصر.
- ٩٤- كنائس المشرق، د. عزت زكي، دار الثقافة، مصر.
- ٩٥- كنز العمال، علاء الدين البرهان فوري، مؤسسة الرسالة، لبنان.
- ٩٦- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت.
- ٩٧- مآثر الخلافة، القلقشندي، وزارة الإرشاد، مصر.
- ٩٨- مئتا عام على حملة المتأففين الفرنسيين، د. زينب عبدالعزيز، دار النهار، مصر.
- ٩٩- المحبر، أبو جعفر البغدادي، المكتب التجاري، بيروت.
- ١٠٠- مجمع الزوائد، الحافظ الهيثمي، مكتبة القدس، مصر.
- ١٠١- مختصر تاريخ الأمم، حسن أفندي فوزي، مطبعة المقتطف، سنة ١٨٩٢، مصر.
- ١٠٢- المدخل الشرقي لمصر، د. عباس عمار، المعهد الفرنسي، مصر.
- ١٠٣- المدخل الفقهي العام، د. مصطفى الزرقا، وزارة الأوقاف، الكويت.
- ١٠٤- مروج الذهب، المسعودي، دار الفكر، بيروت.
- ١٠٥- مساجد مصر وأولياؤها، د. سعاد ماهر، المجلس الأعلى للثقافة، مصر.
- ١٠٦- مصر في ظلال القرآن، عبدالحكيم محمد عوض، المؤلف - مصر.
- ١٠٧- معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، د. ناريمان عبدالكريم، الهيئة العامة للكتاب، مصر.

- ١٠٨- معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، د. إدوار غالى الذهبى، مكتبة غريب، مصر.
- ١٠٩- معجم البلدان، ياقوت الحموى، دار صادر، بيروت .
- ١١٠- المعجم الوسيط، مجموعة من العلماء، المجمع اللغوى، مصر.
- ١١١- الملل والنحل، الشهرستانى، مطبعة صبيح، مصر.
- ١١٢- موسوعة تاريخ مصر، أحمد حسين، دار الشعب، مصر.
- ١١٣- موسوعة التاريخ الإسلامى، د. أحمد شلبى، مكتبة نهضة مصر، مصر.
- ١١٤- الموسوعة العربية المسيرة، مجموعة علماء، دار الشعب، مصر.
- ١١٥- النجوم الزاهرة، ابن تغرى بردى، وزارة الثقافة، مصر.
- ١١٦- نسب قريش، المصعب الزبيرى علق عليه ليفى بروفسال، دار المعارف، مصر.
- ١١٧- النقود واستبدال العملات، د. على السالوس، دار الاعتصام، مصر.
- ١١٨- النكت الظراف، ابن حجر العسقلانى، بهواندى، بونباى، الهند.
- ١١٩- نهاية الأرب، شهاب الدين النويرى، دار الكتب، مصر.
- ١٢٠- نهر التاريخ الإسلامى، د. إبراهيم العدوى، دار الفكر العربى، مصر.
- ١٢١- النموذج المصرى للوحدة الوطنية، د. إدوار غالى الذهبى، الهيئة العامة للكتاب، مصر.
- ١٢٢- ورقات من الحضارة العربية، بافريقيا، حسن حسنى عبدالوهاب، مكتبة المنار، مصر.
- ١٢٣- وفيات الأعيان، ابن خلكان، دار الثقافة، لبنان.
- ١٢٤- وصف مصر، علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب، مكتبة مدبولى، مصر.

الفهرس

الصفحة

٧ مقدمة
١١ فصل الأول : الدين في مصر قبل الإسلام
٢١ الاسكندرية تحت الحكم الفارسي
٢٩ العرب في مصر قبل الفتح الإسلامي
٣٥ فصل الثاني : مصر في القرآن الكريم
٣٩ مصر على لسان الأنبياء
٤٢ مصر على لسان الصحابة
٤٧ فصل الثالث : رسالة الإسلام إلى مصر
٥٧ فصل الرابع : فتح الإسلام لمصر
٦٦ أول المعارك المصرية
٦٨ عمرو في بلبيس
٧١ معركة عين شمس
٧٤ حصن بابليون
٨٣ فصل الخامس : فتح الاسكندرية
٨٩ عمرو في الاسكندرية
١٠١ فصل السادس : فتوحات ما بعد الاسكندرية
١٠٨ نقض الروم عهد الاسكندرية
١١٥ فصل السابع : مكتبة الاسكندرية

١٢٧	الفصل الثامن : بناء العاصمة : القسطة
١٣٢	المسجد الجامع
١٣٤	منبر الجامع
١٣٥	تاريخ الجامع من بنائه حتى الآن
١٤٩	أهم من درس فى المسجد وأشهر من خطب
١٥١	الفصل التاسع : مدينة القسطة
١٥٨	منازل المسلمين بالجيزة
١٦٠	قبور المسلمين
١٦٢	خليج أمير المؤمنين
١٦٩	الفصل العاشر : نظام الحكم الإسلامى فى مصر (الجزية والخراج)
١٨٩	الأرض الزراعية فى شريعة الإسلام
١٩٤	علاقة الفاتحين بأصحاب الأرض
٢٠١	الفصل الحادى عشر : مقياس النيل
٢٠٦	عروس النيل وألوهيته
٢٠٩	الفصل الثانى عشر : النظام الإدارى والمالى فى مصر الإسلامية
٢١٣	العملة المتداولة
٢١٧	العربية فى مصر
	الفصل الثالث عشر : أمراء المسلمين من محرم سنة ٢١هـ :
٢٢١	محرم سنة ١٠١هـ
٢٨٣	الفصل الرابع عشر : الصحابة الفاتحون
٣٦٧	المراجع

هذا الكتاب

كان الفتح الإسلامى لمصر بداية تحرك الحضارة الإسلامية خارج قارة آسيا، إذ كانت الدعوة فى الجزيرة العربية التى قادتها إلى ما حوله من البلاد كالشام فى الشمال والعراق، وفارس فى الشرق، واليمن فى الجنوب، ودخلت مصر فى الإسلام بما تمثله من وزن حضارى ودينى ممتد فى أعماق التاريخ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن مصر كانت ولا زالت البوابة الكبرى لإفريقية، وكان دخول مصر فى الإسلام مقدمة لدخول إفريقية فى الإسلام بدأ بالزحف نحو شمال إفريقية وبلاد كثيرة فى غربها ووسطها.

ونظرًا إلى أهمية هذا الفتح الإسلامى لمصر وخطورته، فقد ركز أعداء الإسلام نقدهم بل وتهجمهم على هذا الفتح زاعمين أنه كان هجمة شرسة لفرض العقيدة بالسيف، وهى دعوى قديمة لا تزال أجيال المستشرقين وأشباههم ترددها.

وهذا الكتاب هو الإجابة العلمية والموضوعية على هذه الادعاءات، وهو كما سيرى القارئ - يمثل (بانوراما) الفتح الإسلامى بكل وقائعه وأحداثه وأمجاده، حتى يرى الناس صحابة محمد ﷺ وهم يحملون عقيدتهم فى قلوبهم، ويفيضونها على أرض مصر، علماء نفا وتعاملاً مثاليًا ودعوة إلى الله بالأسوة الحسنة والقدوة الطيبة، والحب، الذى غمر علاقات المصريين بالعقيدة ودينهم، فلم يلبثوا أن دخلوا فى دين الله أفواجًا، واعتز الإسلام بهم. كما بشر بذلك رسول الله ﷺ. فهم - كانوا وما زالوا فى رباط من أجل الإسلام إلى يوم القيامة.

وهذا الكتاب تنشره - دار قباء - بمناسبة مرور أربعة عشر قرنًا كاملة على الفتح الإسلامى لمصر.

أحمد غريب